

أدب الرحلات الأندلسية والمغربية

حتى نهاية القرن التاسع الهجري

د. نوال عبد الرحمن الشوابكة

تقديم
أ.د. صلاح جرار



أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري

د. نوال عبد الرحمن الشوابكة



دار المواقف للنشر والنق



مكتبة

الأراء الواردة في هذا الكتاب
لا تعبر عن رأي الجهة الداعمة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٧/٦/١٧٥٢)

٩١٠.٤

الشوايكة، نوال عبد الرحمن
أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى القرن التاسع الهجري/
نوال عبد الرحمن محمد الشوايكة. - عمان: وزارة الثقافة، ٢٠٠٧.
(٣٣٥) ص.
و. أ. : (٢٠٠٧ / ٦ / ١٧٤٠).
الواصفات: أدب الرحلات // الرحلات // التاريخ الإسلامي //
السفر // الرحالة

تم إعداد دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمع بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في
نطاق استناد المعلومات لو نقل بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.



دار المأمون للنشر والتوزيع

العبدلي - عمارة جوهرة القدس

تلفاكسي: ٤٤٥٧٥٧

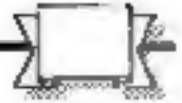
ص. ب. ٩٦٧٨-١ عمان ١١١٩٠ الأردن

E-mail: daralmamoun@maktoob.com

مُقَدِّمَةٌ

أمضى الأندلسيون نحو ثمانية قرون بين عدوين: عدو من أمامهم يتمثل بأوروبا، وعدو من خلفهم يتمثل بالبحر، وهما أول عدوين واجها طارق بن زياد وهو يعبر إلى الأندلس وأمام هذا الانقطاع وراء البحار والأخطار المتابعة التي كانت تهدد الوجود الإسلامي في الأندلس ظلت الروح الأندلسية تتوق إلى الشرق الإسلامي وإلى مهد الإسلام في مكة المكرمة والمدينة المنورة كي تستمد من هناك روح الصبر والصمود، وكان حُلُم أي أندلسي، عالماً كان أو غير عالم، لا يتعدى أداء الرحلة إلى الشرق، وزيارة قبر الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه، وأداء فريضة الحج، ولقاء العلماء في حواضر العالم الإسلامي كله والافتias من علمهم ومعارفهم، والتطواف بمنازل الأجداد.. فكان ذلك كله أهم عامل من عوامل كثرة الرحلات الأندلسية حتى بلغ تعدادها المئات من خلال ما نقلته لنا المصادر الأندلسية، وكان بعض الرحالة يكتفي بالزيارة وأخذ العلم، وكان بعضهم يضيف إلى ذلك تدوين ما شاهده، وما أخذ من أقطاب العلم في الشرق والمغرب. وقد خلف الأندلسيون لذلك عشرات كتب الرحلات ما زالت بعضها حبيس الخزائن وفقد كثير منها ووصلنا بعضها مثل رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة ورحلة ابن رشيد ورحلة القلصادي وغيرها كثير.

وعندما تصدّت الباحثة النشيطة نوال الشوابكة لاستقصاء هذه الرحلات ودراستها فإنها تكون بذلك قد وقعت على موضوع مهم جدير بالدراسة والبحث، لما تحمله هذه الرحلات من قيمة علمية ومعرفية جمّة، إذ تمثل هذه الرحلات جزءاً مهماً من التاريخ الاجتماعي للشعوب العربية والإسلامية وغيرها خلال مراحل تاريخية مختلفة، كما أنها تمثل وسيلة من وسائل التواصل الثقافي والفكري والتبادل العلمي المعرفي بين الشعوب، وقد أدّى الرحالة دور السفراء والممثلين لبلدانهم ومجتمعاتهم في البلدان التي زاروها أو نزلوها. كما أنّ هذه الرحلات تعكس مجالات اهتمام الأندلسيين وقراءاتهم الحضارية لما كانت تقع عليه عيونهم خلال هذه الرحلات.



والذي يطالع هذا الكتاب فإنه يقف على الجهد الذي بذلته الدكتورة الشوايكة في استقصاء الرحلات الأندلسية من مصادرها المختلفة، والوقت الذي استغرقت في قراءة هذه الرحلات وتفحصها ونقدها وبيان قيمتها وموضوعاتها وغرائب أخبارها، فضلاً عن اللغة السليمة الناصعة والرصينة التي استخدمتها في إعداد هذا الكتاب، كما بدت الباحثة في هذا الكتاب نقادة اجتماعية بالإضافة إلى نقدها الأدبي لنصوص الرحلات التي درستها، وكانت في نقدها الاجتماعي تملك عيناً فاحصة دقيقة الملاحظة، وبرزت شخصيتها واضحة في ما كانت تضيفه على قراءتها من أحكام وتعليقات علمية.

لقد كان هذا الكتاب في أصله رسالة دكتوراه أعدتها المؤلفة، وقد سعدت بالإشراف على تلك الرسالة لما وجدته لدى الباحثة من تعاون واستجابة وسرعة فهم واستيعاب وحرص على أن تكون رسالتها متميزة ونافعة.

وفي الختام أدعو لمؤلفة هذا الكتاب بالتوفيق الدائم والنجاح الموصول في أبحاثها ودراساتها المقبلة، والله ولي التوفيق.



المحتويات

المقدمة	٥
التمهيد	١٧
أ. بواعث الرحلة:	١٧
أولاً: الضرورة	٢١
ثانياً: العامل الديني	٢٦
ثالثاً: العامل الثقافي (طلب المعرفة)	٣٣
رابعاً: السفرة	٤٠
خامساً: العامل الاقتصادي	٤٦
سادساً: العامل السياحي	٥٠
سابعاً: العامل الشخصي	٥١
ب. أهمية الرحلة	٥٢
ج. من أبرز الرحلات	٥٥
- رحلة العذري	٥٥
- رحلة أبي عبيد البكري الأندلسي	٥٦
- رحلة الإدريسي	٥٦
- رحلة أبي حامد الغرناطي	٥٨



- رحلة بنيامين التطيلي ٦١
- رحلة ابن جبير ٦٢
- رحلة ابن سعيد المغربي ٦٤
- رحلة أبي محمد التجاني ٦٦
- رحلة ابن بطوطة ٦٦
- رحلة ابن الحاج الغرناطي ٦٨
- رحلة لسان الدين بن الخطيب ٦٨
- رحلة الشريف بابن خلدون ٧٠
- رحلة القلصادي ٧١
- رحلة أبي عصيدة البجائي ٧١
- رحلة صالح بن يزيد الرندي ٧٢
- الفصل الأول: السياقات المعرفية في الرحلات ٧٥
- ١. السياق الثقافي ٧٧
- أولاً: المراكز التعليمية ودور الكتب ٧٨
- ثانياً: اللغة والأدب ٩٥
- ثالثاً: النشاط الاقتصادي ١١١
- ١. الحاصلات الزراعية وموارد المياه ١١٣
- ب. المعادن والصناعات: ١٢١
- أولاً: صناعة المنسوجات الكتانية والحريرية والقطنية والصوفية ١٢٣

- ١٢٦ ----- ثانياً: صناعة السفن
- ١٢٨ ----- ثالثاً: صناعة الورق
- ١٢٩ ----- رابعاً: صناعة السكر
- ١٣٠ ----- خامساً: صناعة الأسلحة
- ١٣١ ----- سادساً: صناعات أخرى
- ١٣٣ ----- ج. التجارة ووسائل النقل :
- ١٣٦ ----- أولاً: الأسواق والسلع التجارية
- ١٤٢ ----- ثانياً: التنظيمات المالية
- ١٥١ ----- رابعاً: النشاط العمراني
- ١٥٩ ----- ب. السياق الاجتماعي والديني:
- ١٦٠ ----- أولاً: العادات والتقاليد والملابس
- ١٦٦ ----- ثانياً: الأطعمة والأشربة
- ١٦٨ ----- ثالثاً: صورة المرأة
- ١٧٢ ----- رابعاً: الأعياد والأعراس والاحتفالات الشعبية
- ١٧٧ ----- خامساً: صورة الآخر
- ١٨٥ ----- الفصل الثاني: الرحلات والتفاعل الثقافي
- ١٨٩ ----- أولاً: الحياة الاجتماعية والدينية:
- ١٨٩ ----- أ. المصاهرات
- ١٩١ ----- ب. الأعياد والاحتفالات



ج. الأطعمة والأزياء	١٩٥
د. الحج وزيارة الأماكن المقدسة	١٩٩
ثانياً: الحياة الثقافية والسياسية:	٢٠٥
أ. التأثيرات اللغوية والترجمة	٢٠٥
ب. السفارات والاستفادة من ثقافة الآخر	٢١٦
ج. الحياة الاقتصادية والنشاط العمراني	٢٢٣
الفصل الثالث: الرحلة والسيرة الذاتية	٢٢٩
أ. السيرة الذاتية المفهوم والنشأة	٢٣١
ب. مميزات كتابة السيرة الذاتية	٢٤٢
ج. علاقة الرحلة بأنماط كتابة السيرة	٢٤٣
الفصل الرابع، الدراسة الفنية لأدب الرحلات	٢٥٩
أولاً: الأسلوب واللغة والمنهج	٢٦٢
ثانياً: الوصف	٢٨٤
ثالثاً: البناء الفني، والسرد	٢٩٦
الخاتمة	٣١٧
المراجع	٣١٩



أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري

تقوم هذه الدراسة على تتبع الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، وتتبع السياقات المعرفية والثقافية التي تضمنتها الرحلات، كما تعنى بإبراز دور الرحلات في التفاعل الثقافي، وعلاقتها بالأشكال الأدبية الأخرى، وتحديد سماتها الفنية في ضوء ما يعززها. وجاءت الدراسة في تمهيد وأربعة فصول:

عرض التمهيد لتعريف الرحلة ونشأتها ودوافعها وأهميتها، ثم أشهر الرحالة ورحلاتهم، وإبراز الدور الذي قامت به في الحضارة العربية.

وتناول الفصل الأول، السياقات المعرفية والثقافية، والاجتماعية والدينية التي تفسرتها الرحلات، كما أبرز صورة المرأة وصورة الآخر في مختلف المجتمعات التي زارها الرحالة.

أما الفصل الثاني، فقد تناول الرحلات والتفاعل الثقافي وبين عوامل ذلك التفاعل، وصور التبادل والترابط بين مختلف العناصر والطوائف.

وعرض الفصل الثالث، لعلاقة الرحلة بأنماط كتابة السيرة الذاتية: اليومية، والمذكرات، والاعترافات.

وأفرد الفصل الرابع، لدراسة البناء الفني، والأساليب التي استخدمها الرحالة في وصف مشاهداتهم، والتعبير عن مشاعرهم، ودراسة البناء القصصي لبعض تلك الرحلات.

وقد توصلت الدراسة إلى نتائج من أهمها، ما يلي:



كان خروج الرحالة الأندلسيين ومغاربة أسامياً بلحج، وزياراً الأماكن المقدسة، وطيب العلم، فاشتهروا وداع صيتهم بما حققوا من علم، وما قاموا به من رحلات، فتأهلوا لشغل المنصب العلمية والدينية، وتصدروا عند عودتهم إلى موطنهم للتدريس وتولي لقضاء أو الكفاية لدى بعض أمراء الأندلس أو المغرب

رصدت الرحلات تنوع العالم الحضاري في مختلف الجوانب الحياتية في ابلدان التي قصدها الرحالة، وعكست صورة واضحة عن أحوال الشعوب، مآكلهم وشربهم، ولباسهم، وخصائصهم النفسية والبدنية، والعادات والتقاليد، وصادراتهم، ووارداتهم، وبنيتهم المعمارية، ولعن ما نقله الرحالة من أخبار ومشاهدات وأوصاف، مهد لنشوء علوم تبحث في الدراسات الاجتماعية

- مثلت بعض الرحلات سرداً، ذا طابع أدبي، مثل رحلات السفارات، أو اليوميات، أو المذكرات، أو السير الذاتية، حيث التفت هذه لأشكال عند وصف السفر، ولا تزال من موضع إلى آخر، وما تقع عليه أبصار الرحالة من مشاهدات، وما نقلوه من أخبار وحكايات تحمل جذوراً قصصية

- الكشف عن الانتماء إلى ثقافة الذات، والفهم بثقافة الآخر، والانفتاح عليه

دور الرحلات في التفاعل الثقافي، والتبادل والتداخل والترابط بين كل العناصر البشرية وثقافية في البلدان التي زارها الرحالة، وتبيّن مدى تفاعل الرحالة مع غيرهم في المجالس العلمية والمناظرات، والمعارصات الأدبية



مُقَدِّمَةٌ

عرف الإنسان الرحلة منذ ولادته، وكان في ارتحال دائم حسب الظروف ومتطلبات الحياة والشكيل الاجتماعي، واتسعت الرحلات على مر الزمان، فكان للعرب قبل الإسلام رحلتا الشتاء والصيف، وأما بعد الإسلام فقد فتحو على العالم رحلاتهم وتنقلاتهم وفتوحاتهم حتى عدت لرحلة مظهراً من مظاهر الحركة العلمية والثقافية في مختلف عصور التاريخ الإسلامي، فقدّم الرّحالة مساهمات واضحة في التراث العلمي والثقافي الإسلامي، حيث رصدوا أحوال الناس، ووصفوا بعين بصيرة ما يزورون من بلدان، ومن هنا كانت لخصوصية التي تتجسد في التواصل بين شرق العالم الإسلامي وغربه، مما يضفي عليه سمة الشمول، فقد نقل الرّحالة جوايب مضيئة تصف باندية أحياناً عن بلدان لمشرق والمغرب، لا سيما أنّ الأندلسيين كانوا أكثر شغفاً بالرحلة من غيرهم، الأمر الذي أتاح لهم أن يسجلوا انطباعاتهم، ويصفوا مشاهداتهم وينقلوها بصورة حية لناس

إنّ الرّحلات الأندلسية والمغربية كثيرة، غير أنّ ما وصلنا منها قليل، إذ لم نيسر بالإشارات الواردة في المصادر التي رصدت عظم الدور الذي قام به الرّحالة الأندلسيون والمغاربة، خدمة للعلم، وعربياً بالملاحم الإنسانية والثقافية والاجتماعية والجغرافية للأماكن التي حلّوا بها، فالرحلة تعكس النهضة والحضارة العربية، وهي إن جاب ذلك تقدّم لنا صورة للأحرار، تشير لنا لشعور بالمناخ والرعة بالتفوق

وعُدب لرحلات هذه، كلّ مادة خصبة للدراسة، فما ألجأه الرحالة والجغرافيون الأندلسيون والمغاربة جدير بأن يلقى الاهتمام، ويعاد البحث فيه، فعلى الرغم من الدراسات العديدة للرحلة، فإنّ هذه الجهود ما تزال بسيطة ومحدودة، فيما يخص الرحلة باعتبارها فناً أدبياً يحوي في أعماقه جذور البنية السردية القصصية في أدبنا العربي، ومحو الالتهام الثقافي التي تشكّل واقعاً للرحلة الأندلسية والمغربية للتوجه إلى الشرق، هذا



بالإضافة إلى العلاقة بين الرحلة والسيرة الذاتية، كما نجدتها عند من حلدون في التعريف ومن لرحلات، أيضاً، على سبيل المثال رحلة ابن جبير، وهي مكتوبة بشكل مذكرات يومية، فقد كان ابن جبير يسجل تاريخ دخوله أية مدينة وتاريخ خروجه منها باليوم ولشهر، وعلى الرغم من أن هذه الرحلة يغلب عليها الطابع الوصفي الجغرافي، فإنها قد كتبت بأسلوب أدبي رشيق ينم عن موهبة ابن جبير الأدبية.

ومنها أيضاً، رحلة ابن بطوطة التي تبرز تفاعله مع الأحداث، فصلاً عن الفائدة العلمية التي تزود القارئ بمعلومات عن طسعة بلاد التي زارها وأحوالها وطوائع وعدادات أهلها. لقد كان ابن بطوطة مدفوعاً بحب السفر والترحال، حيث قضى مسين طويلة من عمره متجولاً بين مدن العالم متحملاً في سبيل ذلك ألواناً من المشقة والصعاب.

ولأهمية الدور الذي قام به الرحالة، جاءت هذه الدراسة محاولة لاستيفاء بعض جوانب النقص في لدراسات السابقة، إذ لا توجد دراسة سابقة تصدت لأدب الرحلات بشكل تفصيلي، أو دراسة جامعة تكشف للقارئ والباحث عن السمات لعنية لها، ولأهم موضوعاتها، وأهميتها الأدبية والعلمية، فالدراسات التراثية السابقة كانت جزئية، افاقت في الحديث عن جانب وأوجرته عن آخر، متناثرة في طيات تلك لكتب، مثل نفح الطيب من غصن لأندلس الرطيب، للمقري، والإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، و ألمعرب في حلى لمقرب لابن سعيد لمعربي، وغيرها.

أما الدراسات الحديثة، فهي دراسات عامة، اهتمت بالرحلة، إلا أنها لا تمثل أكثر من محاولات محدودة، ومنها كتاب أدب الرحلة في التراث العربي لفؤاد قسديل، وفيه أبواب كثيرة، تحدث فيها عن تعاليد السفر وآداب الرحلة، وأفراد أنواعاً خاصة بالرحالة لعسرب، ورحلاتهم وفق الترتيب الزمني، وهو مع ذلك لم يقدم حديثاً مستفيضاً بل أوجز. ومنها أيضاً الرحلات المغربية والأندلسية لعواطف مواب، تحدثت فيه عن أنواع الرحلات، والخصائص العامة والخاصة لرحلات المغربية والأندلسية، وترجمت لمجموعة من لرحالة الأندلسيين والمغاربة، إلا أنها أولت اهتماماً كبيراً للمضمون المتعلق بالحجاز.

ومتناك دراسة لملي محسن مال الله بعنوان أدب الرحلات عند العرب في المشرق، نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري، ناقش فيها موضوعات الرحلات، ولتعريف بأصحابها، وأورد فصلاً لدراسة الأسلوب واللغة، إلا أنه دراسة سريعة لم يتبع فيها الباحث أدب الرحلات بالتفصيل، فجاءت إشارات عامة بحاجة إلى استقصاء وبحث يتم ما يتصور هذا النوع الأدبي من نقص في الدراسة

ومن الدراسات الحديثة العامة التي تضمنت إشارات تزيد «عبار الرحلة» فناً أدبياً قصصياً، كتاب الرحلات لندكور شوقي صف ومجموعة من الأدباء، وكتاب حسن فهيم أدب الرحلات

ويمكن القول، إن إناذتي من الدراسات السابقة، تركزت في الاطلاع على شأه الرحلة، وأنواعها، وموضوعاتها بشكل عام، إذ إنها لا تقدم صورة كاملة لهذا الأدب، ولأنه قد تمه الرحلة في الأندلس والمغرب جذير بالاهتمام، بحيث يلقي الضوء على غايات لرحلات، ويكشف عن أبعادها المختلفة وسياقاتها الفكرية والحضارية، ودورها في النماص الثقافي، وسماتها الفنية، وعلاقتها بالتقنيات الفنية الحديثة للعمل القصصي، جاءت هذه الدراسة للإحاطة بمختلف الجوانب التي غيظ النما عن الرحلات، من حيث هي فن أدبي له سماته وأساليبه، التي تشير إلى أساليب أدب الرحلات وسمات العصر والمجموعات، وعمدت العزم على أن أحاول لم شتات هذا البناء ودراسته دراسة تبرز الطاقة الأدبية والقصصية والإبداعية، وتنع المساحات الواسعة للعديد من القصصا اللغوية والنقدية، التي يمتلكها هذا الفن

ولعل من الصعوبات التي واجهت الدراسة، ندرة الدراسات التي تولى في الرحلات أدباً وفناً قصصياً، كما شكلت بعض الرحلات التي حُققت حديثاً صعوبة أعاق مسار رحتي قليلاً؛ لعدم توافرها في أثناء هذه الدراسة، إلى أن تمكنت من الحصول على بعضها أخيراً، ومنها رحلة أبي عصيد البجائي رسالة الغريب إلى الحبيب، تحقيق أبي القاسم سعد الله، أما رحلة عبد الله بن الصباح الأندلسي الموسومة بعنوان «تمشبات الأحيار وتذكرة الأحيار» فلم أستطع الوصول إليها، ولم أقف إلا على دراسة بسيطة نُشرت في



مجلة دراسات أندلسية للدكتور جمعة شبيحة، لدي أُلغني من خلال لاتصال الشخصي به، أن رحلة ابن الصباح مخطوطة كبيرة الحجم، موجودة في دار الكتب الوطنية بتونس، ولم يتم تحقيقها حتى الآن.

وقد بذلت جهدي في سبيل تجاوز تلك الصعوبات، بالدرس والاستنتاج بما توافر لي من مصادر عربية في التاريخ والأدب والتراجم واللغة، ومراجع حديثة، إضافة إلى نصوص الرحلات نفسها، وكُلّي أمل أن تسهم هذه الدراسة في إثراء المكتبة العربية، ويوسع معرفة لقراء أدب الرحلات الأندلسية والمغربية

أما المنهج الذي اتبعته الدراسة، فقد كان ينبع من طبيعة مادة البحث، حيث اعتمدت منهج تصغير المعارف، والدراسة معنية بالكشف عن نشاط الرحلة ودراسها خلال مدة زمنية محددة، والمنهج التاريخي ضرورة لا غنى عنها عند تتبع هذا الجواب

أما المنهج التحليلي الوصفي، فقد استخدم لرصد الظواهر المختلفة في الرحلات ونفسرها وتحليلها، لإدراك عناصر العمل الأدبي والقصصي.

وقد جاءت الدراسة في تمهيد وأربعة فصول :

ففي التمهيد، تناولت التعريف بالرحلة ونشأتها، ودوافعها وأهميتها، ثم أهم الرحالة ورحلاتهم، وإبراز الدور الذي قامت به في التعريف بالحضارة العربية

أما الفصل الأول، فقد عرضت فيه للسياقات الثقافية والمعرفية، والاجتماعية، ولدينية، وصورة المرأة، والآخر كما ظهرت في الرحلات.

وفي الفصل الثاني، بحثت أبعاد التفاعل الثقافي، ودور الرحلات في إبراز هذه الأبعاد وأثرها في مختلف السياقات الثقافية والمعرفية والاجتماعية والدينية

وخصصت الفصل الثالث، لدراسة علاقة الرحلة بأسيرة انذاقية، والمذكرات وليوميات، والكشف عن نقاط التلاقي والاختلاف بين هذه الأنواع الأدبية.



ونأول الفصل الرابع، دراسة جماليات التشكيل الفني لأدب الرحلات، في محاولة
لإثبات العلاقة بين الرحلة والقصة

وفي نهاية رحبتي هذه ، فإنّ كلّ ما توصل إليه البحث، لا أدعي ببوغه درجة
الكمال وخلوه من العلل، بل هو عمل قابل للزيادة والنقص في ضوء ما يستجد من آراء
وافكار وما يكتشف من مخطوطات وآثار، شأنه شأن أي عمل دراسي آخر، فإن أصبت
القصد من هذه الدراسة، ففضل الله أولاً وفضل أستاذي الدكتور صلاح جرارثانياً
الذي أشرف عليها، وبدل لي من وقته وجهده، وسدد خطاي على الدرب الصحيح، فلم
ألق عصا التسيار، وما حططت الرحى، وإن رأت قدمي فعذري أنني ما رلت طالبة علم،
والله من وراء القصد، يباه أسأل الهدي والوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين.

مَهْيَدٌ

كانت الرحلة مجالاً رحباً، ينطوي على علاقات إنسانية، صارية في جذور التاريخ السحيق هذا لكون، منذ المحاولات الأولى للكائن البشري في السيطرة على الطبيعة، وهي محاولات نرى فيها صوراً صادقة لحياة الإنسان القديم، وصفحات من جهاده، إذ يسمص عنه ثياب الذعة ويرتدي ثوب الارتمال والتجوال، ليمخر عباب البحار، ويتجشم أعظم المشاسق، ويسبر أخبار العرب والعجم، ويجمع التليد والطريف مما يمع عليه بصره من مشاهدات، ويسجل تراث أمة تشيد به صرح الحضارة

ومن خلال الرحلة، نرى العام، والعديد من مظاهر الحضارة الإنسانية، ونسافر مع الرحّالة، والإنسان رحّال بطبيعته، نوافي أبدأ إلى المعرفه و«رتياد المجهول، وحبّ الاكتشاف، فالرحلة هدف ينمّاه العقل وتسمى إليه الروح، ولكن ليس من رأى واحدت الأسعار من عمره، كمن قرأ أو سمع فقط

والرحلة بعد كل هذا فهي من المعلومات ما يتمتع بها كل باحث، وهي منابع عينة بمختلف مظاهر حياة المجتمعات البشرية بما فيها من صور وأحبار ومغامرات، ومعارف وعلوم، إنها حرائن تحمل بالمادة اشرية، لا في مجال الجغرافيا أو التاريخ وحسب، بل نلتم بالحضارة وتمثل تجربة تعكس صورة الإنسان عبر العصور

أ. بواعث الرحلة:

عرف العرب الرحلات منذ أزمنة قديمة تعود إلى ما قبل الإسلام حيث كانت حياتهم تقوم على الحِلّ والترحال، إذ لا يكاد يستقر بهم المقام في منطقة حتى يرحلوا عنها إلى أخرى بحثاً عن الكلا والماء، وقد أشار القرآن الكريم إلى رحلتي قريش التجارية في الشتاء والصيف إلى الشام واليمن ﴿إِلَى يَلَيْفٍ قُرَيْشٍ ۝ إِلَيْهِمْ رِحْلَةُ الْبَيْتِ وَالصَّيْفِ ۝﴾



هَلِصْدُ وَارْتَهَذَا الْيَتِيمَ (٢) أَلَدَيْتَ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (١) * (١) فضلاً عن الحركة الدائنة للرعي والصّد فقد مارس الإنسان الصّد و تطّرد منذ دهور محققة باحثاً عن قوته، أو مدايحاً عن نفسه، أو ناشداً الرّياضة والمتعة (٢) فطبيعة المجتمع البدويّ القائمة على النّفلة والرعي وحماية مواطن العيث، وما يتصل بذلك من حروب تقطع وشائج الدّم والخلف والحب، جعلت من الجاهليّ إنساناً عالقاً بالأرض في شؤون حياته جميعاً بما في ذلك الذّيب فكانت شؤونته الاقتصادية صورة عن علاقته بالأرض أو نتيجة لها، وكانت علاقته الاجتماعية مدورها مرهونة شؤونته لاقتصادية، وروحي منها ريماً رحلي وانتجع (٣).

وإلى جانب ذلك أصبحت الرّحلة عنصراً أساساً من عناصر القصيدة الجاهليّة (٤) ونحدثنا كتب الشعر الجاهليّ، وتراجم لشعراء عن رحلات بعض الشعراء داخل الجزيرة العربيّة أو خارجها، إلا أنّها لم تدوّن على نحو أدب الرّحلة كما عرفه، وإنّما وصلتنا ضمن مصامير الشعر الجاهليّ، أو ضمن تراجم بعض الشعراء (٥). وفي العديد من النصوص الجاهليّة نجد ذكراً للدّوّال المعترّة عن الرّحلة، يقول الأعشى (٦).

(١) سورة قريش. آية ١ - ٤.

(٢) الصالح، عباس مصطفى، (١٩٧٤) الصّد والطرد في الشعر العربيّ حتى نهاية القرن الثّاني الهجريّ، بيروت المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر، ص ١٤.

(٣) رومية وهب، (١٩٧٩) الرّحلة في القصيدة الجاهليّة، ط ٢، بيروت مؤسسة لرسالة، ص ١٩.

(٤) انظر رأي ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، (ب ٢٧٦هـ) في بية القصيدة الجاهليّة الشعر والشعراء، مطبعة بريل، طبع في مدينة لايدن، ١٩٠٢، ص ١٤-١٦.

(٥) صحراوي، عبد السلام، (١٩٨٧) أمّين الرّيحاني، الأدب الرحاليّ، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة دمشق، دمشق، ص ٢٧٧.

(٦) انظر ترجمته في، ديوان الأعشى، در صادر، بيروت، لبنان، ص ٥ - ٦، والأصهباني، أبو العرج، (ت ٣٥٦هـ). لأصهباني، دار الفكر، مج ٣، ج ١، ص ٧٤ - ٨٤.



كَأَنِّي وَزَخْلِي وَالْبَتَانُ^(١) وَنُفْرَقِي^٢ عَلَى ظَهْرِ طَاوٍ^(٣) أَسْفَعُ^(٤) أَخْتَمَا^(٥) ^(٦)
ويقول النبعة الديباني^(٧).

كَأَنِّي شَدَدْتُ الرُّحْلَ يَوْمَ تَشَدَّدْتُ^(٨) عَلَى قَارِحٍ^(٩) مِمَّا تُضْمِنُ عَائِلُ^(١٠) ^(١١)
وتكثر مثل هذه الإشارات في التصوص الحاهية الذاتية على حصر الرحلة
ومستلزماتها وأدواتها ومحيطها، وليس هذا مجال التعرض لها

(١) البتان: شيء يكون للرحل من آدم، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، (ت ٧١١هـ) لسان
العرب، دار صادر، بيروت. ٣٦١/١٢.

(٢) نمرقي الوصاد، المصدر نفسه. ٣٦١/١٠

(٣) طاوٍ بقصد الثور الوحشي، ديوان الأعشى، ص ١٨٧

(٤) أسفع الثور الوحشي الذي في حديه سواد يصرب إلى الحمرة قليلاً، انظر، ابن منظور، لسان
العرب: ١٥٧/٨

(٥) أختماً أم عرصة لأرصة، قبل الختم عبط الألف كلف، قبل عرصة في أمم الثور، انظر، المصدر
نفسه ١٦٥/١٢

(٦) ديوان الأعشى، ص ١٨٧

(٧) انظر ترجمته، ديوان النبعة، جمع وشرحه، ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر، الشركة التونسية
للتوزيع، والشركة الوطنية للشر، الخرات، ١٩٧٦، ص ١١، ٢٢، ولأصبهان، الأعاني ١٦٢/٩،
ولعدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ) خزانة لأدب وألأب لسان العرب، هي
بشره المطبعة السلفية ومكتبها، وإدارة الطباعة الخيرية، القاهرة، ١٩٢٨: ١١٦/٢

(٨) تشدوت تشدوت النشاط والسرعة في الأمر، وتشدوت الناقة إذا رأت رعي يسه، فحركت برأسها
مرحاً وقرحاً، انظر، ابن منظور، لسان العرب: ٣٩٩/٤

(٩) قارح العرس إذا تم منها، أو الناقة أول ما تحمل، انظر، المصدر نفسه ٥٥٩/٢ وفي ديوان النبعة
القارح هو حار وحش في قوة سنة، ص ١٨٥

(١٠) عائل اسم جبل يكثر فيه حر الرحش، انظر، ابن منظور، لسان العرب ٤٦٥/١١

(١١) ديوان النبعة، ص ١٨٥.



ومّا جاء الإسلام، وتوهّج نور الدعوة الإسلامية، أخذ المسلمون يجوبون البلاد، ويداحوا في أرجائها ومياديبها، جهاداً في سبيل الله وإعلاء لكرمه، ففاق العرب الأمم التي سبقتهم فيما حلّفوه من آثار في ميدان الرحلات، وساعدهم على ذلك تساع رقعة الدولة الإسلامية، فلقد كانت رحلة العرب المسلمين في فتوحاتهم الكبرى، من الرحلات الطامة التي امتدت لتشمل أصقاعاً واسعة من الأرض، ليكون بعد ذلك هذا الاتساع في حدود العالم الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية من أكبر الدواعي إلى إمتلاء نفوس المسلمين على اختلاف طبقاتهم بحبّ الأسفار إلى الأمصار وامتداد أنظارهم إلى الآفاق البعيدة، والتوغل فيها، وشنّ قلب الصحراء، الأمر الذي يؤكد الخبرة البرية والبحرية والجغرافية للعرب وغيرهم من الشعوب المجاورة التي أسلمت، إذ تتطلب إدارة شؤون البلدان والمناطق المفتوحة معرفة تامة لأحوالها المختلفة، وبالدلي، فقد كان دور المؤرخين ولكتاب وصف تلك المناطق والبلدان وروض المعاجم الخاصة بها

وقد أدكى لقرآن الكريم العزائم في مواطن مختلفة؛ ليحملها على فتحام القفار والبحار، والتوغل في الصحراء ولازئحال، ولاستطلاع للمعجائب، وكشف الخدي

يقول الله عز وجل داعياً إلى السير ولصّرب في جوانب الأرض ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَلَوْلَا فَاتَمُّوا فِي مَنَازِلِكُمْ وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾^(١) وقال تعالى ﴿قُلْ يَبْدَأُ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَطُّرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِّي الْمُكَذِّبِينَ﴾^(٢) وقال الله تعالى أيضاً ﴿وَلَهُ الْخَازِنُ الْغُثَّاءُ فِي الْبَحْرِ كَالْأُنْجُلِ﴾^(٣) وقد نشأت الحاجة كذلك إلى تدوين السّنة الشريفة، والرحلة من أجلها

وهكذا، فإن أغراض الرحلات تختلف باختلاف الأعراس الإنسانية، التي رادت بعد مجيء الإسلام الذي وسّع بدوره آفاق الرحلة العربية، وعدّد دوافعها، وبهذا بلغت

(١) سورة طه: الآية ١٥

(٢) سورة الروم: الآية ٤٤

(٣) سورة الرحمن: الآية ٢٤



الرحلات ذروتها وارتفع شأنها وقيمتها، خاصة خلال فترة الفتوحات الإسلامية وما تلاها من عصر الاستقرار والمعرفة والحصارة، مروراً بمرحلة الخصوع والاستسلام لمحتل قوي، وحسب مليئة بالقلق لسياسي وبشاطر علمي وأدبي على الصعيد الثقافي وقد كثرت لرحلات الأندلسية والعربية إلى المشرق، إذ يرى نقولا زيادة أن رحلة المغاربة إلى المشرق كانت على وجه العموم أكثر من رحلة المشاركة إلى الغرب، فمركز الجمع في المشرق ومدد العلم الأولى فيه، فكان من الطبيعي أن يزور المغاربة المشرق أكثر من زيارة المشاركة لبلادهم^(١) ولم تكن الرحلات مقتصورة على جانب واحد أو طريق واحد، وإنما كانت تتم بين المدن الأندلسية نفسها المعروفة بالنشاط العلمي والحركة الثقافية الواسعة مثل قرطبة، وإشبيلية، وبلنسية، وخارج الأندلس والعرب ويمكن أن توجز^(٢) أسباب رحلة المغاربة والأندلسيين في العواصم التالية:

أولاً: الضرورة:

عرف الإنسان الرحلة منذ أن عرف الحياة على الأرض، وحملته اليابسة، وارتبط بها واحتبها لما وعرنه له من أمن واستقرار. إلا أنه قد يتعرض لمعارض يدفعه لحجر وطنه فيغادره بحثاً عن الكلا والماء، وهرباً من مصيبة كظلم حاكم أو أمير، أو بأساً من المجتمع، وما قد حل به من حروب وبزعات محلية، وظروف اجتماعية فاسية، وويلات ونكبات.

(١) زيادة، نقولا، (١٩٦٢) الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت: مكتبة المدرسة ودار للكتاب

العلمي، ص ١٦٧

(٢) انظر، تقسيم لرحلات عند، لكاسي، محمد بن عثمان، الأندلس في فكاك الأسير، حققه وعنى

عليه، محمد لكاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٥، المقدمة، ص ١٥،

د، د، ر ونظر في تفصيل أسباب الرحلات عموماً، نصار، حسين، (١٩٩١) أدب الرحلة، ط ١،

الشركة المصرية العالية للنشر - لوليمان - مكتبة لبنان، ص ٤-٤٩، حيث يورد أسباباً عديدة، دينية،

وإقتصادية، واجتماعية، وعلمية، .. إلخ.



فانخرض أو اندفع لرحلة أبي بكر بن العربي^(١)، يبدو وضحاً من خلال مواضع متفرقة وردت في نصّ الرحلة في قنود التأويل، فدعت الصّورة إلى الرحلة، فخرجنا

(١) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري (٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ - ١١٤٨ م) ولد بإشبيلية، ولكن لم يلبث أب عادها إلى «شرق بعصية والده بعد روال دولة آل عباد، تلقى على يد الغرالي، ولقي أب بكر الطرطوشي في بيت المقدس، وتلقى العلم عليه، وسرع في الفقه والحديث والأدب، وقد سجل أبو بكر بن العربي أحداث رحلته في كتاب معروف ترتيب الرحلة للعريب في الملة، وقد وردت لإشارة إلى هذا الكتاب في كلام لابن العربي في نفح الطيب عند الحديث عن المائدة في القدس، حيث يقول: «وقد شرحت أمرها في كتاب ترتيب الرحلة بأكثر من هذا غير أن هذه الرحلة لم تصلنا، إنما وصلتنا بعض المقطعات منها في كتابيه أحكام القرآن وقانون التأويل، وهناك دراسة للدكتور عباس، إحسان، (١٩٨٦) عنوانها رحلة أبي بكر بن العربي كما صورها قانون التأويل، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة ٢١، العدد (١) ٤، ص ٦١ - ٩٢ وانظر ترجمة ابن العربي ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، (ت ٦٨٦ هـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢ ٤ - ٢٩٦ - ٢٩٧، وابن شكوكال، أبو القاسم حلف بن عبد الملك، (ت ٥٧٨ هـ) الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩ ٢ / ٥٩٠، وابن عماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحفيظ، (ت ١٠٨٩ هـ) جذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط ١، تحقيق مصطفى عبد القادر عطاء، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨ ٤ / ٢٠٨ - ٢٠٩، وابن حلقان، الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الأنسلمي، (ت ٥٦٩ هـ) مطمح الأمل وسرح الناس في ملح أهل الأنسلم، ط ١، تحقيق محمد علي شوابكة، دار عمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٩٧، والمفري، شهاب الدين أحمد بن محمد التناسي، (ت ٦٤١ هـ) أزهار الرياض في أخبار عياض، صدوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط ١٩٧٨ ٣ / ٨٦ - ٩٥، والمفري عن بعض المصادر في كتابه نفح طيب من غصن الأندلس الرطيب ط ١، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ ٢ / ٢٥ - ٤٣، وابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، (ت ٦٨٥ هـ) المغرب في حلى المغرب، ط ٣، تحقيق شوقي صيغ، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٥٣ - ١٩٥٥ ٢ / ٢١٩، وكرائسكوسكي أعماطوس يوليانوفس، (١٩٨٧) تاريخ الأدب المغربي العربي، نقل عن الروسية، صلاح الدين عثمان هاشم، ط ٢، بيروت، لبنان، دار العرب الإسلامي، ص ٣٢١ - ٣٢٢.



ولأعداء يشمتون بنا^١، فخرجنا مكرمين أو قل مكرهين^٢. وكلّ هذه العبارات تشير إلى أنّ الرّحلة كانت وسيلة للنجاة، عندما تغيّرت الأحوال في الأندلس بروال الدولة العبادية^٣.

ويبدو جلياً أنّ أبا بكر بن العربي، من خلال رحلته ترتب الرّحلة التي لم يعثر عليها حتى الآن، قد وضع حجر الأساس لأدب الرّحلات^٤، حيث استطاع أن يرسم مرحلة تطور العقلية الأندلسية شكلاً وروحاً على صفحات أسفار عظيمة، نصينا منها الآن الثر السير والإشارات الواردة في كتب التراجم، وقد صوّر مشاهداته في البلاد التي زارها، وذكر من لقيهم من العلماء والفقهاء والمحدثين في مصر والشام وبيت المقدس، فنعكس لك صورة الحركة العلمية في تلك البلاد.

وقد نقل حسين مؤنس خطبة أو رسالة لابن العربي من مخطوط صوّره محمود علي مكي من مكتبة القرويين في فاس، يقول فيها ابن العربي: ولما سؤ حير القضاء برحلي إلى تلك المشاهد الكريمة وحلولي في تلك المقامات العظيمة، دخلتها والعمر في صعوته، ولعصى مائس بأفئانه والكتاب محتوم... وافترقت من كلّ فنّ فقرة حسبما فسّرتة وأوضحت وشرحت وبيّنته، وقررت وبرتته في كتاب ترتيب الرحلة للترغيب في الله وذكرته فيه لقاء الأعيان لنساء وسير الفصلاء معاً ولحظهم لجائنا ساظر التّعظيم، ومقابلتهم... وأتبعناهم جملاً من طرائعهم...^(٥).

(١) ابن العربي، قانون التأويل، ط ٢، تحقيق محمد السليماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٠، ص ٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٣) عباس، إحسان، رحلة أبي بكر بن العربي كما صوّرها قانون التأويل، مجلة لأبحاث، السنة ٢١، العدد ١-٤، ص ٦١-٦١.

(٤) انظر، كراتشكوفسكي، تاريخ أدب الجغرافيا العربي، ص ٣٣١.

(٥) مؤنس، حسين، (١٩٦٧) تاريخ الجغرافية والحرمين في الأندلس، ط ١، مدريد معهد الدراسات الإسلامية، ص ٤٠٦، ٤٠٧.



وقد عانى بعض الأدباء الأندلسيين كثيرهم من ظروف أحاطت بهم، وأرغمتهم على معاداة البلاد مكرهين، وهم يحملون وطنهم في قلوبهم، حيث لا يغرب عن البال ما للظروف السياسية الداخلية والخارجية من أثر في إقامة شخصيات معرّية وأندلسية في المشرق، بل وحتى لبلاد المسيحية عبر العصور، فهذه الانقلابات والدماسيس والحروب والمؤامرات داخل الأسرة الواحدة، وبين أسرة حاكمة وأخرى تتطلع إلى الحكم، دفعتهم إلى الخروج من الديار، فالتؤمرات والسعيات التي دبرها أعداء لسان الدين بن الخطيب^(١) أتت أكلها، حين مجحوا في الإيقاع بين وبين مليكهم المعني بالله^(٢)، بعد ما كان بينهما من ودّ وصداقة، وبذلك لم يعد اللقاء في غرناطة آمناً وسط هد الجوّ المشحون بالتحامل والكراهة. ولذا يتوجّه ابن الخطيب إلى المغرب

(١) هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد التلمساني يكسب أباً عبد الله، ولسان الدين، وطارق الصيب، ولد في ثوشة قرب غرناطة ٧١٢هـ وتوفي في أوائل ٧٧٦هـ / ١٣١٣ - ١٣٧٤م، أسند إليه الخليفة المعني بالله الكتاب «الوزارة وسماء د الوردتين» انظر ترجمته ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨هـ) تاريخ بن خلدون، العبد وديوان المدا وتجرب في أيام العرب والبربر ومن حاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط ١، جريدة منفحة، تعليق تركي مرخان المصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٩، ٣١٩/٧. ٢٢٤، وابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، بدون ط، تحقيق محمد عبد الله حنان، دار المعارف، مصر، ١٩٥٥، ١ مقدمة المحقق، ٤٣٨/٤، ٤٥٧، ولقري، أزهار الرياض ١٨٦/١، ٣٢٠، وفي مواطن متفرقة من الأجزاء ٣، ٤، ولقري، فتح الطيب ٧ أجزء، وفي صفحات متفرقة وتاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٤٦٠، ٤٧٤، ٤٩٣

(٢) محمد الخامس بن يوسف الأول ولي الملك بعد أبيه، وكان عميف السعس انظر ترجمته، ابن الخطيب، الإحاطة ٢ ١٤ وما بعدها، وتاريخ ابن خلدون ٣٧٨/٧، ولقري، فتح الطيب. ٣٢١/١، ٤٥٢، ٥٠٧، ٥١٣، والأجزاء ٣، ٤، ٥، ٦، ٧ في صفحات متفرقة، واللازي، أحمد بن خالد الناصري، (ت ١٣١٥هـ) لاستغف لأخبار دول المغرب الأقصى، بدون ط، أشرف على الشر، محمد الحجي، إبراهيم أبو طالب، وأحمد التوميت، مشورات وزارة الثقافة والاتصال، المغرب، ٢٠٠١، ٤/١٨٢.

من ها يدرك أن الرّحلة ضرورية في حياة الأندلسي والمصري، فرضتها عليهما مساحة الأندلس ابومسعة، وبعدها الشامع عن المشرق، ونكالب الأعداء عليها، لاحتلاها، وتبعاً لذلك تعددت دواعي الرّحلة وأنواعها، وهذا ما أكدّه محمود سالم محمد في قوله "وكان لحين المغاربة وتشوّفهم للأماكن المقدّسة، لون خاص نبع من بعد بلادهم عن الحجاز، وما يتجشّمونه في الرّحلة إليها، فكان الوصول إلى الأماكن المقدّسة عندهم غاية الإدراك وأمنية الأماني^(١)

ولعلّ ما يجده من مشاهد الدواع والموضوعات لوجدانية -فيما يكتبه الأدباء- وثيق الصّلة بالإنسان الأندلسي الذي رحل عن وطنه، إذ تتجلّى في رحلاتهم معاني الاغتراب القاسية، واللحظات الفاصلة بين فرح اللقاء الطويل لمن تمكّن من العودة، ومرارة المراق المديد لمن قصى ما يبقى من حياته حالماً بالآيات

فقد ارتحل ابن سعيد لمصري^(٢) طلباً للعلم وبلحجّ إلى المشرق، ولكن هيهات أن تسبه الرّحلة الأندلس وأن يسلوها، فقد قل ولما قدمت مصر ولقاهرة أدركتني فيها

(١) محمد، سالم محمود، (١٩٨٧). المدائح النبوية في نهاية العصر المملوكي، رسالة دكتوراه، عبر مشورة، جامعة دمشق، ص ٢١٤

(٢) أبو الحسن عيسى بن موسى بن سعيد المصري (٦١٠هـ - ٦٧٣هـ / ١٢١٣ - ١٢٧٤م الأديب، والرحالة، الإخباري، العجيب الشأن في التجول في الأقطار، أخذ عن أعلام إشبيلية كآبي عيسى الشنوي، وأبي الحسن الدناج، وبواليعه كثيرة، منها لمقصات والطريات والمغرب في حُسْن العرب وشرق في حُسْن الشرق انظر ترجمته، ابن سعيد المصري، العرب ١/٢ ١٧٢ - ١٧٩، وابن عبد الملك لمراكشي، محمد بن عبد الملك لأنصاري، لأوسي، (ت ٧٠٢هـ) الدليل والنكحلة لكاتب الموصول والصلف، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥، المجلد الخامس، القسم الأول، ص ١١، والكُشي، محمد بن شاكِر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ) قِوَاب الوُصَايا، حققه وخصّطه وعلّق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة، مصر، ١٩٥١، ١/٢ ١٧٨ - ١٨١، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، (ت ٩١١هـ) نَجْم الوَعَاة في طَعَامَات اللُّغَوِيين والحَاة ط ٢، تحقيق محمد أبو الفصّل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٩، ٢/٢ ٢٠٩، والمصري، مصحح الطيّب ٢/٢ ٢٦٢ - ٢٩٢، والسلاوي الاستنساخ ٣/١٦٠، وبالنسبة لتخلّ جثالث، (١٩٥٥) تاريخ الفكر الأندلسي نقله عن الإنسانية، حسين مؤنس، ط ١ القاهرة مكتبة الهضبة المصرية، ص ١٣٥ - ١٣٦



وحشة، وأثر لي تدنر ما كنت أعهد به بجزيرة الأندلس من المواضع لمهجة، التي قطعت بها لعشر عصاً حصصاً وصحبت بها الزمان غلاماً ولست الشباب قشياً، فقلت^(١)

هذه مصر فأين المغرب ؟ ثم نأى عني ذموعي تسكيب
مع شمس طلعت في باطري ثم صارت في فؤادي ثروب
هذه حالي وأم حالي في درامصر ففكر فتعجب

فهو في غربته يحول رسم صورة لوطنه في مخيلته ليظل قريباً منه

ويمكن القول إن من أهم الأسباب التي أحبرت الأندلسيين على النزوح عن أرضهم، هي الفتن والحروب الداخلية والخارجية، فقد أصيب المجتمع بتموجات متحركة كدت أحياناً تخل من توارده، وبرك فيه آثاراً نفسية عميقة، وقد بدأ هذا الحلاء الذي يصرب على المستقرين بيد الشتات في حادثة الفتنة الأمازيغية أولاً، واسياح كثير من أهل قرطبة فراراً بأرواحهم في بواحي الأندلس المحتلة ثم تزايدت حركة الحلاء إثر سقوط بعض المدن في الحروب الداخلية، وكان على أشد الأحوال عندما تسفد مدينة في يد العدو الأجنبي^(٢).

ثانياً: العامل الديني:

يمثل هذا العامل السبب الرئيسي والأول لأغلبة المتوجهين إلى المشرق الإسلامي^(٣)، فهو العامل الذي يقضي بشد الرحال من كل حذب وصوب إلى الحجاز والأماكن المقدسة،

(١) القري صبح العلي ٨٢١/٢-٢٨٣، ومالكاً تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٣٦-١٣٧

(٢) صاس إحسان (١٩٦٢) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطيين، ط ١، بيروت، لبنان دار الثقافة، ص ٣٢

(٣) هناك إشارة لرحلة مخطوطة لمد الجيد بن علي الريادي المالكي، (ب ٢٠٩ هـ، ١٧٩٤ م) سماها (بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام)، وتوجد منها نسخة في المكتبة العامة بالرباط، رقم ١٨٠٨ د في ١٨٤ ورقة تضمنت نصيدة رالية في ١٢٩ بيتاً جامعة لمراحل الرحلة من مصر إلى مكة مع مناسك الحج عليها شرح اسمه انحاء المسكين التائب بيان المراحل والمناسك انظر، البيلوي، خالد بن عيسى، (ب ٧٦٥ هـ) تاج الخرق في فحلة علماء المشرق، بدون ط، تحقيق لحسن السائح، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، د.ت: ٧٦/١

لأداء فريضة الحج، لواجبة على المسلم ما لم يبقه عائق من ضعف أو قلة مال قال تعالى ﴿وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا لَا عِزَّ لَهُمْ وَلَا يَكُلُّونَ إِلَّا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُوقِنُونَ﴾^(١)

ويقضي هذه العائل أيضاً زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، والمزارات الدينية الأخرى، كالمسجد الأقصى أو لقلبتين، وثالث الحرمين وقبور الأنبياء والصحابية والأولياء، في كل من بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها، ويمتد هذا العائل من أقوى البواغث على الرحلة فهو مبعث الحنين في نفوس الأندلسيين والمغاربية على ارتياد البلد الحرام، فالحج من أهم الوشائج التي ربطت بين المشرق والمغرب، وعملت على توحيد لثقافة في سائر أنحاء البلاد الإسلامية، على الرغم من المسافات الشاسعة التي تفصلها عن الحجاز، ولم نستطع هذه المسافات أن تحول دون توجه الأندلسيين والمغاربية للحج وزيارة البقاع المقدسة، حيث يدفعهم الشوق إليها، وإلى منبتهم الأصلي في المشرق، فما أن يصل أحدهم هذه الديار حتى يقطع قلبه فوحاً وتفض مشاعره كسراً وإحلالاً، كما هو حال ابن جبير^(٢) حين شارب المدينة المنورة التي أصاء نور الإيمان عتمة الليل فيها

(١) سورة الحج الآية ٢٧

(٢) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكتاني البلسي، (٥٤٠هـ - ٦١٤هـ / ١١٤٥ - ١٢١٧م) كان أحد فرسان البلاغة يارعاً يلعب، شاعراً مجيد، قام بثلاث رحلات، وعن سبب رحلته الأولى فإن حاكم غرناطة أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن سمع بابن جبير فأمر أن ينضم إلى كتاب ديوانه، ولما جلس إليه أحبه وقربه، وكان يدعوه إلى مجلس شربه فيأبى أبو الحسن وفي إحدى المرات، طلب إليه الحاكم أن يشرب معهم، فاعتذر ابن جبير، فأقسم الأمير أن يشرب أبو الحسن سبعة كؤوس، فاضطر ابن جبير أن يشرب على مضض كأساً بعد كأس - وملاً له الأمير الكأس التي شرب بها بالذباير الذهبية، وأفرغها في حجره سبعا - ومع ذلك ظل ابن جبير عاصباً بسبب ما فعله، فقرر أن يمتق هذه الذباير عنى رحلة حج إلى بيت الله الحرام، فيجعلها كفارة شربه أمضى أكثر سنوات حياته متقللاً في الديار الإسلامية بين مكة وبيت المقدس والقاهرة إلى أن وافته المية بالإسكندرية انظر ترحته، المفري، صفح الطيب ٣٨١/٢ - ٣٨٨، والتجبي، القاسم من يوسف، (ب ٧٣٠هـ) مستمد الرحلة والاعتراف، تحقيق عبد الحفيظ منصور، دار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧٥، ص ٢٤٣، وابن سعيد المغربي، المغرب ٣٨٣/٢، وكراشكوفسكي، تاريخ الأدب المغربي العربي، ص ٣٣٥، الأنصاري، حد القدوس، (١٩٧٧) مع ابن جبير في رحلته، بدون ط، القاهرة المطبعة العربية الحديثة، ص ١٦.



أَقُولُ وَأَنْتَ بِالنَّيْلِ نَارٌ لَعَنَ سِرَاحَ الْهُدَى قَدْ أَثَارَا^(١)

ويصف ابن جبير رحلته الطويلة الشاقة إلى هذه النيار المباركة:

إِلَيْكَ إِلَيْكَ نَيْيَ لُـدَى رَكِبْتُ الْبَحَارَ وَجِئْتُ الْبَقْفَارَا

وَفَارَقْتُ أَهْلِي وَلَا مَنَّةَ وَرُبَّ كَلَامٍ يَجْرُ أَخْذَارَا^(٢)

فقد كان أساس خروج ابن جبير ورحلته إلى المشرق، أداء فريضة الحج، فخرج وسمع من بعض علماء الشام ثم عاد إلى المغرب، وكان به أكثر من رحلة إلى المشرق.

أما المبدري^(٣)، صاحب الرحلة المغربية، -وهي رحلة حجازية قيسية، تسمّى بأهلها تَمَّتْ عِبْرَ الْبَرِّ-، فلم يركب البحر كما فعل غيره من الرحالة، وهذا يعطيا صورة حية عن قوافل الحجّ ابرية، وكيف كانت مسير عبر الطريق والمحطات التي كست على امتداد الطريق، ويتوقف فيها الركب طلباً للراحة، أو للتردد بالماء والمزّن، كما وصف البلاد التي

(١) ابن الخطيب، الإحاطة ٢/ ٢٢٥.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٢٣٦.

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود المبدري، حاد الطبع، وقوي الشخصية، أصنفه من بلنسية، وكان من سكان حاحة الواقعة على شاطئ المحيط الأطلسي في المغرب الأقصى، وكان حروجه من ملاده سنة ٦٨٨ هـ فمرّ على مظفة سوس قاطعاً الجيوب المغربي من المغرب إلى الشرق إلى تلمسان، وبونس، والقبروان، ثم فاس، وطرابلس، وبرقة وإسكندرية، ثم القاهرة ومنها قصد مكة المكرمة لقضاء فريضة الحجّ، وبوحن بعد ذلك إلى المدينة المنورة ثم مدينة الخليل وبيت المقدس، ومنها إلى القاهرة، ثم شرع في الرجوع إلى ملاده عن طريق تونس والمغرب، ووصل إلى مدينة تار في فاس، ثم رحل منها إلى أن وصل إلى مديّة لزموور ثم إلى مديّة اسمي لا يعرف ميلاده، وتوفي نحو (٧٠٠هـ) وقد نشر رحلته في المغرب عام ١٩٦٨م بمقدمة لمحمد القاسي انظر ترجمته، المقرئ، صحح الطيب ٢/ ٤٨٣، ٥٨٩، وأورد كسي، حير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بدون ط، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٤ ٧/ ٣٢، وبالنسبة، تاريخ الفكر الأندلسي من ٣١٨، وكراشكوسكي، تاريخ الأدب المغربي العربي، ص ٩٣٧.



مرّ بها موضعاً الحالة الاجتماعية والعلمية والثقافية السائدة في تلك البلدان في القرن السابع الهجري

ويذكر ابن بطوطة^(١) في فاتحة رحلته سبب خروجه من وطنه إلى المشرق كان خروجه من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين ومبعمائة، معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام^(٢)

ولعلّ هذا العامل ينطوي على عامل نفسي، نلحظه في شدة تعلق الأندلسيين ولعابه بزيارة الأماكن المقدسة والمجاورة بها، إلى أن تحضرهم الوفاة، فيدفنون في أرض طيبة بجوار لصحابة والتابعين وأرض الأنبياء، فأبو عصيد البيهقي^(٣) في رحلته المسماة

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الدواني الطنجي (٧٠٣هـ - ٧٧٩هـ / ١٣٠٤-١٣٧٤م) تنسب أسرته إلى قبلة كواته وهو رخالة مؤرخ، ولد وشأ في طنجة بالقرب الأصبى، وطاف مختلف البلاد وانصل بكثير من الملوك والأمراء، وعاد إلى المغرب فانقطع إلى السطان أبي عنان من موك بني مرين، فأقام في بلاده ترجمت رحلته إلى لغات عديدة منها: البرتغالية والفرنسية والإنجليزية، ومات في مراكش انظر ترجمته، مقدمة ابن خلدون ١٤٣-١٤٤، والمركزي، الأعلام ٦/ ٢٣٥-٢٣٦، وكراشكوفسكي، تاريخ الأدب المغربي العربي، ص ١٥٦-١٧٧.

(٢) رحله ابن بطوطة «سماه تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» تحقيق دوريش الجويني، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠٤-٢٠/١.

(٣) أبو عصيد أحمد بن أحمد البيهقي النشأ والدار، الفساني الأصبى (ت ٨٦٥هـ)، عاش في القرن التاسع الهجري في الجزائر وتونس أثناء العهد الحفصي، وكان زاهداً في الدنيا، ولم يشر على ترجمة له في كتب التراجم سوى السدة أبي ساقها أبو عصيد منه في رسالته إلى صديقه أبي الفضل المشد بي، انظر ترجمته، رساله العريب إلى الحبيب، ط ١، عرقها وعلق عليها أبو القاسم سعد الله، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٣، ص ١٨-٢٥.



رسالة الغريب إلى الحبيب، نَحْده وقد حَقَّق ما كان يصبو إليه نزوله بالحجار، وبالمجاورة في الحرم المدني، وأنه حقق الرَّاحة النَّفسية وطمشان الباب، وقصى أرقاته في التدريس^(١).

التدريس^(٢)

ومن اللافت للانتباه أنَّ بعض الرُّحالة اتَّحد رحلته الحجاجية لعاية الوعظ و لتعلم، فالرحلات أكثر المدارس تنقياً للإنسان وإغناء لفكره، وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين، مهما اختلفت دوافعها وتيتت وسائل التفر وتنوعت مآدتها فعند الله بن نصيباح الأندلسي^(٣)، يسرد أخبار رحلاته في رحلته المسماة مشاب^(٤) للمسلمين الذين بقوا في الأندلس بعد سقوطها في يد النصارى (الإسبان)، فالتعريف بأرض

(١) انظر، رسالة الغريب إلى الحبيب، ص ٥٦، دراسة أبي القاسم سعد الله، ١٩٩٠) رحلة أبي عصيد البجلي من بجاية إلى الحجار، مجلة العرب ج(٩٠)، ص ٦٢٣-٦٢٧

(٢) لم يشر على ترجمة له في كتب التراجم، ويقول جماعة شيعة في بحث له يسمون بعض الظاهر الدينية في رحلة عبد الله بن الصباح الأندلسي إنه لم يجد ذكراً له في كتب التراجم لأنه لا يثبت في طبقة العلماء أو الفقهاء أو الأدباء، وكل ما نعرفه مقتبس من رحلته، فهو من سكان المري، واستمر في الإقامة بها حتى سقوطها في يد فرديناند الأرسوبي سنة ٨٩٥هـ وهو ينتمي إلى قبيلة عربية قحطانية من الجنوب، هي قبيلة الصباحين ليمانية، وهي إحدى القبائل التي دخلت لأندلس عند فتحها في نهاية القرن (١) هـ، انظر، مجلة دراسات أندلسية، العدد (١٢)، ص ٢٥.

(٣) بين ك من خلال المراسل مع الكاتب جماعة شيعة أن الرحلة مخطوطة موجودة في المكتبة الوطنية بتونس، ولا تتوفر عنها سوى ما ورد في المرجع السابق، حيث يذكر جمعة شيعة أنه قد بدأ في تحفيها منذ عام ١٩٩٤م، وهي رحلة جعلها ابن الصباح يسميها مشاب والأخبار وذكره الأخبار ويقول كلمة مشاب من شيب يشب وشب وشبه الشيء في الشيء أي ملئ والصيغ التي جاءت عليه الكلمة صيغة مبالغة معان لقد قصد المؤلف أن تكون رحلته كالآلة التي يعلو بها كل شيء، وبالسالي نلتقط كل الأخبار، وقد أملاها من ذاكرته، وهو بين المتين والسبعين من عمره، وقد ضعف بصره، ويرجح أنه قام بهذه الرحلة في أواخر النصف الأول من القرن التاسع الهجري، وبداية النصف الثاني منه بالاعتماد على العاية من الرحلة، والاعتماد على بعض أسماء السلاطين لأتراك كمراد الثاني (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥٢م) وأسماء بعض العلماء كعبد الله البلقيني (ت ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م) انظر،



الإسلام المتزامنة لأطراف لتعريف لروح الدينية في نفوس المدجنين بالأندلس. غاية قصد المؤلف بلوغها، لذا فقد عمد صاحب الرحلة إلى التأكيد على بعض المظاهر الدينية، لتعجيد الإسلام وتعريفه في نفوس أهله من (المدجنين) ^(١) باتباع منهج تلقيني تعليمي، يظهر من خلال كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية والسنة النبوية، والتذكير بواجبات المسلم الدينية كالصلاة والركاة والحج، وكان ابن الصّباح أثناء وصفه لرحلته يتعرض إلى بعض القضايا الدينية، ومن هذه القضايا قضية الجهاد والعبادة، أيهما أنضل ؟ وقضية بقاء المسلم تحت حكم لنصارى بالأندلس . . . ^(٢)

وتبدو النزعة التعصّبية في رحلة ابن الصّباح من الصور التي رسمها للأماكن المقدسة مكة المكرمة، ومسجد الرسول بالمدينة، والمسجد الأقصى بيت المقدس، وحرم الخليل، ولا تخلو الرحلة من فوائد كثيرة تتعلق بالعمارة والاقتصاد، وتقدم لنا كذلك صورة عن المستوى الثقافي السائد في لقرن التاسع الهجري.

ويبرز حضور المكان المقدس، كذلك، في رحلة محيي الدين بن عربي ^(٣)، التي يصف فيها رحلته الوحيدة وحروجه من الأندلس قصداً ببيت المقدس، فيقول "وقال السالك

(١) هم الأندلسيون الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي بعد سقوط ملتهم، وكذلك الأسرى المسلمين والبايا الأندلسيات في قصور ملوك وإنبلاء الأوروبيين. انظر: ابن الخطيب، الإحاطة ١٤٠/٢، وأعمال الأعلام في من موقع قل الاحلام من ملوك الإسلام، ط ٢، تحقيق إ. عبيد برويسال، دار المكشوف، بيروت، ص ٢٢١، والمقري، فتح الطب ٢٩٠/١ - ٢٩٨.

(٢) انظر، شيعه، جمع، بعض المظاهر الدينية في رحلة عبد الله بن الصّباح الأندلسي، مجلة دراسات، العدد (١٢)، ص ٢٧-٢٩.

(٣) هو محيي الدين بن عربي، محمد بن علي بن عبد الله ولد في قرطبة سنة ٥٦٠ هـ، ويحتمد نسبه إلى قبيلة حاتم لطائي من مؤلفاته الفتوحات المكية ونصوص الحكم وديوان شعره ترجمان الأشواق. ارتحل إلى المشرق ودخل مصر، وأقام بالحجاز مدة، ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم، ومات بدمشق سنة ٦٣٨ هـ. ولم يقدم الدراسات صورته جلية واضحة شافية عن رحلة ابن عربي، غير أن هناك إشارات لابن عربي عنها أثبتت في معراجة الموسم بكتاب الإسراء إلى مقام الأسرى ضمن رسائل ابن عربي، وإشارات أخرى له عن رحلته في كتابه الفتوحات المكية انظر، ترجمته، ابن الأثير، النكحلة، ص ٦٥٢، وشذرات الذهب ١٩٠/٥ - ٢٠٢، والمقري، فتح الطب ١٦١، ٢ - ١٧٠، وبلاطوس، أسير، (١٩٧٩) ابن عربي حياته ومذهبه، ترجمه عن الأسباني، عبد الرحمن بدوي، الكويت، بيروت وكالة المطبوعات، ودار القلم، ص ٥.



خرجت من بلاد الأندلس أريد بيت المقدس، وقد اتخذت الإسلام جواداً، والمجاهدة مهاداً، والتوكل راداً^(١)، ويشير ابن عربي إلى غايته من رحلته إلى بيت المقدس فقال السالك وسرت على سواء الطريق، أبحث عن أهل الوجود والتحقيق، رجاء أن أتبرر في صدر ذلك الفريق ..^(٢)

والقدس بعد ذلك رمر الارتواء عند ابن عربي، إذ يقول

فعاينتُ منْ علمِ الثُّيُوبِ عجائبا نُصَانُ عَنْ التَّذْكَارِ فِي رَأْيٍ مِنْ وَعْيِ
ومنْ قائمٍ بالحُلِّ فِي بَيْتِ مُقَدِّسٍ فلا نَفْسُهُ نَظْمًا وَلا مَبْرَهُ ارْتَوَى^(٣)

أما مكة المكرمة، فقد ختم ابن عربي رحلته بها، وكان كتابه الفتوحات المكية تنويهاً لرحلته إلى القدس، وتأكيداً على قيامه بتلك الرحلة، إذ يقول فإني وصلت أم القرى، بعد زيارتي الخليل لذي من القرى^(٤)

ويبدو جلياً أن رحلة ابن عربي لم تكن مجرد رحلة، بل جاءت سياحة صوفية ورحلة بحث وكشف عن أهل الوجود والتحقيق، وهم كبار المتصرفين الذين أفتوا حياتهم في العرف^(٥). وكان سفره، سراً في الحق جلّ وعلا، بقوة إلهية لا يدركها العقل، وفي ذلك يقول وأما المسافرون فيه فطافتان، طائفة سافرت فيه بأفكارها وعقولها، فصلت عن الطريق وهم الفلاسفة، ومن تحا نحوهم، وطائفة سافرت بها فيه وهم الرسل والأنبياء ولصطفون من الأولياء كالحققين من رجال الصوفية ..^(٦)

(١) كتاب الإسراء إلى مقام لأسرى، ضمن رسائل ابن عربي، مطبعة دائرة المعارف لعمانية، حيدر آباد، ج ١، ١٩١٨، ٣ / ١

(٢) المصدر نفسه، ٣ / ١

(٣) المصدر نفسه، ٤٦ / ١.

(٤) الفتوحات المكية، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، ١ ٤٣

(٥) انظر، بلاثيوس آسين ابن عربي حياته ومذهبه من ٦٢، ٦٣، ٦٦، ٦٩

(٦) كتاب الإسفار من نتائج الأسفار، ضمن رسائل ابن عربي ٧ / ٢.



وقد استطاع ابن عربي، من خلال رحلته، أن يقدم خطاباً بالمعرفة الصوفية، وكثيراً من الحواريات المعرفية والأدبية للمشرق الإسلامي، ونصاً مفتوحاً لم يعلق^(٢٢) وكذلك جاءت رحلة أبي مروان النحاسي^(٢٣)، رحلة بحث وكشف للحقيقة، وقد درّنها تلميذه النشائي^(٢٤) الذي رافقه مراحلها، حيث تحدّث عن سلوك شيوخه لحياة الرهد والتقصّف، وحوية أنحاء العالم الإسلامي، وتأديته لريضة الحجّ عبر مرّة، كما تحدّث عن كرامات ومكاشفات أبي مروان، وآرائه في المشرق الإسلامي وملوكه وشيوخه، وعرض كذلك لمجريات الحياة اليومية في عصرهما ويرى محقق رحلته تاج المشرق أن الإقبال على الرحلة الحجازية كان قد قلّ في أواخر العصور الوسطى (القرن الثامن والثاسع الهجريين)، بسبب دعوة العلماء إلى الجهاد وإيثاره على الحجّ^(٢٥).

ثالثاً: العامل الثقافي (طلب المعرفة) :

إن أسباب الرحلة متعدّدة، وها صله وثيقه بطابع الخصارة لعربيّة إسلاميّة، التي امتدت سيادتها على ديار المشرق والمغرب وطبيعي أن تكون الرحلات والأسفار من أول استل لطلب العلم في تلك العصور^(٢٦)، ويلاحظ أيضاً أن العامل لتقافي مرسل بالعامل الديني، فالدين نفسه يدعو إلى العلم والمعرفة، فقد حثّ الرسول عليه لصلاة

(٢٢) مطبقة، جمال، (١٩٩٦)، حادثة الإسراء والمعراج وتجلياتها في الشر العربي، رسالة دكتوراه، غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ص ٤٢

(٢٣) هو أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر الفيسي النحاسي، سببه إلى بلده بنحاس من ولاية المريّة بالأندلس، وهجر إلى بنحاس، فريه من وادي أشقي انظر، نجمه المعتبر ببلاد المغرب، من له من الإحسان، في كرامات الشيخ أبي مروان، تحقيق، فرماند ودي لاجراغنا، منشورات المعهد المصري لدراسات الإسلام، مدريد، ١٩٧٤، ص ٦، ٧

(٢٤) هو أحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزدي النشائي وقيل النشائي، سببه إلى قشال، التي قد تكون بلده، في ولاية عرماطة، انظر صدر نفسه، ص ٦، وانظر، المقرئ، مع الطيب ٦٩٠/٢

(٢٥) البلوي، عماد تاج المشرق، ٥٥/١

(٢٦) حسن، دكي محمد، (١٩٤٥) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، القاهرة، دار المعارف، ص ٦.



ولسلام على طلب العلم والرحلة في سبيله، ومن ذلك قوله ﷺ: «... ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا فرلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١).

وموسم الحج، وإن كان موسماً دينياً، إلا أنه بعد ذلك ملتقى ثقافياً إسلامياً يجمع الفئات المتفوعة من العلماء، بل يشمل أيضاً غير المثقفين الذين أتوا لأداء فريضة الحج، إذ إن حلقات الوعظ والارشاد والحديث، وجلسات العلم والأدب، كانت ولا تزال تعقد في رحاب المسجد الحرام والمسجد النبوي، ويحضرها كل من يرغب في التفقه في دينه، ولأخذ عن الشيوخ والجلوس إليهم، ما في ذلك من أهمية كبرى في التعليم الإسلامي^(٢)، فالْحج جامعة ثقافية موسمية، كما يرى البعض^(٣)، وقد كثرت رحلة الأندلسيين إلى لمشرق في طلب العلم، وكان الواحد منهم يشرف بين يي قومه حين يروي عن شيوخ مصر وبغداد وغيرهما من بلدان لمشرق^(٤).

لذا لم تعد الرحلة العلمية أمرً منوطاً بالنية الدافعة بالحج وحسب، بل أصبحت هي نفسها ضرورة لازمة^(٥)، وقد كان الشعب الأندلسي والمغربي يمتاز بالإقبال على العلم

(١) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، (ت ٢٦١هـ) صحيح مسلم بشرح لبوي، بدون ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٧، ٢١، وابن ماجه، أبو عبد الله بن يزيد القرويني، رت ٢٧٣هـ) سنن ابن ماجه، بدون ط، حفصه بن عرواء معرووف، دار الخلل، بيروت، ١٩٩٨، ٨٢/١، وهو جزء من حديث شريف طويل في أهمية العلم وطلبه.

(٢) انظر، الصادقي، حسن، (١٩٨٩)، الوجود المغربي في لمشرق من خلال كتب التراجم المشرقية، مجلة ابناءهل العدد (٣٨) السنة ١٥، ص ٢٩٩.

(٣) عيفة، محمد عبد الرحيم، (١٩٥٣) تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، تطوان، معهد مولاي حسن دار الطباعة لمعربية، ص ٢١٢.

(٤) عباس إحسان، (١٩٨٥) تاريخ أدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ط ٧، بيروت، بسان- دالر الثقافة، ٣٨/١.

(٥) هناك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي نحث على العلم ولا رعية بالإكثار من سرحها، صحتها الكثير مما ينبغي من الاستشهاد.



للعلم ذات، فقد كان قلب أبي بكر بن العربي معلقاً بشيء آخر يقدمه على الحج، وذلك هو الاستمرار في طلب العلم، ولذلك فإنه لما وجد في أثناء الرحلة أن الحج قد بقوت عليه المصير في الطلب قال لأبيه^(١) إن كانت لك نية في الحج فامض لعزمك، وإني لست برائم عن هذه البلدة^(٢)، حتى أعلم علم من فيها، واجس ذلك دستوراً للعلم وسلياً إلى مراقبها^(٣)، فالعرص لأصلي من رحلة ابن العربي، هو تلقي العلم والاتصال بالشيوخ، بينما كان غرض والده أداء فريضة الحج.

أمّا ابن تومرت^(٤)، فقد اشتهر عند طفولته بميله إلى الدراسة، وملازمته للمسجد، فشب قارئاً محملاً للعلم، ولأن المشرق محط آمال الراغبين في العلم رحل ابن تومرت إليه طلباً للعلم وأداء فريضة الحج

(١) انظر، عباس، إحسان، رحلة أبي بكر بن العربي كما صورها قانون التاويل، مجلة الأبحاث، السنة ٢١، العدد ١-٢، ١٩٦٨، ص ٦١

(٢) يقصد بيت المقدس

(٣) ابن عربي، قانون التاويل، ص ٩٢

(٤) هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تميم بن عدنان، وبعد نفيه إلى الحبش بن علي بن أبي طالب، وقيل ولد سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م أو ٤٧٩هـ / ١٠٨٧م، غادر بلاد الروس الأقصى التي بنا فيها حوالي سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م موجهاً نحو المشرق طلباً للعلم. وعاد إلى قرينته إيجي التي ولد فيها، وأعلن أنه للهدى في سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م وأسس مذهباً جديداً يعتمد خصوصاً على نظرية التوحيد وأطلق على أصحابه اسم الموحدين توفي سنة ٥٣٤هـ / ١١٤٠م، وقيل سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م، انظر، بوروية، رشيد، (١٩٨٢) ابن تومرت، ترجمة عبد الحميد حاجيات، الخزانة ديوان المطبوعات الجامعية، ص ٢١، وصفحات أخرى معروفة، وانظر، ابن الفطان، أبو الحسن علي (ت ٦٢٨هـ) نظم الحمان، تحقيق محمود علي مكّي، المركز الجامعي لبحث العلمي، جامعة محمد الخامس الرباط، ص ٣٤، ٣٨، والخلل المرشدة، تحقيق سهيل دكار وعبد لقادر رماد، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص ٩٨-١١٧، وابن حلكان، وميات الأمان. ٤٥/٥ ٥٥



وكان ابن تومرت أينما حلَّ يبادر بالحضور إلى دروس أشهر العلماء والعقهاء، فقد أخذ العلم عن أبي بكر الطرطوشي^(١١) في الإسكندرية^(١٢)، وقرأ على يد أبي بكر الشافعي^(١٣)، وغيرهما، وكان ابن تومرت يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويريق الخمر، ويكسر آلات الطرب، في كلِّ مدينة يزورها^(١٤)، وقد ذكر ابن الفطان أنَّ ابن تومرت حين كان ببجاية لقي بها لصبيان في ربيِّ النساء فقهر المنكر جهده ثم حضر عدداً قوَّي فيه من حلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزيَّنين المنكحَين لا يحلُّ، فجرهم وغير ذلك عليهم^(١٥). وقد دون ابن تومرت الكثير من مشاهداته وآرائه في رسائله وكتبه المختلفة^(١٦)

ويجد بعض الرُّحاة المعارية ولأندلسيين^(١٧) يتقنون دخول بلادهم أو يتفهمون فرصة فرصة أدائهم مريضة الحق، للفناء لملء والعقهاء، وزيارة المراكز العلمية، وتُجبل

(١) هو: أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد القرشي، البهري، المعروف بابن أبي رندة، انظر، ترجمته، ابن حلكان، ومباني الأعيان ٢٦٢/٤-٢٦٥.

(٢) المراكشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ط ٢، تحقيق محمد ماصور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦، ص ٤.

(٣) هو: أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشافعي، انظر، ترجمته، ابن حلكان، ومباني الأعيان ٢٠١/٤-٢٠٠.

(٤) انظر، ابن أبي رزق العاسي، الأبنس المطرب يروض الفطاس في أحاديث ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراعة، الرباط، ١٩٧٢، ص ١٢١-١٢٢.

(٥) ابن الفطان، نظم الجمان، ص ٤٦-٤٧.

(٦) من رسائله وكتبه أعز ما يطلب، رسالة في العلم، وكتاب تحريم الخمر.

(٧) ومنهم، الرعي، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعي الشيباني يعرف بابن المعمر. ولد في شعبان ٥٩٢ هـ تنقل في داخل الأندلس والمغرب، ووفي سنة ٦٦٦ هـ انظر، برنامج سيره ابن الفخار الرعي تحقيق إبراهيم شيوخ، مجلة معهد المخطوطات العربية، رورة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٢، المجلد ٥، الجزء ١، ص ١٠٣.

وابن جابر الوادي أشي، وهو محمد بن جابر بن محمد بن قاسم بن محمد القيسي الوادي أشي، ولد سنة ٦٧٣ هـ وتوفي ٧٥٢ هـ انظر ترجمته، ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، (ب ٨٥٢ هـ) الدور الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط ١، ضبطه وصححه الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧ ٢٥١/٣-٢٥٢. وابن الخطيب، الإحاطة ٤٩٨/٣. ولفقر، معج الطيب: ٢/٦٦٤، ٦٦٦.



أسماء مشايخهم، ومروياتهم، والترجمة لعدد كبير منهم، مما أضفى الصبغة العلمية على رحلاتهم، فعدت كتباً علمية يغلب عليها الجانب الثقافي أكثر منها رحلة أدبية وقد سميت بالبرامج أو الفهارس^(١)

وجاءت رحلة القاسم بن يوسف بن محمد بن علي التجيبي^(٢) مستفاد الرحلة ولاغتراب، ورحلة ابن رشيد لسبي^(٣) ملء النية في ما صح بطول النية في الوجهة الراجعة إلى الحرمين مكة وطيبة، لتأدية فريضة الحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام، والاتصال بالشيوخ والأساتذة، وملاقة الرجال والرواة، وذكر أخبارهم

(١) البرنامج يردب مسمى المهرة، فهو كتاب يجمع فيه الشيخ أسماء شيوخه وأسانيده من مروياته وقراءته على أشياخه والمصنفات وعو ذلك، للمفكر برنامج يستعمله أهل الأندلس كثيراً والبرامج يرادف الفهرسة والمعجم والثبت والشيخة، انظر الككتاني، عبد الحفي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس ومعجم المعاجم والشيخات والسلسلات، ط ٢، باعشاء إحسان عباس، دار العرب الإسلامي، ١٩٨٢، ١/ ٦٧، ٧١

(٢) وقيل هو أبو القاسم (١٧٠هـ-٦٦٦هـ - ٧٣٠هـ، ١٢٧١، ١٢٦٧-١٣٢٩م)، وهو من أهل سبتة من بني تجيب الذين استروا في الأندلس منذ أوائل الفتح الإسلامي وبدأ رحلته إلى مشرق سنة ٦٩١هـ ورحلته مستفاد الرحلة والاعتراب ثلاثة مجلدات صحبة كتب أشار صاحب الدور الكامنة، يتضمن الجزء الأول خروجه من سبتة إلى مصر أو من الأندلس إلى مصر، أما الجزء الثاني الذي حققه عبد الحفظ مصور وسرته الدار العرب في ليبيا سنة ١٩٧٥م، فقد ابتدأ فيه بذكر مدينة القاهرة، وصحى بقية أخبار الخصار وبيت المقدس ولشام في الجزء الثالث رافقه في رحلته الكاتب خديف العاصمي القبتوري الإشبيلي لنظر ترجمته التجيبي، مستفاد الرحلة، مقلعة المحقق، ص، بيدج، وابن حجر المقلاني، الدور الكامنة ٣/ ٣٦٤-٣٢٥، واللاوي، الاستقصا ٣/ ٧٧

(٣) محمد بن عمر بن محمد بن رشيد النهري لسبي (٦٥٧هـ - ٧٢١هـ / ١٢٥٩ - ١٣٢١م)، بدأ رحلته سنة ٦٨٣هـ خرج من قاس وانجه شمالاً إلى مدينة سبتة وسائر إلى الربة ومهد إلى بجاية ومهد إلى مدن أخرى الإسكندرية، والقسطاط والقاهرة، دمشق، والنجاز، والحرمين، ورافقه صليقة الأديب، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللحفي انظر ترجمته المقرئ، مع الطيب ١٥/ ٢٢٥ وابن الخطيب، الإحاطة ٧/ ٤٤٥ وما بعده، واللاوي، الاستقصا ٣/ ٧٨، وكراشكوسكي، تاريخ الأدب الجعراقي لعربي، ص ٤١١



وعلمهم ومؤلفاتهم، والترجمة للعلماء ابرزين من القيا بهم في رحلتيهما السنين كانتا أقرب إلى كثافة المهارس العلمية، ومع ذلك فهناك ما يفيدنا عن أحوال الأقطار الإسلامية، وأوضاعها العلمية والأدبية والاقتصادية والعمرانية، ومن في هذا الميدان يتجمل بعض خطوات الرحالة ابن جبير، فالتجبي^(١) مثلاً، استعاد من رحلة ابن جبير فيما كتبه ابن جبير^(٢) عن صحراء عيذاب، وساحل البحر الأحمر والحركة التجارية بين قوص وعيذاب

أما خالد بن عيسى البلوي^(٣)، فقد كان في شرق دائم إلى لقاء العلماء حيثما حل، فيسرع بالبحث عنهم، وقد عبر عن ذلك فيما ذكره عند دخوله قسطنطينة، فقال وبأدبرت

(١) التجبي، مستعاد الرحلة، ص ٢٠٥

(٢) رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ص ٤٢

(٣) هو أبو ابقاء، خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي القتوري، ولد بقتورية، من قري المرية بالأندلس / ٢١٤هـ / ١٢١٢م) تلقى العلم بمسقط رأسه، فقرأ القرآن، ثم درس القراءات السبع عن اثني عشر شيخاً، ثم أخذ يجوب عواصم الأندلس بحث عن الشيوخ والعلماء، فانتقل بين غرناطة ومالقة، كما ارتحل إلى تلمسان وتونس والإسكندرية والقاهرة، والقدس، وكان ذلك أثناء توجهه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، وبعد هذه الرحلة الطويلة عاد إلى قتورية، فأصبح معسوداً من رجاء الفكر والفقه ولأدب وتولى القضاء ثم انتقل إلى القضاء ببرشانة، وهناك أم كتابه رحلته تاج المشرق في محلة أهل المشرق. أما وفاته فقد جعلها بعضهم سنة (٧٦٥هـ / ١٢٦٤م)، ويعارض حسن السائح محقق الرحلة هذا الرأي مبنياً أن المؤلف أم كتابه رحلته في اليوم الأخير من شهر ربيع الأول عام ٢٦٧هـ ببرشانة وإذن فقد عاش بعد هذا التقدير وقد طبعت الرحلة في الرباط انظر ترجمته، البلوي، تاج المشرق ٢٥١، ٦٠، والتبكي، أبو العباس، أحمد بن أحمد بن عمر، (ت ١٠٣٦هـ) بيل الانتهاج لتطوير الدبج، فاس (د ن)، ١٨٩٩، ص ٩٩، وابن الخطيب، الكتبه لكاتبه في من يقبض بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٣ ص ١٣٤ ١٣٥، والمقري، فتح الطيب ٥٣٢/٢ ٥٣٤



إلى لقاء القمصلاء، وساحقة لبلاء، أجتلي وأجتني ولا أجتب وأنا والطرس في ملا أنتقي
مهم وأنتخب^(١).

وفي ذلك يقول ابن خلدون^(٢) إن الرحلة في طب العلوم ولقاء المشيخة مرید كمال
في التعلیم، وذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأحلافهم وما ينحلون به من المفاهيم
والفصائل تارة عندهم وتعلمياً وإلقاء، ونارة محاكاة، وتلقيناً بالمباشرة، إلا أن حصول
الملكات عن المباشرة والتنقيح أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ
يكون حصول الملكات ورسوخها، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد
ولكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال^(٣).

ومما كان يشجع الرّاعب في طلب العلم وتعليمه وتعلمه ورحلته إلى المشرق،
وجود المكان الذي يأوي إليه في المساحد والمدارس والزوايا، وتوافر مصادر المعيشة
واسبابها بهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام، وتغنم الفراغ
ولا تفرد قبل علق الأهل والأولاد، وتفرغ من الندم على زمن التصنيع، والله يوفق

(١) البلوي، تاج للفرق ١/ ١٦١

(٢) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن
بن خلدون (٧٣٢هـ - ٨٠٨هـ / ١٣٢٢ - ١٤٠٦م) وهو الفقيه، والأديب والفيلسوف المؤرخ
والرحالة المشهور له إسهامات بارزة في كافة ألوان الفكر والمعرفة، خلف عدة مؤلفات من أهمها
مقدمته، وتاريخه، والتعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً وعن مؤلفاته انظر: بدوي، عبد
الرحمن، (١٩٦٢) مؤلفات ابن خلدون، القاهرة: دار المعارف، انظر ترجمته، رحلة ابن خلدون،
التعريف، ط١، علق عليه، محمد ابن تاييب الطنجي، رقتم لها، سوري الجراح، دار السويدي
لنشر، أبو ظبي، ودار الفارص، عمان، ص ٤٩، ٦٥، ٩٩، وصفحات كثيرة متفرقة، والسحاوي،
شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الصراء اللامع لأهل القرن التاسع، بدون ط، مكتبة القدس،
القاهرة، ١٣٥٥ / ٤ / ١٤٥٥، ولخفري، نصح الطبيب بعبلا عن الإحاطة ١/ ١٨٠ - ١٩٠،
وكراشكوسكي تاريخ الأدب المغربي لعربي، ص ٤٧٣-٤٧٦

(٣) مقدمة ابن خلدون: ١/ ٥٤١



ويرشد ..^(١) ورصف ابن بطوطة حسن معاملة أهل دمشق للغرباء، فقال: .. وهم يحسون الظن بالمعارية، ويطمشرون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد، وكل من انقطع بجهه من جهات دمشق، لا بد أن يتأذى له وجهه من المعاش من إمامة مسجد، أو قراءة لمدرسة، أو ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه، أو قراءة القرآن، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة^(٢) ويشهد كذلك بموقف أهل أنبصرة من الغرباء وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق، وينامون لغريب وفيام يحقه^(٣).

إن الرحلة في طلب العلم تحتل أهمية كبيرة، وتشكل سمة بارزة في حياة المجتمع الأندلسي والمغربي، وتؤكد على التواصل العلمي والفكري والثقافي والاجتماعي، فالمصدر لأندلسية ولعربية والمشرقية ترخر بأخبار هذه الرحلات، وأسماء العدد الكبير من الرحّالين إلى المشرق، يطلبون العلم وجلّ أمتيتهم أن يحلّسوا إلى عالم مشرق مشهور يشرفون به بين بني قومهم وقد لاحظ كراتشكوسكي، أن طلب العلم يغطي على غط الرحلة، ابتداء من القرن التاسع الهجري، لبشع على مرّ العصور^(٤).

رابعاً: السفارة:

إن السفارة نوع من الرحلات الرسمية، يوكل بها الرحّالة من قبل الحكّام، ورسالة يتسامس في أدائها من يكلفون بها، مهما كلّمهم الأمر من تصحيحات، إذ كانت تقترب في يومهم يرفعها وعلوّ شأن الدولة الإسلامية، فالسفير عنوان دولته

وكانت السفارات لا تقطع بين الدول العربية وما جاورها من الدول غير العربية، بقصد الصلح وفك الأسرى، أو لتصفية لأجواء السيامية، وقد تكون وليطة علاقات دبلوماسية أو تقليد لربط العلاقات السيامية، وليس هذا وحسب، بل لعبت

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢٥٩

(٢) رحلة ابن بطوطة ٩٦/١ ص ٩٧

(٣) المصدر ص ١٦٩-١٧٠

(٤) كراتشكوسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٤٠١



درراً ملحوظاً في توسيع نطاق المعلومات الجغرافية^(١). وقد نشطت حركة السفراء بين الأندلس ودول أوروبا طوال مدة الوجود الإسلامي في الأندلس، فكان الأندلسيون يتبادلون السفراء مع القسطنطينية وروما وفرنسا وإنجلترا وألمانيا ولسويج واسداعمارك ولسويد وقشتالة وغلبيسة وأراغون والبرتغال وغيرها، وكان كلا الطرفين حريصاً على اختيار سمرء ذوي ثقافة عالية، وحكمة، ودهاء وذكاء، وفطنة، وكان عاملاً مهماً من العوامل التي تساعد على إنجاز المساعي التي يقومون بها، إلى جانب التقارب الثقافي بين الطرفين من خلال إعجاب الملوك بثقافة من يفد إليهم من هؤلاء السفراء، وخاصة أن بعض هؤلاء السمرء كان يقيم عدة أشهر وربما سنة أو أكثر في بلاط الملك الذي يتدب إليه^(٢).

ولعل أكثر هذه السفارات شهرة وإثارة للجدل، تلك التي قام بها شاعر الأندلس يحيى المeral^(٣)، ولقب بالفرال لجماله، فقد كان جميلاً في صباه وسمياً في كهولته، وكان شاعراً متمكناً ذا مقدرة تعبيرية أدبية عالية، انصف بحدة الخاطر، وبديهة الرأي، وحسن الحساب، والتجدة والإقدام، والتحول والخروج من كل باب^(٤).

(١) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ١٥١

(٢) جزائر، صلاح، (٢٠٠٤) زمان الوصل، ط ١، عمان المؤسسة لتعريب الدراسات والبحوث، دار الفارس للنشر، ص ٢٣ - ٢٤

(٣) يحيى بن الحكم الجياني البكري (١٥٠ هـ وقيل ١٥٦ هـ - ٢٥٠ هـ / ٧٦٤، ٧٧٣ - ٨٦٤ م) أصله من بجان، حضر أربعاً وتسعين سنة، انظر ترجمته، ابن دحية، أسو الخطيب، محمد الدين عمر بن الحسن بن يحيى، اب ٦٣٣ هـ المطرب في أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، وحامد عبد الحميد، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٤، ص ١٣٠ - ١٣٩، والحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح، (ت ٤٨٨ هـ) جدوة لفتى في تاريخ علماء الأندلس، ط ٣، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٩ / ٢ / ٥٩٧ وابن سعيد المقرئ، لمغرب ٥٧ / ٢، والمصري، رفح الطيب ٢ / ٢٥٤ - ٢٦٢، وكراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ١٥١

(٤) ابن دحية، المطرب، ص ١٣٩



ربسب هذه الصفات التي كان يتحلى بها أوفده عبد الرحمن الأوسط^(١)، في سفارة له إلى إمبراطور القسطنطينية وملك المورمان، وقد استطاع العرّال أن يستميل القلوب في بلاط ملك المورمان، حيث ذكر ابن حبان القرطبي أنّ العرّال حكيم الأندلس وشاعرها وعرفها^(٢) وقد رفض أن يسجد لملك الجيوس^(٣) الذي أعجب به ومحكمته، ولما سمعت روجة ملك الجيوس بذكر العرّال وظرفه، أرسلت إليه تطلب أن يواجهها، فلما قابلته أعجبت به كثيراً، واستطاع بإطرائه لها وإطبايه في وصف جمالها أن يحتلب محبتها، وبلغ من ولعها به أنها كانت لا تنصبر عنه يوماً حتى توجه فيه، وبصم عندها بحدتها مسير المسلمين وأخبارهم وبلادهم...^(٤)

واختلعت المصادر القديمة والدراسات الحديثة، فيما يتعلق سفارة العرّال، كانت للقسطنطينية، أم إلى بلاد الجيوس^(٥)، ومنهم من أوردوها إلى القسطنطينية وبلاد

(١) عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن لأموي أبو المطرف، رابع ملوك بني أمية في الأندلس، ولد في طليطلة وبويع بقرطبة سنة ٢٠٦هـ وكان عالي الهمة، له غرواب كثيرة، أديباً ينظم الشعر، انظر ترجمته، تاريخ ابن خلدون ١٣٢/٤-١٣٥، والصفي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، (ت ٥٩٩هـ) بعية الملتص في تاريخ رجال أهل الأندلس، ط ١، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٩، ٣٥/١، وتاريخ ابن خلدون ١٣٢/٤-١٣٥، ولخسري، نفع الطيب: ٣٤٤/١-٣٥٠

(٢) ابن دحية، الخطيب، حاشته ص ١٢٦، المقري، نفع الطيب نقلاً عن القس ٢٥٤/٢

(٣) الجيوس يقصد بهم المورماندين أو النورمانيين أي أهل الشمال مسكان الدنمارك وشبه جزيرة إسكندنبورغ، انظر، البكري، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو، (٢٢٢هـ-٤٨٧هـ)، جغرافية الأندلس وأروبا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن علي الحسبي، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٥٨، حاشية رقم ٢

(٤) ابن دحية، الخطيب، ص ١٣٣، ١٤٢، وبالنسبة، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٦، ومحمدة، عبد الرحمن، (١٩٦٩) أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دمشق، ص ١٢٨

(٥) الحميدي، جدوة المفتي ٥٩٧/٢، والصفي، بعية الملتص ٦٧٣/٢، وأعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، ص ١٣٨، الأوسي، حكمة علي (١٩٧١) يحيى بن الحكم العرّال سفير الأندلس وشاعره الراعي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ٢١، ص ١٩٧-١٩٨

المجوس^(١)، ومهم من نظر إليها بشك كبير^(٢)، في حين أيدها آخرون^(٣) وسواء أكانت إلى القسطنطينية أم إلى بلاد المجوس، فلن يغير هذا من الواقع شيئاً فالرحلة وقعت، ووصلنا نصر يؤكد أنها أورده ابن دحية^(٤)، والمقري^(٥)، وهو نصرٌ مختصر بأسلوبهما، لا بأسلوب الغرال باستثناء بعض القول الصغيرة التي سجل فيها مشاهداته لكل ما مرّ به، والواردة في بعض أشعاره^(٦).

إن ضياع هذه الرحلة يشكل خسارة كبيرة للأدب، إذ جعل الغرال نفسه واقتناه بزوجته لمك، موضوعاً كان يمكن اعتماده لجعل الرحلة أدباً خالصاً، لكنّها دعم ذلك خطوة في أدب الرحلة العربي.

ومن الرحلات الأخرى، رحلة إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي^(٧) (٣٤٧هـ)، من يهودي من أهل طرطوشة^(٨)، وكان يشتغل بتجارة الرقيق، وقد جال في جوب الماياء،

(١) المقري، فتح الطبيب ١/٣٤٦، ٢/٢٥٧، والحجوي، عبد الرحمن علي (١٩٩٤) التاريخ لأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط٤، دمشق دار لقلم، ص ٢٢٣-٢٢٤

(٢) المبادي، أحمد مختار، (١٩٧١) التاريخ لعباسي والأندلسي، بدون ط، بيروت دار النهضة العربية، ص ٣٥٣-٣٥٤

(٣) كراتشكوفسكي، تاريخ أدب الحمري العربي، ص ١٥١-١٥٢ ومؤنس، حسين، (١٩٨٠) معام تاريخ العرب والأندلس، القاهرة دار ومطابع مستقبل، ص ٢٩١-٢٩٢

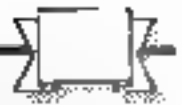
(٤) ابن دحية، المطرب، ص ١٣٠-١٣٦

(٥) المقري، فتح الطبيب ٢/٢٥٤-٢٥٩.

(٦) انظر- بن الكتاني، أبو عبد الله محمد، (ت ٤٢٠هـ) التنبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق إحسان إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٦، ص ١٢١، ١٢٣، ١٨١، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٦٦

(٧) انظر ترجمته، تجميع الأخبار، وتنويع الآثار وليستان في عرائب البلدان والمسالك إلى جميع أممالك، أممالك، تحقيق عبد العزيز الأخواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥، ص ٣

(٨) طرطوشة مدينة بالأندلس تتصل بكوورة بسسية، وهي شرقي قرطبة، قريبة من البحر، متنة العبارة، استرلى عليها لأسان سنة ٥٤٣هـ انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤/٣٠، والحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الحمي (ت ٩١٠هـ) صفة جزيرة لأندلس، متحمة من الروض المطارة، ط٢، تحقيق إلمي بروفسال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة،



وقابل الامبراطور أوتو الأول، وحفظ لك معلومات واسعة عن إمارات (الصقلية)^(١) في أوروبا الوسطى في ذلك العصر، أما وصف رحلته، فلم يبق منه سوى شذرات عُرفت منها الأقسام الخاصة بألمانيا وبلاد الصقلية، وهي التي جمعها لك العذري^(٢) والبكري^(٣) وليكري^(٤) الذي اعتمد على جزء كبير منها في كتابه المسالك والممالك، وانتقلت منهما إلى مؤلفين متأخرين مثل، ابن سعيد العرابي^(٥)

ودكر إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي لقاءه برسل ملك اللعار، حين وفدوا على هوتو. ووصفهم فقال مشير، إلى ما سماه بملك البلمارين لم أدخل بلده، ولكني رأيت دمه، وهم معرفة بالألسن، ويترحمون الإنجيل بالنسبان الصقبي، وهم بصاري^(٦) وقد وجدت رحلات سفارية داخل رحلات خاصة متعددة الأغراض. فابن بطوطة بدأ رحلاته بعرض الحج، ثم دعه حب السفر ليستمر في سلسلة رحلاته في مختلف النواحي

(١) بلاد الصقلية بلاد بين النصار والقسنطينية انظر، الحموي، معجم البلدان ٣٦/١، ٣٧، وابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٤٠

(٢) هو أحمد بن عمر بن أسد اندلاقي، (٣٩٣هـ - ٤٧٨هـ / ١٠١٣ - ١٠٨٥م) وكان تلميذاً لأبي حزم، رحل مع ولده إلى مكة، وسمع من شيوخها، وعاش فيها تسعة أشهر، انظر رحته، ترصيع الأختار، ص ٢، والمغربي، فتح الطيب ٢/ ٢٣٢ و ٣/ ٦٧.

(٣) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو، المشهور بكنيه (أبو عبيد)، (٤٣٢هـ - ٤٨٧هـ / ١٠٤٠ - ١٠٩٤م) ويرجع حين مؤسس في الفصل الذي خصصه من كتابه تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس أنه قد تجاوز العشرين عند انتقاله إلى قرطبة ويرجع أنه ولد عام ٤٠٥هـ ١٠١٤م تقريباً وقد يقرطبة وتوفي فيها، عرف باسم القرطبي وقام بمهمة دبلوماسية لدى بلاط أمير الشاهر المعتمد بن عبد يثيلبة، وبعد هزيمة المعتمد على أيدي المرابطين رجع البكري إلى قرطبة، وظل يراول نشاطه الأدبي بها إلى وفاته، انظر ترجمته، ابن سعيد المغربي، المغرب ١/ ٢٦٧، والمغربي، فتح الطيب ١/ ٢٩٢، وكرانشكوفسكي، تاريخ الأدب المغربي العربي، ص ٢٩٦ ٢ ٣، والثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٣٠٩ ٣١١

(٤) انظر البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، ص ٨٠ ٨١، ١٠٤ ١٠٧، ١٠٧، وكرانشكوفسكي، تاريخ الأدب المغربي العربي، ص ٢٠٧ - ٢١٠

(٥) البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، ص ١٧٥ ١٧٧

و لأصقاع، وعندما أراد سلطان الهند محمد شاه بن تغلق أن يرسل سفارة إلى الصين، اختار ابن بطوطة، ليكون سفيره، ويقول ابن بطوطة في ذلك: بعث إليّ السلطان حياً مسرحة وجواري وغلاماً وثياباً وبقة، فلبست ثيابه وقصدته. ولما وصلت إلى السلطان زاد في إكرامي على ما كنت أعهده، وقال لي: إنما بعثت إليك لتوجه عني رسولاً إلى منك الصين، فأني أعلم حبك في الأسفار والحولان، عجزتني بما أحتاج له^(١)

ومن الرحالة لأندلسيين والمغاربة أيضاً لسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون، وقد نالا قدراً كبيراً عند ملوك الأندلس، حيث اعتمدوا عليهما في السفارة سبهم وبين ملوك الدول الأخرى فقد أرسل الخليفة العتي بالله^(٢) ابن الخطيب سفيراً إلى المغرب، يستجد بأبي عنان المريني^(٣) طالباً منه مدداً لحرب لنصارى في الأندلس. فأشد لسان الدين قصيدته التي مطلعها^(٤):

حيية الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجى قمر

فما كان من سلطان المغرب إلا أن قال له: ما ترجع إليهم إلا بجميع طياتهم^(٥).

أما ابن خلدون، فقد علا صيته في آفاق، وطمحت بذكره الأوراق، وجاب اسمه البقاع، وطوى البلاد ويشير ابن خلدون إلى سفارته عن العتي بالله سنة ٧٦٥هـ إلى ملك قشتالة بطرة بن الهنش بن أدفونش^(٦) قائلاً: وسفرت عنه سنة خمس وستين إلى الطاعية ملك قشتالة يؤمئذ، بطرة بن الهنش بن أدفونش، لإتمام عقد الصلح م بينه وبين ملوك العذرة، بهدية فاحرة من ثياب الحرير والجلود المقربات بمراكب الذهب الثقيلة، فلقيت الطاغية

(١) رحلة ابن بطوطة ١٣٥/٢

(٢) ورجع ترجمته، الدراسة ما ص ١

(٣) أبو عنان، فارس بن أبي الحسن المريني، (٧٢٩هـ - ٧٥٩هـ/١٣٢٩ - ٣٥٨ م) كان معييراً عن

إحوته لفضله وعفافه انظر ترجمته، المقري، نصح الطيب ٤٥٢/١، ٦٨١، ٧٩/٥، ٩٨، ٩٩،

وصفحات معرفة، والسلاوي، الاستنصار ١٧٧، ١٧٥/٤

(٤) المقري، نصح الطيب ٩٨، ٩٩، وبالنسبة، تاريخ لمكر الأندلسي من ٢٥٣

(٥) المقري، نصح الطيب ٩٨، ٩٩



بإثباته، وعانت آثار سعي بها وعاملني من الكرم بما لا مزيد عليه، وأظهر الاعتبار بمكاني، وعزم أولية سلما بإثباته، وأثنى عليّ عتده طيبة إبراهيم بن رزق اليهودي، المقدم في الطب والنجاة، وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عمار، وقد استدعاه يستظنه، وهو يومئذ مدار ابن الأحمر بالأندلس، ثم نزع بعد مهلك وضوان القوائم بدولتهم، إلى الطاعة، فأقام عنده، ونظمه في أطبائه فلما قدمت أنا عليه، أثنى عليّ عتده، فطلب الطاعة مني حيثل المقام عنده، وأن يرد عليّ تراث سلفي بإثباته، وكان بيد زعماء دولته، فتعديت من ذلك بما قبله ولم يزل عليّ اعتباطه إلى أن انصرفت عنه، فرودني وحلني واختصني بعملة فارغة، بمركب ثمين ولحام ذهبتين، أهديتهما إلى السلطان فأطعني فربه البيرة من أراض السقي بمرج عرباطه، وكتب بها منشوراً^(١)

خامساً: العامل الاقتصادي:

كانت التجارة منذ قديم الزمان أمراً يقتضي القيام بالرحلة والسفر البعيد والسعي في سبيل الكسب برأً وبحراً. فالعالم العربي يحكم توسط موقعه بين قارات العالم القديم، مركزاً لانتقاء الطرق التجارية بين هذه القارات، كما أنه انفصال الماء وتداخله في اليابسة في المنطقة العربية، جعلها تحتل موقعاً تجارياً هاماً في تطور الحضارة العربية في العصور الوسطى، وحسراً تعبر منه الثقافة والمكر وليس فقط لنقل السلع والبضائع فمارس العرب الترحال، وفاموا برحلتهم لشتاء والصيف انلتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم، وأبحرت سفهم في مياه المحيطات الكبرى ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ أَلْمَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهٗ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾^(٢)

ومجد حديثاً في الروض المعطار^(٣) عن خشخاش بن سعيد بن أسود الذي خطر مع جماعة من الفتية، فركبوا البحر، وعابوا فيه مدة ثم عادوا بغنائم واسعة، وأحبار

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص ١٢٨

(٢) سورة الإسراء. الآية ٦٦

مشهورة وقد ظهر اسم خشخاش ووالده سعيد بن أسود ضمن قادة الأساطيل التي قابلت النورمانديين، في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط في منتصف القرن الثالث الهجري وحديث خشخاش وأصحابه يذكر بالحديث عن رحلة الفتية المعزوين^(١) من أهل لشبونة، الذين توغلوا كذلك في المحيط الأطلسي في منتصف القرن الرابع الهجري أيضاً، وكان لرحلتهم أهمية كبرى، حيث كانت فتحاً أتاح الفرصة ومهد السبيل لركوب المحيط الأطلسي

وكانت لتجارة من أهم الأسباب التي أدت إلى تدوين الرحلات لمعرفة طرق التجارة البرية والبحرية، ولعل أول ما ارتبطت به الرحلات، علم تقويم البلدان ومسالك وللمالك، لوصف الطرق، والمناخ، والعديد من الأمور الأخرى، وذلك لمعرفه انطرق إلى مكة للقيام بعرضه الحج، وتسهيل عمله لتجارة في مختلف البلدان، ولبقاء وكانت التجارة في موسم الحج ضرورة من ضرورات الحاج والمسافر، إذ لا بد من الحصول على موارد مالية لتغطية نفقات لرحلة، فقد تتجاوز الرحلة المدة المحددة لها وتلقي رحلات ابن جبير في القرن السادس الهجري، وابن بطوطة في القرن الثامن الهجري، وغيرهما، ضوء هاماً على النشاط التجاري الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر، والمحيط الهندي في ذلك الوقت

(١) انظر، الحميري، الروض المعطار في خبر لأقطار، تحقيق إحسان عباس، دار القلم للطباعة، بيروت، لبنان، ١٩٧٥، ص ٢٨، ٥٧، ٥٩، وكراتشكوفسكي، تاريخ الأدب العربي، ص ١٥٢

(٢) انظر، الحميري، الروض المعطار، ص ٥٧، ٥٩، ولإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد الحسني، (ت ٥٦٠هـ) مرة المشاق في احتراق الأمان، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٨، ص ١٨٤-١٨٥، وأرسلان شكيب، (١٩٣٦) الخلل البدنية في الأحبار ولأثار الأندلسية، ط ١، فاس النكية التجارية الكبرى ١/ ٩٢-٩٨، ولمسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، (ت ٣٤٦هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط ٢، ناعث الأستاذين نازبه صبار ونازه دكورتيل، مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان، طهران، إيران، ١٩٧٠، ١ ٢٥٨ ٢٥٩، وكراتشكوفسكي، تاريخ الأدب العربي، ص ١٥٢-١٥٤، وصيف، شرقي، ولجنة من أدباء الأقطار العربية، (١٩٥٦) أسرحلات، القاهرة: دار المعارف، ص ٤٢ ٤٤



فقد قام ابن جبير برحلته من لأندلس إلى مصر على مركب صليبي، وفي الوقت الذي كنت فيه بلاد الشام تحت قبضة الصليبيين، ثم أبحر من عيذاب على البحر الأحمر في مصر إلى جنة للحج وكان ابن جبير، دقيق الملاحظة فيما احتوته رحلته من مادة غنية عن التجارة، وإجراءات الجمارك والضرائب، وأحوال البحر، وعن أنواع السفن وطريقة صيانتها.

وفد أبدى ابن جبير استياءه من الطريقة التي عوملوا بها من أصحاب الجمارك الذين أربلوهم من مراكبهم مع أمتعتهم وأخضعوهم للتفتيش، فوقع التفتيش لجميع الأمتاب، ما دق منها وما جن، واختلط بعضها ببعض، وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ثم استحلوا بعد ذلك، هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا^(١) ويقول أيضاً فلما كان عشي يوم السبت دحسا عيذاب، وهي مدينته على ساحل بحر جنة غير مسورة، أكثر بيوتها الأحصاص، وفيها الآن بناء مُستحدث بالحصن.

وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند وليس تحطّ فيها وتقع منها رائداً إلى مراكب الحجاج المندرة والنواردة وهي في صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء إلا مخلوب، لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرقى كثير ولا سيما مع الحجاج، لأن لهم على كل جمل طعام يحمونه خيرية معلومة خفيفة الموزنة بالإضافة إلى الوظائف المكوسية التي كانت قبل اليوم التي ذكرنا دفع صلاح الدين لها^(٢).

ويحدثنا ابن بطوطة عن مركز مهم للجمارك على الحدود بين مصر والشام بعد العريش، هو مركز قطيا الذي كان يجري فيه مثل هذا التفتيش، فيقول ربها تؤخذ الزكاة من التجار، ونفس أمتعتهم، ويبحث عما لديهم أشد البحث، وفيها الدراوين، والعمال، ولكتاب والشهود، ومجباها^(٣) في كل يوم ألف دينار من الذهب، ولا يجوز عليها أحد إلى

(١) رحلة ابن جبير، ص ١٣

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥

(٣) مجباها مقدار ما تحصله من ضرائب، ابن بطوطة، لسان العرب ١٢٩/١٤

الشام إلا ببراءة من مصر، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام، احتياطاً على أموال أساس، ونوقياً من الخو سيمس العراقيين وطريقها في صمان العرب، قد وكلوا بحفظه فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به أثر، ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل، فإن وجد به أثراً طالب العرب بإحضار مؤثره، فيدهون في طلبه، فلا يموتهم، فيأتون به الأمير، فيعاقبه بما شاء^(١)

وقال ركي محمد حسن والحق أن ازدهار الحضارة الإسلامية، وسيادة المسلمين في البر والبحر، وطبيعة الدين الإسلامي، كل ذلك من شأنه أن يشجع على الأسفار والرحلات^(٢) فالرحلات البحرية كانت مسيل العلماء إلى معرفة الأرض وشعوبها وجغرافيتها

لقد عانت الأندلس والمغرب من ازيمات الاضطراب والقلق، التي أدت إلى تأخر التجارة وضعفها، لذا فإنه من المؤكد أن قسماً من لرحالة خرج متعباً من العيش في جو أكثر استقراراً ولأن الرحلة قد تطول، فيحتاج المرء حل لمصدر ورق يساعده في متابعة رحلته، فقد كان يبحث دائماً عن تجارة أو عمل يغطي نفقاته، فابن بطوطة تولى انقصاء مرة في دهلي أما لورادة والكتابه فليست شغلي، وأما الفصاء والمشيحة فشغلي وشغل آثاني^(٣) وأخرى بجزيرة ذبية المهل، ولقيت بها رجلاً اسمه محمد من أهل طعار الحموص، فأصافني، وقال لي إن دخلت جزيرة المهل أمسكك لورير بها، فإنهم لا قاضي عندهم^(٤).

ولعل بعض الإشارات الواردة في الرحلات عن وجود القادق بكثرة في البلاد التي يزورها الرحالة، تدل على أنه قد هيء سكر للتجار والحجاج وأعد لسرول المسافرين به،

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٥٢-٥٣

(٢) حسن. ركي محمد. الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٦

(٣) رحلة ابن بطوطة ١١٧/٢

(٤) المصدر نفسه ١٨١/٢



فهذا ابن جبير يصف أحد فنادق مدينة جدة، فيقول 'وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالعقرف، وبها مطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر'^(١)

سادساً: العامل السياحي:

كان هدف بعض الرحلات لبحث عن الحرية، وانطلاق إلى ما وراء البحر المكنسي، حيث المهم هو السفر لا البلد الذي يرحل إليه، وحب الاطلاع والرغبة في اكتشاف المجهول ولأصقاع، والمتعة في الانطلاق من تلك الأصقاع إلى مجاميل أخرى وأصقاع جديدة. ولا يعتمد عن المألوف إلى الانطلاق إلى الأوسع وكل جديد لذا جاءت بعض الرحلات لجوب الأفاق والسعي إلى ارتباد البعيد، وامتطاء أجنحة الرياح حباً في المغامرة والترويح عن النفس، وقد امتدت الرحلة لتتجاوز ركب الحجاج أو المهام الرسمية، أو طلب العلم، فيستهر الرحل الفرصة مدفوعاً بروح المغامرة والاستكشاف، والشوق إلى المجهول، ليحول في البلاد التي اتسعت رقعة الدولة الإسلامية فيها وشاع الأمن في أكثر أقاليمها، يريد أن يرى كل شيء، ويجرب كل شيء، فتسفر نتائج هذه الرحلات عن رده المعرفة التي تحققها في سبيل حير الإنسان، فتكون ذات فائدة تتجاوز حدود التشويق والتسلية

وعليه فقد تجتمع عدة أسباب برحمة ما، كرحلة ابن بطوطة التي كانت حجاجية، وسياحية ومغامرية، زار خلالها لمشرق وجمال البلاد وتوغل في عراق العجم ثم دخل الهند والسند والصين^(٢)، لباعث على لتقن شديد العرائم^(٣)، وما ذلك إلا لإيمان الرحالة إيماناً عميقاً بالفوائد الثرة التي تمنحها الرحلات للقائمين بها^(٤)

سابعاً: العامل الشخصي:

(١) رحلة ابن جبير، ص ٥٣

(٢) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ١٠٠/٤.

(٣) رحلة ابن بطوطة ٢٠١

(٤) انظر في فوائد أسير العراقي أبو حامد محمد بن محمد، (ت ٥٠٥هـ) تهذيب إحياء علوم الدين،



ربما يرتبط هذا العامل بالعامل الديني، فقد ازداد تدفق الرّحالة إلى بيت المقدس، يعبرون عن مشاعر التأييد لصالح الدين الأبوي، ويهنتونه بتحرير بيت المقدس من الأمة الضالّة، ولعلّ رحلة ابن جبر الثانية للمشرق أدلّ على ذلك فقد أجمل سببها لسان الدين بن الخطيب في قوله "ولما شاع الخبر، لمهج بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، قوي عزمه على عمل الرّحلة الثانية، فتحرّك إليها من عرماطة يوم الخميس لتسع حلون من ربيع الأوّل من سنة خمس وثمانين وخمسائه ثمّ آب إلى غرماطة يوم الخميس لثلاث عشر حلت من شعبان سبع وثمانين وخمسائه"^(١)

وفي إطار الدوافع التي دعت إلى القيام بالرحلة، فإنّ هالك عوامل أخرى يمكن إصافتها إليها، وإن كنت لا نقدم إشارات واضحة ومباشرة، إلا من بعض التلميحات، فقد تدفع الاضطرابات والعن والحروب أو الثراء في بعض المجتمعات إلى رحيل البعض هرباً من كلّ ذلك، ورهلاً ومجاردة للأماكن المقدّسة وأتباع طرق النصوص^(٢)

وهكذا عرّضت الدراسة بصفة للدوافع الموجبة والسّلبية للرحلة عند العرب والمسلمين الأندلسيين والمغاربة للمشرق وبعض الأنظار الأخرى، إبان الفترة من منتصف القرن الثالث الهجريّ حتى نهاية القرن التاسع الهجريّ وقد تعددت هذه الدوافع، وتداخلت لتأتي جملة متكاملة من العوامل، تأتلب ليجتمع بعضها، كاجتماع العامل الدينيّ والثقافي، أو الدينيّ والاقتصاديّ، أو الدينيّ والعامل الشخصي، وهي إن تعددت، فإنّها لم تخرج في معظمها عن الجمع بين أداء فريضة الحجّ وطلب العلم والمعرفة الدينيّة، فجيءت سقاً مكاملاً يلتقي مع كلّ الشّاطات الإنسانيّة، التي تشكّل الحضارة الإنسانيّة بكلّ أبعادها، وتساهم في فرار الرّحلة، الأندلسيّة والمعرفيّة على مرّ العصور

ب. أهمية الرّحلة؛

(١) ابن الخطيب، الإحاطة ٢/٢٢٢، والأوصي، الدليل والكلمة ق ٢، سفره ص ٦٠٥-٦٠٦

(٢) كما فعل البجائي فقد كانت رحلته هروباً وابتعاداً من موسى الياسة، والنايات القبية واضطراب الأحوال الاجتماعيّة، انظر، البجائي، رسالة الغريب إلى الحبيب، ص ٦



إن فنّ الرحلات من الصنّ العنّون بمياة الأفراد والأمم، ويقول حسني محمود حسين: إنّ غمط الرحلات يتعرّص إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد، إذ تتوفّر فيه مادة ويرة بما بهم المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرّحي الآداب والأديان ولأساطير فالرحلات مابع ثرة لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجلّ حقيقيّ لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مرّ العصور^(١)

وهكذا كان أدب الرحلة في الأندلس والمغرب، تصويرٌ للحصارة، بما تحوي من طريف الأخبار، ودرر الحكايات، وعجائب المخلوقات وعادات الأمم وأحلافهم، وبما فيها من فوائد تاريخية، وجغرافية، وعمو بثروة أدبية، ووصف للحوادث والبلاد ولأصقاع، فرحلة ابن بطوطة أدوات الجغرافية الطبيعية والبشرية والعادات والتقاليد الاجتماعية، واثاثورات الشعبية، وليس أدلّ على ذلك من قول ابن جزي^(٢): ولا يحصى على دي عقل أنّ هذا الشيخ هو رحّال العصر ومن قال رحّال هذه الملة لم يبعد^(٣)

والرحلات تكشف ما لا يكشفه لتاريخ، فالتاريخ هام يشتمل على تصوير لحياة البلدان الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ونظم الحكم شعب من الشعوب، وهذا ما حقّقه الرحلات غير أنّها أعطت كل ذلك بعده المناسب، وتطوّرت إلى تحليل جواسيب لم تتطرق إلى تحليلها الوثائق التاريخية، فقامت الرحلات بوضع كلّ ذلك في دائرة لإشباع التي توحه إليها لاستجلاء الواقع، وإخراج التاريخ عن حدوده الضيقة

(١) حسين، حسني محمود. أدب الرحلة حد المغرب، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٥

(٢) هو محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزي الكندي من أهل غرناطة، وأعينها يكنى أبا عبد الله، برز في الأدب واصطلم بمعدناه الشعر وإنقاد الخط شأ بعراطة، وانتقل إلى المغرب، توفي بفاس في أول سنة ٧٥٨هـ/١٢٥٦م انظر، ابن الخطيب، الكنية الكاشفة، ص ٢٢٣، ابن الخطيب، الإحاطة ١٨٦/٢، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٥ والمقري، أزهار الرياض: ١٨٩/٣، والمقري، نصح الطيب: ١٧٠/٢

(٣) رحلة ابن بطوطة ٣١٢/٢



إن أهمية الرحلات تكمن في قيمتها العلمية والصية، والقيمة العلمية، تمثلت بتزويد أهل التاريخ والجغرافية والآثار والأدب وغيرهم بمعلومات قيمة عن وصف المدن ولطوق العمران والبلدان، وأخبار الناس وعاداتهم وتقاليدهم والحوادث الغريبة، بل إن لرحالة أنفسهم يحصلون على علم واغر ونجارب كثيرة في مختلف الميادين في التربية وأساليب التعليم ولتهديب، نظراً لما يصادفهم من المصاعب وتعدد من يقابلونه وما يؤكد ذلك أن الراحل حين يعود إلى الأندلس يعمل في لتدريس وكان يكلف بانقصاء ومهام أخرى

أما القيمة الفنية، فتترد القراء بمعلومات، وصور ممتعة، وأخبار تليد وممتعة، وتستعرض الأحداث بصورة أدبية، تتق مع النفس البشرية، فتشكل رائداً ثراً من روافد الفن والمتعة الأدبية

يقول خالد بن عيسى اللوي في الصفحات الأولى من رحلته همد، تقييد أطلعه عون من الله وتأيد، قصدت به مسعد موارد الرحلة الحجازية، وذكر معاهد الوجهة المشرقية جعلها الله تعالى في ذاته واتعاء مرضاته بمنه وكرمه، وألمت مع ذلك بذكر بعض الشيوخ من العلماء الفضلاء الذين يطؤون ذبول البلاغة، ويمجرون فضول البلاغة، ولهم كلام يتألف منه شعاع الشرق وترقرق عليه صفاء العقل ويتبث فيه فرد الحكمة، ويعرض على حلى البيان وينقش في قصص الزمان وألمت بذكر بلد من فوائدهم واختيار طرف من أناسيدهم، ومرجها بما جرب إليه العبارة وحسب فيه الإشارة من قطع الشعر المناسبة، قطع التور المنظمة من جواهر البصير البعيدة الغور القرية الحفظ. (١)



فتمثلت قيمة الرحلة في الجانب التاريخي والجانب الأدبي ثم الجانب الجغرافي والجانب الوثائقي، وهذا ما يجعل الرحلة جيدة، فالرواية الصادقة والملاحظة الدقيقة ولإلتقاء بالعلماء والشيوخ والأخذ عنهم، له الأثر الكبير في الوثوق بالرحالة، حين يتحدث عن مشاهداته وقد شعر كثير من رجال الفكر والأدب بقيمة ما دونة هؤلاء الرحالة في كتبهم، فعمدوا إلى إخراجهم وتحقيقه، للاستفادة من الماضي وتوظيفه في المجالات العلمية والأدبية والاجتماعية واستغلال معطياته لخدمة المستقبل.

ولعل أبرز ما يميز أدب الرحلات تنوع الأسلوب من السرد النصفي للمغامرات، والمواظف المحركة للبشر إلى الحوار والوصف لطريف وغيره، وبما فيه من متعة ذهنية، مما حد، بالدكتور شوقي ضيف إلى اعتبار أدب الرحلة عند العرب حبر رذ على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي تهمة قصوره في فن القصة^(١) وانطلاقاً من ذلك كله نحي هذه الدراسة لتناول الرحلات وأساليب الرحالة المتنوعة، وتعمل على بيان الطاقة القصصية للإنسان العربي.

وبعد، فن عدد الرحلات التي استطاعت هذه الدراسة الوقوف عليها ودراسنها، قد بلغت ثلاثين رحلة مثلت اتجاهات مختلفة واقعية، ووصفية، وسردية، وغرائبية وكانت هذه الرحلات من أهم المصادر التي نقل عنها المؤرخون والجغرافيون الكثير من أوصاف البلاد النائية، وخاصة أن بعض الرحالة ارتحلوا عبر مرة ثم أضى على رحلاتهم الدقة، والوقعية، والصدق، والأمانة فيما نقلوه من مشاهدات وانطباعات

(١) ضيف، شوقي، الرحلات، ص ٦.

ج عن أبرز الرحلات^(١)؛

رحلة العذري^(٢)، وهي رحلة بعنوان ترصيع الأحبار وتنويع الآثار والستن في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك^(٣) وقد ورد له اسم آخر هو نظام المرجان في المسالك والممالك^(٤)

ويبدو من نص الرحلة، ميل العذري الشديد إلى تصديق لعجائب، حيث أفرد قطعاً لمختلف أنواع العجائب في رحلته، ويرى كراتشكوفسكي أن الرحلة لم تقتصر على الأندلس ومدنها. تدمير وينسية، وسرقسطة، وكورة إشبيلية وغيرها، فالقطع لي نقلها عنها بأقوت مثلاً خمس في الواقع مدينة مكة^(٥)

وقد كان العذري أستاذاً للبكري، لذا فليس من العريب أن يمثل مصنفه مصدراً من المصادر الأساسية لمصنفات البكري في ميدان الجغرافيا، كما رجع إليه الإدريسي أيضاً^(٦)

() وقد ترجم صالح محمد أبو دياك لعدد كبير من الأندلسيين والمغاربة من رحل إلى الشرق في بحث له بعنوان لتبادل الفكري بين العرب والأندلس وشبه الجزيرة العربية منذ الدار، العدد الثاني، السنة الثالثة عشرة، ١٩٨٧، ص ١٠٣-١٢٤

(٢) ورعت الترجمة، للدراسة هذه، ص ٢٥، حاشية رقم ٢

(٣) هو لعمري، لتحقيقي للكتاب وأشار إليه إحدى الأوراق التي تألف منها النص والخاصة بالسفر السابع، وقد حقق عد انحرير الأهوازي خصوصاً من هذا المخطوط في كتاب حمل العنوان ذاته، وطبع بمعهد الدراسات الإسلامية بمadrid، ١٩٦٥م، ولا توجد إشارة تدل على عدد أجزاء ترصيع الأحبار، وإن كان يرجح أنها بلغت سبعة، فقد انتهى الحديث عن الأندلس في السفر السابع، فهل كان انتهاء السبع ماثلاً الحديث عن الأندلس؟ انظر، ترصيع الأحبار، مقدمة المحقق، ص ٣، ط ١ وانظر، أمه البدوي في دراسة لها م تنشر بعد بعنوان تتبع رحلات الأندلسيين والمغاربة المخطوطة من القرن لتالث الهجري وحتى القرن التاسع الهجري، ص ٣-٤

(٤) انظر، الحموي معجم البلدان ٢، ٤٦٠، وكراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٢٩٥

(٥) انظر، ترصيع الأحبار، وتنويع الآثار، ١٩٦٥، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ص ١، ٩، وكراتشكوفسكي تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٢٩٥-٢٩٦

(٦) انظر، كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي



رحلة أبي عبد الكريّ الأندلسي^(١)، عاش خلال القرن الخامس الهجري، أكبر جغرافي عرفت الأندلس، ويدعو في رحلته جغرافياً واقتصادياً خبيراً رغم أنه لم يترك الأندلس، وكان يتنقل في مدينتها فقط^(٢)، إذ يبدأ بالوصف والحدود والتاريخ، ثم عادات أهل المكان، وخصائص الناس وطبائعهم، كذلك الموارد والمحاصيل والمعادن والصناعات الخ، ويخصص فصلاً للأنهار ودجلة ولفرات، والتيل، وأنهار الأندلس، ويخصص فصلاً لموانئ ساحل البحر المتوسط ابتداءً من المغرب حتى الشام ولأناصول، والأندلس، وهو أثناء ذلك يذكر قيمة كل ميناء ويصف المسالك البحرية إلى جانب البرية.

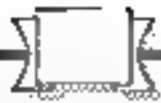
وحلف لك الكريّ مؤلفات مهمة في مجال الجغرافيا المسالك والممالك^(٣) ومعجم ما استعجم، وقد وصف الإفرنجية والصقالبة والأسبان والخرور والروم وغيرهم رحلة الإدريسي^(٤)، في القرن السادس الهجري، وقد بدأ الإدريسي أسماءه مد من من مكنة، فزار أماكن لم تكن مأروفة في تلك العصور، كما أن معرفته الواسعة بالأماكن

(١) وردت ترجمته في هذه الدراسة، ص ٢٥، حاشية رقم ٢

(٢) انظر، كراتشكوفسكي تاريخ أدب الجغرافيا العربي، ص ٢٩٦-٢٩٧

(٣) ذكر كراتشكوفسكي أن هذا الكتاب لم يحفظ كاملاً، وكل ما تبقى منه هو أوصاف أفريقيا الشمالية ومصر والعراق، وسكان بواحي بحر قزوين، وبعض أجزاء أسبانيا، ومن أكثر أوصافه تفصيلاً، وصفه لأفريقيا الشمالية الذي أصبح في متناول اليد بفضل طبعه وترجمة دي سلان انظر، كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٢٩٨

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس، وينسب إلى بيت الأدارسة العلويين الذين طلبوا وقفاً ما بأخصهم في الخلافة، ولد ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م، تلمذ العلم بقرطبة، وتوفي ٥٦٠هـ/ ١١٦٠ على أرجح الأقوال، انظر ترجمته، الإدريسي، مرآة اشتاق، المغرب العربي، الجرائد، ١٩٨٣، ص ١٣، كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ص ٣٠٤-٣٠٥، وبالشيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٣١٣-٣١٤.



ومراكش ليست أمراً غريباً، ويبدو من مواضع مختلفة من كتابه ثروة اشتاق في إحتراف الآفاق، أنه رار لثبوتة وسواحل فرنسا، وإنجلترا، وإفريقيا الشمالية وآسيا الصغرى، ثم اتصل الإدريسي بروجر الثاني في صقلية، ثم رجع إلى مسقط رأسه سبينة

وفد رحل الإدريسي لتأدية فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، فقرر مصر والحجاز ودون مشاهدته في رحلته التي حملت عنوان آخر كتاب رجار أو الكتاب الرجاري^(١) نسبة إلى رابعه الملك رجار ملك صقلية، الذي وضع تحت إشراف الإدريسي مجموعة من العارفين والمتجولين في البلاد الثائية، وأمر أن يبرع له من لفظة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الحرم ضخمة الجسم في وزن أربعمئة رطل بالرومي في كل رطل منها مائة درهم وثنا عشر درهماً، يصح منها الإدريسي كرة ينقش عليها المصورون البلدان والأقطار والبحار.. الخ^(٢)

فأثره، استنص الصيرري للخريطة المجسمة للعالم، وهيئة الأرض، فقد قسم الإدريسي العالم المعمور إلى سبعة أقاليم، ومع هذه الخريطة قدم الإدريسي إلى روجر الثاني كتابه ثروة المشتاق كمصدر للجغرافية الطبيعية والبشرية، فوصف أحوال البلاد وخلقها ويقاعها، مستعيناً بما أفاده من رحلاته التي قدم بها، كما أفاد من المعلومات التي جمعها الرواد ندين أرسلهم روجر الثاني إلى البلاد الثائية، وبما قيده من أحاديث الرحالة ولتجار والحجاج^(٣)

(١) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٠٨، وأحمد، ومصاد أحمد، (١٩٨٠) الرحلة

والرحالة المسلمون، جنة، دار البيان العربية، ص ١٦٢

(٢) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣١٨

(٣) انظر، صفة العرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص ١٤، ٢٢، ٥٠، ١٦٤، ١٩٧



وقد حفظت الخريطة والكتاب في مخطوطات عديدة^(١)، ولكنها ليست كاملة دائماً، إلا أنها في مجموعها تمكن من بناء متن الكتاب والخارطة معاً

رحلة أبي حامد العرباطي^(٢)، في القرن السادس الهجري، الذي يمثل إضافة حقيقية للجعرايين وأدب الرحلات، يقول جمال حمدان: "ويجوز أن نعدّه مستنداً يحرر وسر معاً أو

(١) يشير كراتشكوفسكي إلى المخطوطتين المعروقتين من الصف الأول للقرن التاسع عشر، وهما مخطوطتا باريس وأكسفورد وأنه قد نهم إليهما أيضاً مخطوطات استنبول، ومخطوطة القاهرة، ويبدو أن الأصل في العثور على نسخ من كتاب الإدريسي لا يزال يراود الكثيرين حتى الأونة الأخيرة، فمثل خمسة أعوام تقريباً تواترت الأنباء بالكشف عن مخطوطة له في شومين ببلغاريا، إلا أن نقصي صحة هذا لرغم لم يتم، ولحال نفسها في الرعم القائل بوجود كتاب الإدريسي في إحدى مجموعات المخطوطات بمدة الموصل وحلبا بشرت قطع من كتاب الإدريسي صفة المسد وما يجاورها من البلاد ١٩٥٤م، و صفة مغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ١٩٦٨م، والقارة الإفريقية وجزيرة الأندلس ١٩٨٣م، والمغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق باللعين العربية و لفرسية ١٩٨٢م، وأعاد بسره مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٢م. انظر: مرياً من الحديث عن هذه المخطوطات، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٠٩ ٣١١ وتاريخ الفكر الأندلسي، ص ٣١٣، وقد تناولت أمنة ليدوي ترجمات كتاب الإدريسي بشيء من التفصيل في دراسة لها لم تُشر بعد، وهي بعنوان تتبع رحلات الأندلسيين والمعاصرة المطبوعة والمخطوطة من القرن الثالث الهجري وحتى القرن التاسع الهجري، الجامعة الأردنية، ص ٦ ٧

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن سليمان القيسي، يكنى أيضاً أبا محمد وأبا بكر، ولد عام ٤٧٣ هـ ١٠٨٠م رحالة جواباً، معمرأً قضى حياته في لرحلات داخل وخارج دار الإسلام، رار صقلية سنة ٥١١ هـ ومنها ذهب إلى مصر ثم رار بغداد، وإيران، ووصل إلى ضفاف نهر الفولجا ورر هناريا، وهاك كان يمتلك مراً، بل إن ابنه الأكبر قد تزوج ببلدين من أهل تلك البلاد، وأقام بها نهائياً، ثم عاد إلى بغداد والموصل، وتوفي بدمشق عام ٥٦٥ هـ / ١١٧٠م انظر ترجمته، رحلته المغرب عن بعض عجائب المغرب، مقدمه لمحقق، ص ١٠، لمصري، مع الطيب ٢/ ٢٣٥، كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٢٦



ابن الأندلس، فهو ليس كاتب رحلة، ولا جامع عجائب وغرائب، ولا جغرافياً خالصاً، بالطبع، بل الثلاثة معاً^(١)

وقد سجل أبو حامد العرناطي كل مشاهداته وخبراته في كتابين تحفة الألباب ونخبة الإعجاب^(٢) و المعروف عن بعض عجائب المغرب، حيث اتجه اتجاهاً حطيراً، نحو تصور العجائب و لغرائب بطريقة خرافية غير محفولة، غير أن بعضها اليوم يرى معقولاً

فالتحفة ألها صاحبها بعد أن طوّف في أصقاع كثيرة من بلدان المغرب والشرق ليجمع فيها ما شاهد وسمع من عجائب الدنيا، فقسم كتابه إلى أربعة أبواب ذكر في الأول منها أصفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها، وحصر الباب الثاني في أصفة عجائب المدن وغرائب البساتين، أما الباب الثالث، فيشمل أصفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من لغير والقار وما في جزائرها من أنواع النقط والثر، ينما تحدث في الباب الأخير عن صفات الحمائر و لفسور وما تضمنت من العظام إلى يوم البحث والتشور.

وقد جاء الكتاب حافلاً بأمثلة العجائب التي جمعها المؤلف ليبرر من خلالها عظمة الخالق، فالأساطير والخرافات تظل امتع ما يوجد في التحفة، حيث تأخذ القارئ وتشده

(١) مقالته تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، تأليف د. حسين مؤنس، مجلة المجلد، العدد ١٤٥، السنة ١٩٦٩، ص ١٢

(٢) وقد تداول النسخ التحفة وتصرفوا بها، فتعددت متونها واحتلت بصورها، فاعتمد بعض الدارسين مطبوعة هربيل ميران الفرنسية التي نشرها في المجلة الآسيوية سنة ١٩٢٥م وحققها إسماعيل العربي، وصدرت عن دار الخيل (بيروت)، ودار الأفاق الجديدة (المغرب) وبعضهم اعتمد مطبوعة المستشرق الإسباني سيزار دولر التي نشرها سنة ١٩٥٢م. بعنوان رحلة أبي حامد إلى بلاد آسبة وأوروقة وعن مطبوعة دولر إحدى نسخ التحفة الأولى لتحفة أبي حامد العرناطي، التي قام فيما بعد بتعديلها وتبويبها، وإضافة موضوعات أخرى إليها، انظر، العرناطي، أبو حامد عبد، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ط ١، حررها، قاسم وم، دار السريدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٣، ص ١٧-١٨.



إليها شدد، فلا يجد مناصباً من متاعاة انقراة والاستمتاع بالحكايات التي تنأى عن الوقع اليومي. بل إن المفارقة الكبرى في تحفة أبي حامد الغرناطي، أن يصعظ من خلال هذا الخائب على القارئ حتى يلتزم بواقعية ما يروى، والخائب الأسطوري والخرافي يطع على الواقعي.

ولعل قيمة رحلة الغرناطي مرتبطة إلى حد كبير بالخائب الأسطوري والخرافي الذي يأبى الرحالة أن يتعته بهائين الصفتين : إذ يحاول أن يقع المتقبل بصحة ما يرويه له، فيذهب إلى أن عدم التصديق لما يرويه يجرى إلى صعب في نسبة العقل لدى المتقبل من جهة، وإلى الجهل من ناحية ثانية لأن الذي يعرف الجائر والمستحيل يعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدرة الله تعالى قليل، فالعقل إذا سمع عجباً جائزاً استحسسه ولم يكذب قائله ولا هجّه، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهد قطع بتكذيب وتزيف ناقله. وذلك لقلة بضاعة عقله، وضيق باع فضله^(١)

لهذا، فإن التحفة تحفة قيمة أتم الرحالة تصنيفها في عام ٥٥٧هـ / ١١٦٢م بالموصل بخرمية من عالم متصرف هو الأردبيلي^(٢). وهي تحفة تنرد بنا إلى الوراء لتتوزع عرافات البلاد والشعوب. ابتداءً من ياجوج وماجوج إلى أمم السودان وإلى الهند والصين، وتصوير الحيوانات الأسطورية .. إلخ

وبصل بتلك العجائب إلى علوم الكون، فيصف ظواهر الكون وحركاته، وهو مع ذلك لا تخلو عجائبه من حقائق صحيحة ومعلومات حقيقية، جبل البار بصقية^(٣)

(١) أبو حامد الغرناطي، رحلة التحفة، ص ٢٤

(٢) هو معين لدين أبي حمص عمر بن خضر الأردبيلي، وهو مؤلف معروف ذكره بركلمان وسب إليه كتاب وسبة المتعدين. انظر ترجمته، أبو حامد الغرناطي، تحفة الأديب، مقدمه المحقق، ص ١٢، وفي الرحلة، ص ٢٢، ومؤنس، حجب، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، ص ٣٢٣، وكراشكوسكي تاريخ الأدب المغربي، ص ٣٢٦-٣٢٧

(٣) أبو حامد الغرناطي، رحلة التحفة، ص ٩٠، ١٥٥

(بركان أتنا) والبحار الداخلية التي تتصل بالمحيط الأعظم وتخلو من امدّ والجُرر^(١)، وحكايته عن هغاريّا تلقي صوّماً على أصل المسلمين الهنغار وأوضاعهم ومعلوماته عن شعوب القوقاز نالت أهمية كبرى^(٢)، وكذلك ملاحظاته التي سجلها عن الأقليات المسلمة من المغاربة أو الخوارزميين، حيث يصف وضعهم اسياميّ، وكيف يتظاهر البعض بالنصرانيّة ويكتم الإسلام. الخ^(٣)

والمعرب^(٤)، رحلة تعدّ وثيقة تاريخيّة وجغرافيّة نادرة عن مختلف البلدان التي زارها، حيث يرسم صورة دقيقة للسنّة الطسعة ومخط الحاة في ثلث الأصقاع. فيصف قصر النهار وطول الليل في الشتاء في مناطق جنوب روميا^(٥)، ويذكر أسماء العديد من أصناف الأسماك، كاسماك الخطاف والرعاد، إلخ^(٦) وخلال ذلك كلّه يحدد آخر حدود الإسلام تحت ثلوح العروض الشماليّة المظلمة^(٧)

رحلة بنيامين بن بونة التطيليّ الناريّ الأندلسيّ (ت ١٥٦٩هـ) في التصف الكبي من القرن السادس الهجريّ، وهو تاجر أخذ يتجول في بلدان المشرق الإسلاميّ وأوروبا

(١) المصدر نفسه، ص ٨٣

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ١٥٣، ١٥٥، وتاريخ الجعر في العربي، ص ٣٢٦-٣٢٩

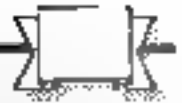
(٣) أبو حامد الغرناطي، رحلة النخبة، ص ١٣٨

(٤) ومن التسميات الأخرى للمعرب نخبة الأدهن في عجائب البلدان، الذي أخذ من مخطوطة أكاديمية التاريخ بمديرد، وهذه المخطوطة نسخة أخرى في مكتبة جوتا تحت رقم (١٥٣٥)، وقد درستها هارتمويج ديربور، وكتب عنها مقالاً وصف فيه المخطوط بأنه صميم الحجم، عدد أوراقه (١١٤) ورقة ومها أيضاً المغرب من بعض عجائب البلدان انظر، مؤسس، حسين، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، ص ٣٢٦-٣٢٧

(٥) الغرناطي، أبو حامد، المغرب عن بعض عجائب المغرب تحقيق، إيعود يحرار، المجلس الأعلى للأبحاث العلميّة، مدريد، ١٩٦١، ص ٢٩-٣٠

(٦) أبو حامد الغرناطي، المغرب، ص ٧٦-٧٧

(٧) المصدر نفسه، ص ١٤٥-١٤٦.



بدافع الاطلاع الشخصي على أحوال اليهود، ورحلته مدونة بالعبرية، وترجمها إلى العربية عررا حنكاد وشرت في بغداد عام ١٩٤٥م

قام برحلته سنة ٥٦١هـ-٥٦٩هـ / ١١٦٥م-١١٧٣م، حيث انطلق من تطيله ليبدأ بعد ذلك جوفته في برشلونه، وسواحل فرنسا، ثم يتجول بعدها في سوريا ولسان ودجلة ولسرات، ويبيت المقدس، حيث يصف وضع ايهود تحت لاحتلال الصليبي، ويقدم معلومات عن ايهود، وعددهم وأحوالهم وأوضاعهم ومراكزهم العمية والاجتماعية^(١)، ثم يتابع رحلته إلى جزيرة العرب، ويروي لنا بعض الأساطير والحكايات التي كان يسمعا أو كانت تروى له. ثم يقص أخبار بحار الصين وأحوالها ومهالكها^(٢)

رحلة ابن جبير^(٣) في أواخر القرن السادس الهجري وأوائل القرن السابع الهجري وهي رحلة عرست الدراسات لبعثتها الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، إذ إنها أكثر حافل بالمعلومات، بل هي خير ما أتى به شاهد عيان ممن كتبوا عن الحروب الصليبية على الإطلاق^(٤) ويعتبرها كراتشكوفسكي بحق دروة من بلغته غطت الرحلة في الأدب العربي^(٥)، فمن الأندلس إلى مصر صاعداً في النيل إلى عيذاب إلى الحجار إلى العراق فالشام، ثم عودة بالبحر عن طريق صقلية، ويقدم لنا ابن جبير رسالة ثقاة في الملاحة البحرية المقارنة بين البحرين المتوسط والأحمر

ولم يهم من جبير برحلة واحدة، بل قدم ثلاث رحلات أشهرها الرحلة لمشودة تذكرو بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، التي استغرقت ثلاث سنوات (٥٧٨هـ-٥٨١هـ / ١١٨٣-١١٨٥م) وقد لفتت أنظار الدارسين، وكثير لأخذ عنها، وعظمت

(١) انظر: رحلة بياض النطيني، ترجمة عررا حنكاد، بغداد، ١٩٤٥، ص ٩٨-١٠١

(٢) انظر: المصدر نفسه، مقدمة المراجع، ص ٢٧.

(٣) انظر: ترجمته في هذه الدراسة، ص ١٣، حاشية رقم ١

(٤) انظر: مؤس، حسين، تاريخ الجغرافية والمغربين في الأندلس، ص ٤٥٠

(٥) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٣٥



العناية بها، فالمقري نوه بانتشارها بين القرّاء في عصره، فقال له رحلة مشهورة بأيدي الناس^(١)، وقال ابن الخطيب نصّفت الرحلة لمشهورة وهو كتاب مؤسس بمنح مشير سواكن الأنفس إلى تلك المعالم^(٢)، وفي دراسة موسّعة لحسين مؤسس في الجغرافية و الجغرافيين، يقرّر أنّ ابن جبير يُلغ ذروة سامقة في أدب الرّحلات^(٣)

لهذا، فقد نالت هذه الرحلة عناية الدّارسين و لباحثين فشرت عدّة نشرات وترجمت إلى اللّغات العالميّة^(٤).

أمّا رحلته الثّانية فقد استغرقت عامين (٥٨٥هـ - ٥٨٧هـ / ١١٨٩ - ١١٩١م) وكانت بعد سماع ابن جبير بفتح صلاح الدين الأيوبيّ لبيت المقدس (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، وقام برحلته الثّالثة إلى المشرق وهو شيخ كبير قد أحرّنه وفاة زوجته في عام (٦٠١هـ / ١٢٠٤م) ولم يرجع إلى الأندلس مرّة أخرى بل أمضى أكثر من عشرة أعوام متنقلاً بين مكّة وبيت المقدس والقاهرة مشغولاً بالتدريس والأدب إلى أن وافقه طليّة بالإسكندرية في عام (٦١٤هـ / ١٢١٧م) ورحلته الأولى فقط هي التي وصلت إلينا تفصيلها في كتاب متروك، وصحه بعد رجوعه عام (٥٨١هـ / ١١٨٥م)^(٥)

(١) المقري، فتح الطيب، ٢/ ٢٨٦

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة ٢/ ٢٢٠-٢٢٩

(٣) مؤسس، حسين، تاريخ الجغرافيين في الأندلس ص ٥١٩

(٤) لم يعرف سوى مخطوطة وحيدة لرحلة ابن جبير، وكتاب موجودة يليد و يرجع تاريخها إلى عام ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م. وأصبحت الرحلة معروفة لدى الناس بفضل الطبعة الحزنية لدوري وأماري فيما يتعلّق بالمادة المختصة بصقبة بالذات. ولم تلت الرحلة أن أصبحت في متناول الأيدي بفضل الطبعة الكاملة التي نشرها المشرق البريطاني رايت ١٨٥٢م، وأعيد طبعها في سنة ١٩٠٧م انظر، رحلة بن جبير ص ٦، وكراشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٣٣-٣٣٤

(٥) انظر، كراشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٣٣



وقد وجدت بعض لرحلات التي لا تخلو من بعض الصنة بالكري والإدريسي وابن جبير ومنها كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار^(١) لرحالة ومؤلف مراكشي مجهول، ويبدو من خلال بعض الروايات في الرحلة أن هذا الرحالة قد عاش في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور الموحد الذي حكم ابتداء من عام (٥٨٠هـ / ١١٨٤م) إلى عام (٥٩٥هـ / ١١٩٨م).

ويرجح كراتشكوفسكي أن تاريخ تأليف الكتاب يعود إلى عام (٥٨٧هـ / ١١٩١م)، وأن الرحالة المجهول قد أدى فريضة الحج، فهو يصف الحرمين وصفاً مفصلاً ثم يتقل إلى الكلام عن مصر ويتحدث عن أهراماتها، ثم يتقل إلى بلاد المغرب والودان، ويجهد في تحيل جميع ما رآه في طريقه وكل ما سمع عن البلاد المحيطة، ويعطي وصفاً دقيقاً لها كما أضاف أيضاً إلى الكتاب روايات ومعلومات عن مدينة فاس^(٢)

رحلة ابن سعيد المغربي الأندلسي الغرناطي^(٣)، في القرن السابع الهجري، وقد تنقل ابن سعيد في تجواله من المغرب في مختلف الأمصار، والتقى بأكابر العلماء، ورأى أفضل

(١) يرى كراتشكوفسكي - أن المعلم يدين بمعرفة هذه الرحلة إلى كريمر A. Kremer الذي نشر المتن عام ١٨٥٢م معتمداً على مخطوطه بيتا مع عرض مفصل لمضمون الكتاب باللغة الألمانية، ومخطوطة باريس التي استعملها لأول مرة أماري قد ساعدت في تغطية الفجوات التي بمخطوطة ب، غير أنها لا هي ولا مخطوطة الجزائر صوناً على حل المشاكل المتعلقة بأصل الكتاب ومضمونه أما ترجمة فانيان، ١٩٠٠، التي اعتمد فيها على المخطوطات الثلاث ورودها نكبة من الشروح والتعليقات فهي تكتل خطوات في هذا السيل وإن كانت لا تقدم لنا الكتاب في صورته الكاملة انظر تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٣٥ - ٣٣٦، ومؤلف مراكشي مجهول من القرن ٦هـ الاستبصار في عجائب الأمصار وصفاً مكة والمدية ومصر وبلاد المغرب، تعليق سعد رطلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، أفاق عربية، ١٩٨٥ مقدمة لمحقق وانظر، ابن روع القاسمي، الأبيس المطرب بروض لقرطاس في أخبار مملكة المغرب ومدينة فاس، ص ١٠٥، ١٠٧، ١٨٠، ١٨١، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٨ وما بعدها

(٢) انظر، كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٣٦

(٣) وردت ترجمته، ص ١١ من الدراسة، حاشية رقم ٢



الكتب^(١) وعبر عن حبه لوطنه بأشعار عاطفية عميقة^(٢)، ووضع سائر المدن التي زارها في مرتبة دون مرتبة مدن الأندلس وأنا أقول كلاماً فيه كفاية منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطلعت برّ أعدوة، ورأيت مدينها العظيمة كمراكش وناس ومسلا ومسبّة ثم طقت في أفريقيّة وما جاورها من المغرب الأوسط، فرأيت بجاية وتونس، ثم دخلت الديار المصرية، فرأيت الإسكندرية والقاهرة والمسطاط ثم دحيت الشام فرأيت دمشق وحلب وما بينهما، لم أر ما يشبه روتن الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينة ماس بالمغرب الأقصى ومدينة دمشق بالشام وفي حماة مسحة أندلسيّة^(٣). وقد دوّن ابن سعيد أخبار ومعالج البلاد التي زارها في بعض مؤلفاته، ومنها المغرب في حلي المغرب^(٤) والمشرق في حلي المشرق^(٥)، ولابن سعيد رحلتان "رحلة المستعجل وعقلة المستوفّر"^(٦) والتمعة المسكّية في الرحلة المكيّة^(٧).

(١) انظر، المقرئ، نصح الطبيب ملخصاً من الإحاطة ٢٧٢/٢ ٢٧٣

(٢) انظر، المصنف نفسه ٢٧٢/٢ ٢٧٠

(٣) المقرئ، نصح الطبيب ملخصاً من الإحاطة ١٠٩/١

(٤) المغرب في قسمه الأندلسي، مطبوع في دار المعارف بـ مصر، بتحقيق شوقي ضيف، في جرائن كبيرين، أما المغرب في قسمه المصري، فقد حققه ركني محمد حسن وشوقي ضيف. وسيد إسماعيل كاشف، وبين أديبا جزم و حد قامت بطبعه كلية الآداب بجامعة القاهرة، ١٩٥٣ م

(٥) وردت بعض الإشارات إلى وجود نسخة منه بمكتبة أحمد بيمور ولا يعرف سبب منع نشرها انظر، حسن محمد عبد العلي، (١٩٦٩) ابن سعيد المغربي، لمؤرخ، الرحالة، الأديب، القاهرة مكتبة الأغلو المصرية، ص ١٤٧

(٦) ذكر المقرئ هذا الكتاب وقال في وصفه ذكر فيه أنه ارتحل من تونس إلى مشرق رحلته الكتاب سنة ١٦٦ هـ وأورد في هذا الكتاب غرائب وبتائم، انظر، نصح الطبيب ٣٦٨/٢، وابعدادي، إسماعيل، ناص بن محمد الباماني، (ت ١٢٣٩ هـ) إيضاح المكنون في الدليل على كشف الظنون عن أسامي الكتب و لغون، عبي تصحيحه وطبعه محمد شرف ليدن، وكالة المعارف بـ طبعه، استأثول، ١٩٤١ ٢ ٩٦

(٧) ذكر، المقرئ نقلاً عن الإحاطة وقال وحجّ ثم عاد إلى المغرب، وقد صنف في رحلته مجموعاً سماه بالتمعة المسكّية في الرحلة المكيّة انظر، نصح لطيف ٢٧٣/٢، وإيضاح المكنون في الدليل على كشف الظنون. ٦٧١/٢



رحلة أبي محمد النجاشي^(١)، في القرن الثامن الهجري، وقد خرج من سوس لأداء فريضة الحج عام ٧٠٦هـ وتمتاز رحلته بأهمية كبرى وذلك بتزويدها لنا بمعلومات وافية عن جميع المناطق التي زارها وعن الأصفاع المجاورة لها، وهي تتناول مسائل الجغرافيا، ومسائل التاريخ الطبيعي حيث تعرض لأحبار البند والقرى والسكان وعاداتهم كما عرّف النجاشي بالمقهاء والأدباء الذين لقيهم أثناء تجواله في البلاد التونسية وطرابلس، وقد قدّم للرحلة حسن حسني عبد الوهاب، وطبع في المطبعة الرسمية بسوس سنة ١٩٥٨م

رحلة ابن بطوطة^(٢)، في القرن الثامن الهجري، حيث زار معظم بلاد الإسلامية في عصره، بل زار بعضها مرتين وثلاثاً، فقد مرّ بمصر والشام والعراق والحريرة العربية أكثر من مرّة، وقطع الحريرة العربية من الشمال إلى الجنوب ومن ناحية الحجر، ثم عاد فمرّ بجمهورية الشرقى عند عُمان، واحترق بلاد عُمان وزار القطيف ثم البصرة ومضى بعد ذلك إلى الأهوار في إيران، ثم زار آسية البصرة، وتورد في بلاد ما وراء النهر والهند الإسلامية، وذهب إلى سومطرة ومنه إلى الصين ثم عاد إلى الهند، وزار جزيرة سريلنكا، أما دلفي وقالقرط وبلاد السند فقد أقام فيها سنوات طويلة وجاءت رحلته تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار سجلاً حافلاً عن أوضاع المسلمين، فقد شاهد الكثير وعرف كيف يصور ما شاهده بدقة وبساطة، فجعلت

(١) قيل (أبو أحمد) و (أبو محمد) عبد الله النجاشي التونسي، ولم يثبت اسمه في المصادر بصورة قاطعة، خرج من تونس مصحبة أمير من بني حفص، هو يحيى بن زكريا، وبما عد عندما أصبح هذا الأسير حاكماً على تونس صار النجاشي من عمّاله المقربين إليه كما لم تشب سنة ميلاده، وبإرخ وفاته (٦٧٠هـ-٦٧٥هـ-٧١٨هـ ١٢٧٢ ١٢٧٦-١٣٨م) انظر برحلته، في رحلة النجاشي، قدّم له، حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، لبا، تونس، ١٩٨١، مقدمة الرحلة، ص ٢٠ وما بعدها. والسخاري، الصو اللامع ١٢٦/٢، وتاريخ الأدب البحراني العربي، ص ٤١١ ٤١٢، و سالم السيد عبد العزيز، (١٩٨١) التاريخ والمؤرخون العرب، بيروت دار النهضة العربية ص ٢٣

(٢) وردت ترجمته في الدراسة، ص ١٤، حاشية رقم ١



منه الأقدار رحالة مادراً عند العرب، ذلك لأنه هدف بلرحلة لداتها وضرب في مجاهل الأرض استجابة لرغته الجارفة في التعرف على لأقطار والشعوب، بعد أن كان باعته الأول على الرحلة هو إرادة الحج. وقد رحل ثلاث رحلات أولها سنة ٧٢٥هـ، وانتهى منها ٧٥٠هـ. وكان له من العمر حين ابتداء الرحلة اثنان وعشرون عاماً. ورحلته الثانية في مملكة صرناطة بالأندلس، وذلك لثلا يموتة هذا القسم من العالم الإسلامي فقد كن حريص على استيعاب البلاد الإسلامية بالزيارة ليشأى له أن يقول مفتحراً على السائح المصري الذي لقيه بإحدى المدن وهو من الصالحين جال الأرض إلا أنه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرديب ولا المغرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان، وقد ردت عليه بدحول هذه الأقطار^(١). وليصبح بعد ذلك مسافر العرب والعجم كما قال له أحد الشيوخ في بعالة كنت مسافر العرب فقال له من حضر من أصحابه والعجم يا سيدنا فقال: والعجم فأكرموا^(٢).

ثم شرع في رحلته الثالثة إلى بلاد السودان ٧٥٣هـ وببما هو في تكدا، وأما أمر السلطان أبي عمان بالرحوع إلى المغرب فكر راحعاً إلى سجدامه عن طريق توات، وفي نهاية عام ٧٥٤هـ وصل إلى فاس ويكون بهذا قد قضى زهاء ثمانية وعشرين عاماً وتريد في التنش والترحال ويبدو أن السلطان كان مشتغلاً بشيت دعائم ملكه ومحاربة أعدائه، ثم سة لأهمية ما يقوم به ابن بطوطة، فقده باستدعاء الرحالة من بلاد السودان، وأمر الكاتب ابن جري^(٣) أن يكتب ما يملكه عليه ابن بطوطة، فقام ابن جري بى كلف به من صم أطراف الرحلة ونصفها وتهديها وانتهى من ذلك عام ٧٥٧هـ^(٤) وقد ترحلت الرحلة مرات عديدة^(٥).

(١) رحلة ابن بطوطة. ٢٧٨/١

(٢) المصدر نفسه ٢٠٩/٢

(٣) وردت ترجمته في هذه الدراسة، ص ٣٢، حاشية رقم ١

(٤) رحلة ابن بطوطة ٣١٢/٢

(٥) انظر، كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٤٧٠-٤٧١



رحلة ابن الحاج الغرناطي^(١)، فيض العباب وإفاضة فداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطينة والزّاب، في القرن الثامن الهجري، وهي رحلة رسمية قام بها ابن الحاج مع بطلها ومنعدها السلطان أبي عمان لمربي وقد جاءت هذه الرحلة لأسباب دينية وسياسية أبرزها توحيد صفوف المسلمين ولقصاء على الفتن التي تثيرها الأعرب في التواحي الشرقية^(٢) لتلك البلاد الخاضعة لسلطان أبي عمان، وجاءت على مرحلتين الأولى كانت داخل المغرب من فاس إلى سلا والرجوع إليها والثانية من فاس إلى قسطنطينة ثم إلى لزّاب ثم الإياب.

وتعدّ رحلة فيض العباب مصدراً هاماً من مصادر تاريخ المغرب الأدبي والحضاري في العصر المريني، وقد ألقت لصوء على جوانب الاستقرار والصبح والاردهار الحضاري في مختلف المجالات السياسية واقتصادية والثقافية والعمرانية والاجتماعية، لرحلة هامة من مراحل عهد دولة بني مرين

رحلة لسان الدين بن الخطيب^(٣)، في القرن الثامن الهجري، حطيرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف وهي رحلة رسمية قام بها سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف لأول^(٤)، ومعه وزيره ابن الخطيب، لتفقد أحوال الثمور لشرقية لمملكة غرناطة سنة ٧٤٨هـ.

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم السميري المعروف بابن الحاج الغرناطي، (٧١٢هـ - ٧٧٤هـ)، وقال المقرئ ينقل ملخصاً عن الإحاطة بشأ على عماف وطهارة ، ويبلغ العاية في جودة الخط ويروي الحديث مع الشهادة والرامة، شرق وحجّ وطرف وقيد واشتكر ودون رحلة صغرى، وقد بدأت تلك الرحلة سنة (٧٥٨هـ) انظر، ابن الحاج السميري، فيض العباب، دراسة محمد بن شقرون، الرباط، ١٩٨٤، مقدمة المحقق، ص ١، والمقرئ، نقح الطيب، ١٠٨١-١٢٠٠

(٢) انظر، ابن الحاج السميري، فيض العباب، المقدمة، ص ٥٢

(٣) وردت ترجمته في الدراسة، ص ١٥، حاشية رقم ٢

(٤) انظر ترجمته، ابن الخطيب، الإحاطة ١٤/٢، والمقرئ، مع الطيب ٣٠٣/٤، ٤٢٢، ٤٢٤، ٤٢٦، ٤١٣/٥، وفي صفحات متفرقة من الأجزاء ٦، ٧.



وقد دوّن ابن الخطيب ما رآه عينا، وسمعه أذنه في جميع رحلاته، فأمدّنا بمادة غنية عن حصار العرب الإسلامي في تلك الفترة، وثبت مشاهداته في أماكن متفرقة من كتبه، بالإضافة إلى رحلته خطيرة الطيف:

- مفاحرات مانقة وسلا، وهي مفاضلة بين المدن الأندلسية واحتها المغربية في مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية
 - معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، وهي عبارة عن وصف لأهم مدن المغرب مع وصف مدن مملكة غرناطة
 - رحلته التي دوّنها في كتابه نفاضة الحراب في علالة الاعتراب، ونجدر الإشارة إلى أن ابن الخطيب كان يعتبر هذه الكتاب مذكرات شخصية عن فترة من أهم فترات حياته، ولكنها ناقصة غير كاملة، إذ يبدأ وبدون مقدمات بالصعود إلى جبل هتانة^(١)، ويصف شيوخ قبيلة هتانة، وحسن استقبالهم له الخ^(٢)
- والمتمعن في جغرافة ابن الخطيب يرى أنها غير مقصودة لذاتها، فهي تأتي كخط جانبي في شاطئاته الأدبية والتاريخية، ونتيجة لخبراته في الحياة العملية، وهي إما مقدمات جغرافية تاريخية، أو مذكرات أدبية في رسائله، أو حتى في مقامات فنية، وعلى هذا تنصاعل نسبة الجغرافية فيها، وكلها تدور إما حول الأندلس وإما حول المغرب^١

(١) هتانة جبل في مراكش جنوب الأطلس، وقته مطاة دائماً بالثلوج انظر: ليون الإفريقي، الحسن بن محمد (الوردان النفاسي، ١٩٨٣) وصف إفريقيا، ترجمة حسن الترنسية، محمد حجي، محمد الأخضر، ط ٢، دار العرب الإسلامي بيروت / ١٤٢، وانظر: رحلة ابن خلدون، التعريف، ص ٨٣، حاشية رقم ١٤١، وابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ١١٣، والحاشية رقم ٤٩١

(٢) ابن الخطيب، رحلة خطرة الطيف، ص ١١٧

(٣) انظر: نفاضة الحراب في علالة الاعتراب بشر وبعليق أحمد مختار العبادي، مراجع عبد العزيز الأهواني، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٤٦ وما بعده، ورحلة خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار السويد للشرق، أبو ظبي، ودار المعارف للنشر، عمان، ٢٠٠٣، ص ٢٦

(٣) انظر: هداد، جمال، تاريخ الجغرافة والمغرامين في لأندلس تأليف د حسين مؤنس، مجلة، العدد



غير أنَّ لذقة في الملاحظة، والنزوح الحيوية النشطة المتدفقة لتي انسمت بها أوصاف ابن الخطيب ومشاهدته، قدلَّ جميعاً على أنه رحالة من الطَّراز الأول^(١)

التعريف بابن خلدون^(٢) ورحلته غرباً وشرقاً، في القرن الثامن الهجريّ وابن خلدون عيّ من التعريف، فهو راسخ القدم في دراسة التاريخ وباعث مهجه العلمي، وواضع أسس علم الاجتماع، ويرجع الفضل إليه في وضع كثير من المصطلحات التي جرت على الأفلام والألسن من بعده، مثل العمران البشري، والاجتماع الإنساني، الخ^(٣).

وقد تنقل ابن خلدون في مختلف أقطار المغرب والأندلس، متصلاً بملوكها، وراعياً في الحصول على المناصب العليا، فحاض غمار السياسة، وكيد المؤامرات، فنراه تارة وزيراً أو حاجباً، وأخرى وراء قضبان السجن، بل أن سئم السياسة، ولجأ إلى بني عريف في قلعة ابن ملامة في جنوب قسنطينة، حيث كتب ابن خلدون مقدّمته المشهورة، وبدأ بعدها بكتابة تاريخه، ثم رحل إلى المشرق سنة ٧٨٤هـ وأقام بالقاهرة يمارس فيها التعليم ويتولّى القضاء ولم يرح مصر إلا حاجباً إلى مكة والحجاز.

أمّا التعريف، فهو قصة حياته إلى قبيل وفاته، ذكر فيه أصله وأحداث أسرته، وأحداثه هو، وثقافته، وأساتذته، وتحدّث عن صلاته بالملوك والأمراء، ونقله في القصور، وذكر اعتقاله ونشرده، وذكر رحلته إلى الأندلس واتصاله بملك عرابطة، ووزيره لسان الدين بن الخطيب وسفارته إلى ملك قشتالة، ثم حديثه عن هودته إلى تونس، ورحيله إلى مصر وحياته فيها

(١) انظر، رحلة خطرة الطّيف، مقدمة المحقّق، ص ٢٨

(٢) وردت ترجمته، ص ٢١ من هذه الدراسة، حاشية رقم ٥

(٣) اخوي، أحمد، (١٩٧٢) أدب ابن خلدون مجلة مجمع اللغة العربية، ج ٣، ص ٥٣



رحلة العليصادي^(١)، في القرن التاسع الهجري، وقد ابتدأها سنة ٨٤٠هـ ورصد فيها مظاهر الحركة الفكرية في مملكه غرناطة، وأحزء من العالم الإسلامي، كان قد ارتحل إليها، ومنها تلمسان، وتونس، وطرابلس الغرب، والقاهرة وأخرى من الشريطين وأعطى صورة واضحة عن تلك الحياة الفكرية والعلمية والاجتماعية، والشيوخ والعلماء الذين التقى بهم، وترجم هم وذكر أسماء الكتب والمدارس التي انتشرت في ذلك العصر، مما جعل رحلته تحتل مكانة عالية بين الرحلات.

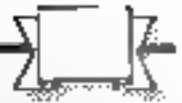
رحلة أبي عصيدة البجائي^(٢)، في القرن التاسع الهجري، رسالة العريب إلى الحبيب وقد ارتحلها البجائي وأرسل بها إلى صديقه المشدائي^(٣)، حيث انتحلها بقصيدة أشاد فيها بالمشدائي ومكانته لعلمية، وذكره بما كان يسهم من وذكريات أيام لقائهما في بجاية^(٤) والقاهرة والحجاز، ثم تحدث أبو عصيدة عن رحيله من مصر إلى الحجاز، وعن المراسلات التي كانت بينه وبين المشدائي كما ذكر أبو عصيدة في رسالته كتابه المفقود، وهو (أنس الغريب) وأشار إلى أن جزءاً من هذا الكتاب تضمن وصف الرحلة التي قام بها من بجاية وتونس إلى الحجاز عبر مصر وتنتهي الرسالة بدون تريح ما حدا ذكر شهر شوال

(١) هو أبو الحسن، علي بن محمد بن محمد القرشي الأندلسي السطري، ولد في سنة ٨٦٥هـ أو قبلها وتوفي ٨٩١هـ انظر ترجمته، في رحلته، تحقيق محمد أبو الأجهار، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٧٨. مقدمة المحقق، ص ٧، والتبكي، بيل الأجهار، ص ٢٠٩، ولقري، معج الطيب ١٩٩٢/٢، ١٢٦/٥، ١٢٨.

(٢) ورجع ترجمته، ص ١٤ من هذه الدراسة، حاشية رقم ٢

(٣) ولد في بجاية (الجزائر)، ٨٢٠هـ ودرس فيها ثم توجه إلى بلعسان بلاسراة من العلم وقضى بها أربع سنوات ثم رجع إلى بجاية سنة ٨٤٤هـ وزار غنات وقسنطينة وتونس ومبروت ودمشق وطرابلس الشام وحماة والفسس وأدى فريضة الحج سنة ٨٤٩هـ توفي سنة ٤٦٤هـ انظر، البجائي. رسالة العريب إلى الحبيب، ص ٣٠-٣٤ والسخاري، الصوة اللامع ١٨٠، ٩

(٤) بجاية مدينة على ساحل البحر بين إفريقيا وغرب، انظر، لخمري، معجم البلدان ٢٢٩/١



وقد وقفت لدراسة أيضاً على بعض الإشارات المتناثرة في بعض كتب المصادر ولذا ألة على مجموعة كبيرة من الرحلات التي ضاعت أخبارها أو لم يروها أصحابها، ومنها ما هو مجهول أو مخطوط محفوظ فوق ربوف مكتبات لم يقم أحد بتحقيقه حتى الآن. ومن تلك الرحلات:

رحلة صالح بن بريد الرندي^(١). في القرن السابع الهجري، وهو لأسن وبرهة النفس وهي رحلة إلى البلاد الحجازية، وقد جاء في مقدمة الرحلة أنه طرر هذا الكتاب باسم سلطان غرناطة أبي عبد الله محمد الملقب بالفقيه بن محمد ابن لأمر، ويقع الكتاب في مجلدين، وقد قصد الرندي أن يجعله أشبه بالموسوعات فقسمه إلى عشرين باباً، حترى كن منها موضوعاً مستقلاً عن الموضوعات الأخرى، وقد تناول موضوع رحلته الحجازية في بابين من تلك الأبواب، حيث تناول موضوع الحجاز ضمن الباب الثاني الذي تكلم فيه عن الأرض وما يتعلق به من ذكر الأقاليم والبلاد، فتكلم في شيء من التصيل عن مكة المكرمة ووصف البيت الحرام، كما تناول تاريخ المدينة المنورة والحرم النبوي.

ويذكر أحمد رمضان أنه لا يوجد من كتاب الرندي إلا المجلد الأول وهو بحورة محمد المنوني، ويسهي عد الباب التاسع ويقع في مئة وتسع وثلاثين ورقة تحوي كل صفحة ثلاثة وعشرين سطراً، وهي مكتوبة بخط أندلسي وضح ملبح عتيق، مكتوب بمحلول السواك على ورق قديم والمخطوطة خالية من تاريخ السح واسم السامح، ويقدر محمد المنوني أن تكون الكتابة قريبة من عصر المؤلف ويرجح أن تكون من القرن الثامن الهجري وهناك نسخ مصورة من المخطوطة بحورة معهد المخطوطات للجامعة العربية، وصورة أخرى بالخزانة العامة بالرباط^(٢).

(١) هو أبو الطيب صالح بن بريد بن موسى بن شريف الرندي، (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) وهو من أوائل الرحالة غير المعروفين، روى عنه جماعة، كان فقيهاً حافظاً، له مقامات بديعة، نشأ في ظل دولة بني الأحمر انظر: الأوسي الدليل والتكليف، ق ٢، ص ١٣٧-١٣٨.

(٢) انظر: حمد، رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٣٤٠-٣٤١.



إن هذه الرحلات، وتعدد أسماء الرحالة يؤكدان الإشارة إلى كثرة الرحلات في مختلف العصور، وتراكمها، وتسجيل أخبار الأمم وأحاديثها، إذ تكاد هذه الرحلات التي حصتها صفحات الكتب، تتحدى الرمان وتقارب الخلود، بمائدتها التي لا تقتصر على نفر قليل من الناس، ولا على جيل من الأجيال، فهي منافع لا تنضب، تمزنا دائماً بمادة لا عنى عنها للتواصل الإنساني، بل هي سجل حصارٍ وثقافي

وقد مثلت هذه الرحلات انجاسات مختلفة بما فيها من مادة وفيرة تقرب من الموضوعية لدى ابن جبير، إلى حدود تقرب من الخرافة والعرائفة كب تجسدها رحلة أبي حامد الغرناطي، ورحلة ابن بطوطة إلى حد ما، ثم إلى الترجمة الدائنة التي تبرز بشكل كبير عند المؤرخ المشهور «بن خلدون»، فمصمون الرحلة هو لحية نفسها، بكل جوابها ومعطياتها.

=* هناك اشارات لرحلات أخرى من القرن الثامن الهجري، منها رحلة الأبق لمشرق لابن الطيب وقد أوردها أحمد الخوجه محقق رحلة ابن رشيد ٢١/٢ ورحلة الرعي السراج وابن جبير الوادي آسي، وهي رحلات أقرب ما تكون إلى الفهارس أو البرمج منها إلى الرحلات لأدبية وذلك لانصاب اهتمام مؤلفها على الجوانب العلمية فقط، ومن الرحلات التي أشير إليها في القرن التاسع الهجري، رحلة أبي العباس أحمد بن الحسن بن منقذ الفسطاطي (٧٧٠هـ-٨٠٩هـ)، انظر، البليوي، تاج المرفق ٩٠/١، ورحلة محمد بن سليمان بن داود الحروي (ت ٨٦٢هـ)، انظر، البليوي، تاج المرفق ٧٧/١ ورحلة أحمد درويك اليرسي، ت ٨٩٩هـ وقد علب عليه التصرف متجرد وسح وصار له أتياع انظر، البليوي، تاج المرفق ٩٠/١، وانظر ترجمته، البخاوي، الصوة اللامع ٢٢٢/١



الفصل الأول

السياقات الثقافية والمعرفية في الرحلات

١- السياق الثقافي

فإن الرحالة يوصف رحلاتهم ولجواهم ومشاهداتهم، وتدوين انطباعاتهم الشخصية، لذا جاءت رحلاتهم سجلاً وائياً عن الكثير مما تحويه تلك الرحلات من جوانب معرفية، ومدونات تمت إلى الجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والعمارة والأحوال الاجتماعية ولذيقه والثقافة بأوثق الصلة، بن تعدى الرحالة ذلك إلى التفسير والتفكير للكثير من القضايا والمشكلات التي شهدتها عصورهم، وكانوا في معالجاتهم يحارلون الإصلاح حيناً والنقد حيناً آخر.

وقد جاءت كتب الرحلات بمادة غنية راحرة بالوصف ولأحاديث والأخبار، ومما له صلة بالعرائب والعجائب، وبذا طرح الرحالة للكثير من القضايا والسياسات وكأنه طرح ثقافي مناسب الأصوات، متعدد السنوات، ولكنها في إطارها العام، دائرة من التكامل العربي والثقافي لا تناقض فيها رأي الباحث ليجد صعوبة بالغة في نقل كل ما في تلك الرحلات، لذلك يقتصر البحث على نماذج تبرز جوانب من تلك الرحلات، وهي نموذج تم اختيارها لتعكس بوضوح مظاهر الحياة والسكان والاسلام، ولتؤكد الوحدة الإسلامية، والروابط القوية التي انصبت بها الشعوب الإسلامية، وإن عرست لبعض من الأوضاع السياسية المصطربة في تلك البلدان فرب بطوطه مثلاً، يمثل المواطن الإسلامي الذي طاف أرجاء العالم الإسلامي في القرن الثامن الهجري، بدافع المغامرة وسيبقى دليلاً على وحدة الشعور الإسلامي أيامها في أمصار الإسلام المتعددة، وسيبقى يمثل نوعية فريدة من الرجال. فقد قدم من خلال رحلته هذه كثيراً من المعلومات التاريخية [١].

وبهذا، فإن كتب الرحلات قدمت حقائق مهمة جداً عن مختلف العلوم والمعارف، وعبرت وبيئة تاريخية وجغرافية، وفكرية وسياسية، وإدارية، واقتصادية، ودينية، واجتماعية لا يستعني عنها باحث في دراساته، وهي دليل لكل مسافر لتلك البلاد

(١) حسين، حسني محمود، أدب الرحلة عند العرب، ص ٧٨ - ٧٩



ولأماكنها المقدسة ومعجم للشيوخ الأولياء، والقضاة، والخطباء، ووصف للمدن والمساجد وبلاطات السلاطين، وعادات الشعوب وتقاليدها ولعلّ المصادر التي استقى من خلالها أدب الرحلات مادته، أدت دوراً بارزاً في تحديد سياقات هذه الرحلات العصر الذي تمت وكبت فيه، وصاحبها الذي عاشها ودونها، فأمدتنا بتتاح تجاربه ونصرت، التي لا يتأتى به تحصيلها وهو ملتزم ببيته أو بلده أو أن يكتفي بالسماع لذا فإنّ المرء يجد نفسه أمام حشد عامر من التفاصيل في مختلف جوانب الحياة التي قد لا يوجد نظيرها في مدونات التاريخ المألوفة، وربما تفقر كثير من المصادر لما يتوافر في كتب الرحلات، وقد كانت الرحلات عوناً للمؤرخين، والجغرافيين، وعلماء الاجتماع، لتأكيد الوقائع والأحداث وأحوال المجتمعات في تلك العصور التي عاشها الرحالة، وذلك لدقة الملاحظة والوصف.

أولاً: المراكز التعليمية ودور الكتب

كان العلم أبرز أهداف الرحلة، كما عذت لرحلة في طلب العلم مظهرًا من مظاهر الحركة العلمية ودافعًا لها في مختلف العصور لإسلامه حيث سعى الرحالة الأندلسيون، والمغاربة للوصول إلى مراكز العلم في المشرق حتى ينهلوا ما شاء لهم من منابع العلم والمعرفة^(١) وقد أكثر الرحالة من التحدث عن حلقات العلم التي كانت تعقد في مبدأ الأمر بالمساجد والروايا والخوانق والمكبات والبيمارستانات، ثم أخذت تنشأ بعد ذلك مؤسسات ومراكز تعليمية مستقلة

وكانت لمساجد والخوانق بالإضافة إلى أنها مكان لتعليم، إلا أن المسلمين كانوا يتحذرونها خارج أوقات الصلاة مركزاً لشرح تعاليم الدين والفقه، والعلوم الشرعية، وتلقين فنون العربية فبيت المقدس كان مركزاً لنشاط عدد من الفرق الإسلامية الكرّامية، والمعلّمة، والمشبّهة^(٢) وقد اطلع ابن العربي من خلال هذه المجالس على علوم

(١) انظر: ابن سعيد المغربي، المغرب، القسم الخاص بمصر: ٥٧٢/١

(٢) انظر: ابن العربي، قانون التأويل، ص ٩٥.



ثلاثة علم الكلام، وأصول العقائد، ومسائل الخلاف التي هي عمدة الذين ..^(١) ويبدو أن مثل هذه المجالس تعدّ وسيلة لاستعراض القدرات الذهنية، والمواهب الإبداعية ولقنية.

وحفلات الرحلات بما شهدته المدن الإسلامية من نشاط أوسع في المجالس الدينية والعلمية، ومن ذلك ما يلحظ من كثرة مجالس العادة، وحلقات العلم التي كانت تعقد في المساجد والروايا والمدارس، وغيرها. وكان بعض الرّحالة يهتمون بريادة العلماء، وحضور محاوراتهم ومناقشتهم العلمية، ومطارحاتهم الأدبية، ويتزددون على مجالس العلماء والشيوخ، للإفادة منهم والوقوف على ما صدرهم من علم ومعرفة، ويهتمون بملافاة الرجال، في حين أن حديثهم عن الأماكن والبلدان جاء لماماً

فرحلة ابن رشيد، مثلاً، أشبه ببرنامج علمي ذكر فيه شيوخه ومن لقيه من الحفاظ والمحدثين والنحاة والأدباء ونحوهم بمن نرحلهم أسمائهم ورحلتهم، ومنهم جمال الدين العطار^(٢)، فقد لقيه بجامع عمرو بن الحارث بالعسقاط، والتقى بالدميري^(٣) بزاوية الإمام الشافعي، أو بالفاضلية أو بالكاملية بمجلس ابن دقيق العيد^(٤)

(١) انظر، المصدر نفسه، ص ٩٧

(٢) هو الشيخ المحدث الصدوق، أبو صادق محمد بن أبي الحسين يحيى بن أبي الحسن علي بن عبد الله القرشي انظر ترجمته، ابن رشيد، ملء العبة بما جمع بطول العبة في الوجهة الوجهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٢، ط ١، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٨، ٣/ ٢٨٩-٣٠٨

(٣) هو الشيخ الفاضل يحيى الدين أبو الفضل بن عبد الممن بن خلف الدميري، انظر ترجمته، المصدر نفسه ٣/ ٤٠٣ وما بعدها، والتجبي، مسعود الرحلة، ص ١٢٣

(٤) هو إمام لأئمة العالم لعلم الورع الكامل، أبو الفتح محمد ابن الشيخ الفقيه عبد الدين أبي الحسن علي بن وهب بن مطيع بن أبي لطاعة الفشيري السب، المملوطي الأصل، القوسي المرس، القاهري المتزل، انظر ترجمته، ابن رشيد، ملء العبة ٣/ ٣٢١ والتجبي، مسعود لرحلة، ص ١١، ولعبدري، الرحلة لمربية تحقيق محمد العسي ورره الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعظيم الأصلي، انباط، ١٩٦٨، ص ١٣٨-١٤٥، والمقري، مع الطيب ١/ ٦٨



وقد عني التجيبي أيضاً في رحلته بتراجم العلماء والمبرزين من التقى بهم، وكذلك التجاني^(١) الذي عني بالحدث عن العلماء والفقهاء الذين التقى بهم في رحلته، وذكر مصنفاتهم وحرص على حضور دروسهم، ومشاركتهم بحالهم أنا البلوي، فقد ذكر بعض الشيوخ من العلماء الفضلاء الذين يطشون ذبول البلاغة، ويجررون فضول البراعة، ولهم كلام يتألق منه شعاع الشرق، ويتفرق عليه صفاء العقل، وينبث فيه فرد الحكمة ويعرض على حلى البيان، وينقش في نص الزمان. وأملت بذكر بيد من نواتهم واختيار طوبى من أناشيدهم ومرجتها بما حرت إليه العبارة، وحسنت فيه الإشارة من قطع الشعر المناسبة، قطع الرر المنظمة عن جواهر اللفظ، لبعده العور، القرية لحط^(٢)

وبهذا يجمع الرحالة حصيلة من الرواية ومن السماع، أو القراءة، ويظهرون بإجراءات متنوعة، ويصنّون رحلاتهم أسماء الكثير من المصنفات المحتف، والإنحاح العلمي والعكري في لعقه والحديث، والأدب والحكمة، ولتصوّف واللغة، والشعر، لأعلام البلدان التي زارها الرحالة ولم تغفل كتب الرحلات الدور الذي قامت به المراكز الدينية، كمكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس، في تكوين هذه الحصيلة اشفاقية و لعلمية، فقد كانت هذه المراكز مدق العلماء والأدباء، وطلبة العلم من كافة أقطار البلاد العربية والإسلامية، والحجّاج ولزهاد والمجاريدين، وأصحاب المذاهب والطرق الصوفية، فاستقطبت بذلك جلّ العلماء والفقهاء الذين ساهموا بمجالسهم العلمية ومناظراتهم في عمّ وتطوّر الحركة العلمية والعكرية، فمكة المكرمة مبدأ ومنتهى الحركة العلمية، وحلقة انوصل بين المشرق والمغرب الإسلامي ففي هذه الأماكن المقدمة لمعت أسماء العلماء، ومنها انتشرت الكتب إلى مختلف الأقطار وقد أبررت الرحلات الدور العلمي للمسجد والأريطة في هذه المراكز الدينية، والمسجد لحرام وبيت المقدس كما بمثابة جامعة يتوافد إليها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي، لينتقوا العلم على

(١) انظر في ذلك رحلة التجاني، ص ٢٥١ - ٢٥٦، وموضع أخرى من رحلة

(٢) البلوي، تاج الفرق، ١/ ١٤٣



أيدي علماء برعوا في فنون العلوم المختلفة، مثل الفقه^(١)، والحديث^(٢)، والتفسير^(٣)، و لتاريخ^(٤)، وعلم الفراءات^(٥) وقد توعت العلوم بتوع العلماء في مكة المكرمة والمدينة المنورة، بسبب الرحلات السنوية للحج والزيارة. وهذه ميزة اُنفردت بها عن سائر الأقطار الإسلامية فتعددت حلقات العلمية فيها، لا سيما المسجد الحرام الذي خصص بحلقات الدرس^(٦).

وفد سارت المدارس في مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس حياً إلى جـ مع المساجد في شر العلم، وأشار الرحالة لأندلسيون والمعارنة إلى مدرسة المظفرية^(٧) في مكة المكرمة، وأشار البلوي أيضاً إلى مدرسة بالمدينة المنورة، تقع مقابل باب الرحمة، ولم يشر إلى اسمها^(٨).

وكانت المجالس لأدبية واساطير الدائرة في تلك المراكز البيّة شاهداً على مستوى الحضارة التي وصلت إليها انتمعات في البلدان التي رآها الرحالة الأندلسيون ولحاربة، وقد أكتبت تلك الرحلات تلك المجالس وما يدور فيها من فقه، وأدب، ولغة، وأخبار وحكايات، إذ لم تكن تخلو من لفقهاء أو الشعراء، أو الأدباء.

(١) انظر، التيجي، مستفاد الرحلة، ص ٣٩٣-٣٩٤، ٤١٥، وابن رشيد، ملء النية ١٧٢/٥، ٢٤٩، ٢٦٩، ومواضع أخرى متفرقة

(٢) انظر، ابن رشيد، ملء لعيه ١٧٣، ٢٢٧، والتيجي، مستفاد الرحلة، ص ٣٦٦، ٣٧٦، ٣٨٣

(٣) انظر، التيجي، مستفاد الرحلة، ص ٣٨٢، وبلوي، تاج المعري ١، ٢٩٢، ومواطن أخرى متفرقة من الرحلة

(٤) انظر، التيجي، مستفاد الرحلة، ص ٣٧٦، ٣٨٥-٣٩٢، وابن رشيد، ملء النية ١٧١/٥

(٥) انظر، التيجي، مستفاد الرحلة، ص ٤٣٣-٤٣٤

(٦) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٦٨-٧٢، والتيجي، مستفاد الرحلة، ص ٣٦٢ وما بعده، وابن رشيد، ملء النية ١٦٩/٥

(٧) وهي المدرسة التي بناها ملك اليمن لتصوير المظفر نور الدين عمر بن رسول انظر، التيجي، مستفاد الرحلة، ص ٢١٦، وانبديري، الرحلة المغربية، ص ١٧٤ ورحلة ابن بطرطة ١٢٩/١

(٨) انظر، البلوي، تاج الفرق ١، ٢٨٧



ومن الرحلات التي أبرزت الخواص الحرفية والنشاط العلمي في بيت المقدس، رحلة البلوي ومن قوله هذا إلى جانب ما أطلعنا الله في ذلك الأفق المنير من بدور العلماء، وامتنع من صدور الأولياء الذين وردوا على طاهر تلك البقاع، وقصدوا إلى العادة فيها والانقطاع، فسأل الله إلي البغية ولقيهم أجمعين ورويت عنهم، ولما كثر عليّ تعدادهم، ونلّ عليّ نظراؤهم وأندادهم، انتقيت منهم ما هاهنا يترك بذكرهم وتعطر لأنديه بشكرهم^(١)، ثم يذكر هؤلاء الخمسة ويترحم لهم^(٢)

وقد قم ابن بطوطة برحلته في العصر المملوكي، وفي العصر المملوكي، دلت بيت المقدس اهتماماً كبيراً، فقد مار سلاطين المماليك على نهج لأيوبيين في تشجيع العلم وأهله والعناية بالأقصى والصخرة، وإنشاء المدارس، ودور لقران والحديث والخوانق، ولزوايا والرباطات، فقد أنشئ ما يقارب أربعين مدرسة في بيت المقدس، في العصر المملوكي، حيث إن الأيوبيين أنشأوا عدداً أقل من المدارس^(٣)

وإذا زار ابن بطوطة بيت المقدس في العصر المملوكي، ذكر أن بيت المقدس كان عمراً بالعلماء الوافدين إليه من مختلف الأقطار الإسلامية^(٤)

(١) انظر: البلوي، تاج المرقى. ٢٥٦/١

(٢) انظر ترجمتهم المصدر نفسه ٢٥٦/١، ٢٥٨، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨

(٣) عبد المهدي، عبد الجليل، (١٩٨٠) الحركة الفكرية في ظل المجد لأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط ١، عمان مكتبة الأقصى، ص ٦٧ وانظر عن نشاط الحياة الفكرية في بيت المقدس في ظل صلاح الدين الأيوبي انعماد لأصفهاني، عماد الدين الكاتب أبو عبد الله محمد بن محمد، (ت ٥٩٧هـ) الفتح القسي في الفتح القدسي، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٤٥، ١٧٢، وابن شداد، بهاد لدين يوسف بن رافع، (٦٣٢هـ) أنوار السلطنة والخامس الرسومية، تحقيق عمود درويش، شركة طبع الكتب لعربية، مصر، ١٩٧٩، ص ٢٩٢-٣٠٤، والعيمى، عجير الدين الحلي، (ب ٩٢٧هـ) الأسس لخليل تاريخ القدس والخليل، ط ١، تحقيق محمود صودة الكفاية، (شراق، محمود علي عطا الله، مكتبة دندس، ١٩٩٨، ٢/ ٢٤٠-٢٤١، ورحلة ابن جبير، ص ٢٧٠

(٤) ومن المدن الفلسطينية التي زارها ابن بطوطة أيضاً الخليل، وبيت لحم، والرملة وبيلس وغيرها.

انظر، رحلة ابن بطوطة: ١/ ٦١-٦٣



وقد حفلت كتب الرحلات بإلقاء الضوء على دور الحكام والأمراء والوزراء في رعاية العلم، بما حصّهم الله من المعرفة بالعلوم الشرعية والعقلية، ولعصاحة والبراعة في الشر والنظم، فكان هناك مدارس لتقرآن والحديث والمذاهب لعقيدة الأربعة، وكان يدرس في هذه المدارس كبار العلماء من المقرئين والمحدثين. ومن هذه المدارس المدرسة النظامية التي أنشأها الوزير نظام الملك السلاجوقي في بغداد^(١)، والمدرسة الصادرة نسبة إلى منشئها شجاع الدولة صادر بن عبد الله، ويذكر ابن عساكر أنها بنيت سنة ٤٩١هـ، فيقول بدئ بتأسيس المدارس بشر المذاهب المعتبرة، فقامت مدرسة في دمشق وهي الصادرة عام ٤٩١هـ وقامت في هذه الحقة ست مدارس للحنفية وواحدة للشافعية، واثنتان للحنابلة، وتأسس هذه المدارس ورد على دمشق من لشرق علماء كبار قدّموا فيها، وشجع الولاة والأمراء العلماء على التدريس وقربوهم^(٢)

وذكر ابن العربي أنه رار مدرسة الشافعية^(٣) في باب الأسباط^(٤)، ولتمت بمجموعة من العلماء في اجتماعهم للمناظرة واستمع للمناظرة إلى آخره، فتعلق بذلك لجو العلمي، ومن قوله في ذلك فالفيت بها جماعة علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم

(١) افتتحت هذه المدرسة رسمياً عام ٤٥٩هـ ونقصر مذهبها الدرامية على دراسة الفقه الشافعي ومن الكلام على طريقة الأشعري، ومن أهم أهدافها منهضة المذاهب الأخرى، ولا سيما المعتزلة والإمامية انظر، وابن حلكان، ميات الأعيان ١٢٩/٢، والسيكي، تاج الدين، أبو نصر عبدالوهاب بن عني، (ب ٧٧٦هـ) طبقات الشافعية الكبرى، ط١، إدارة محمد عبد الطيف الخطيب، المطبعة الحسينية المصرية، دم، ١٩٠٦ ٢٧/٤-٢٨

(٢) ابن عساكر، نقة الدين أبو القاسم عني بن الحسن، (ب ٥٧٦هـ). ولاية دمشق في العهد السلاجوقي، تحقيق صلاح الدين محمد، ط٣، دار الكتاب الحديث، بيروت، لبنان، ١٩٨١، ص ٦

(٣) المسناة بالمدرسة الناصرية، وتقع على برج باب الرحمة، نية إلى الشيخ نصر القلمسي، ثم عرفت بالعرالية نسبة لأبي حامد نمرالي انظر، الملسي الأسى الحليل بتاريخ القدس والحليل ٦٨/٢

(٤) هو الباب الشرقي في سور المدينة انظر، لمصدره ٦٩، ٢



القاضي الرشيد يحيى^١ الذي كان استخلمه عليهم شيخنا الإمام الزاهد نصر بن إبراهيم
النامسي^٢ المقدسي^٣، وهم يتناظرون على عادتهم^٤

وكان أبو بكر بن العربي، يحرص على حضور حلقات الساطرين الطوائف في
مدارس الخنعة^٥ والشافعية^٦ وذكر ابن العربي موضعاً آخر في ساحة المسجد الأقصى،
كان له أثر في الحركة المكنية، ويقال له الغوير بين باب الأسباط وعربات ركوب، حيث
كان العلماء يتناظرون في ذلك المكان وقد لقي ابن العربي الشيخ أبو بكر محمد بن الوليد
الطرطوشي^٧، في موضع يقال له باب السكينة، ويقول في ذلك: فامتلات عيني وأذني
مه، وأعلمه أبي بنيتي فأناب، وطالعه بعزيمي فأجاب، وانفتح بي به إلى العلم كل باب
وفهمني الله به في العلم والعمل، وير لي على يديه أعظم أمل، فأتحدث بيت المقدس

(١) هو القاضي يحيى بن القزح، أبو الحسن اللحمي المقدسي، كان من أسر أصحاب نصر المقدسي،
توفي سنة ٥٢٤هـ. انظر: ابن عماد، الخبئي، سلوات الذهب ٤/ ١١٢، والسبكي، طبقات
الشافعية. ٣٢٤-٣٢٥

(٢) أبو المسح الإمام الزاهد، وفيه الشافعية ببلاد الشام، توفي سنة ٤٩٠هـ. انظر: النووي، محيي الدين
أبو ذكريا يحيى بن شرف، (ت ٦٧٦هـ) تهذيب الأسماء واللغات، إدرة الطباعة المنيرية، القاهرة،
١٩٠٠ ٢ ١٢٥. ولدهي: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨هـ) سير
أعلام السلا، ط ١١، حققه شعيب الأرسؤوط، مؤسسة الرسالة، الرباط، ١٩٩٦ ١٩/ ١٣٦،
والسبكي، طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٢٧-٢٨

(٣) ابن العربي، قانون التأويل، ص ٩١

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص ٩٤

(٥) هو محمد بن الوليد الطرطوشي، ويعرف بأبي رندة، الإمام القدوة، شيخ المالكية، رحل إلى
المشرق، ونفق ببغداد، وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٢٠هـ. انظر: الصبي، بعبه المنتمس ١، ١٧٥-
١٧٨، والمقري، أرهاق الرياض ٣/ ١٦٢



مساءً والتمت فيه لقراءة، لا أقبل على دنيا، ولا أكلّم إنسيًا، نوصل ليل بالتهار فيه،
وخصوصاً بقية السلسلة^{(١٢) (١٣) (١٤)}.

وقد لفت نظر ابن العربي تلك العلوم والآداب في المدن الفلسطينية، ومن وصفه
لمدينة عسقلان قوله بحر أدب يعبُ غُبائيه، ويعبُ ميزائيه^(١٥) وانتظم ابن العربي في
المدرسة النظامية، وكان أساتذتها من الأعلام المتصلين في العلوم والعلوم الإسلامية،
والمع هؤلاء الأساندة فخر الإسلام، أبي بكر الشاشي^(١٦) كما أشار إلى الكثير من
المماررات العلمية والمهنية التي كانت تجري في هذه المدارس، ومنها المحاضرة التي جرت
بين الرُّوري^(١٧) والصاعاني^(١٨) والرحماني^(١٩) والقاضي الرحماني^(٢٠)

ودكر بن جبير المدرسة النظامية، ووصف مجالس العلم والوعظ فيها، وما كان لها
من أوقاف عظيمة، وعقارات مُحسنة إلى إيفاء المدرسين بها، ورواتب للطلبة تقوم

(١) وهي على ضمة قبة لصخرة، وتقع شرقها على بعد بضعة أسام من بابها المعروف باب داود
انظر، المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، (ت ٢٨١هـ) احسن التقاسيم في
معرفة الأقاليم، تحقيق عاري طيحات، ورواة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٠، ص ١٦٨،
المليبي، الأس الجليل ٥٦/٢، ٥٧

(٢) ابن العربي، قانون التأويل، ص ٩٣

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٤) هو محمد بن أحمد. وليس الشافعية المعروف بالمستظهري، كان يلعب بالخير أدبه وورعه وعلمه،
ورعده، توفي سنة ٥١٧هـ انظر ترجمته، ابن خلكان، وفيات الأعيان ٢٠٠/٤-٢٠١، والصعدي،
صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ) الراي بالوفايت، ط ١، تحقيق أحمد الأرمالوط وتركي
مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠ ٥٣/٢

(٥) الرُّوري. لم يسعف البحث عنه في التعرف عليه

(٦) هو أبو عبد الله الصاعاني، انظر، ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله، (ت ٥٤٣هـ) أحكام
القرآن، تحقيق علي محمد الجاوي، دار الجليل، بيروت، لبنان، ١٩٨٧ ١ ١٠٧

(٧) هو أبو سعيد الرحماني. انظر، المصدر نفسه ٢ ١٤٤٢

(٨) لم يسعف البحث عنه في التعرف عليه.



بهم، كما تحدث عن طريقة التعليم فيها، وحضوره مجالس الفقهاء فيها، حيث يأخذون في تفسير القرآن والأحاديث النبوية لشريفة^(١) وتحدث أيضاً عن الحارس الشديدة لتعليم الطب، التي يمد إليها الطلبة من جميع الأرجاء، فيجدون المأوى والمأكل والحمام والمراستان، إلى جانب الدراسة^(٢)

إن ما شاهدته ابن جبير من ازدهار وتقدم في مختلف العلوم والمعارف في بلاد المشرق، جعله يدعو المغاربة إلى طلب العلم في بلاد الشام فمن شاء الفلاح. فليرحل إلى هذه البلاد ويتعرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها، فإذا كانت الهمم، وقد وجد السبيل إلى الاجتهاد. فهذا المشرق يديه مفتوح لذلك فادخل إليها المجتهد بسلام^(٣).

ويتوقف ابن بطوطة عند الجانب الشرقي من بغداد؛ ليذكر مدرستها النظامية والمستنصرية، ويعطي صورة عن المدرسة المستنصرية، ويوزع نقهاتها في مجالسهم وفق المذاهب التي يدرسونها، ويذكر أيضاً وجود حمام للطلبة داخل هذه المدرسة ودار للوضوء^(٤).

وهكذا، فإن المدارس النظامية، بدأ انتشارها في القرن الخامس الهجري، حيث تلقى الطلاب العلم فيها، على أيدي علماء كبار^(٥).

أما عن اهتمام أهل البلاد والحكام ولأمرء بالمدارس والزوايا التي كانت تمثل لهم دور ضيافة يجنون فيها راحتهم بعد العناء، بالإضافة إلى تلقيهم العلم، فيقول العجيني في اهتمام أهل القاهرة بالمدارس ولأهل هذه البلاد في الاعتناء ولأوقاف على وجوه البر

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٩٥، ٢٠٥

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ١٥

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٥٨

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة، ١/ ٢٠٠

(٥) انظر، ابن لأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ ١، ١،

رجعه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧، ٨، ٤٤٩



عدة جميلة، وشرف دائم، وفخر مستمر وأسر هذه المدارس وحقائق لتصوفية، وروضات الأكابر في ازدياد. ^(١) ويذكر في حديثه عن مدينة قوص المحروسة أن فيها مدارس عليها أوقاف جمّة، يرتق منها طلاب العلم ^(٢)

ويصف ابن بطوطة النهضة العلمية بمصر، فيقول وأنا المدارس بمصر فلا يحيط أحد بمحصروها لكثرتها ^(٣) والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا ^(٤). ولم تكن النهضة العلمية مفصورة على مدينة القاهرة، بل تعدّها إلى مدينة الإسكندرية ^(٥)، وبلاد الشام ^(٦)، ويذكر جامع دمشق وحلقات التدريس فيه ونحوها الخوط، فيقول وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية . من سوارى المسجد، يلقن الصبيان ويقرئهم، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تزيبها لكتاب الله تعالى ومعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم يكتب الأشعار وسواها، فيتصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك جاد حظه، لأن المعلم للحمد لا يعلم غيره ^(٧)

ويذكر التجاني مدارس طربلس . للبيبة-، فيقول ويدخل البلد مدارس كثيرة وأحسنها المدرسة استصرية التي كان ساؤها على يد الفقيه أبي محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا ^(٨) . وهذه المدرسة من أحسن المدارس وصفاً وأظرفها صنفاً ^(٩)

(١) النجدي، مستاد الرحلة، ص ٥١٤، وانظر أيضا في اهتمام السلاطين بإنشاء المدارس، ابن الحاج

التميري، فيض العباب، ص ٤١-٤٣

(٢) النجدي، مستاد الرحلة، ص ١٧٣

(٣) رحلة ابن بطوطة ٣٩/١

(٤) المصدر نفسه ٤٠/١

(٥) المصدر نفسه ٢٧-٢٨

(٦) المصدر نفسه ٨٢-٨٥

(٧) رحلة ابن بطوطة ١ ٨٧ وانظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٥٥

(٨) انظر ترجمته، بن رشيد، مله لمية ٢ ٤٠٣-٤٠٧

(٩) رحلة التجاني، ص ٢٥١-٢٥٢



أما لسان الدين بن الخطيب، فيصف في أثناء عودته إلى مدينة سلا على ساحل المحيط الأطلسي، المدي التي مرّ بها، مثل مراكش وآسفي، ودكالة، ويذكر ما فيها من مساجد ومدارس وعلماء وشيوخ كان قد اتصل بهم أثناء رحلته في تلك البلاد^(١) ويقول في مدرسة بناها السلطان أبو الحجاج يوسف بن نصر^(٢) لتكون مركزاً للعلم وتجذب إليها الطلاب:

الا مكنّا بُسَى المدارس للعلم وتقى عهدُ المجدِ ثلثة الرّسم
فيا طاعتاً لنعلم يطلب رحمةً كُفيت اعراض اليد أو لحج اليم
ببابي خطّ الرجل لا تورّ وجهه فقد فزت في حال الإقامة بالعلم^(٣)

وقد تركى بعض الرّحالة التّدرّس في تلك المساجد والمدارس التي ذكروها في رحلاتهم، فابن خلدون مثلاً، كان قد درّس في المدرسة القمحية^(٤)، بجوار جامع عمرو بن لعاص، وهي أحد مدارس الفقهاء المالكية بديار مصر^(٥).

أما القلصدي، فيذكر المدرّس ويختلف أنواع العلوم، والشيوخ الذين بهل مهم العلم والمعرفة، ويقول واصفاً ريارته لتونس وبلنّا مرسى تونس، ودخلنا المدينة، وسكنت بالمدينة الجديدة . ثم انتقلت إلى المدرسة المتصرفية، فأقيمت بها أيضاً. وكنت

(١) انظر، ابن الخطيب، خطرة الصّيف، ص ١٢٠، ١٢٥، ١٣٢ وما بعدها

(٢) المقرئ، فتح الطيب، ٤٨٢/٦

(٣) انظر ترجمته، الصّدر نفّح، ٣٢٤-٣٢٦

(٤) المدرسة القمحية كان موقعها بجوار الجامع النعوي (جامع عمرو) بمصر وكان موضعها يعرف بدار العزل وهو قبسارية، كان يباع فيها العزل، فهدمها صلاح الدين وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية ورب فيها مدرّسين، وحمل لها أوفاداً كانت مها ضبعة بالعموم تعلّم بها، وكان مدرّسوها يتقاضون، ولذلك سارت لا تعرف إلا بمدرسة لقمحية انظر، رحلة ابن خلدون، التعريف، ص ٢٩٠، الحاشية رقم ١٣٤٠

(٥) انظر، ابن خلدون، التعريف، ص ٢٩٠-٢٩١

في أثناء ذلك أخذ في القراءة والإقراء، وسوق العلم نافذة حيثذ، ونمايح العلوم على اختلافها مقدمة، فلا عليك أن ترى مدرسة أو مسجداً إلا ولعلم فيه يُبشِّرُ^(١)

وكانت لقصور والرياض، والبساتين، والذكاكين، تمثل مراكز تعليمية يجري فيها تعاظمي الثقافة والمكر، وقد احتوت بعض لرحلات إشارات، وأحاديث، وحوارات، ومناظرات بلعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء في مجالس الحكماء والأمراء وكان بعض هؤلاء الحكماء من ذوي المعرفة والثقافة، فالرحالة ابن الحاج أبرز شخصية أبي عان بكثير من الصفات الفكرية، وقدم صورة لمجالسه العلمية والأدبية التي كانت تضم أبرز الشخصيات الثقافية من الشعراء والأدباء والعلماء والفقهاء، وأشهر الكتاب ومنهم الكاتب محمد بن جزي الكلبي، مدون رحلة ابن بطوطة، والعلامة لمؤرخ ابن خلدون^(٢) وذكر بن الحاج أن أب عان أمر ببناء مدرسة عظيمة قرب شالة، وإعطاء اكفاء الرفيع والملابس الفخمة البديعة للطلاب^(٣)

أما الرياض والبساتين، فقد أشار الرحالة ابن رشيد إلى تزهة جمعت جمعاً من فضاء الأدباء والبلعاء في بعض بساتين تونس البديعة، إذ يقول: «وكان بين أيدي خمسة بديعة تصور بالاء وتنبير يحسها أفكار الألاء قد ردت فقلت للفقير اسري أبي محمد بن مبارك^(٤)

أجزيا أبا محمد

وفائرة سلت من لاء مرهفاً وما عرضته، بل أقامت ذهابه

فأجاز وزاد وقال فأجد

رأت زرداً حاكت أيدي الصا لها فاهوت بذلك التصل تبغي هرايه^(٥)

(١) رحلة القنصادي، ص ١١٢، وذكر مدارس أخرى أقام فيها، انظر، ص ١٢٤-١٢٥

(٢) انظر، ابن الحاج النعيري، فض العايب، المقدمة، ص ٩٦

(٣) انظر، المصدر نفسه، ص ٤٠-٤١

(٤) انظر ترجمته، ابن رشيد، ملء المية ٢/ ٣٨٥-٤٠٣

(٥) المصدر نفسه ٢/ ٣٨٦



وقد تدور بعض الحلقات الأدبية والعلمية في الدكاكين^(١)، فما أن يحيط لرحالة في بلد ما حتى يسارعوا في التعرف على اعلماء والأدباء والشعراء والالتقاء بهم والسماع عنهم، وذكر ابن رشيد أنه سمع بأبي عبد الله بن أبي ثمم الحميري^(٢)، وأنه برع في الأدب وأحكم لسان العرب وبه المقطعات والقصائد، فأخذ يسأل عنه ليسمع منه شيئاً، يقول ابن رشيد: فأخبرنا أنه قد يوجد في بعض ساعاته في دكان من دكاكين المسجد الجامع أو في صاحبه من ساحاته^(٣)

ويورد ابن رشيد من قول ابن أبي ثمم الحميري يصف جارية مملوكة له سوداء جميلة حساء تدعى العبير:

وليلية، لولا تبسم ثغرها	لما نك في ففس الظلام على الصبح
معبرة في اللون والاسم والشدا	عزالية في السخط والجلد والكشح
أحب مائي لا ضحاي لأجلها	وأمني مشوق في هواها كما أصحي
تمنكها رقاً وتلكني هوى	ولكن مملوك الهوى قدر بالربح ^(٤)

ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد، فقد كشفت الرحلات عن بعض مميزات أولي الأمر، ولعلماء في أوقات فراغهم في مجالسهم، إذ لم تكن تخلو من صوف للهو والمنعة ورياضة الذهنية كالشطرنج مثلاً، ويصف ابن العربي ذلك أثناء حديثه عن محنتهم في السواحل المصرية، ووصوهم إلى بيوت بني كعب بن سليم وعطف أميرهم على ابن العربي وصحبه، ومن قوله: عطف أميرهم علينا فأرينا إليه فأواتنا، وأطعمنا الله على يديه. وشرحه أنما وقفنا على ناه العناء وهو يدير فأعواد الشاه، فعل لسامد اللاه، فدنوت منه في تلك الأظمار وسمح لي بياذنته، إذ كنت من الصعر في حذ يسمع فيه

(١) وهي الخو بيت، فارسي، مغرب، انظر، ابن منظور، لسان العرب ١٥٧/٣

(٢) انظر ترجمته، ابن رشيد، ملء الحية ٣٧٧/٢ ٣٨٤

(٣) ابن رشيد، ملء الحية. ٣٧٨/٢

(٤) المصدر نفسه ٣٧٨/٢، ٣٧٩ ٣٨٤

للأعمار، ووقفت يارثهم أنظر إلى تصرفهم من ورائهم، إذ كان عنق نفسي بعض ذلك من بعض القرابة في مجلس البطالة مع غلبة انصبوة والجهالة فقلت لليادقة الأمير لعلم من صاحبه، فلمحوي شرراً، وعظمت في عيوبهم بعد أن كنت سرراً، وتقدم إلى الأمير من نقل إليه الكلام، فاستدباني، فدنوت منه فسألني هل لي بما هم فيه بصر؟ فقلت لي فيه بعض نظر، سيبدو لك ويظهر، حرك تيك القطعة، ففعل، وعارصه صاحبه، فأمره أن يحرك أخرى، وما زالت الحركات بينهم كذلك ترى حتى هزمه الأمير، وانقطع التدبير. فقالوا: ما أنت بصغير...^(١)

وأشار بعض الرحالة إلى ضعف لعلم في بعض المدن التي قصدوها، وقد وصف العبدري مدينة بجاية، فقال وقد غاص بحر العلم اندي كان به وعفا رسمه حتى صار طلالاً...^(٢). ولعل مثل هذا الضعف، قد يكون انعكاساً عن ضعف عام في تلك المدن.

ومن جانب آخر، فالعبدري ينور ثورة عارمة، حيث مكث في لقاهرة في بيت من بيوت مدارس الطلبة، كأنه طالب من الطلاب، لا عالم من العلماء يستحق الإكرام وحسن الصيافة والاهتمام^(٣) ولعل ذلك يعود لما عُرف عن شخصية العبدري الحادة

إن ما يحدث به الرحالة الأندلسيون والمغاربة في كتبهم، عن المساجد والخوانق ولروايا والعلماء والمقهاء، والشعراء والأدباء، وعجالس الحكام والأمراء، يشير إلى نشاط ثقافي عمي فكري حضاري واكبته الرحلات حتى نهاية القرن التاسع الهجري، اقتصر في بداياته على بعض المعارف الدينية والثقافية، ثم أخذ يشهد نهضة ثقافية واسعة في مختلف العلوم والمعارف، بل إن الرحلات كانت من أهم روافد تلك النهضة الثقافية والحضارية، لتصبح بعد ذلك تظاهرة ثقافية، وسفراً معرفياً يكشف الرؤى الحضارية التي اخترتها المجتمعات

(١) ابن العربي، قانون التأويل، ص ٨٦- ٨٧.

(٢) العبدري، انرحلة لمربية ص ٢٧ وانظر المصدر نفسه ص ٧٥.

(٣) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ١٢٧- ١٢٨.



أما دور الكتب، فقد كان لها دور بارز في تنشيط الحركة العلمية، وانتقل أثرها من بلد إلى آخر، وقامت المكتبات في المشرق بدور كبير في استقطاب طلاب العلم، حيث كان في كل مسجد من المساجد الكبيرة مكتبة ملحقة به. وقلم نجد من علماء الأندلس وعلماء المغرب المشهورين، من لم يرحل إلى المشرق لتحصيل العلم، حيث انتشرت العواصم العلمية في المشرق الإسلامي، كدمشق، وبغداد، والقاهرة، والإسكندرية التي كانت تضم جله العلماء والفقهاء، الذين برز كل واحد منهم في علم من العلوم الإنسانية

وكان للشریف الرضیّ محمد بن الحسن الموسوي (ت ٤٠٦هـ / ١٠١٤م)، دار للعلم في بغداد محلثة بالكتب ومفتوحة للطلبة لذين كن یخصص صاحبها لهم الجریات^(١) وهذا كان طلاب العلم یقصدون مثل هذه المكتبات من كل بلد، لما یخصص لهم من جریات، وتوفر أسباب راحه والصیاه

وفد ساهمت الرحلة مساهمة كبيرة في انتشار الكتب، وجلبها من المشرق إلى الأندلس والمغرب، حتى أصبحت قرطبة أكثر بلاد الأندلس كتاباً^(٢) وأن أهلها أشدّ اتّساخ اعتناء بخرائن الكتب، وصار ذلك عندهم من آلات التعمّن والرّیاسة، حتى إنّ الرّکس منهم الذي لا تكون عنده معرفة، یحتمل في أن تكون في بيته خزانة كتب. ^(٣) . ولذلك بدأ الاهتمام بتأسيس المكتبات وخرائن الكتب في القصور والبيوت عدا المكتبات العامة، وقد ساعد عتاء الأمراء والحنفاء الأمويين بالكتب على نشاط سرقها في الأندلس^(٤)

(١) انظر، باقوب اخموي، معجم الأدباء، ٢٤٢/١، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤/٢ ٤٢٠، والزرکلي، الأعلام ١٦٢/٣.

(٢) انقري، نفع الطب ٤٦٢/١

(٣) المصدر نفسه، ٤٦٢/١، وانظر أيضاً في اعتناء أهل قرطبة بالكتب ودواجلها في بلادهم، المصدر

نفسه: ١٥٥/١

(٤) ابن سعيد المغربي، المغرب ٤٥/١.



وتؤكد المصادر اهتمام استلاطين والحكم في تلك العصور بالعلم والمعرفة، وجمع الكتب والعناية بالمكتبات، فالسلطان أبو عسان كان قد رُوِّد مدينة فاس بأكبر خزانة للمطالعة عرفتها العاصمة العلمية في عصر بني يبريد، خزانة الكتب وحرارة المصاحف. وجمع فيها أكبر عدد ممكن من الكتب المختوية على أنواع من علوم الأديان والأسنان ولأدهان وللسان، وغير ذلك من العلوم على اختلافها وشئى صروبها وأجناسها، وعين قِماً بضبطها ومناولها فيها^(١).

أما المراكز الدينية، فإن بوقر الكتب اللآزمة للتعلم ساعد على برورها كمراكز علمية هامة، فقد شاهد العديد^(٢) من الرحالة في المسجد الحرام خرائن كبيرة للكتب، وكانت هذه الكتب خاصة بكل عالم يتولّى التدريس في المسجد الحرام وذكر التحيبي أن لبعض الفقهاء وعلماء الحديث كتباً كبيرة. وأظهرت كتب الرحلات حرص علماء كل مذهب على تأمين لكتب للدارسين، وإيقافها عليهم داخل المسجد الحرام، وأشار ابن جبير إلى حرانة للكتب تتبع الإمام المذكي موقوفة على أهل مذهبه^(٣) وفي حديثه عن المسجد الحرام، وأبواب الحرم الشريف، يذكر باب إبراهيم عليه السلام، وأنه في رايه كبيرة منسعة فيها غرفة هي خزانة للكتب المخبئة على المالكية في الحرم^(٤).

ومن جانب آخر، فإن المدينة المنورة، تأتي مركزاً ثانياً من المراكز العلمية، إذ لم تستطع استيعاب كافة المذاهب دون التحير لأحدها على الآخر فلم يكن بالإمكان الجهر بقراءة كتب السنة بالمسجد النبوي، ولعل هذا يعود إلى اضطهاد السنة، وهذا يعكس

(١) انظر، الجرناني، عسي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٧،

ص ٢٦، وابن الحاج العمري، قبض العباب، ص ٦٢، ومقدمة المحقق، ص ٩٧

(٢) انظر، ابن حبر، ص ٨٠، ٨٢، والتحبي، مفاد الرحلة، ص ٢٧٦، ٢٠٦، واللوحي، تاج المشرق.

٣٠٦/١

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٨٣

(٤) انظر، المصدر نفسه، ص ٨٣



الصورة التي كان عليها المسجد الحرام^(١) وأشار ابن جبير إلى أن لمسجد التسوي، كان يصم مكتبة كبيرة احتوت حزانتين كبيرتين من الكتب، وبعض المصاحف الموقوفة على المسجد^(٢)

وتحذر الإشارة بأن الحجاج و لروار إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة قد ساهموا في نشر العلم، ونقل الكتب أثناء تجوالهم، حيث كانوا يتدرسون ويثقفون العلم في الديار الحجازية^(٣)

ووصف العبدري^(٤)، وابن رشيد^(٥) كثيراً من المكتبات ودور الكتب، وأشار لتجيبى إلى العديد من المكتبات، فهي ترجمته للنور اليميني، يقول "وهو متولي حراثة الكتب بدار الحديث الكاملية من القاهرة المعزية"^(٦).

أما المكتبات الخاصة، فقد توافرت لدى بعض العلماء والفقهاء والأدباء فهي ترجمة ابن رشيد للأشعري^(٧) إشارة إلى وجود مكتبة في بيت الأشعري وكان له بيت في مسجد ليكر فيه، وفيه كتبه^(٨) ولعل اهتمام الرحالة بالكتب في كل صنف، وفي كل فن، فيه إشارة إلى امتلاك بعضهم لمكتبات ضخمة، ويرى محقق رحمة التجاني أنه لا شك في

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٧٨، ١٧٩، والتجيبى، مستفاد الرحلة، ص ٢٩٦ - ٢٩٧، والتسوي، ماج

المعري، ٣٠٦/١، وابن رشيد، ملء العينة، ٥ / ٦٩

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٧١

(٣) انظر، ابن رشيد، ملء العينة، ٥، ٦، ١

(٤) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص ٦٥، ٢٤١، ٢٤٥

(٥) انظر، ابن رشيد، ملء العينة، ٥ / ٥، ٦، ١٠، ٦٩

(٦) التجيبى، مستفاد الرحلة، ص ١٣٨

(٧) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ميمون، لأشعري المالقي، انظر ترجمته، ابن رشيد، ملء العينة

٤٠٩ / ٢ - ٤١٣

(٨) ابن رشيد، ملء العينة، ٢ / ٤١٠

أن التجاني الرحالة، كان يمتلك مكتبة ضخمة من مختار المصنفات فقد كان لديه كثير من الكتب، ومنها نسخة كاملة من سيرة الرسول، لابن إسحاق، وكان يقن عنها مباشرة^(١)، ومن سبق يتبين أن إشارات المؤسسات التعليمية ودور الكتب، وتعدد أنواع العلوم، في المشرق الإسلامي كانت من دوافع رحلات الأندلسيين وللمعاربة محسوب المشرق؛ للاتصال بكبار العلماء والأخذ عنهم، الأمر الذي أسهم في تأسيس المكتبة الأندلسية ولعربية، يد أدجنه الوافدون إلى الأندلس والمغرب، والتأرجحون عنها من كتب كثيرة^(٢).

ثانياً: اللغة والأدب

نقلت الرحلات صوراً حية ناطقة بما في أبلاد التي قصدها الرحالة، من نشاط ثقافي ومعرفي، وحفظت ملامح من الثقافة في مختلف الموضوعات وجوانبها الفكرية في الأندلس والمغرب وبلاد لشرق أيضاً، وكانت وثيقة فريدة بما تحويه من معلومات متنوعة عن شخصية الرحالة وجوانبها المعرفية المتعددة، وثقافتهم المتنوعة، وما عكسته الرحلات من مواضيع نثرية وشعرية وتقدية ولعوية مختلفة، وما رصدته من مناقشات ومناظرات كتبت مصدراً هاماً للكثير من الأدباء والنقاد واللعوين.

حيث علق ابن بطوطة على كلام بعض أهل المدن العربية، بأنه ليس بالفصيح، فعند وصوله إلى مدينة قلهاة^(٣) يصف كلام أهلها، فيقول: وكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب، وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بـ لا فيقولون تأكل لا، تمشي لا، تفعل كذا لا...^(٤)

(١) انظر، رحلة التجاني، المقدمة، ص ٢٠٨، كط، ص ٢٠٨.

(٢) انظر في هذا، معروف، سحي (١٩٧٢)، علماء النظامات ومدارس المشرق الإسلامي، ط ١، بعدد مطبعة الإرشاد ص ١٩ - ٤٠.

(٣) قلهاة مدينة بشان على ساحل لبحر انظر، باقوت الحموي، معجم البلدان ٤، ٣٩٣.

(٤) رحلة ابن بطوطة ١/ ٢٤٣.



وقد أنكر بعض الرّحالة كثرة اللّحن عند بعض الخطباء فابن بطّوطة أنكر على خطيب الجمعة في البصرة كثرة لحنه وقد عرفت البصرة بكبار النّحاة واللّغويين وشكّا ذلك إلى الماضي فاعتذر عنه بعدم وجود علماء في لحنه. وذلك ما يدعو إلى الصّكر والتدبّر، فسبحان معيّر الأشياء، ومقلّب الأمور^(١)، وللرّحالة تعليقات حول أصل عدد من الأعلام، فقد أورد ابن بطّوطة أثناء حديثه عن السلطان التتري -حاكم العراق- الذي أسلم (محمد حدا يده) تعليق عن الاختلاف في ضبط اسمه و (حذا) بالمغربية اسم لله عز وجل و(يده) غلام أو عبد أو ما في معانها، وتيل (خر يده) و (خر) بالمغربية الخمار ومعناه يكون غلام الخمار وقبل ويستطرد ابن بطّوطة في ذكر هذه الآراء في أصل اسمه وأصل اسم أخيه (نارغان) وهو نفس، لأنّه وبس، لما دخلت الحارّة ومعها القدر^(٢)

وحرص بعض الرّحالة على التعاريف للغة لأسماء بعض المدن التي مرّوا عليها، والصّحاح لدقيق لبعض الأسماء والتسميات ومن ذلك ما قاله التجاني^(٣) ونزلنا بشر يوت بضم اياء المعتلّة والنون والتاء الصحيحة المثناة^(٤) ويقول أيضاً فنزلنا بالعين المعروفة بعين وعرس بكسر الواو ومسكون البدال المهملة وكسر الراء^(٥) وفي تعريفه للماقل يقول اسم لكلّ موضع أنت البق، والقمل كلّ مات تخضر منه الأرض ليس له أروقة^(٦) ومن الطّوائف الأدبية ذات الصّلة بالشعر، ما ذكره ابن العربي، حين هاج البحر صبيهم ووصل هو ومن معه بيوت بني كعب بن سليم، وعطف عليهم أميرهم، سمع ابن عم الأمير يترنم منتشداً:

(١) انظر، المصدر نفسه، ١/ ١٧٠

(٢) انظر، المصدر نفسه، ١/ ٢٠٢

(٣) رحلة التجاني، ص ٣١٧

(٤) المصدر نفسه، ص ٢١٦

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٢ وانظر في مثل هذه القصايا اللغوية رحلة التجاني، مسند الرحلة، ص

٢٣٠ - ٢٣٢، ورحلة ابن بطّوطة ١ - ٣٥، ١٣٢، ١٣٣، وموطن متفرقة من الرحلة.

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه
وفي أهنجر، فهو الذهر يرحو ويتقي
فقال: لعن الله أبا الطيب أو يشك الرب؟

فقال له ابن العربي في الحال ليس كما ظن صاحبك أبا الأمير، إنما أراد بالرب
ها هنا الصاحب، يقول ألد الهوى ما كان العاشق فيه من الوصال، ويلوع الآمال، على
ريب فهو في وقته كله بين رجاء لما يؤمنه، وثقافة لما يقطع به، كما قال:

إذا لم يكن في الحب سحق ولا رضى
فأين حلالات الرسائل والكتيب^(١)
ويظهر هذا لموقف نبوغ ابن العربي في الأدب وفن الكلام.

ورود العبدري لمجال لأدبي واللّغوي بما لديه من خبرة فيهما، ومن ذلك ما ذكره
أن أهل اللغة يقولون عن الفصح، والعجج أنه الدّل وحسن الشكل^(٢)، وذلك غير ملائم
مع ما جاء به ابن المكور، حسن بن علي بن عمر القسنطي^(٣)، عند قوله بقا رمت
العيون سهام صبح ومن ذلك انعدام التلاؤم في الترتيب الذي جاء به في قوله:

بدور بل شمس بل صباح
بهي في بهي في بهي في بهي

وعلق العبدري على هذا لبيت بقوله: نزول مفرط وعكس للترتبة، فإن الشمس
أشهر من الصباح وأنور، والانتقال من التشبيه بالأعلى على الأدنى أشبه بالدم منه بالبح
لا سيما مع الاصراب، وقوله: بهي في بهي غير منطبق على صدر البيت ولا ملائم له
وبو قال: بدور في بدور في قصور، لجاء عليه عجز البيت ألق من العقد بجيد الحسنة
وأوفق من الجود للروضة الغناء^(٤).

ومن الآراء النقدية التي أبدعها العبدري تعليقا منه على قول الشاعر:

(١) انظر: ابن العربي، قانون التأويل، ص ٨٧-٨٨

(٢) العبدري، الرحلة المغربية، ص ٣٥

(٣) انظر: ترجمته، المقري، فتح الطيب، ٤٨٣/٢

(٤) العبدري، الرحلة المغربية، ص ٣٦



فلي قلب بأرض الشرق عان وجسم حلّ بالعرب القصي
هَذَا بِالْغَدُو يَهِيم عَرِيًّا وَذَاكَ يَهِيم شَرْقًا بِالْعَشِيرِ

قال هذا كلام غير محصل، فإنّ الجسم العربي من القسب لا يهيم وإنما يهيم القلب، ويست الباء هنا ظرفية، بمعنى في، لأنّ الهيمن لا يتخير الأوقات، وما أضعف حباً لا يهيم إلا مرة في اليوم، وإنما هي للإلصاق، أي هذا يشاق في وقت العروب إلى الغدو وذلك في وقت الشروق إلى العشي شوقاً من هذا إلى اشرق، ومن ذلك إلى الغرب وهو معنى حسن لو ساعده لفظه^(١)

ومجدر الإشارة، بأن مثل هذه التعليقات لا يقصد بها الرخالة التقليل من شأن الأشخاص ولا انتقاص من قدرهم الأدبية، وإنما هم في عملهم هذا يبحثون عن طواهر الجمال في التصوص الأدبية.

ولم تفعل كتب الرحلات الحديثة من اهتمام الحكام والأمراء بالنقد والتحليل والمناقشة والاستدلال فيصف ابن الحاج نشاط السلطان أبي عان العلمي وكفاءته، ومسيرته للتبليد ونيل الطرق القديمة المشبعة على الحظ فقط، ويصف أيضاً حضوره لكثير من المجالس العلمية وتوجيهه لمن يسأل الشيوخ والعلماء، ويدعوهم إلى التحاور معهم ومناقشتهم، ويوصي لشيخ بعدم الاقتصار على الحظ فقط ويدعوهم للمجادنة^(٢). وسجنت رحلة ابن الحاج ما أثاره أبو عان من ثقافة أدبية واسعة، ومن الإشارات اندالة على ذلك أنه كثير ما ردّد أن مولاه مجيد في نظم الشعر والكتابة لغنية وكان مولانا مظاهر قسطنطين، بأخذ من مال ومن أدبه، ويستضيء من العلوم بأنوار

(١) العبدري الرحلة العربية، ص ٢٧

(٢) انظر، ابن الحاج العميري، فيض العباب، معلمة المحقق، ص ٩٧، والمقري، أزهار الرياض ٢٧/٣، ولومي محمد (١٩٧١)، التيارات الفكرية في الغرب المغربي، دار المغرب مطبعة محمد الخامس،

سهمه^(١). وقد أبرزت الرحلة أيضاً اهتمام الأمير أبي صناد بالشعر ولشعراء، وحلجه عليهم الخلع الكثيرة، وتقديمه لهم الهدايا الجزيلة^(٢).

وبهذا كانت رحلة فيض العباب محاولة من المحاولات التي قدّمت صورة واضحة لثقافة المغرب وحضارته في عصر من العصور الزاهرة، عصر الدولة المرينية

وبالآداب وبخاصة الشعر في كتب الرحلات بعض العناية، فقد كان بعض الرحالة شعراء، مثل العبدري، وبعضهم يقوله بشكل بسيط، قول انعم المتنص، مثل ابن بطوطة، وبعضهم يولج بالأدب والشعراء ولقاء الشعراء كما نجد عند التجاني. والعلاقة بين الشعر والرحلات علاقة انسجام، فما يرتبط بالرحلات من ذكر للأماكن والأشخاص والأحداث والأوصاف يصبح موضوعاً للشعر، حيث يصف الشاعر كثيراً من أحداث رحلته، وتدفعه الرحلة إلى التذكّر والحس، فلو لا الرحلة ما وصف الرحالة مشاعرهم وأشواقهم وحينهم ومظاهر الطبيعة حولهم، والأخطار التي تواجههم بالإضافة إلى إمكانية الاستدلال بالرحلة على تاريخ ما اتصل بأحداثها ووقائعها من شعر، وأغلبه ديني بصور زيارة الأماكن المقدسة وأثارها الدينية، ولحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام. وبقيته شعر بصور العثرات والمدح الحكام وشعر يودّع فيه الرحالة أهلهم وديارهم ويتشوّفون إليهم.

وأظهرت الرحلات موهبة أصحابها الشعرية، فهذا يحيى بن الحكم الغرالي^(٣) استطاع بهذه الموهبة أن يسجل شعراً، لا خطر التي واجهته في رحلته وعرضته لخطر العرق في البحر، فرود التراث الأدبي بأشعار ذات قيمة فنية عالية، ومن قوله

قال لسي يحيى وصبرنا بين موح كالخيل
وتولّنا ريباً من دبور وشمال

(١) ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ١٧٧

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ٥٦، ٢٤٠-٢٤١، ومقدمة المحقق، ص ٩٨

(٣) انظر ترجمته في هذه الدراسة، ص ٢٣، حاشية رقم ٣



شفت الفلعتين وانس ———
 فت غري تلك الحبال
 وتمطى ملك المو ———
 ت إلينا عن حبال
 مرأينا الموت رأي ال ———
 عيس حالاً بعد حال
 لم يكن ليقوم يسا ———
 يا ريفي رأمي مال^(١)

إن رحلة ابن لحكم الغزل عرفتنا بشاعر مطبوع النظم، واطلعتنا على تنوع موضوعات شعره الحكم والحكمة والفول والعزل^(٢)؛ لذا فإن صياغ نص الرحلة لأصلي يشكل خسارة كبيرة للأدب.

واستطاع ابن جبير بهذه المرحلة أن يعبر عن ذاته وحواطره ومشاعره، من ذلك قوله
 عريباً نذكر أوطاناً ———
 فهنيج بالذكر أشجاناً
 يحل غري صيره بالأسى ———
 ويعقد بالنجم أجهاناً^(٣)
 وفوله معبراً عن شوقه نحو جارية له تركها بهرملة

طول اعتراب ونرح شوق ———
 لا صبر والله لي حبيب
 إليك أنسكو الذي ألقى ———
 يا خير من يشككي إليه
 ولي بغناطه حبيباً ———
 قد علق الرهن في يديه^(٤)

وفد كان مشهد الوداع والحين في موضوعات الرحلة قد زاد الجانب المعرفي فيها، إذ يقول ابن رشيد في ترحمه للأشعري ومما كبه لي يخطه مودعاً لي ولرفيقي . وغالب ظني أنه أشهد لنا عند سفرنا

(١) المقري، نصح الطب ٢/ ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) انظر، المصدر نفسه ٢/ ٢٥٥ ٢٦٢

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٣٨٤

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٣٨٥

وداعُكم ما وداعُ القلبِ مُني
أبعدُكم ما يصاحبي الفؤاد
ويُنكم ما يبين الصبر عني
ويتركني يرق لي الجماد
وقد كان الرقاد يزور طرقي
وبعد تراكم ما ينأى الرقاد
لقد حار البعاد على المصنئ
فديتكم لمن يُشكى البعاد^(١)

وقد يزيد حنين الشاعر إلى مشاهدة الأماكن المقدسة من شوقه لها فينظمه شعراً، ثم تتوق نفسه إلى العودة إلى وطنه، وهما تجتمع مشاعر اللّقاء والوداع في آن معاً. ومن ذلك ما أنشده اللّوي نفسه من مقطوعات شعرية، تمثل مشهداً من مشاهد الوداع للأماكن المقدسة ومعابها إذ يقول عند خروجه من بيت المقدس واصفاً مشاعره النفسية في بيت عه مرثلاً، وفيه أنشأت عاجلاً، وأنشدت مرثلاً.

خليلي في ريع الخليل متى نفسي
وفيك فؤاد أنت يا حرم القدس
أحنُّ إلى نلقاء هذا صبابه
وألمح من هذا بيت البدر والشمس
مواطن لمر أنصفتها حيثُ الرأ
إلها على العترة والخذو الرأس
ولو أنني أعطى مرادي بينها
لما رَحَلْتُ من دونها أبداً عني
وكيف رحيلي عن معاهد لم تزل
على أهل والرحال لي غاية الأنس
أروح وأخذو بيها شيقاً لها
وأصبح فيها مستهماً كما أنمي
وإن كانت الأخرى ولم تك أوبة
فأهدي سلامي في القراطيس بالنقص^(٢)

فقد كان بيت المقدس يمثل للرحالة مركزاً علمياً وديناً، وهو عند عيني الذين بنو هربي وغيره من المتصوفة مصدر الارتواء، فالقيم في القدس لا يشعر بالعطش ينول ابن عربي

(١) ابن رشيد، ملء العيبة ٤١٣/٢

(٢) اللّوي، تاج الفرق ١٤/٢ ١٥



نعايب من عدم الغيوب عجائبا
نصان عن التذكار في رأي من وعى
ومن قائم بالخال في بيت مقدس
فلا نفسه نظما ولا سره ارتوى^(١)

ولم تقتصر الرحلات على ذكر أشعار لأصحابها، بل أنشد أصحابها جملة من الأشعار لغيرهم، وتضمنت رحلاتهم عدداً كبيراً من الأبيات والمقطوعات والقصائد لشعراء زارهم لرحالة أثناء أسفارهم وتجوّاهم، وهم لا يحرصون على رواية ما حضروه من أشعار الشعراء الذين التقوا بهم وحسب، بل على رواية هؤلاء الشعراء لغيرهم كذلك وبهذا تكون لرحلات الأدبية والمغربية قد أمدت التراث الشعري بالعديد من القصائد التي تظهر شاعريته أولئك الشعراء وأديبهم، وتشير إلى تنوع أعراضهم الشعرية، فقد نظموا قصائد في التهنية، بمختلف المناسبات، وفي المدائح النبوية، ومدح القادة والحكام والأمراء وفي الجدة والحرل والوصف، والغزل، وغيرها

وقد نظم ابن الحاج أياًناً يهنئ فيها أبا عنان بعد أن شفي من مرض ألم به، وهو يستعد لرحلته، ومنها قوله:

وقل لمن وامى بشيراً نفوسها
مما هي إلا بعض ما أنت واهب
أقول لحرود خليل قبا^(٢) بطونها
معقده مها لحرب سباب
طوالع من تحت العجاج كأنها
نعام نكبان الضريم خواضب
بقيت بقاء الدهر ملكك قاهر
وسيك فياض، وسيفك عاصب
وعوفيت من صر وأعطيت أجره
ولا روعت إلا عبدك النائب^(٣)

ويذكر من يترجم لابن الحاج أنه شاعر شتف المسمع بذكر كلامه^(٤)، ويرى محقق رحبة فيض العباب، أنه رغم ذلك لا يعرف إذا كان لابن الحاج ديوان شعر أو أنه ربما

(١) كتاب الإمارة في مقام الأسرى، ضمن رسائل من عربي ٤٥/١ ٤٦

(٢) قبا صمود البطى، ودقة الحصر انظر، ابن منظور، لسان العرب ٦٥٨/١

(٣) ابن الحاج السيري، ميسر العباب، ص ٣، ٤ والمقري، مع الطيب ١١٩/٧ - ١٢٠

(٤) انظر، ابن الخطيب، لإحاطة ١٩٣/١، ٣٥٥ - ٣٥٨



ضاع^(١)، ويبدو أن شعره منحه الأغراض، وقد أشار ابن الخطيب إلى تمادج من شعره تدور حول الوصف وصف الخمر، ووصف العلم، وغير ذلك^(٢)

أما المدائح النبوية فقد أوردت الرحلات بعضاً منها، ومن ذلك ما قاله أبو عصبدة البجائي عند حضرة الرسول:

نقبض فضلك حققت سيدي أمني	ولا تكلي إلى علمي ولا علمي
فما سوى حسن ظني فيك يعمي	وأن يحب فيك هذا الظن واحجلي ^(٣)
	واخجلني ^(٤)

وذكر ابن رشيد في رحلته بعضاً من اشعار أبي الحسن بن إبراهيم النجاني، في المدائح النبوية، ومنها قوله

لئال نعل الهاشمي عمم	جادت جهومي بالذموم الزعم
ويكاي من فرط الأسى ولو أنني	أقصي وحق جلاله لم أنصف
أوطائه خذي، وقلت تعري	ما شئت، يا بصي، بهذا واشرفي
وتسكي أبداً بحب عمم	فعاك أن تجوبه في لرقم
صلى الإله عليه ما جرى للجي	وبدا النهار ولاح نجم أو خفي ^(٥)

أما ابن خلدون، فقد عرض بعض قدراته الأدبية في التمدج لشعرية التي أوردتها في رحلته بمناسبة مختلفة، وفيه قال ابن الخطيب وأما نظمه فنهض بهذا العهد قدماً في ميدان الشعر^(٦). ومن شعره في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

(١) انظر، ابن الخرج العمري، فيض العباب، مقدمة المحقق، ص ٤١

(٢) انظر، ابن الخطيب، لإحاطة. ٢٥٥/١-٢٥٨

(٣) أبو عصبدة البجائي، رسالة العرب إلى الحبيب، ص ٦٩

(٤) ابن رشيد، ملء المية. ١٩٩/٢

(٥) المقرئ، نفع الطيب نقلاً عن الإحاطة: ١٨١/٦



إني دعوتك واثقاً بإجابتي يا حير مدعوً وحير مُجيب
فصرت في مدحي فإن بك طيباً فيما لذكرك من أريج الطيب
ماذا عسى يعني المطيل وقد حوى في مدحك القرآن كل قطيب^(١)

ولم تخل بعض الرحلات الأدلسية والمعربية من أبيات قبلت في مدح الحكام ولأمراء وأوزارهم والشيوخ والأولياء، ومن ذلك ما قاله أبو حامد الغرناطي بمدح فيه الوزير هون الدين^(٢):

خملت به أم العُلم وأرصعت من ذر أخلاف الذكاء الخفل
يُندي حقائق كل علم مُشكل فيهمه ظلم الجاهة ثجلي
ولى أمير المؤمنين أمورة نبأ قصوراً في الخطوب كيتبل
عواً لدين الله بأسط عدله ولجود فيض القراءة السئل^(٣)

وتحدث ابن الحاج عن الفتوحات التي قام بها أبو عماد، وركبت أثراً في هوس المسلمين، وقال مأساً السلطان، ومصور فتح قسنطينة

وتأبى العلى إلا السّماحة ولندي وصرّ التقى لا البقاء على العهد
وأنتم كالיום الذي جاء بالتسي أمطت نقاب التصرف في موكب العصد
عروس من الصّنع المبين ترينت هامت من الريح المويم على قد^(٤)

أما ابن بطوطة، فقد قال بمدح سلطان الهند:

(١) ابن خلدون، التعريف، ص ١١٤-١١٦

(٢) انظر ترجمته، لمقري، مع الطيب، ٢، ٤١٠، والصدي، الوافي بالوفيات، ١، ٣٥٨

(٣) أبو حامد الغرناطي، المغرب، ص ٩

(٤) ابن الحاج التميمي، فيض العباب، ص ١٤٣

ليث أمير المؤمنين، مُبجلاً
 اتبعا عبد السير نحوك في الملا
 فجئت محلاً من علائك زائراً
 ومغادك كهف للزيارة، أهلاً
 فلر أن فوق الشمس للمجد رتبة
 لكتت لأغلاها إماماً مؤهلاً
 فأت لإمام ماجد الأوحى الذي
 سجاياه حثماً أن يقول ويفعل^(١)

وأبرزت بعض الرحلات دور (المرأة الشاعرة) في ميدان الشعر وأغراضه المختلفة، وفي ميدان الأدب والعلوم الأخرى. ففي رحلة النجاني^(٢) ذكر لزيب بنت إبراهيم النجاني وهي من شهرات الأديبات التونسيات في العصر الحفصي، وقد ذكرها العبدري في رحلته عرضاً ولم يسمها، ويذكر محقق الرحلة أنه عشر على اسمها في بعض المخطوطات، وخصص لها ترجمه في كتابه شهرات التونسيات^(٣). وأوردها العبدري مقطوعين من شعرها، أنشدهما به أحوها علي، فمن ذلك قولها مدغرة فيمن اسمه نعيم

يقولون لي هذا حبيبك ما اسمه؟
 فما استطعت إفشاء وما استطعت أكتم
 فقلت اسمه ميم وحرف مقدم
 فهذا اسم من أهوى هديتكم أفهموا^(٤)
 أفهموا^(٤)

ورغم هذا الترد اليسير من شعرها، إلا أنه يبرز صورة امرأة الشاعرة العارفة بالأدب.

(١) رحلة ابن بطوطة، ١٢٠/٢

(٢) رحلة النجاني، ص ١٢٤، ك وانظر عن دور المرأة في مختلف الميادين الأدبية والشؤون الدينية، النجاني، معاد الرحلة، ص ٤٣، ٤٤، ١٠٢، ١٥٠، ٣٣٠ وانظر أيضاً، ابن رشد، ملء العبة ٣١٩/٣، ٣٢٥، وهو طر كثيره معرقة من الرحلة

(٣) عبد الرهاف، حسن حسني (١٩٦٦) ط ٢، موس مكتبة لدر ص ١١٠-١١٢

(٤) العبدري، الرحلة المغربية ص ٢٦، وانظر أيضاً، ص ٢٦٢



أدب المراسلات والمكاتبات والمحاطبات، والمساجلات والمعارضات الشعرية و الشعرية، فقد كان الرحالة يكتبونها للملوك والسلاطين والأمراء، وكانوا أيضاً يتبادلونها مع أصدقائهم، وهي من الموضوعات التي عُيت بها الرحلة، وتلمس شواهد ذلك في عدد من لرحلات التي مثلت ثروة علمية رائعة، وترجمة واسعة من تقدم الحياة الفكرية وتطورها في العام العربي الإسلامي، ويقول ابن رشيد في رحلته: وإن كنت أودعته من الفوائد ما لعله لا يحصره ديوان، ويعزّ وحوده على دي البحث والتفتير ولافتان وقد ضمتته من الأحاديث لبوية واللطائف الأدبية والتكت العروضية وطقت الشكل من أسماء الرجال^(١).

وقد أورد ابن رشيد عدداً من المراسلات والمكاتبات الشعرية والمساجلات الشعرية ومنها ما كتبه الوزير أبو عبد الله بن العقبه الوزير أبي لقاسم بن الحكم^(٢) إلى أبي بكر بكر ابن حيش^(٣) - أحمد الله حق حمده، يا سيدي رضي الله عنكم، وأبقى أنوار المعارف تقبس منكم لما عدت إشارتكم المقابلة بواجب الامثال، لفصلة على كل أمر دي سأل، بأن يعيد للمستضيء بنورككم محبراً في ورده شيئاً من كلامه^(٤).

ومن المساجلات الشعرية التي أورد ابن رشيد في رحلته، تلك التي كانت في وصف حصة تهور بالماء.

أما التحاني، فقد أورد مجموعة من المراسلات والمعارضات الشعرية التي كانت بينه وبين الكثير من العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء، ومنها تلك المراسلات التي تبادلها مع ابن شبرين، حيث وصلته رسالة من ابن شبرين، وذكرها التحاني، فقال: وفي أثناء إقامتها

(١) ابن رشيد، ملء العيبة ٢/ ٢٣

(٢) انظر ترجمته، المقرئ، أزهار الرياض: ٢/ ٣٤٠ - ٣٤٧

(٣) هو محمد بن الحسن بن يوسف، انظر ترجمته، ابن رشيد، ملء العيبة ٢/ ٨٣، ١٢٦، والمقرئ، مع نفع الطيب ٤ ٣١١

(٤) المصدر نفسه ٢/ ١١٣ ١١٤.

بتورر وصلت إني نصيدة من العقبة الأجل الأديب أبي بكر محمد بن أحمد بن شبرين
الخدامي السبي^(١)، من مستقره بعرباطة . ونج جاء في قصيدته.

يا سمة سحبت فصول ديوها	ما بين ورد بالعذيب وترجس
والورق قد صدحت على أمانها	والأرض قد لبست ثياب السدس
حطّي رحال تحتي في معهد	بين الجوايح منه عهد ما نسي
والحي من تيجان فاشرح عندهم	فرط اثنياني نحو داك المجلس ^(٢)
وفد رد عليه التجاني بفصيدة يعزبه فيها على ما حل به وبأمله ويلده، جاء فيها	
امر من الله لا مرد له	لم يبق كهلاً منهم ولا يفعا
وحدة تم أمرها فمضت	وكم سديد الآراء قد خدعا
هاك سلامي على أبعاد أبا	بكر فقلبي إليك قد نزعاً ^(٣)

وأشارت بعض الرحلات لعدد من المعارضات الشعرية، ومنها، ما دار بين التجاني
وأبي النصل محمد بن أبي الحسن علي بن إبراهيم التجاني، يقول فيها

أهدي أبا النصل السلام مرددا	علاك عن قلب إليك مشوق
وأقرر الود الذي أنا سالك	فيه من الاخلاص خير طريق
فرد عليه أبو الفضل	

أهدي سلام الود خير رفيق	من عذ أوحده أسرتي وفريقي
ومقام عبد الله نجل محمد	في قومه سم على لعيق ^(٤)

(١) ويد ستة وأهله من إنسب أصلا، كن تاريخاً شاعراً كانا، انظر ترجمته، في الخطيب، الإحاطة

الإحاطة ١٧٤/٣ ١٨٢، والمقري، مع الطيب ٥٤١/٥

(٢) رحلة التجاني، ص ١٦٥

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٠



وقد كتب العقبة انكاتب أبو عبد الله محمد بن يعيش^(١)

فجاءك الربع إذ ظعن الحبيب فأنب وإن نشأ به غريب
إد. بعد الأوبة عن محل فما عيش بساحته بطيب
وكيف بطيب عيش بعد خل بأي فجميعا صلب كتيب
وأجابه الرحالة لتجاني
عسى الرمن الذي ولي يذوب فقد ستمت من الشوق الغلوب
إذ ما قلت قد قرب اجتماع ففى يفرق حطب يوب
وأعظم من ترى أسفا وحزنا حيا قد نأى عنه حبيب

وكتب العقبة أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالهوارى^(٢) إلى الرحالة، يقول:
أهدي سلام الود خير حبيب من حد أول فاضل وحبيب
أهداء عبد الله محل عمم فحر الرمان إمام كل أديب^(٣)
وردة على الرحالة

إن أقصر من أسف فعب حبيب لوط اشتياق وابتعاد حبيب
ما قلت قد بلى التفرق فنفصى لا وجدده جديد حطوب
ولم شجا نفسي واضرم لوعتي وأثار أشجاني وهاج كروبي
برق بدا واللبل لأخى مجعه والبلى شمر ديله لغروب^(٤)

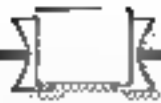
(١) العيوق كوكب أحمر مضيء، انظر، ابن منظور، لسان العرب ١٠ / ٢٨٠

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٠-٢٨١.

(٣) انظر ترجمته، المقرئ، مع الطيب ٢ / ٦٤٩

(٤) لم يصف البحث في العثور على ترجمته

(٥) رحلة التجاني، ص ٢٩٤-٢٩٦



وقد دلت بعض الرحلات على نبوغ الحكماء والتلاطين في ميدان النظم، وذكر ابن
الحاج عن نبوغ وغرس أبي عنان في قول الشعر، ودليل ذلك ما حدث عندما نظم قاضي
الحضرة أبو عبد الله المقرئ^(٢) هذا البيت العرید:

دخلت بلاد الله شرقاً ومغرباً قلم تر عين مثل سكرة يسا
فراغ عليه مولانا أسرع من ارتياد أطراف، وأوحى من رجوع البصر وهو العطف
وبما فتح ما أسود القمام بوجهها فمد عني الأبصار لم تنصر الشما^(٣)

وقد تضمنت رحلة ابن الحاج عدداً من الرسائل لديوانية، حررت أثناء الرحلة إلى
قسنطينة والراب، وعددها أربع، الأولى إثر فتح قسنطينة، والثانية بمناسبة دخول الجيش
المرفي إلى عنابة، والثالث بعد فتح تونس والرابعة خاصه بإلياب النهائي والرجوع إلى
الحضرة العلوية، ويبدو أن هذه الرسالة كانت الأخيرة، وقد ضاعبت، وتأسف المؤلف على
ضياعها^(٤)

أما رحلة رسالة العريب إلى الحبيب لأبي عصيدة البجائي، فتتمثل بذاتها نقلاً من
المراسلات لأدبیه، حيث وصل البجائي من أبي الفضل لمشدالي أبيات شعرية هي عتاب
على عتاب

سمعتُ كتبك في لقطيعة عالماً أن برسالة لم تحمد من حامل
وعذرت طيفك في الجماء لأنك يسري ويصبح دوساً بمراحيل^(٥)

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩٧ وانظر عن المعارضات الشعرية في المصدر نفسه، ص ٢٩٨ - ٣٠٠

(٢) انظر ترجمته المقرئ، مع الطيب ٢٠٣/٥

(٣) ابن الحاج السيري، فيض العباب، مقدمة المحقق، ص ٩٩

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٦، ١٣٩

(٥) انظر، أبو عصيدة البجائي، رسالة العريب، ص ٤٥



فما كان من أبي عصيدة إلا الاعتذار على ما فهم المشدالي من رسائله^(١) وعتابه وعباراته التي نقلت له، فردّ على عتاب المشدلي بتدوينه رحلته رسالة الغريب إلى طحيب التي انتحى بمصيدة انعكس صورة الرّحالة الشاعر، وصورة صديقه أبي الفصل المشدالي ومكانته العلمية، ووصف حاله بعد فراق صاحبه المشدالي له، ومنها

هدى مراسلة العبد الفقير إلى	كهف الأيام وقهر الوقت والسلف
أنته تشتر ما قد حار من شيم	ومن جلال ومن عزّ ومن شرف
وأن تذكر أياماً به سلّمت	فه ما كان أحلاها لمعنّـر
وأن عبدهم لم يس عهدهم	وليس يسى عهد اغمسين وفي
ولم يزل ذكرهم شرقاً يميله	كما قبل عصرون البان من هــب
وغو (طيبة)، تشيه عرائمه	لما حكته من لألفاب والتحف
وما (بمكة) من أيامه ملّمت	كانت من الحسن فوق الوصف إن تصف ^(٢)
	تصف ^(٣)

وقد روّدت رحلة ابن خلدون لأدب بصورة عن سمات الكتابة في عصره، وذلك من خلال إيرده لبعض المكاتبات والمراسلات ثرية والشعرية، يبه وبين ايس الخطيب ومنها ما ناله ابن الخطيب متهجاً بقدم ابن خلدون إلى عرابطة

حللت خلون، العيث بالبدّ لمحل على انظار الميمون ولوحب والسهل

(١) ذكر البجائي أنه كان بينه وبين المشدالي عدد من الرسائل الأدبية أولها مراسلة وجهها له مع شخصين، وثانيهما مراسلة أدبية اشتملت على أحبار معريه ومشم فيه، ولم يذكر مع من وجهها له، وثالثها رسالة وصف به فيها مرضاً حلّ به وكاد يقضي عليه، ولم يذكر أيّ مع من وجهها له، ورابعها لم يتحدث عن موضوعها ولا عن حاملها ولكنّه أشار إلى أنه كان يهدف من ورائها مراعاة الود والتراسل بينهما انظر، أبو عصيدة البجائي، رسالة الغريب، ص ٣٥

(٢) أبو عصيدة البجائي، رسالة الغريب، ص ٤٢ ٤٣.

مينا بمن تغتور الوجوه لوجهه من لشيح والعقل المهذ والكهل
لقد نشأت عندي للفيك غبطة تُنسي اغباطي بالشيبة والأهل
وودّي لا يُحتاج به لشهد وتقيري المعلوم صرت من الجهل

أقسمت بمن حجت فريش لبيت، وفيه صرت أرمّة الأحياء لينة، وبور ضربت
الأمثال بمشكاته وزينه. لو حيرت أبها، الحبيب الذي رباوته الأمية السية بين رجع
الشباب يقطر ماء، ويرف غماء وبين قدومك خلع الرّس، ممتعاً والحمد لله باليقظة
ولوسن، لما اخترت الشاب وإن شقي رمت، وأعياني ثمه ^(١)

وبهذا فإن كتب الرحلات كانت ذات أثر مباشر في تصوير الحركة الثقافية، وبها
يدرك الباحث الأبعاد التي نطعها الأندلسيون والمعاربه وأهل المشرق في ميلاد اردھار
العلم ومضمار النضج الثقافي، والكشف عن ادبائع الثقافية في غلب العصور

ثالثاً: النشاط الاقتصادي

حظت كتب الرحلات بالكثير من جوانب النشاط الاقتصادي سواء أكان ذلك في
الأندلس والمغرب أم في بلاد المشرق والبلاد العربية الإسلامية وغير الإسلامية، ونقلت
صوراً للملامح الاقتصادية في كل البلدان التي زارها الرّحالة، وعرفت بأهم المحاصيل
الزراعية والموارد المائية، وأشهر البصائع والسلع والصناعات والمعدن، والتجارة
ولأسواق والعملات والتنظيمات المالية، فكانت الرحلات وثائق هامة للدارسين لمختلف
الأنظمة الاقتصادية في تلك العصور، والمستويات الجغرافية الطبيعية المدخ، والثروات
الزراعية والحيوانية والبشرية السكان والأسواق ولشؤون المالية، وطرق المواصلات
البرية والبحرية، والمستشفيات والحصون والعمّات، ومختلف مظاهر الحضارة والعمران
ورغم ذلك كله فلم يكن الرّحالة معينين بجانب دون آخر، لذا سجلوا مشاهداتهم وهم



يحتازون تلك البلدان بما فيها من أنهار وبحار وسهول وجبال، وهي ملاحظات موجزة،
لكنها قدمت مادة غنية وراحة للمؤرخين والدارسين والباحثين



أ. الحاصلات الزراعيّة وموارد المياه

أظهرت كتب الرحلات الأندلسية والمغربية عنابة لشعوب المختلفة بالأراضي الزراعية وحاصلاتها، ورعايتهم لأراضيهم وحرثها، ورعايتها ثم ابيع من محصولاتها^(١). وقد لفت انتباه الرّحالة اتساع المساحات الزراعية في بعض المناطق، وأقاصي الحديث عن حصوبة تلك الأراضي، وما يست فيها من أشجار وأعشاب وثمار ووصف حجمها ومذاقها، وذكرها كلّ مصنف مرّوا بها، وما تتنازه من رراحة معيّنة، أو ما تشتهر به من حاصلات خاصة^(٢) ومن جانب آخر أشار بعض الرّحالة إلى انعدام الرّاعة في بعض المناطق كما في جرر المالدبف^(٣).

وقد بيّنت كتب الرحلات اعتناء الأندلسيين بالرّاعة، حتى غدت أرضهم جثات واسعة كثيرة العطاء فمن خواص حنطة طليطلة أنّها لا تسوس على مرّ السنين^(٤) وكانت البلاد بين القيروان والكاف^(٥) حصية جيدة الزراعة تنتج مروغات القمح في سبي الخصب الواحد بمائة، ويغرب لأقصى، كانت الحنطة مخصّصة للأمراء وأهل الثراء، ومعظم لعناء عند سائر الأهالي من لدرة^(٦) وأشار بعض الرّحالة إلى ما تتميز به الزراعة في البلاد الأندلسية، ولا سيما رراحة الفوكة على اختلافها، ووصفوا اتساع المساحات الزراعية وكثرة البساتين والجنّات والرباص فيها

(١) انظر، لإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٩٢ الفسّاني، تحفة المغرب، ص ٩٣-٩٤، ورحلة ابن بطوطة ٤٣/٢

(٢) انظر، ابن حبير، ص ٩٩، والبيهري، الرحلة المغربية، ص ١١، ٤٠، ١٦٣، ١٧٦، ٢٠٣، ٢٣٥، ورحلة ابن بطوطة ٤١، ١، ١٨٠، ٢٦٥، ورحلة القلصاوي، ص ١٢٣-١٢٤

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة ١٧٤/٢ ونظر في انعدام الرّاعة في بعض المدن، المصدر نفسه ٢٢٢/١

(٤) البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، ص ٨٨

(٥) الكاف حصص حصين بسواحل الشام انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤٣١/٤

(٦) انظر، البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، ص ٥٦، ١١٨.



ويصف ابن جبير خيرات الأندلس، وخيرات مكة، بقوله: وأما الأرزاق والعواكه وسائر الطيبات فكأنما نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ به المربة على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألميناها نعصّ بالعم والعواكه كالتين، والعنب، والرمان، والسفرجل، والخوخ، والأترج، والخوز. إلى جميع البقول كلها كالبادغجان ولبطين، والسلمج، وحرر، والكرونب، إلى سائرها إلى غير ذلك من الرياحين المينة ولشجومات العصرة. ومن أعرب ما المياها فاستمتعتنا بأكله وأحريا الحديث باستطابته، ولا سيما بكوسا لم نعلمه الرطب، وهو صدهم بمنزلة التين الأحصر في شجره يمس ويؤكل، وهو في نهاية من الطيب واللذائذ، لا يسأم التفتك به^(١) وقد عرا ابن جبير ازدهار الزرع في الأودية المحيطة بمكة المكرمة إلى وجود حاله معربه بها فامت باستصلاح لأراضي، فقال قد جلب الله إليها من المغاربة ذوي البصارة بالملاحة ولزراعة فأحدثوا فيها بساتين ومزارع.^(٢)

وقد أبدى ابن جبير إعجابه بالتماء الزراعي والتقدم لاقتصادي في بعض أبلدان التي زارها، فيذكر عن الفرات خلال مروره بمدينة الحلة وهذا النهر كاسمه فرت، هو من أعذب المياه وأعفها، وهو نهر كبير رخا، تصعد فيه السفن وتحمدر والطريق من الحلة إلى بغداد أحسن طريق وأجلها، في سائط من لأرض وعنائر، تصل بها لفرى مينا وشمالاً وشق هذه السائط أغصان من ماء لفرات تتسرب بها وسقيها، فمحرثها لا حدة لأساعه وانفساحه...^(٣)

وكان من شدة اهتمام الرحالة بالثروة الزراعية أن عقد ط بعضهم الكثير من فصول رحلاتهم، ومنها ما ذكره أبو حامد الغرياطي، في خصائص البلاد في الثمار بقوله: فيقال

(١) رحلة ابن جبير، ص ٩٧ - ١٠٠

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٩

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٩ - ١٩٠.



رطب العراق، وثمر كرمان، وعتاب جرجان، . وتفتح الشام، ونريح البصرة، وتين حلوان، وعصب بغداد، ومشعش هراق، ومور اليمن^(١)

وتحدث النجيب عن مدينة قرص مخروسة، وحجراتها الرراعية، ففيها النحل ولأعصاب والفواكه، وفيها شجر النوت الأبيض، الثمر الطيب الطعم الذي لا يوجد مثله بكثير من بلاد المغرب^(٢).

وتكاد تكون بعض الرحلات مصدراً لمعرفة الكثير من أنواع النباتات والأشجار والثمار والحيوانات والطيور، ومنها رحلة ابن بطوطة : فإنه لم يترك مدينة إسلامية أو غير إسلامية إلا وتحدث عن سعة الأراضي الرراعية وتنوع المحاصيل فيها، وعن نباتاتها وأشجارها وثمارها، ومواطن الرعي الذالة على حصوة تلك الأراضي وما ذكره ابن بطوطة مثلاً عن الفصول الرراعية في الهند : أنها تنقسم إلى فصلين أولهما يشتمل على لزراعة الخريفية، وثانيهما يشتمل على الزرعة الربعية، ويررع الفلاحون المروعات الخريفية في أوان القبط عند نزول المطر، ويحصدونها بعد ستين يوماً من رراعتها، ويذكر أهم تلك المزروعات الخريفية، ومنها الماش وهو نوع من الجلبان، والبرياء وأما المزروعات الربعية، فيزوعها الفلاحون بعد حصاد المحاصيل الخريفية، وتررع في نفس الحقول التي كانت الحبوب الخريفية مزروعة فيها، ومنها القمح والشعير والحمص ولعدس، وهم يزرعون الرز ثلاث مرات في العام^(٣).

وفد يبن ابن بطوطة أن الصبر عينة بالسكر ولأعصاب والإحاص الذي يعوق الإحاص العثماني الذي بدشق، وأن جميع فواكه البلاد العربية تست فيها، وذكر أن القمح يزرع فيها بوفرة، وهو من أحسن أنواع القمح، كما يزرع فيها العدس والحمص^(٤)

(١) أبو حامد الغرناطي، مجلة الألباب، ص ٦٠

(٢) النجيب، مستفاد الرحلة، ص ١٧٣

(٣) انظر رحلة ابن بطوطة ٢٣/٢ - ٢٤. وانظر في النباتات والشجر في رحلة ابن بطوطة، السدياتي، عمرد مصطفي (١٩٤١)، مجلة المنتظم، المجلد ٤٩، ج ١٠، ص ١٣٢

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٢٢/٢



وتعتمد الرّعاية على المياه ووفرتها، وقد ذكرت بعض الرّحلات أهميّة الأنهار ولآبار والعيون، ودورها في الناحية لاقتصادية للبلاد، وصورت عناية المسلمين بماء الشرب وتوقيره للسكان عن طريق شبكة القنوات الظاهرة فوق الأرض أو الخفية التي تحت الأرض، وتنظيمها بطريقة هندسيّة متقنة، يصف البكري الطّرق المستخدمة في أفريقيّة للرّي، والسواقي وقنوات الحجر الممتدة في كامل البلاد، وتقسيم المياه ونوريها توزيعاً عادلاً على مختلف المناطق والرياض^(١).

وأشار الإدريسيّ إلى استخدام الآبار في ريّ المزروعات وسقيها، ومحدث عن حمر ثر كبيرة في مراكش، حفرت بصعّة فائقة، ومدّت من قاعها قنوات تسير تحت الأرض في الحدار حتى توصل الماء إلى مختلف أحياء المدينة، ولم تلبث المدينة أن اتسع عمرانها واكتفتها الخصره واحتائق بمفصل هذه القنوات^(٢).

ويترتب على وفرة المياه أيضاً، قيام عدد من المشاريع البسيطة مثل إنشاء القناطر والسواقي لشرب، والاستفادة في المجالات الرريّة، ممّا أدّى إلى اتّساع الرقعة الزراعيّة، وكثرة السابن التي يعجّ بمختلف أنواع السانات والأشجار والثمار، وانتشار التجمّعات السكانيّة على صفاف الأنهار والآبار والعيون، وقد قال في ذلك ابن بطوطة واصفاً بهر التلّ أنّه يفصل أنهار الأرض غدوة مداق واتّساع قطر وعظم منفعة الريّ ولبن نصفته متظمة ليس في المعمور مثلها، ولا يعلم بهر يروع عليه ما يزرع على الليل^(٣).

وتحدث الرّحالة عن نظام الرّي من خلال الاهتمام بكميّة المياه في الأنهار باستخدام المقاييس القائمة عليها، فمقياس بهر التلّ يستفاد منه في قياس زيادة بهر النيل عند قبضه كلّ سنة، وهذا المقياس عمود رحام أنض مثنّ في موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه، وهو مفصّل على اثنتين وعشرين ذراعاً مقسّمة على أربعة وعشرين قمماً تعرف

(١) انظر: البكري، المسالك والممالك، ص ٤٩.

(٢) انظر: الإدريسي، مژه اشتاق، ص ٦٨، ومكي، محمود، مدريد العروة، القاهرة دار الكاتب العربي، ص ٥٣.

(٣) انظر: رحلة ابن جبير، ص ٢٩ ورحلة ابن بطوطة ١/ ٣٣، ٢٥، ٤١-٤٢ وأبو حامد الغرناطي، المغرب، ص ٨٤ ٨٥.



بالأصابع فإذا انتهى الميصر عندهم إلى أن يستوي الماء تسع عشرة ذراعاً منسمة فيه فهي العاية عندهم في طيب العام وربما كان العامر منه كثيراً بعموم الميصر. والمتوسط عندهم ما استوفى سبع عشرة ذراعاً...^(١)

أما القناطر التي توزع المياه في السواقي، فمنها القناطر المقامة على نهر النيل، وقد أشار ابن حبير إلى أن هذه القناطر رعم استخدامها في الري والزراعة، فإن لها هدفاً عسكرياً، حيث تحمي ابلد من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية، يعيصان نهر النيل وبنهار الأرض به، فيمتنع مسوك العسكر واجتيازها باتجاه البلد^(٢)

وأشار أيضاً إلى لقناطر بين الحلة وبعداد التي تعترض الطريق كله، فلا تكاد تمشي ميلاً إلا وتجد قطرة على نهر متفرع من الفرات، فتلك لطريق أكثر الطرق سراقي وقاثير^(٣)

ووصف الرحالة استخدام أهالي بعض البلدان ري مزروعاتهم من العيون وقد ذكر ابن حبير أن مدينة رأس العين اشتق اسمها من كثرة العيون، حيث تتوزع مياه هذه العيون في جداول تيسط في مروج خضر، وأعظم هذه العيون عيسان. أحدهما فوق الأخرى، فالعليا منهما تابعة فوق الأرض في صم الحجارة كأنها في جوف عدو كبير متسع ييسط الماء فيه حتى يصير كالصهريج العظيم ثم يخرج ويسيل، بهراً كبيراً كأكبر ما يكون من الأنهار، وينتهي إلى العين الأخرى ويلتقي بمائها أما الثانية فمتبعها تحت الأرض من الحجر الصلد، ويتسع حتى يصير صهريجاً ثم يدفع بقوة إلى الأعلى حتى يسيل ماء تلك العين على سطح الأرض، ثم تنقسم مياه العين إلى ممرين يلتقيان بعد ذلك^(٤). ولعل الدقة في وصف هذه العيون تؤكد معاية ابن حبير لها

(١) رحلة ابن حبير، ص ٢٩ - ٣٠

(٢) انظر المصدر نفسه، ص ٢٢

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩١.

(٤) انظر رحلة ابن حبير ص ٢١٧ - ٢١٨، وانظر في الآبار والعيون، أبو حامد انعماني، رحلة المغرب، ص ١٨، والتجبي، مستند الرحلة، ص ١٩٧، ٢٠٣ - ٢٠٥، ومواطن أخرى من الرحلة، ورحلة التجاني، ص ١٥٧ - ١٥٨



وتوضح كتب الرحلات أن جزيرة العرب بصورة عامة كانت وفيرة المياه ما بين آبار ومياه سائحة بركاً من تجمع مياه المطر، وعيون، ومصانع للماء، وتحدث ابن بطوطة عن الآبار ومصانع الماء^(١) خلال حديثه عن الطريق بين الحجارة والعراق عبر نجد، فذكر ماء يعرف بالفارورة^(٢)، وهي مصانع مملوءة بماء المطر، ثم رحل عنها إلى الحاجر وفيه مصانع للماء ويقول وربما جفت محمر عن الماء في الحمار^(٣) وذكر ابن جبير أيضاً الكثير من آبار المياه في بلاد الحجارة، وفي مكة المكرمة، وسقايه الخخاخ والعنبرين^(٤)

ووصف بعض الرحالة مشاريع المياه بمدينة المورة، وما فيها من آبار وعيون، كثر في رحبة مسجد قباء^(٥)، ومن العيون، عين نسب للثني صلى الله عليه وسلم، مبي علىها خلق عظيم مسطيل وتقع العين في وسطه، ويخرج منها سقيتان يبي بينهما جدار، ويترنل إليهما على أدرج عددها نحو الخمسة والعشرين درجاً وماء هذه العين كثير وغرير، ويعتمد أهل المدينة على مائها في غسل ملابسهم وشربهم^(٦)

وتحدث بعض الرحالة عن ندرة المياه في بعض المدن، واعتمادها على ماء المطر، ومن ذلك ما ذكره العبدري في وصفه لمدينة بوسى، ولكن مائها قليل، في ديارها مصانع لماء المطر وهو المستعمل عندهم^(٧).

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة، ١/ ١٥٥-١٥٧

(٢) انظر، المصدر نفسه ١/ ١٥٥

(٣) نفس المصدر والجزم والصحة

(٤) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٥٧، ٥٨، ٨٨، ٨٩، ١٦٣، ومراطين أخرى متفرقة من الرحلة

(٥) انظر، المصدر نفسه، ص ١٧٥-١٧٦، وتاج المشرق ١/ ٢٨٨، وابن بطوطة ١/ ١١٦

(٦) انظر رحلة ابن جبير، ص ١٧٥-١٧٦، والتجني، مستفاد الرحلة، ص ٢٢٣، ٢٤٦، ٢٥١، وابن رشيد

رشيد، من العبة ٥، ١٠٠-١٠٤، والمبدري، تاج المشرق، ١/ ٣٠٩، ورحلة ابن بطوطة ١/ ١١٩.

(٧) العبدري، الرحلة المغربية، ص ٤٠ وانظر، ابن رشيد، ملء المية ٥/ ١٩٦ ورحلة التجاني،

واهتم الرّحالة مباشرة للحياة، فذكروا الحيوانات التي تعيش في كل منطقة، وذكروا طرق تغذية الحيوانات لتسميها، وتحدثوا عن أهمّ متحانها مثل اللحوم والحليب ولسم^(١) وقدّمت كتب الرحلات صورة لما كانت تنتجه بحار المطلق التي زارها الرّحالة وأنهاها من أسماك، وغيرها، ومنها سمك اللّخم ممرسى حاسك بعمان، وسمك قلب الماس ببلالديف، والسردين في قطار، وسمك المشر، واستوطان، وفوس الحر، والسمك الرّخاد^(٢)

ووصف الرّحالة ما لفت أنظارهم من الحيوانات والطيور والحشرات، مثل الكركدن، والثور، والسمك، التي كانت تفرس النمس، والدجاج، والبعوض، وغيرها^(٣)

وبما بعض الرّحالة منحي خطراً في تصيّد العجائب والغرائب فيما أورده من حكايات عن الحيوانات والطيور والحشرات، حيث لا تخلو حكاياتهم من جوانب خرافية وإسطورية، قد يكون من درافعها السماع وتناقل الروايات، أو أنّ مراحل الرّحلة ومشابها قد أثرت في نفسيه الرّحالة وأوجدت لديهم خيال الواسع الذي دفعهم لتصديق ما سمعوا وعقدوا بوجوده حقيقة، وما هو إلا صرب من الوهم والخيال وحداغ رؤية^(٤)، ومنها طائر الزح الخرافي الذي يبدو أنّ ابن بطوطة نفسه لم يكن متأكداً من رؤيته ولكن ربح طينة صرفنا عن صومه، فلم يره ولا عرف حقيقة صورته^(٥)، ولسمكة التي تحتوي في أدنها على فتاة^(٦)، وأسماك لا رأس لها ولا فم ولا عين، وفي

(١) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٨٣-٩٨، ورحلة ابن جبير، ١٨٣-١٨٤، ورحلة ابن بطوطة، ٢٤٩/١، ٢٤٤/٢.

(٢) انظر، البكري، صفة جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك ٢٢٩/١، وانظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٨٥، ٨٨، وأبو حامد، العرب، ص ٧١، ورحلة ابن بطوطة ٢٣٤-٢٤١، ١٧٤/٢، ومؤلف مراكشي مجهول، الاستبصار، ص ٤٦.

(٣) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٥٤، ٥٨، ٩٣، ٩٤ وأبو حامد الغرناطي، العرب، ص ٧٥-٧٧، ورحلة ابن بطوطة ١١١/٢، ١٤٩، ٢٢٢، ٢٨٣.

(٤) انظر، فوري، حسين حديث الاستبصار القديم، ص ٦٨.

(٥) انظر رحلة ابن بطوطة ٢٤٢/٢، وانظر أيضاً، أبو حامد الغرناطي رحلة تحفة الألباب ص ٩٢-٩٣.

(٦) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٩٧-٩٨.



جوبها مثل الخبر، وإذا أحدث في الشبكة يؤخذ ذلك الخبر فيكتب به، وإذا أصاب ذلك الماء الثوب صبغه ولم يجرح بعمل ولا غيره^(١) وقد عقد أبو حامد العرناطي في رحلاته أبواباً خاصة في صفة الحجار، وعجائب حيواناتها^(٢)

ومن تلك العجائب، ما أخبر عنه التجيبي فيما سمع عن مدينة حران^(٣) التي لا يكون بدايتها العنكبوت، لا البعوض ولا يوجد ذلك فيها ألبتة وكان الإنسان إذا أخرج يده من سورها وقع عليها البعوض، فإذا ضم يده إلى جهة المدينة طار عبر يده، وكان جامعها لأعظم لا يدخله طائر ألبتة، وكل ذلك مدبر بالظلمات، والله تعالى أعلم^(٤) وفي بعض مدن السودن سلاحٌ تعظم حتى تخرج عن القياس، وهي تمصر في الأرض أسراباً يمشي فيها إنسان، وهم يأكلونها فلا يستطيعون إخراج واحد منها من تلك الأسراب إلا بعد شدّ الحبال فيها واجتماع العدد الكثير^(٥).

وتحدث ابن بطوطة عن شجرة عجيبة أنشأ في بلاد الليبار، وهي حصراء ناصمة تشبه أوراقها التي لا أنها لينة، وأحمر أنه إذا كان رمان لحريف من كل مت تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة^(٦) وذكر أبو حامد العرناطي أنه رأى عنقود عنب يجانب بحر وم يستطع أن يأخذ منه حبة شلة صلابته وأن له رائحة كرائحة السمك^(٧) وإن كان الرخالة قد وصفوا عجائب الحيوانات وغرائب الساعات بطريقة خرافية غير معقولة، إلا أن حكاياتهم تلك المبالغ في وضعها، لا تخلو من صدق.

(١) انظر، أبو حامد العرناطي، تحفة الألباب، ص ٨٧، ١٥١.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ٨٣-٨٩، وأبو حامد العرناطي، المغرب، ص ٦٩-٨٨.

(٣) حران وهي مدينة على طريق الموصل والشام ولروم، انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢/ ٢٣٥.

(٤) التجيبي، مستند الرحلة، ص ١٩٦.

(٥) مؤلف مراكشي مجهول، الاستيصار، ص ٢٢٢.

(٦) انظر رحلة ابن بطوطة ٢، ١٦٤، ونظر في عجائب الساعات والأشجار، المصدر نفسه ٢/ ١٨٩، ١٩٦.

وانظر، الديماطي، محمود مصطفى (١٩٤١)، مجلة المقتطف، ج ١، المجلد ٩٩، ص ١٣٢، وما بعدها.

(٧) انظر، أبو حامد العرناطي، تحفة الألباب، ص ٨٧ وانظر، أبو حامد العرناطي، المغرب، ص ١٨.

(٥) رحلة ابن جبير، ص ٤٦٦، وانظر رحلة ابن بطوطة: ٢٤٩/١



وصوّرت بعض الرحلات طريقة استخراج سكان جزيرة سيلان لياقوت من الأرض، حيث يجدونه في أحجار مشعبة وهي لقي يتكون الياقوت في أجوافها، فيحكّها الحثّاكون حتى تنفلق عن أحجار الياقوت، فمعه الأحمر، ومنه الأصفر، ومنه الأزرق^(١) وقد أفرد أبو حامد الغرناطي في رحلته فصلاً، تحدّث فيه عن خصائص البلاد في الأحجار، بقوله يقال فيرور نيسبور، وياقوت سرديس، ولؤلؤ عمن، وبرجد مصر، وعقيق لمن، وجزع طهر، وشجاد بلج، وموحان إفريقية^(٢) أما ابن بطوطة، فذكر أنّه في طريقه إلى إحدى المدن مرّ بقاء يجري على الحديد، فإذا غسل به الثوب الأبيض أسود لونه^(٣)

وأشار بعض الرحّالة إلى معدن لقار، حيث قال ابن جبير مررب بموضع يعرف بالقبارة من دجنة، وبالجانب الشرقيّ منها، وعن يمين الطريق إلى الموصل، فيه وفتة من الأرض سوداء كأنها مسحاة قد أنط الله فيها عيوناً كباراً وصغاراً تبع بالقار وربما ينذف بعضها بحباب منه كأنها الملبان، ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال ميسطاً على لأرض أسود أملس، صقيلاً رطباً، عطر الرائحة، شديد اتعلّك، فيلصق بالأصابع لأول ماسره من اللّمس، وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقدفه إلى جوانبها فيرسب قراء، وبمقربة من هذه العيون على شطّ دجلة عين أخرى منه كبيرة، أبصرنا على البعد منها دخاناً، فقبل لما إن لئار تُشعل فيه إذا أرادوا نقله فتشعل النار رطوبته المائية وتحرقه، فيقطعونه قطرات ويحملونه، وهو يعم جميع البلاد إلى الشام إلى عكا إلى جميع البلاد البحرية^(٤)

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة ١٩٣/٢

(٢) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٥٨.

(٣) رحلة ابن بطوطة ٢٨٩/٢

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٠٩، و انظر، رحلة ابن بطوطة ١ ١٩٩ ٢١٠ وانظر في استخدام النمط في

الحروب، ابن الحاج المبري، قبض الباب، ص ١٣١



وهناك إشارات أخرى بسيطة في بعض الرحلات، تشير إلى وجود معدن الزئبق في قرطبة في لأندلس^(١)، وجبال الملح في هرمر^(٢)، والنقط والعاز الطيعي بياكوه^(٣) أما الصناعة، التي كانت معترّة عن حاجات المجتمعات، فلم تكن هذه الصناعات على مستوى واحد في مختلف البلدان والأقاليم لكنها على الأغلب صناعات خفيفة بسيطة ساعد على تطورها توافر المواد الخام لبياتيه والمعدنية في البلدان التي زرها الرحالة، وقد أشار الرحالة إلى عدد من الصناعات التي لفتت أنظارهم^(٤)، ومنها

أولاً: صناعة المنسوجات الكتانية والحريرية ولفظنية والصوفية،

التي كانت تصنع منها الملابس، وقد اشتهرت الأندلس بصناعة المنسوجات الكتانية اللينة، التي تشبه الورق الجيد الصقل في الرقة والبياض، واشتهرت كل من سرقطة ولاردة وباجة بصناعة الكتان^(٥)

أما الصناعات الهندنة فهي قليلة، ومنها صناعة الخيام من الأعشاب، وصناعة ثياب الكتان، وصناعة سبيح الفطن الرقيق الذي قد يبلغ ثمن الثوب منه مائة دينار، وصناعة الأسجة الحريرية التي يسمونها الخُر^(٦) وأشد البكري بمودة حرير قابس، وبالقير وان وثيها لفاحرة التي كانت تقصر بمدينة سوسة^(٧)، وعرفت الثياب العتائية المصنوعة من الفطن والحرير ذات الألوان المختلفة التي اشتهرت في الوطن العربي والإسلامي، وكانت

(١) الإدريسي، نزعة ايشان، ص ٩٢

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٤٥/١٠

(٣) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٩٥.

(٤) انظر، العبادي، أحمد مختار، (١٩٨١) من مظاهر الحياة الاقتصادية في المدين الإسلامية، مج ١ عالم الفكر، المجلد ١١، العدد (١)، ص ١٤٢-١٥٦.

(٥) انظر، الإدريسي، نزعة المشتاق، طبعة لندن، ص ٣١٣

(٦) انظر، رحلة ابن بطوطة ١٣٦/٢، وانظر المصدر نفسه ١١٠، ٦١/٢.

(٧) انظر، البكري، لمالك والمالك، حققه وقدم له أدريان فان بيوغس- أندري ميرى، تونس، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتأليف والدراسات ١٩٩٢، ٦٩١/٢، وانظر، مؤلف

مراكشي مجهول، الاستبصار، ص ١١٣، ١١٩.



تصنع في إحدى محلات مدينة بغداد^(١)، واشتهرت بعض المدن بأنواع من الثياب الحريرية كالخز والديباج النعيس الثمين، والأصبهاني والحرجاني، التي حُمِلت إلى كل بلد^(٢) وذكر ابن بطوطة أن مدينة سمرقند كان يصنع بها ثياب قطن حسان تنسب إليها^(٣) وكانت وكانت ثياب القطن في الصين أغلى من ثياب الحرير، ذلك أن الحرير عندهم كثير جداً، لأن النود تعلو بالتجارة وتأكل منها فلا تحتاج إلى كثير مؤونة ولذلك كثير^(٤)

وقد ربط بعض الرحالة بين الثروة السائبة والصناعية في بعض المدن التي قصدوها، فمن شجر يسمى بالعشر، قال التجاني وهو شجر ناعم شديد الخضرة يضرب إلى سوادها، وهو يبت صعداً وله أوراق عظيمة وبور مشرق حسن المنظر كروار الدفلى وثمره أحضر كالأتراج تملأ الوحدة يد حاملها، وهي مملوءة بشيء يشبه القطن سميته العرب الخُرْفُوع يصمم الخاء وسكون الراء وصمم الفاء، رتب حشيت منه المرافق ولوسائد وأخبرني من أتق به أنه رأى ثياباً صنعت منه^(٥)

ونوع بعض لرحانة بصاعة الأنسجة القطنية المعلمة بالذهب، وهي صناعة كانت تقوم بها النساء في مدينة لاذق، وهي أنسجة لا مثل لما تطول أعمارها لصحة قطعها وقوة عمرها^(٦) وقد لاقت المنسوجات القطنية التي حلت من اليمن شهرة كبيرة في أسواق أسواق الهند والصين^(٧).

(١) انظر: رحلة ابن جبير، ص ٢٠١

(٢) انظر: لإدريسي، برقة الشناق، طبعه بيد ص ١٩٧، وانظر: انتجد، صلاح الدين، الشرق في نظر المعاصر والأندلسيين في القرون الوسطى، ط ١، بيروت دار الكتاب الجديد ص ٢٦، وانظر صناعة ثياب الحرير والقطن والكتان في مدينة طنجة، رحلة ابن بطوطة ١/ ٢٣٥، وانظر صناعة الحرير في مدينة غرناطة، ابن سعيد المغربي، المغرب ١/ ٤٢٤

(٣) رحلة ابن بطوطة، ١/ ٦٨.

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٢١٩، ٢٢٣

(٥) المصدر نفسه ٢/ ٢١١

(٦) المصدر نفسه ٢/ ٢١١

(٧) انظر: البكري، صفة جزيرة العرب من كتاب المسالك تحقيق عبد الله عتيم، ص ١٢٢



أما صناعة الأنسجة الصوفية، فقد انتشرت في العديد من المدن التي قصدها الرحالة، ويذكر أنه في عدن كانت تصنع الخبثات ومهردها حبرة، وهي ضرب من الثياب الصوفية الموشاة أو المخططة^(١)، وفي أقصرا إحدى مدن آسيا الصغرى - كانت تصنع أيسط من صوف العنم^(٢) ومن عرائب بلاد السردن أنه ينبت عندهم في الرمال شجرة طويلة الساق دقيقة سمونها نوري، لها ثمر كبير مستعج داخله صوف أبيض يغزل، ويصنع منه الثياب فلا تؤثر النار فيها^(٣)

وقد تبع ازدهار صناعة المنسوجات رقي في الصباغة، فكانت تستورد بعض المواد من الهند والعراق والشام والحريد، واستعمل الفرز بأرمبا وبالأسدلس واستعمل الرعفران المستنق بالبلاد الإسلامية بجهة قرطاج^(٤)، وكان لباس أهل تاد مكنة الثياب الفطنية المصبغة^(٥)

وذكر بنيامين لتطلي أن في مدينة القدس معمل للصباغة يستأجره اليهود من ملك القدس متوتياً، فتحصر بهم هذه المهمة دون غيرهم^(٦)، وربما تكمن الإشارة إلى صناعة صباغة الملابس في ملاحظة ابن بطوطة حين وصل إلى موضع فيه إحساء ماء يجري على الحاياء فإذا غرل به الثوب الأبيض لم يرد لونه^(٧)

وقد صورت الرحلات تطور الصناعة وما رافقها من ارتفاع مستوى المعيشة، وتفنن الناس في لباسهم وأثاثهم، وتعمق العلاقات التجارية بين البلدان، حيث أشار ابن بطوطة

(١) انظر، البكري، صفة جزيرة العرب من كتاب المسالك، ص ١٢٢

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٦٦/١، وانظر المصدر نفسه ٣٥٧/٢، وانظر في صناعة «يسط»، لمقري، فتح الطب ٢٠١/١

(٣) مؤلف مراكشي مجهول، الاستبصار، ص ٢٢٥

(٤) انظر، البكري، جغرافية الأندلس، ص ١٢٧، وانظر في صباغة الملابس أيضاً، المقري، فتح الطب. الطب: ٢٠١/١

(٥) انظر، مؤلف مراكشي مجهول، الاستبصار، ص ٢٢٣

(٦) رحلة بيلمين التطلي، ص ٩٩

(٧) رحلة ابن بطوطة ٢٨٩/٢



إلى انتشار المصوغات المصرية في بلاد السودان، وذكر أن أهل إيولاتن ثيابهم حسان مصرية وقال إن سلطان مالي الذي كان يسمى مسي موسى، كان إذا جلس تحت قبة أخرج من ثيابه إحدى الطاقات شربة من الخمر ربط فيها منديل مصري مرقوم، فإذا رأى النحس المنديل دقت الطبول ونصخت الأوقاف، فكان هذا المنديل المصري المرقوم، شارة خاصة بالسلطان^(١)

وبهذا، تكون كتب لرحلات قد كشفت عن تنوع واحتلاف في أشكال الملابس ومادة صناعتها، التي تتسجم مع بيئة البلدان المختلفة، ونوعاً لتفاوت الأحوال الحوية من درجات حرارة وبرودة، إضافة إلى الظروف المعاشية للسكان وأحوالهم الاقتصادية.

ثانياً: صناعة السفن

أشار بعض الرّحالة إلى أنواع مختلفة من السفن والمراكب والقوارب، فمنها ما كان يستعمل فيه المسامير، ومنها ما كان يحاط بحبال اللب، ويسقى بالسنن أو يدهن بالخروع أو يدهن القرش ليلين ويرطب^(٢)، وذكرت بعض كتب الرحلات دور الصناعة لساء المراكب وانتشارها في كثير من المدن، مثل دانية، والسودان، ومصر، وغيرها^(٣)، وألقت الضوء على أغراض استخدام تلك السفن والمراكب، مثل الصيد، والرحلات، والحروب^(٤)

وقد وصف الغزال إحدى سفن الرحلات، ومن قوله:

وبس كروب القس جئت سواده على ظهر غريب قميص نأد
قد استأخرت أردفه ومضت له صوارب في أذيته ومواد^(٥)

(١) انظر، المصدر نفسه ٢٢٦/٢

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٤٧.

(٣) انظر، الإدريسي، صفة المغرب، طبعة لندن، ص ١٩٠ - ١٩٢، ورحلة ابن بطوطة ٢٢٦/٢

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٧٠/٢

(٥) ابن الكتاني، التشبيهات، ص ١٧٤



أما السلطان أبو عنان، فقد ألح على مشيخات السفن، وكانت تحمل اسم غريب.^(١)
ويرى محقق رحمة فيض العباب أن الثراب لعله رمز في اعتقاد أبي عسان إلى الويل
الذي سينزل بأهل مستنطية المعندين لأهل تونس^(٢)، وفي ذلك إشارة إلى اهتمام الحكام
بصناعة السفن.

وربط بعض الرحاة بين الثروة الباتية والصناعة في بعض المدن التي قصدوها،
فمن الدرجيل، قال ابن بطوطة وجورها يشبه رأس ابن آدم، لأن فيها شبه لعينين والقم
وداخلها شبه الدماغ إذ كانت خضراء، وعليها ليف شبه الشعر، وهم يصنعون به حبالاً
يخيطون به المراكب عوضاً عن مسامير الحديد، ويصنعون منه الحبال للمراكب^(٣)

أما النجيب، فقد وصف مراكب عيذاب بقوله، أنها تجميلتها في غاية من ضعف
السيرة، وصورة إشبائها أنهم يركبون الألواح بعضها على بعض، ويصلون بينها بالحبر
الماسكة لذلك على صورة لقرفور، ثم يحرزونها بالقنابر، وهو ليف على اسراج وهو
الحور الهندي- يدمع ذلك الليف إلى أن يتحيط ثم يدرس، فتعمل منه حبال، فالخشن منها
للمراسي ونحوها يدهونها بالطراس والرقاق من الحبال المذكورة لشدة ألواح المراكب
المذكورة دون مسمار، وإنما يخللون بها بدرس من عيدان الخيل، وهو القنابر يصلح في الماء
المالح، وإذا أصابه الماء اخلو أفسده، فإذا أكمل ذلك بأسره جليظوها بدهن متخذ من
بعض حيتان البحر ودقاق لسان وقبعان، المراكب المذكورة عراض يصنعونها من قطعة
وحدة ثم يشترون عليها تمام المركب كما ذكرت وشرع هذه المراكب كلها من حصر
مسوجة من خوص شجر المقل، وإذا أشحها لزيان راد على أراجها نحو ثلاثة أشبار في
الارتفاع من حصر ترذ الموج بزعمه، فتكامل جمعها على الصورة العربية الشكل
الضعيفة التركيب والشاة^(٤)

(١) انظر، رحلة ابن الحاج لميري، ج ١، ص ٩٥، وانظر أيضاً لمصدر به،

ص ١٦٠ وما بعدها

(٢) رحلة ابن بطوطة ٢٣٧/١

(٣) النجيب، معتاد الرحلة، ص ٢٠٧-٢٠٨



وأشار ابن بطوطة إلى المراكب الشهيرة المستعملة في الصين المعروفة باسم أجفان، فقال: «وركبت في النهر في مركب يشبه أجفان بلاد العزوية إلا أن الجذابين يجذقون فيه قياهما، وجميعهم في وسط المراكب، والركاب في المقدم والمؤخر، ويظلّون على المركب ثياباً تصع من نبات بلادهم يشبه الكتان وليس به، وهو أرق من القنب»^(١)

وذكر أيضاً أصنافاً من السفن التي كانت تصع في الصين، ومنها الكبير ويسمى جنك وجمعه جنوك والمتوسط منها يسمى رو، والصغير يسمى ككم ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قلماً فما دونه إلى ثلاثة، ويصع القلع من الخيزران ارفع منسوجاً كالحرير، ويظلّ على الدوام منصوباً يدور مع الريح حيث دارت، ويحتوي كل مركب ستمئة بحار وأربعمئة مقاتل من كل نوع حتى رماة النقط، ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة هي النصفي، والثاني، والرابعي^(٢) ووصف أيضاً الحاكر وهو من سفن الهند البحرية^(٣)

وقد أسهب الرحالة الذين وصفوا السفن والمراكب في تفاصيل صناعة السفن والخشب والسمير الصخمة التي تصنع منها، وعدد المجاديف التي على جوانب السفينة، وعدد المحذفين، وما تحتويه من لعرف وخصر وليمون والزنجبيل الذي يرعوبه في أحواس من الخشب على ظهر المركب، وانتقاليد الرسمية المتبعة عند سفر السفن وعودتها^(٤)

ثالثاً: صناعة الورق

تعد صناعة الورق على حد قول ابن خلدون من نواحي العمران واتساع نطاق الدولة، حيث كثرت التكاليف العلمية والدراوين، وحرص الساس على تناقلها في

(١) رحلة ابن بطوطة. ٢/ ٢٢٧

(٢) انظر، المصدر نفسه ٢/ ١٦٦، ١٦٧

(٣) انظر، المصدر نفسه ٢/ ١٥٦

(٤) انظر، المصدر نفسه ١/ ٢٣٤، ٢/ ٢٢٤، ٢٢٥.

الآفاق^(٦) ولعل أول ذكر لهذه الصناعة م أورده الإدريسي خلال حديثه عن مدينة شاطبة في شرق الأندلس، إذ يقول: «ويعمل بمدينة شاطبة بالأندلس من الكاعد (الورق)، ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض، وأنه يعم المشارق والمغارب»^(٧) وقد أبررت بعض كتب الرحلات، أن من أجود منتجات بعض المدن في تلك العصور الكاعد، فقد عدت الصين من أعظم الأمم في إحكام صناعتها^(٨)

رابعاً: صناعة السكر

انتشرت هذه الصناعة في كثير من المدن التي زارها الرحالة، مثل الأندلس، ومصر، والعراق، والأهواز، وفلسطين، وعقد بعض الرحالة أبواباً خاصة للحديث عن السكر والحلو في تلك البلاد، فأبو حامد الغرناطي تحدث عن خصائص البلاد في الحلو، بقوله: «ويقال سكر الأهواز، وعسل أصبهان»^(٩)

وكانت مصر من أشهر البلدان في صناعة السكر^(١٠)، واشتهرت لصين كذلك بصناعتها وكان فيها السكر الكثير مما يضاهي المصري بل يفضلته^(١١)، وتحدث بعض الرحالة عن حذق ساء السودان في صناعة العطايف والكافة^(١٢) واشتهرت كذلك صناعة حلواء الخروب في نابلس وكانت تجلب إلى دمشق وغيرها، وقد وصف ابن بطوطة كيمية عملها أن يطبخ الخروب، ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرّب فتصنع منه الحلواء، ويجلب ذلك الرّب أيضاً إلى مصر والشام^(١٣) ووصف أيضاً كيفية صنع

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٢١-٤٢٢

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، لندن، ص ٩٢ وانظر، رحلة ابن بطوطة ٨٦/١

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة، ٢/٢٢٣ ٢٢٤

(٤) أبو حامد الغرناطي، تحفة الأكياف، ص ٩٥.

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة ٤٩/١، وانظر، ابن سعيد المغربي، المغرب، قم مصر ١١/١

(٦) المصدر ص ٢٢٢/٢

(٧) انظر، مؤلف مراكشي مجهول، الاستبصار، ص ٢١٦

(٨) رحلة ابن بطوطة ١٣/١



السل من لارجيل بأن حدام الخنل يصعدون إلى لخنلة غدوة وعشياً إذا أراد أحد مائها الذي يصعدون منه الغسل، وهو يسمونه الأطواق، فيقطعون العنق الذي يخرج منه الثمر، ويتركون منه مقدار أصبعين، ويربطون عليه قدراً صغيراً فيها الماء الذي يسيل من العنق فإذا ربطها غدوة صعد إليها عشياً، ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور أحدهما مملوء ماء، فيصت ما اجتمع من ماء العنق في أحد القدحين، ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر، وينجر من العنق قليلاً ويربط عليه القدر ثانية، ثم يعمل غدوة كمعله عشياً. فإذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طححه كما يطبخ ماء العنب إذا صنع منه الرطب، فيصير حسلاً عظيماً القمع طيباً. (١١)

خامساً: صناعة الأسلحة

تفتقر كتب الرحلات لذكر صناعه نعتاً من الصناعات إمامه، وهي صناعة الأسلحة وتقويمها وصقلها^(١٢)، رغم أنها قد استخدمت في تلك العصور بوعيتها التقليدية، المتمثل بالسيوف والرماح والقوس، وبعض الأسلحة الثقيلة والمتطورة، مثل الأسلحة النارية والقناوين اليدوية، وأندفاع. ولعل اكتشافهم لللفظ مساعد في التوصل إلى اختراع مثل تلك الأسلحة المتطورة^(١٣).

ويروي ابن خلدون أن سلطان المغرب يعقوب المريني عندما هاجم مدينة سلجماسة سنة ٦٧٢ هـ نصب عليها هدام (آلة) التفت القادى بحصى الحديد يبعث من خزنة أمام البار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد لأفعال إلى قدرة بارئها^(١٤)

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٣٨/١، وانظر في السكر والخلو، رحلة ابن جبير، ص ٩٨

(٢) انظر، البكري، صفة جزيرة العرب من كتاب لسانك والممالك، تحقيق عبد الله غنيم، ص ١٢٢

(٣) انظر، العرماطي، تحفة الأساب، ص ١٣٢ - ١٣٣، ورحلة ابن بطوطة ١، ٣٤، ١٧١، ٢، ٣٤

٢٧٩، وابن الحاج النميري، فيص العباب، ص ١٢٥

(٤) انظر، ابن خلدون، العمر ٧ / ١٨٤ - ١٨٥. وابن الخطيب، للمحة البديرة في الدولة لصرية،

تحقيق عبد الدين الخطيب، القاهرة، ١٩٢٨، ص ٧٢.



سادساً: صناعات أخرى

نوه بعض الرّحّالة إلى صناعات أخرى بسيطة، مثل صناعة الصابون المطيب لعمل الأيدي في مصر الذي كان يصنع بالحمة ولصّمة^(١) وصناعة المخار لا سيما في الصيف، وقد ذكر ابن بطوطة أن أهل اليمن أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدها إتقاناً فيها^(٢). واحتلت الأواني المصنوعة من النحاس في بلاد الشام أهمية، حيث كان الرجل يجهر ابنه ويكون معظم الجهاز أواني النحاس وبه يفاخرون وبه ينسايعون^(٣). وصناعة الرّجاج الذي كان يصنع في العراق^(٤)، وصناعة الأواني الخشبية التي كانت تصنع في لصين^(٥)، وأواني الرّبة المصنوعة من الملح في بلاد هرمز^(٦)، وأنية الماء المصنوعة من الخرف، وتعرف بالريحية في تونس^(٧) وقد كانت بعض الأواني تنسب إلى المدينة التي صنعت فيها، مثلاً إيريق مالني^(٨).

وأشار بعض الرّحّالة إلى صناعة العطور، والأدهان العطرية، فمن عادات أهل جزائر دية، لمهل أنّهم إذا صلّوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابها بالملكة الورد ودهن العالية، فيكحل عينه ويدهن به الورد ودهن العالية فتصقل بشرته وتربل الشحوب عن وجهه^(٩).

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة ١ ٦٧ ٦٨، وانظر، ابن سعيد، المقرب، قسم مصر ١ / ١١

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢ / ٢٢٤، وانظر أيضاً، المصدر نفسه ٢ / ٢٢١ - ٢٢٢، ٢٢٧

(٣) المصدر نفسه ١ / ٦٥

(٤) انظر، المصدر نفسه، ١ / ٢٥٨

(٥) انظر، المصدر نفسه ٢ / ٢٣٣

(٦) انظر، رحلة ابن بطوطة ١ / ٢٤٥

(٧) انظر، البكري، صفة جزيرة العرب من كتاب لسالك وإسالك ٢ / ٦٩٨

(٨) المشتالي، بحّة المعرب، ص ١٧٠

(٩) رحلة ابن بطوطة ٢ / ١٧٥، وانظر، المصدر نفسه ١ / ٢١١.



ومن الصناعات أيضا صناعة البيذ^(١)، وصناعة كبس التمور في مكة المكرمة، حيث أشار ابن جبير إلى جودة هذا التمر وعده بمزلة التين الأحضر، وهو في نهاية الطيب وللذدة لا يسأم التفتكه به، ويخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نصبح التين والعنب، وعند نقضه يسط على الأرض قدر بجمعة قليلاً ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ثم يحفظ لوقت استخدامه^(٢)

وأشار ابن بطوطة إلى صناعات مختلفة اشتهرت بها مدينة بعلبك، ويبدو أنها تتفرد بصناعتها، ومن قوله في ذلك -أي بعلبك- يصنع النيس المسوب إليها، وهو نوع من المرئي يصعوبه من العنب، ولحم تربة يضعونها فيه فيجمد، وتكسر القلة (الحرة) التي يكون بها يبقى قطعة واحدة، وتضع فيه الحلواء، ويعمل فيها الفتق واللوز، ويسمونها حلواء الملبس، ويسمونها أيضاً جلد المرمر^(٣)

ويصنع ببعلبك الثياب المسوبة إليها ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد وهم يسمون الصّحاف بالذّسوت، وربما صغروا الصّحفة، وصنعوا صحفة أخرى بوضع في جوفها وأخرى في جوفها إلى أن يملأوا لعشر، يخلل لرائحتها أنها صحفة واحدة وكذلك الملاعق يصنعون منها عشراً، واحدة في جوف واحدة، ويصنعون لها عشاء من جلد، ويمسكها الرجل في حزامه، وإذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك، فيظنّ رائيه أنها ملعقة واحدة، ثم يخرج من جوفها تسعاً^(٤). أمّا الصناعات الخلدية، فقد وجدت في ليمن جلود البقر الملمعة التي يكون في جسمها بقع تخالف سائر جلودها، وتصنع من الجلود بحال مختلفة الألوان، من بياض وصفرة^(٥) وتصنع في بلاد الصّقالق، السروج واللّجُم والدُرُق، وهي الترس تصنع من خلد^(٦)

(١) انظر، المصدر نفسه ٢٩٧/١-٢٩٨

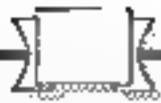
(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٩٩-١٠٠، وانظر، رحلة ابن بطوطة ١٢٤/١، ١٣١

(٣) رحلة ابن بطوطة، ٨٠/١.

(٤) رحلة ابن بطوطة ٨٠/١

(٥) انظر، البكري، صفة جزيرة العرب من كتاب لسانك وإسالك، ص ١٢٢

(٦) البكري، جغرافية الأندلس، ص ١٦٣



ويبدو أنّ كتب لرحلات قد نقلت تطوّر الصناعة الذي رافق عملية التبادل التجاريّ فيما بعد، أمّا تلك الصناعات التي لم تتم الإشارة إليها فعمل ذلك يعود إلى أنها مألوفة معروفة في معظم البلدان، أو أنّ الصناعات كانت خفية ليست معقدة^(١)

ج التجارة ووسائل النقل

صاحب غزو الشاطين الزراعي والصناعي تطوّر في حركة لتجارة، نظراً إلى كثرة الأنهار والبحار الصالحة للملاحة، وسهولة الطرق البرية في بعض البلدان وقد أشار بعض الرّحالة إلى احصاء اعرب للصحراء الكبرى واستخدمها طريقاً يصل المدن الإفريقية ببعضها ويربطها بأقطر المغرب العربي، وذكروا أنواع البضائع التي كانت تنقل على تلك الطرق وتشمل على الأسجة ولعادن وغيرها، وقدموا صورة واضحة للطرق البحرية المختلفة وكيفية عمل الكثير من الصانع عن طريقها^(٢)

وكان نتيجة ذلك أن كثرت الأسواق التجارية في مختلف البلاد والأقطر، فمدينة طرطوشة مثلاً مدينة على سطح جبل ولها سور حصين وأها أسواق وعمارات وصناع وفنّان^(٣) أمّا مدينة المرية فلعلّها أكثر الموانئ الأندلسية نشاطاً وإقبالاً عليها كانت تنقل مراكب البحر من الإسكندرية والشام كلّها ولم يكن لأندلس أسير من أهلها مالا، ولا انجر منهم في الصناعات، وأصناف التجارات، تمرّياً وادخاراً^(٤)

وذكر الرّحالة، التجار وأماكن نزولهم، حيث كن التجار يقيمون في الفنادق، والمسجد فمن حديث التجيبي عن مدينة فوص الخروسة، قوله وكان نزلنا بهذه المدينة بالخان الكبير المعروف بالفندق المكرّم، وبه ينزل التجار المدعوون بالأكارم وقد كان

(١) مطرب، أحمد، (١٩٩٩). الملامح الاقتصادية في رحلة ابن بطوطة، بغداد. دار الشؤون الثقافية، ص ١٢٢

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٦٩/٢ ٢٨٦

(٣) الإدريسي، صفة العرب وأرض السودان ومصر ولأندلس ص ١٩٠

(٤) المصدر نفسه، ص ١٩٧.



عرض عليّ بعض دي اليسار من فضلاء التحار الزول في بعض الديار، فرأينا أن الزول بالتحار المذكور كان آس لنا، وأحسن للاستفهام عن أحوال الطرقات، وإليه يقصد الحمالون وغيرهم ممن يريد دخول الصحراء، وما رأينا قط حائلاً أكبر منه وهو نوع حصص، وكل نوع من مساكنه مستقر بنفسه، غير محتاج إلى غيره وفي وسطه مسجد تصلي فيه انصلوات الخمس، وله إمام راتب^(١)

ونلاحظ من هذا القول لعلاقة الوثيقة والترابط بين الأسواق والفنادق والمساجد، وكانت بعض المدن تشمل على حيّ خاص بالتجار الذين يمدون من جميع الجهات، ومنهم العراقيّ والمصريّ والشاميّ^(٢) وقد وصف الرحالة الأسواق والتنظيمات المالية ولصادرات والواردات، وكلّ ما يتّصل بالأعمال التجارية، وأشار بعض الرحالة إلى بعض البلدان التي كانت تقتصر في نشاطها الاقتصاديّ وبشكل رئيس على التجارة وحدها لما فيها من ربح عظيم. وأهل مدينة تكدا في السودان العربيّ لا شغل لهم غير التجارة، يسافرون كلّ عام إلى مصر، ويجلبون من كلّ ما بها من حسان الثياب وسواها^(٣) وأهل ظفارهم أهل تجارة لا عيش لهم إلا منها^(٤)

ودكر بعض الرحالة أن اقتصاد بعض البلاد كان يقوم على تجارة الفايضة، فكانت المناطق البدوية والريفية، كانوا أكثر اهتماماً بالحيوانات منهم بالزراعة، لذا كانت تجارتهم تشمل العنم والسمن والدين، فهي طريق مكة إلى لعراق كان العرب يأتون بالعمم ولسمن واللبن، فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخام، ولا يبيعون سوى ذلك^(٥)

(١) النجيب، مستند الرحلة، ص ١٧٣

(٢) انظر، القرمطي، تحفة الألباب، ص ١٢٦، ورحلة ابن بطوطة ٣٢٦/١

(٣) رحلة ابن بطوطة ٢٨٢/٢

(٤) المصدر نفسه ٢٣٤/١، وانظر، الكر، خالد عبد الكريم حمود، (٢٠٠٢) الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية من القرن الثاني حتى نهاية القرن السادس الهجري، ط ١، الرياض، مكتبة الملك محمد الزهية، ص ٨٤، ٢١٨، ٢١٩، ٢٥٥، ومواطن أخرى متفرقة

(٥) رحلة ابن بطوطة ١٥٥/١



ومارس أهل نجد تجارة المقايضة مع الحجاج، وقد أورد بعض الرحالة مراكز عديدة من مراكز المقايضة، مثل صغيرة^(١)، و العلوية^(٢)، حصن فيد^(٣) وكان البدو الأعراب يدلون الحجاج العم والسمن ولبن بالثياب لحام وماشيتها من بضائع ومن جانب آخر، فقد كانت تحمل لسيوف مثلاً إلى بلاد البلغار، وتشترى بجلود السمور والجواري ولعلمان^(٤)، أما في بلاد لظلمة بشرق أوروبا، فذكر ابن بطوطة أنه إذا كملت للمسافرين بهذه العملة أربعون مرحلة مزلوا عند الظلمة، وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا إلى مزارعهم المعتاد فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم، فيجدون برراته من السمور والسجاد والبقاقم، فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أحذه، وإن لم يرضه تركه، فيريدونه ورتما رفعوا متاعهم، أعني أهل الظلمة، وتركوا متاع التجار وهكذا بيعهم وشراؤهم^(٥) وكان أهل جرائر دية المهمل يشترون الفخار إذا جلب إليهم بالذجاج، فبباع عندهم القدر خمس دجاجات وصب^(٦) وست^(٧).

وألفت بعض كتب الرحلات الضوء على بعض عادات الشعوب في استعمال التجار، فقد كان عبيد السلطان في مدينة قطار يخرجون إلى الساحل ويصعدون إلى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللرئاس وهو الرئيس . وتبحث الضيافة لكل من بالركب ثلاثاً وبعد الثلاث يأكلون مدار السلطان^(٨) أما مدينة

(١) انظر، المصدر نفسه ١٥٥/١٠

(٢) انظر، المصدر نفسه ١٥٦/١

(٣) انظر، المصدر نفسه ١٥٥/١.

(٤) انظر، أبو حامد المرناطي، تحفة الألباب، ص ١٢٣.

(٥) رحلة ابن بطوطة ٣٠٨-٣٠٩

(٦) المصدر نفسه ١٧٧/٢

(٧) المصدر نفسه ٢٣٤/١



جأوة، فقد كانت تهتم بالتجارة والتجارة، مما أن يصل المركب إلى المرسى حتى يخرج أهل جأوة رمعهم جرز التارجيل والموز والعنة والسمك، وعادتهم أن يهدو ذلك للتجار، فيكافئهم كل إنسان على قدره^(١).

وكان من عادات بلاد الصين في مع التجار عن الفساد، أنه إذا قدم لتاجر المسلم على بلد من بلاد الصين، حث في الرول عند تاجر من المسلمين المستوطنين معين أو في الفندق، فإن أحب الرول عند التاجر حصر ماله، وضمنه التاجر المستوطن وأفق عليه منه بالمعروف، فإذا أراد السفر بحث عن ماله، فإن وُجد شيء منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه. وأما إنفاق ماله في الفساد، فشيء لا سبيل له إليه، ويقولون لا يريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يحسرون أموالهم في بلادنا، وإنها أرض فساد وحسن فانت^(٢).

ويبدو أن أمور لتجارة قد نُظمت، ولا سيما في القرن الثامن الهجري، فكان لكل جماعة من التجار رئيس يسمى مالك التجار^(٣)، أو أمير اسجارة^(٤)، وقد بلغت تجارة المسلمين في العصور الوسطى شأواً لم تبلغه تجارة أمة قبل عصر الاكتشافات الجغرافية الحديثة. وكانت طرق قوافلهم تربط بين أنحاء العالم المعروف ولم تقتصر تجارتهم على ديار الإسلام بل تجاوزتها إلى كل ركن معمر، وكان لديهم ما يتجرون فيه إذ كانت بلادهم تنتج العلات المتنوعة، وكانوا قد أصبحوا سادة الصناعة بمقاييس تلك العصور...^(٥)

(١) المصدر نفسه. ٢١٣/٢

(٢) المصدر نفسه. ٢٢٥/٢

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة. ٨٧/٢

(٤) انظر، المصدر نفسه. ١٦٦/٢

(٥) لصياد، محمد محمود، (١٩٨٥) ابن بطوطة، سيرة موسى دار المعارف للطباعة والنشر،



أولاً: الأسواق والسلع التجارية

كان لازدهار الحركة التجارية أثر كبير في إنشاء الأسواق الكبيرة والاهتمام بها في المدن والطرق والمراسي، وعدت الأسواق مراكز اقتصادية وعنوان مشاط المدن الصناعية وتجارية والاجتماعية أيضاً، ودليل الأوصاع الاقتصادية الحضارية الراقية

وقد رصدت كتب الرحلات الكثير من المعالم الحضرية للتجارة في مختلف البلاد التي قصدت الرحالة، حيث لفتت أنظارهم الأسواق المتصلة بين المدن، كالأسواق المتصلة من الإسكندرية إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى أسوان^(١)، والأسواق التي كانت بين مصر والشام^(٢)، وفي طريق المدينة إلى مكة^(٣)، وغيرها، وكانت هذه لأسواق حافلة بكل أنواع الأطعمة والمواكه وشتى أنواع البضائع، حتى أن المسافر لا يحتاج إلى أن يحمل رداً كثيراً كما في بعض مناطق الهند والصين، حيث الأسواق المتصلة والطرق التي تكتنفها الأشجار من مختلف الأنواع، فكان الماشي بها في سوق من الأسواق^(٤)

وأشارت بعض كتب الرحلات إلى حركة الصادرات والواردات، وقنمت صورة عن نشاط الأسواق في تلك العصور ولصاعات الموجودة فيها وترتيبها، حيث كل صناعة على حدة لا تخلطها أخرى، فهناك سوق العبر والمسك والخوريين، ولعل أطرف ما وصف به ابن بطوطة هذه الأسواق وصفه لسوق الجوهريين في بغداد^(٥)،

(١) انظر، رحلة ابن حبير، ص ١٨، ٣٥، ٤٥، ورحلة ابن بطوطة ١/ ٣٧، ٣٩

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢١٦، ٢٢٠، ٢٣١، ٢٦١، ورحلة ابن بطوطة ١/ ٥٨، ٦٣، ٦٤، وما بعدها

(٣) انظر، رحلة ابن حبير، ص ٥٧، ٩٧، ١٠٠، ١٦٠، ١٦٦، ورحلة ابن بطوطة ١/ ١٢٠، ١٣١، ١٥٤، ١٥٧

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢/ ١٥٤، ٢٢٢، ٢٤٧

(٥) انظر، المصادر نفسه ١/ ٢٠٠، ٢٠٨

وحوانيت اوراقين وصناع الأواني الزجاجية العجيبة في دمشق^(١)، وقد ذكر ابن بطوطة أيضاً أن أكثر الصناع والباعة في بعض البلدان من النساء^(٢).

وأكثر الرحلات من ذكر الأماكن التي مثلت مراكز تجارية هامة، مثل مدينة قوص، المدينة الحافلة بالأسواق منتعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة انبساط والوارد من الحجاج ولتجار اليمنيين والهنديين، ولتجار أرض الحيشة، لأنها محط للجميع، وموطئ للرجال ويجتمع الرفاق، ومنتقى الحجاج لمعارة المصريين والإسكندرانيين، ومن يتصل بهم^(٣) ومنها منطقة المبرز الواقعة بين قوص وعيذاب، وهي منطقة مسيحة محدقة بأشجار السحيل، يجتمع فيها رجال الحاج والتجار، وفيها يتم وزن البضائع وشدها على الجمال التي تنقلها إلى عيذاب عبر الصحراء^(٤).

ووصف البكري أسواق تلمسان، فقال: "وبها أسواق فائمة"^(٥) ومن حديثه عن البراء، قوله: "وفي تلك الجهة عربان كثيرة تقيم مع الركب سوقاً عظيمة ويجلسون إليها الغنم والتمر فيشبع البعش ويرغمص"^(٦).

أما الأماكن المقدسة، فقد تعددت الأسواق فيها، فمكة كانت ملتقى الحجاج ولتجار، وملتقى الصادر والوارد. فهي أكثر البلاد معاً وفواكه ومواقع ومرافق ومتاجر^(٧)، وفيها يوجد أسواق تجارية كبيرة، منها سوق لبزازين والعطارين، وسوق

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة ٨٦/١

(٢) انظر، المصدر نفسه ٣٢٠/١

(٣) رحلة ابن خلدون ص ٤٠، وانظر أيضاً، النجدي، سفاد الرحلة والاعترا ب ص ١٧٣، ورحلة ابن بطوطة ٥١/١

(٤) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٤١.

(٥) البكري، الرحلة المغربية، ص ١١

(٦) المصدر نفسه، ص ١٦٥

(٧) رحلة ابن جبير، ص ٢٧، وانظر، البكري، الرحلة المغربية، ص ١٨٥، ورحلة ابن بطوطة.



الدقائيق، وسوق الخياطيين، وسوق آخر ما بين الصما والمروة تباع فيه مختلف الأطعمة. وكانت هذه الأسواق تنشط في موسم الحج، وقد يستمر بعضها طوال عيد الأضحى، مثل سوق من حيث يباع فيه الجواهر والأمتعة وغيرها^(١) وذكر الرحالة أيضاً مدينة عكا التي كانت ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق^(٢)

وقد لقيت تلك الأسواق اهتماماً كبيراً بالمحافظة على الأمن في المدن، وحراسة الأسواق لا سيما في الليل، وذكر ابن سعيد المغربي أن بلاد الأندلس كانت لها دروب تعلق في أول الليل بواسطة الذرايين، وكان كل واحد منهم معه سلاح وكلب وسراج^(٣)، وذكر ابن بطوطة أن مدينة القسطنطينية كانت لها أسواق واسعة معروفة بالصقاج، وكان على كل سوق أبواب تد على بالليل^(٤) ولأهمية الأسواق أيضاً، فإنها كانت تزين في المناسبات فعندما شهي الملك الناصر بمصر، من كسر أصنام يده رين كل أهل سوق سوفهم، وعلقوا بحرايتهم الحلل والحلي وثياب الحرير، ويقوا على ذلك أياماً^(٥)

وقد أبدى بعض الرحالة إعجابهم في بعض الأسواق، غير أن بعضهم الآخر أبدى عدم إعجابه بأسواق أخرى، ولا سيما في انعدام النظافة فيها، فمما قاله ابن بطوطة عن سوق طنار أنها من أنذر الأسواق وأشدّها نتناً وأكثرها دباباً لكثرة ما يباع بها من الثمرات^(٦) وسمك السردين وقد استاء العبدري من عادة الأكل في بعض الأسواق ولطرافات في دمشق^(٧)

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة ١، ١٢٩، ١٣١، ورحلة ابن جبير، ص ٨٥، ١٥٧

(٢) رحلة ابن خببر ص ٢٧٦، وانظر، الحميري، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، ص ٤١.

وجزار، صلاح القدس في رحلات الأندلسيين. بحث لم يشر بعد، ص ١

(٣) انظر، المغربي، معج الطيب ٢١٩/١

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٢٠/١

(٥) المصدر نفسه ٣٩/١

(٦) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٣٤/٢، وانظر، المصدر نفسه ٣٢١/١

(٧) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص ١٢٩

ورافق اردحار الأسواني إقامة علاقات تجارية قوية بين مختلف البلدان لا سيما بين مصر وبلاد الشام وبين البلاد العربية وغير العربية، وأفاض الرحالة في الحديث عن حركة القوافل والمراكب التجارية، وصادات وواردات بعض البلدان التي قصدوها، ومن ذلك ما تنتجه مدينة توزر في التمور، وبعد أحصى الإنتاج بإفريقية ثمراً وتخرج منها كل يوم ألف حمل إلى كافة الجهات^(١)، وتصدر مدينة صفاقس الزيت إلى مصر والعرب وصقلية وبلاد الروم..^(٢)

وكانت لمراكب تخرج من إشبيلية عملة الزيت نحو سلا وبلاد المغرب والمشرق، وكذلك حملت الثياب السومنية إلى كل الجهات^(٣)، وأشار بعض الرحالة إلى الضائع المستوردة عن طريق ميناء عيذاب حيث تصل سلع الهند إلى اليمن، ثم كانت تنقل من ميناء عيذاب بواسطة الجمال بطريق البر وتوزع إلى مناطق مختلفه، وكان أكثرها تحمله تلك القوافل الملعل حتى قبل بكثرتة، أنه رخيص الثمن يوارى الثراب قيمة^(٤).

أما موز دسباط فكان يصدر إلى القاهرة وغيرها من مدن مصر^(٥)، وكان يحمل من مدينة العلاية بأرض لروم الخشب إلى الإسكندرية ودمياط، ويحمل منها إلى ماسر بلاد مصر^(٦)، ومشمش قويه المسمى قمر الدين إلى ديار مصر والشام^(٧)، ويصدر بيروت المواكه إلى مصر^(٨)، وتختص مدينة المحرة برعاية التين والفسق الذي يحمل إلى مصر

(١) البكري، المسالك والممالك ٧٠٨/٢

(٢) انظر، المصدر نفسه ٦٦٩/٢

(٣) انظر، المصدر نفسه ٦٩١/٢ والإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٧٣، ١٧٨، ورحلة الشجاعي، ص ٢٦،

و مؤلف مراكشي مجهول، الاسيصار، ص ١١٩

(٤) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٤٣.

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة ٣٥/١

(٦) انظر، المصدر نفسه ٢٥٦/١

(٧) انظر نفس المصدر وجزء والصعقة

(٨) انظر، المصدر نفسه ٦٤/١



ولشام^(١)، وقد كانت الصناعة والتجارة في دمشق مزدهرة، وعلى درجة عالية من التقدم، مما أدى إلى كثرة الأسواق المتخصصة بالصناعات المتنوعة^(٢).

أما مكة المكرمة، فقد كانت البضائع الواردة إليها من الهند والحبشة والعراق واليمن وغيرها كثيرة جداً، حتى أنها تبقى الموسم كله، وما يباع في يوم واحد كفيلاً بإقامة الأسواق النافذة في مختلف بلاد ومن تلك السلع التي أحضر الرحالة في الحديث عنها الجواهر، والياقوت، ومائير الأحجار وأنواع الطيب المختلفة كالمسك ولعنبر والعود وغيرها، إضافة إلى الخيرات والأوراق ومائير لطبات من الفواكه ومائير البقول، ولزيحين العنقة ولشمومات العطرة ويحلب إليها أيضاً من اليمن الريب الأسود ولأحر شديد الجودة، واللوز الكثير، ومن الفواكه والخضار السفرجل والبطيخ والخيار وليقطين واللوزياء، ومائير الخبوب، التي جلبت إليها من الطائف والقرى المحيطة بها ولأودية لقريبة مثل وادي نخلة ويطى مر^(٣).

وقد كانت قبائل السرو، وهي من قبائل اليمن التي تسكن جبال السراة، يسايعون بالخرق والعباءات واشمل، فيعد أهل مكة الأفتنة والملاحف المتينة وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ويبيعونه به ويشارونه^(٤).

ورصدت بعض كتب الرحلات صوراً لاهتمام بعض البلاد بالصيد، والطرق المستخدمة في ذلك، ففي مدينة صفاقس، كان يصطاد من السمك الكثير من الأنواع التي تفوق الاحصاء، فتمد بها الأسواق^(٥)، وكانت مدينة جدة تصدر الأسماك إلى مكة^(٦).

(١) انظر، المصدر نفسه ٦٧، ١.

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٦١، ورحلة ابن بطوطة ٨٦/١.

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٩٧-٩٩، والعبدري، الرحلة المغربية، ص ١٨٥، ورحلة ابن بطوطة ١٢٤/١، ١٤٨.

(٤) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١١١.

(٥) انظر، رحلة التجاني، ص ٦٨، ورحلة ابن بطوطة ١٢٣/٢، ٢٧٠.

(٦) انظر، التجاني، مستعاد الرحلة، ص ٢١٩-٢٢٠.

أما صيد اللؤلؤ، فيشكل دعامة مهمة من دعائم اقتصاد بعض البلاد، وقد وصف بعض الرّحالة طريقة صيده، وبيعه وتصديره. وكان الصيادون يمدون الأسواق بما يصيدون من الأسماك واللؤلؤ^(١)، ويختلف الحيوانات، مثل لأرائب البرية التي كانت لحومها تلتقي إقبالاً شديداً من سكان المملكة لعرناطية^(٢).

وذكر بعض الرّحالة فصصاً عن تجارة عظام البقر والعنم، وأنياب الفيلة التي يتحد منها الأمشاط. وقد نالت هذه القصص اهتماماً كبيراً، وبخاصة لدى الدارسين المهتمين بعالم العجائب المختلفة^(٣).

ومارس بعض الرّحالة التجارة وعملية التصدير، فقد أشار لعبدري إلى أنه كان يحمل القمح يبيعه في مكة المكرمة^(٤)، ونقل ابن بطوطة إلى الهند صناعة بعض حصى المغرب، حيث صنع لسلطان الهند أنواعاً منها المقرصة، وقيمات القاضي، وجلد الفوس^(٥)، أما ابن جبير فقد شاهد بنفسه محصول القمح في مدينة منقلوط الذي تميز بمجودته وورقة حبه، وشهد أيضاً نقله بالراكب إلى القاهرة^(٦).

ولم يقف أمر التجارة عند هذا الحد، فقد انتشرت تجارة بيع الجواوي في بعض البلاد، ومن ذلك ما ذكره ابن بطوطة عن أهل بسدة تكدا في السودان، أن عندهم جوري معلّمات، يحرصون عليهن كثيراً ولا يبيعهن إلا نادراً ويأثمن الكثير^(٧). وفي ذلك دلالة على ما أفرته تلك الصّلات والعلاقات التجارية من فوائد مادية واجتماعية وثقافية.

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٤٦، ورحلة التجاني، ص ٦٨، ورحلة ابن بطوطة ١/ ٢٤١.

(٢) انظر، القشالي، تحفة المغرب، ص ٢٦٤، ورحلة ابن الحاج السبكي، فيض العباب، ص ٣٧.

(٣) انظر، أبو حامد العرناطي، تحفة لأباب، ص ١٢٩، ١٢٢.

(٤) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص ١٨٨، ورحلة ابن جبير، ص ١١٠.

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة ١/ ١٢٥-١٢٦.

(٦) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٣٥، ورحلة ابن بطوطة ١/ ٤٩.

(٧) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢/ ٢٨٨. وقد اشتهرت أسواق حاصة بإبطين وبعيقات، انظر، المصدر.



ثانياً: لتنظيمات المالية

سجلت كتب الرحلات بعض اجوانب الإدارية استظيمية، في العملات و لأسعار، والموازين والمكاييل والضرائب والأوقاف، والعلاقات التجارية والتعامل النقدي بين الدول، ووسائل النقل المختلفة وسجل الرحالة ملاحظاتهم عن تصرف السلاطين والحكام في شؤون الدولة الإدارية وتنظيماتها.

وألفت الرحلات الصوّء على تعدد العملات النقدية في الدول والبلدان التي قصدوا الرحالة، إذ لم تكن العملة موحدة بين تلك البلدان : لانتساع الرقعة الجغرافية، فكل دولة ها عملتها مع أن السادة كانت للدبار واندريم في مختلف البلاد الإسلامية، وهما يختلفان في القيمة من بلد لآخر^(١).

وأشار بعض الرحالة إلى دور سك النقود، كالذار التي في مكة المكرمة، وعرفت بدار أبي بكر لصديق، رضي الله عنه، ولم يشر إلى نوعية النقود المسكوكة فيها وأحجامها^(٢).

ولعل رحلة ابن بطوطة تشكل مصدراً اقتصادياً هاماً، ألم ياهم العملات ومقارنتها بغيرها من عملات البلاد الأخرى. لا سيما العملة المعروفة، وبلواريين والمكاييل، مثل الرطل لعرقي، ولرطل المصري، والرطل الهندي^(٣). وقد ذكر ابن بطوطة المادة التي سكّت منها النقود، فكانت دباير المغرب وتونس وقسطنطين من الذهب، وكذلك الدينار الهندي^(٤)، وفي جبال الروس بيع ويشتري بالصوم، وهي سائك الفضة ووزن الصومة

(١) انظر، رحلة ابن حبر، ص ٢٤، ٣٠، ورحلة ابن بطوطة ١/٣٤٧، ٣٥٢، ١٤/٢

(٢) انظر، البيوي، تاج الفرق ١/٣١٣، ورحلة ابن بطوطة ٢/٢٢٣

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة ١/١٨١، ٢/٨١، ٨٣

(٤) انظر، المصدر نفسه ١/١١٧، ١٦٥، ٢/٢٥٧، ١٤/٢، ١١١، ٢٠٧.



مها حصة أواق^(١)، ويتعامل الناس في مناطق أخرى بالودع^(٢)، وبالملح كما تعامل غيرهم بالذهب والفضة، حيث ينظرونه قطعاً ويتبايعون به^(٣).

وقد كان لبعض البلدان عملات محلية لا تنفق خارجها، ومن هذه المدن، طليار حيث يتعامل أهلها بدراهم من النحاس والقصدير، لا تنفق في سواها^(٤) ويبدو من ذلك أن العملة الورقية استعملت بشكل نادر في بعض البلاد التي قصدها الرحالة في تلك العصور، فأهل الصين لا يشاعرون بدينار ولا درهم، وإنما بيعهم وشرؤهم بقطع كاعد كنّ قطعة منها بقدر الكف^(٥).

وتضمنت كتب الرحلات إشارات كثيرة تدلّ على صلة العملات بالثقافات وللممارعات السياسية، فكانت الدراهم والدنانير تغيّر وتضرب باسم السلطان أو الحاكم الجديد أو من ادعى الحكم لنفسه، والكتابة التي عليها تدلّ على ذلك^(٦) وصورت كتب الرحلات أيضاً التدهور الماليّ في بعض البلدان التي رآها الرحالة، حيث أحدثت بعض العملات تفقد قيمتها إلى أن توقف جميعها نهائياً^(٧).

أما الأسعار، فلم تكن واحدة في مختلف البلدان التي قصدها الرحالة، تبعاً لاختلاف طبيعة تلك البلدان ومتجاتها الزراعية والحيوانية والصناعية، وجاء حديث الرحالة عن غلاء الأسعار ورخصها والمقارنة بينها سلعة واحدة في بعض المناطق، حديثاً عرقياً.

(١) انظر، المصدر نفسه ٣١٤/١

(٢) انظر، المصدر نفسه، ١٧٧، ١٨٣/٢

(٣) انظر، المصدر نفسه ٢٦٩/٢

(٤) انظر، المصدر نفسه ٢٣٤/١

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٢٣/٢

(٦) انظر، المصدر نفسه ٣٤٦، ١

(٧) انظر، المصدر نفسه ٢٢٣/٢



وإشارات بسيطة لا تشكّن صورة واضحة وقائمة لجميع الأسعار والأوضاع الاقتصادية في مختلف البلدان. وإن قدّمت بعض الملامح الاقتصادية لتلك العصور^(١)

ومن مظاهر غلاء الأسعار، ما وصف به ابن جبير ظروف القاسية التي مرّت بها مكة المكرمة سابقاً، فندرت البضائع واشتدّ الغلاء وقلّ أنواردون إليها سواء للحج أم التجارة، إلى أن تحسّنت الأوضاع على يد بعض الحكام والأمراء، ومن قوله: ومن صنع الله الجميل لنا وفضله العظيم علينا أننا وصلنا إلى هذه البلدة المكرمة فألقينا كلّ من بها من الحجاج المجاورين ممّن قدم عهده فيها وظالّ مقدمه بها يتحدث على جهة الإعجاب بأمنها من الخرابة لمتلصّصين فيها على الحاج المختلسين ما بأيديهم ، وكانوا أيضاً يتحدثون بكثرة نعمهم في هذا العام، ولين سعرها، وأنها خارقة للعوائد السالفة عندهم كان سوء الحظّة أربعة أصواع دينار مؤمني، وهي أوتن من كيل مصروجهاتها، والأوتان قدحان ونصف قدح من الكيل العربي،^(٢)

ومن السلع مرتفعة الأسعار أيضاً المراء، ورغم ذلك فتجارته كانت رائجة جداً، وبيعت بعض أنواعه في الهند بحوالي مائتين وخمسين ديناراً، ويصل سعر بعضها إلى أربعمائة دينار ذهباً^(٣) وقد يشتد الأمر ويحصل القحط ويقع الغلاء في بعض البلدان ومن أمثلة ذلك ما رآه ابن بطوطة في بلاد الهند والسند، حيث شاهد ثلاث سوة يقطعن قطعاً من جلد فرس مات منذ أشهر ويأكلنه، وكانت الخرد تطفح وبيع في الأسواق، وكان الناس إذا دجّمت لبقرة أحدوا دماءها يأكلوها^(٤) وحاول لسلطين والأمراء

(١) انظر، البكري، لمساك والممالك، ص ٣٤، ١٤٧، ١١٦، ١٥٣، ١٥٨، ورحلة ابن جبير، ص ١٠٠.

ورحلة ابن بطوطة، ١/ ٣٠٠

(٢) رحلة ابن جبير، ص ١٠٠

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة، ١/ ٣٠٩

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة، ٢/ ١٠٥



مراجعة تلك الأوضاع الصعبة، واتخاذ الإجراءات اللازمة لمعالجتها وقد أمر بعضهم بحمر آبار خارج دار الملك، وأعطوا الناس اليسور لرعايتها، وما يلزم من النعقة^(١).

وأشارت بعض الرحلات إلى رخص الأسعار، ومن مظاهر ذلك ما ذكره ابن جبير عن مدينة مرسية بصقلية، وهي مقصد جوازي البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأوراق برحاء الأسعار، أسواقها باقة حمية، وأرزاقها واسعة بإرعاد لعيش كميلة، لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان^(٢)، ووصف ابن بطوطة مدينة قسطنطينية من مدن آسيا الصغرى بأنها كثيرة الخيرات وخبصة الأسعار. فكنا نشترى طابق اللحم انقنمي السمين بدرهمين، ونشترى خبزا بدرهمين يكمن ليوما ونحو عشرة، ونشترى حلواء العسل بدرهمين فتكمننا أجمعين، ونشترى جورا بدرهم، وقسطلا بمثله فأكمل منها اجمعون^(٣) أما الخيل في مدينة أزاق من مدن شرق أوروبا فهي كثيرة جدا وثمنها نزر، قيمة الجبد منها خمسون درهما أو ستون من دراهمهم، وذلك صرف دينار من دنائبرا أو نحوه، وهذه الخيل هي التي تعرف بمصر الأكاديش ومنها معاشهم وهي بيلادهم كالغنم بيلادنا بل أكثر^(٤).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، الموارد المالية في المدن التي قصدها الرحالة، وعمال جبايتها ولترتيبات اللازمة لتحصيلها، وأوجه صرفها تبعاً للظروف والحكم، حيث تزداد أو تنخفض ومن هذه الموارد المالية التي عني بالكتابة عنها الرحالة الضرائب، وكانت تنقسم إلى قسمين ضرائب مشروعة، وضرائب غير مشروعة وتعرف بالمكوس، نشأ

(١) انظر، المصدر نفسه ٨١/٢، ٨٢.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٦.

(٣) رحلة ابن بطوطة ٢٨٥/١.

(٤) المصدر نفسه ٢٩٩/١.



من حاجات وظروف جديدة اضطرت اندولة إلى فرصها وتصفى بالماز اهلالي لأنها
تجيب مع هلال كل شهر عربي يعكس المال الخارجي الذي يجبي كل سنة^(١)

وقد كانت المكوس مورداً خصباً وهاماً للندولة مع أنها تسببت في إرهاب الناس
فكثرت الظلمات والشكوى، لا سيما وأن طرق جبايتها كثيراً ما كانت تتصف بالقسوة
وسوء المعاملة، وقد اشتكى ابن جبير حين رار مصر من إجباره ورفاقه الحجاج
المسلمين المعارة على دفع المكوس دون التحقق من استحقاقها، وأبدى استياءه من قسوة
الإجراءات الجبركية في الموائع وعنف وسوء معاملة التجار والحجاج لقادمين إلى البلاد
والخارجين منها، ووقع قصيدة في هذا الموضوع لسلطان صلاح الدين الأيوبي الذي قام
بدوره بإزالة المكوس ورسومها^(٢)

ودفعت بعض الموارد المالية ونزياتها إلى إثارة حفيظة بعض الرخاة، فالعبدري
حين رار الإسكندرية أثار حفيظته نظام الجمارك في تفتيش المصادر والوارد، فدعا إلى
مخاربة هذا المنكر^(٣) وذكر التجبي أن الحجاج كانوا يمتشون في عيذاب، وتؤخذ منهم
الضرائب بحسب أهواهم^(٤)، وأن بحنة عاملاً من قبل أمير مكة، مهمته قس المكوس
والصرائب من الحجاج، وقد أظهر التجبي تدمره من ذلك وقال إنها غير مشروعة والله
تعالى يصلح أحوال الجميع، ويعظم الأجر بذلك، فعلى قدر النصف والنصب يكون
الأحر^(٥) وطبق نظام المكوس في بعض البلاد تطبيقاً صارماً، حيث كانت تعش القوافل

(١) انظر، المقرري، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، (ت ٨٤٥هـ) المواعظ والاعتبار يذكر
المخبط ولأشار المعروف بالخط المقرري، دار التحرير، مطبعة النيل، القاهرة، مصر،

١٣٢٤هـ: ١/١١١

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٣، ٢٠، والعبدري، الرحلة المغربية، ص ٩٤، والبلوي، ماج المرق

١٩٧/١

(٣) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص ٩٣

(٤) انظر، التجبي، مستاد الرحلة، ص ٢٠٦

(٥) انظر، المصدر نفسه، ص ٢٢٠



ولمراكب تعيشاً دقيقاً، وكان يتقاضى الرّبع من كلّ ما يجلبه التجار^(١) وقد أخذت بعض البلدان، كبلاد لبندار الجرية والخراج من ابولابات تابعة لها^(٢)

واهتمت بعض الحكومات بحماية الركاة من تجار المسلمين، والعشر من تجار الكفار، في حين أنه في بعض بلاد الأحرى كانت تحبى الضرائب لا الركاة^(٣) كما أخذ الحكام ولسلاطين يهتمون بالمراكز الجمركية على حدود البلاد، فقد أشار ابن بطوطة إلى مراكز النفّيش الجمركي على الطريق المؤدية إلى الشام لا سيما مركز قطيف حيث تزحف الركاة من التجار، ونفس أمتعتهم، ويبحث عما لديهم أشدّ البحث، وفيها الدواوين والعمال و لكتاب والشهود ومجاها في كلّ يوم ألف دينار من الذهب، ولا يجوز عليها أحد إلى الشام إلا ببراءة من مصر^(٤)

وقد وضع السلاطين والأمراء الأنظمة الإدارية التي تسهم في انتشار الأمن ولا استقرار في لبلاد، حيث عيّن السلاطين الموظفين، والقضاة والمختصين، وكان فرض الضرائب على الأسواق من أهم واجبات المحتسب، لذلك تجتمع المهن في الأسواق لتسهيل الجباية وتنظيم التجارة^(٥)، وكذلك سنّت إجراءات رسمية لدخول المراكب ولموافل للبلاد والمخروج منها، مثل نفّيش الركاب أو التحقيق معهم، ورصد أسماء المسافرين قبل خروجهم، فإذا عادوا يتمّ مقابلة ما كتب بأشخاص الناس^(٦).

ولم تفعل بعض الدول عمّا يمكن أن يحدث من عمليات التهريب لداخل البلاد أو خارجها، لذا اتخذت بعض الإجراءات الاحتياطية لمواجهة ذلك، ومنها ما وكلت به

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٩/٢

(٢) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ١٣٠

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٣٨، والتجيب، رحلة مسعود الرحلة، ص ٢٠٦، ٢١٩، ورحله ابن

بطوطة ٣٠٠/١

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة ٥٢/١ ٥٣

(٥) الهسي، عقيب (١٩٩٠) العمارة العربية، الرياط المجلس القومي للثقافة العربية، ص ٣٩

(٦) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٢٤/٢ ٢٢٥



الحكومات المصرية الفاضلة العربية بمحفظ الطرق، وذلك بأن يمسحوا على الرمل وقت الليل حتى لا يبقى به أثر ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل فإن وجد أثراً طالب العرب بإحصار مؤثره، فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم، فيأتون به الأمير، فيعاقبه بما شاء^(١) أما الأوقاف، فكانت لخدمة الفقراء وأبناء السبيل، وينفق منها على الروايا وللمصوفة والعقراء وطلاب العلم، وكانت تساعد في تجهيز أبنائهم إلى أراضهم، ورصف الطرق، وتعويض من كسر أبنيتهم، ومنها أوقاف على العاجرين عن الحج^(٢) وتحدث ابن بطوطة عن ما يشبه الجمعيات أو المؤسسات التي تقدم الكثير من الخدمات والمساعدات للمحتاجين وهي جمعة الأخية، وأحد الأخية أخي على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية وكانت هذه الجماعة تنقسم في الروايا^(٣)

ومن هذا لرصد لمالي العام، للنجاية والعشر والركاة والصوائب، والخاص من هدايا وأعطيات تادها الملوك والأمراء والوزراء والقهار الكبار، والخلع والصدقات الواصلة للخطباء والمؤدنين كانت الدولة تقوم بأرجه النفقات المختلفة، مثل نفقات المصور الخلفاء أو السلطانيه، وأوراق الخدم، ورواتب الموظفين والإماني على حملات العسكرية والمعدات الحربية، ونفقات لمشروعات العامة مثل حفر الترع ونقوات ونظهيرها^(٤)، وترميم المدن وأسوارها وما تحتاج إليه من مهم أمورها^(٥)

أما وسائل النقل، فقد انعكس الازدهار الزراعي والصناعي على نشاطها في المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، ونهر النيل ودجلة وانفرت، وغيرها من الأنهار

(١) المصدر نفسه ٥٣/١

(٢) انظر، المصدر نفسه ٩٦، ٩٤، ٤٩ / ١

(٣) انظر، المصدر نفسه ٢٦٢، ٢٨٢، ٢٥٧ / ١

(٤) العيادي، أحمد مختار، (١٩٨٠) من مظاهر الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية: عالم الفكر، المجلد

١١، العدد (١)، ص ١٣٦

(٥) انظر، رحلة التجاني، ص ٢٣٨.

ولبحار، ونشطت حركة الموانئ وكثر الخط والإقلاع فيها بمختلف البضائع وقد عدت ملاحظات بعض الرحالة عن طرق لمواصلات، وثيقة مهمة لفهم المعارف البحرية في القرون الوسطى، حيث تحدثوا عن مراحل رحلاتهم ومرورهم بالموانئ المختلفة، ووصفهم للسفن الصغيرة والكبيرة، وما يحمل عليها من الغلات والبضائع، بالإضافة إلى تحديد المسافة بين كل مرحلة وأخرى^(١)

وأشار الرحالة إلى طريق الحج الذي قطعوه، حيث سافر بعضهم عن طريق البر، وبعضهم استقل المراكب التي كانت تقطع البحر المتوسط، وقدمت الرحلات صورة واضحة عن وسائل النقل وتطورها في تلك العصور الخيول والبغال والحمير، والجمال والهيل، والبقر والعربات والمراكب الصغيرة والكبيرة^(٢)

وكانت الخيول والبغال والحمير أكثر أدوات استخداماً في السفر، لذا كثرت في بعض البلدان ورخصت أسعارها، وكان يستخدمها الناس لانتقالهم داخل المدن وفي الجبال والأرض الوعرة، ومن ذلك، لطريق المؤدي من حصن ميثولي أول عمالة الروم إلى طابنة، ويقروا أن طابنة ولاية أقر من هذا الحصن، لا بالخيل ولا بالجمال، وتترك العربات لأجل الوعر والجبال^(٣).

(١) انظر، رحلة ابن خبيرة، ص ٩، ١٢، ١٨١، ١٨٧، ٢٨٣، ٢٨٥، ومواضع أخرى متفرقة في الرحلة، وانظر، التنجني مستعاد الرحلة ص ٢٠٧-٢١٦، وانظر، رحلة ابن بطوطة ١/ ٢٢٧، ٣٢١، ٢٨٣، ١٧١، ١٦٦/٢

(٢) انظر، لإدريسي، نزهة المشاق، ليدن، ص ٣، واللوي، ناز المرق ١/ ٢١٨، والبيدري، الرحلة المغربية، ص ٨٦، ١٥٣-١٥٦، ومواضع أخرى متفرقة، وانظر، رحلة التجاني، ص ٢٧، ٦٦-٦٨، ومواضع أخرى متفرقة من لرحله، ورحلة ابن بطوطة ١/ ٢١٦، ٣٠٢، ٢، ٩٩، ١٠١، ١٤١، ٢٣٣

(٣) رحلة ابن بطوطة ١/ ٣١٥، وانظر، المصدر نفسه ١/ ٢٣٥، ٢٩٩، وابن سعيد العربي المغرب، القسم الخاص بمصر ١/ ٥



وأشار بعض الرُحالة إلى استخدام الجمال وسيلة للنقل في الصحراء، وخاصة بين قوصر وعيذاب سواء لنقل البضائع الصادرة أو الواردة، أو نقل المسافرين من التجار والحجاج وغيرهم، وذلك لصيرها على الظمأ في الصحراء القاحلة، ويكون النقل على نوعين المسافرون ذور التزيب الشقادي، وهي أشباه الحامل، وأحسن أنواعها اليمانية لأنها كالأشاكير^(١) السفرية مجلدة مشعة، يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة وتوضع على البعير ولها أدرع قد حُفَّت بأركانها يكون عليها مظلّه، فيكون الراكب فيها مع عديله في كن من لعج الصخرة ويقعد مستريحاً في وطائه ومتكئاً ويتناول مع عديله ما يحتاج إليه من زاد وسواء يطلع متى شاء المطالعة في مصحف أو كتاب ومن شاء، فمن يستجيز اللعب بالشطرنج، أن يلعب عديله تفكّها وإحماءً للنفس. وبالحمله فإنها مريحة من نصب السفر، وأكثر المسافرين يركبون الإبل على أحملها، فيكبدون من مشقة سموم الحرّ غمّاً ومشقة^(٢)

واستخدمت العربيات والعجلات في السفر والتقس لا سبب في الأراضي الصحروية، وقد استخدم ابن بطوطة العجلة في سفره^(٣)، وكانت تجرّها الخيول والجمال، والكلاب الكبار لا سيما في بعض البلاد التي يكثر فيها الثلج والجليد، فالكلاب لها أظفار تساعد في تثبيت أقدامها في الجليد^(٤) ومن الرسائل الأخرى التي عرفت في الهند، الدولة التي يحملها العبد على رقابهم، ويبدو أنها شبه السرير^(٥)

وحين أحدثت رقعة الدولة الإسلامية تشعب، احتاجت العواصم إلى معرفة أحوال الأقاليم التابعة لها، لذا عيّنت الدول بنظام البريد، ووصف ابن بطوطة بريد الهد ومن قوله

(١) شيء كالأديم الأبيض، توثق به السروج، انظر، رحلة ابن جبير، ص ٤٢، حاشية رقم ٣٣، ولم أجد لها أصلاً في لسان العرب

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٤٢، وانظر، ابن الخطيب، حاضرة انطط، ص ٤٠

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة ١/ ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٢٧

(٤) انظر، المصدر نفسه ١/ ٣٠٨

(٥) انظر، المصدر نفسه ٢/ ٨٥، ١١٣



والبريد ببلاد الهند صثمان، فأما بريد الخيل فيسمونه لولاك، وهو حيل تكون للسلطان في كل مسافة أربعة أميال، وأما بريد الرجالة، فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب، ويسمونها الداوة ولذاوة هي ثلث ميل، والميل عندهم يسمى الكروة. وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة، ويكون بخارجها ثلاث قباب، يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة قد شدوا أوساطهم، وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها حلالج نحاس، فإذا خرج البريد من أمدينه أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الحلالج باليد الأخرى، ومخرج يشتد بمتهى جهده، فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الحلالج تأهبوا له، فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده^١

وقد بقيت بعض كتب الرحلات صوراً لاهتمام الحكام والمسلمين بطرق المواصلات والحفاظ على أمنهم وحماية التجار وبضائعهم، فوضعوا نقاط التفتيش والحراسة، حيث كانت التجارة تتعرض للصوص وقطاع الطرق الذين كانوا يأخذون أموال المسافرين ويتركوبهم ولا يقاتلون إلا من قاتلهم وكانت بعض القبائل العربية تحافظ على أمن وسلامة المسافرين فلا سبيل لسفركهم إلا وهذه القبائل في صحبتهم، وقد سارت هذه القبائل مع ابن بطوطة ورفاقه عندما خرجوا من التجف إلى البصرة^٢

إن توفر وسائل الأمن والسلامة للمسافرين والحجاج والتجار وبضائعهم، وتأمنهم بوسائل النقل المحتلة، دليل على ما أنعمت به تلك البلاد في تلك العصور من مظاهر الحضارة، وقوة السلطة المركزية فيها، الأمر الذي دفع الكثيرين لزيارة معظم أبلدان وانتقال من بلد لآخر

رابعاً: النشاط العمراني

إن إنشاء المدن ومراكز العمرانية الإسلامية في المشرق والمغرب، أمر رافق حركة الفتوحات الإسلامية، لتكون تلك المراكز العمرانية مراكز إشعاع حضاري، فالبنا من

(١) المصدر ص ٨/٩

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة ١٠/٥٣، ١١٧، ٢٤٧



مستلزمات المدينة والتحضّر يقول ابن خلدون. و الحصار تصبوت شقاوت العمران، فمتى كان العمران أكثر كانت الحصار أكمل^(١)

وقد تصمّمت الرّحلات معلومات وفيرة عن الآثار المعماريّة، ومرافقها من مظاهر حضاريّة، ممّا لا يوجد إلا نادراً في كتب التاريخ، وبذلك تشكّل الرّحلات مصدراً هاماً يعكس صورة النشاط العمراني في مختلف البلدان، ويقدم صورة لبعض الآثار المعماريّة التي اندثرت ولا يعرف عنها شيء كالزوايا^(٢)

وتتلاقى صور امّن المعماريّ لمختلف الأماكن التي وصفها الرّحالة، ضمن الأطر العامة في وصف المدن ومظاهر العمران المختلفة والتّجديدات العمرانيّة، حيث وصف الرّحالة بعض الأماكن مهين، أمّ بعضها الآخر وإنّ حضورها كن عجلاً، وأشار إليها الرّحالة إشارات سريعة، غير أنّ هذه الإشارات قد أثّرت إعجاب الرّحالة منقطع النظر بتلك الأماكن وعبروا أيضاً عن إدراكهم لقيم الجمال في الفنّ المعماريّ في تلك العصور من خلال توصيفهم الجغرافيّ لتلك الأماكن.

وقد حفظت كتب الرّحلات كثيراً من النصوص الدّالة على جوانب الإبداع العمرانيّ في العمارة المدنيّة المدن ومرافقها المختلفة كالمساجد والزّوايا والمدارس ولقنادق^(٣)، والبيمارستانات، والحمامات، وغيرها والعمارة الحربيّة، كالحصون ولقلاع ولأسوار^(٤) وما رقق ذلك من مظاهر حصارية، كالبواعير^(٥) والساعات، والخوفا ولتصوير والتّقوش

(١) ابن خلدون، المقدمة ٦٦٢/١

(٢) انظر، رحة ابن جبير ص ٨٢، ٨٥، ٢١٢، والتجبي، معاد الرحلة، ص ٢١٥، ٤٥٦، وابن رشيد من العية ١٤٤/٥، ٢٣١، ورحلة ابن بطوطة ١/٤٠، ٦٧ ومواضع أخرى متفرقة من الرحلة

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة ١/٥٢

(٤) انظر، الإدريسي، برهة الشّفاق، ص ١٠٣، ١٢٨، ورحلة ابن جبير، ص ٤٥، ١٢٢، ١٦٦، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦، والعديري، الرحلة لمعركة، ص ٢٢٨، ٢٢٢، ٢٣٥، والتجبي معاد الرحلة، ص ٢٠٤، والبرقي، تاج الفرق ١/٢٩٠، ورحلة التجاني، ص ٣٠٨-٣٠٩، ٣١٨-٣١٩، ورحلة ابن بطوطة ١/٧٢، ٧٣، ١١٩، ٢٠٩، ومواضع أخرى متفرقة من الرحلة

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢/١٥٣، وس لحاج السّيري، بيض العباب، ص ٢٠-٢٦

ويستشعّ حسن البناء وإتقانه وروعة العمران من وصف الرّخالة للمدن وأبلاطان التي تزلوا فيها، ومنها مدينة الإسكندرية وأثارها التي أثارت دهشة وإعجاب الرّخالة القلصادي، حيث يقول. والمدينة من أحسن البلاد ترتيباً وبناء، وجدرانها بالحجر الأبيض المنجور وسككها كلّها على نسق نافذة متسعة، يعلم من ذلك أنها من تخطيط حكيم، ومن عجائنها التي فيها السّارية خارج باب السّدر، اكتملت في أحد جوانب القاعدة التي هي عليها عشرين شبراً، وهي مربع متساوي الأضلاع ^(١) أمّا سائرتها، فهي من المعلم الحصينة في لسان العمراني، ومن عجائب اندلس منة بالصخر المحوت مرتعة الأسفل، وفوق أسارة المرتعة منارة مثمنة متينة بالأجر، وفوق المنارة المثمنة منارة مدوّرة وكانت كلّها مبنية بالصخر المحوت ^(٢) وأما داخلها فعجيب، أشاع معارج، ومداخل وكثرة مساكن، حتى إنّ المتصرّف فيها والولج في مسالكها ربما ضلّ. ^(٣)

ووصف البلوي المدينة لمورة بأنها منسقة الأرجاء مشرقة الأحياء طيبة الهواء كثيرة الحيل والماء مهيّنة لتخطيط والاستواء، حسنة الترتيب والبناء. ^(٤) ويعلم من ذكره الرّخالة الأندلسيون والمغاربة من العمران بمختلف أنواعه وأشكاله التي تميّزت في البناء المحكم للأبواب والعيون وأماكن البؤس بدل على أنّ المدينة المنورة كانت مردهرة البناء ^(٥)، وقد أشار بعض الرّخالة للآثار المعمارية القديمة التي خربت ثم عمل على تجديد بعضها فأصبحت من المدن الكبيرة المردهرة، ومنها مدينة حلة ^(٦)

(١) رحلة القلصادي، ص ١٢٨

(٢) أبو حامد العرناط، رحلة لجة الأبواب، ص ٧٠-٧١

(٣) رحلة ابن جبير، ص ١٤-١٥

(٤) البلوي، تاج المشرق ١/ ٢٩٠

(٥) انظر، البغدادي، الرحلة المربية، ص ٢٠١، والبلوي، تاج المشرق ١/ ٢٤١، ورحلة ابن بطوطة

١١٩، ١١١

(٦) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٥٣-٥٤، ولنجيني، مستند الرحلة، ص ٢١٨-٢٢٠، ورحلة ابن

بطوطة ١، ١٥٥، وانظر، الأنصاري، حد القدس (١٩٨) موسوعة تاريخ مدينة جدة، ط ٢،

جدة، ص ٥٨-٧٣



ومن مدينة تونس، قال العبدري: وهذه المدينة كالأها الله من المدن العجيبة الغريبة، وهي في غاية الاتساع ونهاية الإتقان والرخام بها كثير، وأكثر أبواب ديارها معمول به عصائد وعتباً وجلّ مبانيها من حجر منحوت بحكم العمل وله أبواب عديدة وعند كل باب منها ريش متسع على قدر البلد المستقل^(١).

وقدّم بعض الرّحالة للدارسين والباحثين صورة عن أسلوب العمارة في سائر القصور، فابن الحاج وصف القصور في العصر المريني، شكلها ولأسوار التي تحيط بها، وأحجارها التي لا نستحب لفضائل المجانيق، وذكر الأبراج التي انتصت على أبواب تلك القصور^(٢).

وقد أولى الرّحالة الأماكن المقدّسة اهتماماً كبيراً، حيث تناولوا حديثهم عنها بالاستهلال بذكر فضائل تلك الأماكن المقدّسة، ثم وجّوا إلى التّوصيف الجغرافي ومن هذه المعالم الديانة المقدّسة، مكة المكرمة، وبيت المقدس، وبعض المساجد والمزارات ولزوايا في مختلف البلدان التي قصدوا الرّحالة^(٣) وأحدث بعض هذه الأماكن حيراً كبيراً من الوصف، مثل المسجد الحرام، وذلك لما له من مكانة في نفوس المسلمين، فقد وصفه ابن جبير مسهباً، ومما قال فيه: أبيت المكرم له أربعة أركان وهو قريب من التّربيع وارتفاعه في الهواء من الصّبح لذي يقبل باب انصاف، وهو من الحجر الأسود إلى الركن اليماني، تسع وعشرون درعاً وسائر الجوانب ثمان وعشرون. وداخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجرّع، وحيطانه رخام كلّها مجرّع قد قام على ثلاثة أعمدة من السّاج مفرطة الطول، وبين كلّ عمود وعمود أربع خطّ ودائر البيت كلّ من نصفه الأعلى مطليّ بالعصّة المذهبة المستحسنة، يخيّل للناظر إليها أنها صميحة ذهب لغلظها.

(١) العبدري، الرحلة المغربية، ص ٤٠

(٢) انظر، ابن الحاج النميري، فض العباب، ص ٢١٧-٢١٨.

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٦٨، ١٧٣، ٢١٥، ٢٢١، ٢٢٥، ومواطن أخرى متفرقة من الرحلة، وللعبدري، الرحلة المغربية، ص ١٤٩-١٥٣، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣٢، ومواطن أخرى متفرقة من الرحلة، ورحلة ابن بطوطة ١، ٧٠، ٨٢، ٨٦، ٩، ١، ومواطن أخرى متفرقة من الرحلة



وسقف البيت مجلّل بكساء منحرير الملون^(١) وذكر الرحّالة أثناء وصفهم أسوار مكة المكرمة وأبوابها المتعدّدة

أما مدينة لقلنس، فهي مدينة كبيرة مبيعة من صحر منحوت على نشز، والمسجد الأقصى متسع جداً طويلاً وعرضاً، ونقل العدري عن البكري، أن طوله سبع مائة واثنا وخمسون ذراعاً، وعرضه أربع مائة وخمسين وثلاثون، وله أبواب كثيرة في حدوده الشماليّة ولعربيّة والشرقيّة، والمسجد كله قصاء غير مسقف، إلاّ الناحية الغربيّة فهناك مسجد مسقف في نهاية الإحكام ونقان لعمل وفيه تزويج كثير ونذهب رافع ملبح^(٢).

وذكر العدري أن قبة الصخرة المشرفة من أعجب المباني الموضوعة في الأرض وأتقنها، وصفتها أنها قبة مثمنة على شز في وسط المسجد ويطمح إليها في درج من رخام، وقد أحاط بها، ولها أربعة أبواب والدائر مفروش بالرخام المحكم الصنعة^(٣).

وفد أشار بعض الرحّالة إلى بعض التجديدات والإصلاحات العمرانيّة لبعض الأماكن المقدّسة والمعالم الدينيّة والمدنيّة، ممّا يدلّ على العناية التاريخيّة بها ومدى اهتمام الحكام والأمراء، الأمر الذي يؤكّد الرّؤية الخاصّة تجاه هذه المعالم المباركة من قداسة وتبجيل، ومن التجديدات لوارد ذكرها في كتب رحلات مجدّد متدنة المسجد الجامع في قرطبة وريدة القباب التي تقوم على هياكل عقود بارزة مشبّكة في أشكال هندسيّة رائعة^(٤) ومنها أيضاً السور الذي أحاط بمكة المكرمة، ويرى العدري أنّه عبارة عن

(١) رحلة ابن جبر، ص ٥٩-٨٦، وانظر: العدري الرحلة العربيّة، ص ١٧٤-١٨٠، والتجزي، مستعد الرحلة، ص ٢٢٣-٢٤٨، والمروي، تاج لفرق ١/ ٢٨٣-٣١٧، ورحلة ابن بطوطة ١/ ١٢٤-١٣٠.

(٢) البكري، الرحلة لمريّة، ص ٢٢٩، وتلوي، تاج الفرق ١/ ٢٤٧-٢٥١، ورحلة ابن بطوطة ١/ ٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٠.

(٤) انظر: البكري، جغريّة الأندلس، ص ١٠١-١٠٤، ولإدرسي، نعمة المشتاق، ص ١١، والمقري، فتح الطيب ١/ ٥٤٥-٥٦٣، وسالم، السيد عبد العزيز، (١٩٨٦) المساجد والقصور بالأندلس، الإسكندرية مؤسسة شباب الجامعة، ص ٣٤-٣٨، وانظر، موريو، مارييل حوميث، (١٩٠٠) الفن الإسلامي، ترجمة لطفي عبد البديع، القاهرة الدار لمصريّة، ص ١٦.



حائطين من الصخور لا ملاط لها قطعاً الودي عرصاً في أعلى مكة وأصلها^(١) وكذلك تحديد القبة العظيمة أمام محراب المسجد لأقصى وقد أمر بتجديد هذا المحراب المقدس، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس عبد الله ووليه يوسف بن أيوب المطهر الملك الناصر صلاح الدين والدينا عديم فتحة الله على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهو يسأل الله إيزه شكر هذه النعمة، وإجراء حفظه من المعفرة ولرحمة^(٢) ويعلق على ذلك كامل العسلي بقوله: وهذا النقش مسجل تسجيلاً دقيقاً. وقد اختفى النقش بعد الحريق لمنعم الذي شب في المسجد الأقصى سنة ١٩٦٩^(٣)

وسجل الرحالة ما وجدوه من نقوش على شواهد القصور، ومن ذلك ما سجله العبدوي من نقش وجد على قبر الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه كتب فيه توفي الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه في ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة ومولده في ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين^(٤). ومنها أيضاً نقش قبر فاطمة بنت أسد ونصه ما ضم قبر أحد كهاتمة بنت أسد^(٥) وكانت بعض النقوش تزج لأحداث نواجه قرائل الحجيج، وهذه النقوش تكتب على بعض الصخور في الطرق. ومنها ما كتب على بعض الصخور في طرق الحجاز، كتب فيها سبب هلاك قفنة من الحجيج بسبب ربح السموم^(٦)

(١) انظر، العبدوي، الرحلة المغربية، ص ١٧٣

(٢) اللوي، تاج المشرق ١/ ٢٤٧-٢٤٨، ٢٨٨

(٣) العسلي، ست المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، ص ٧٥

(٤) العبدوي، الرحلة المغربية، ص ٢٠٤

(٥) رحلة ابن جبير، ص ١٧٤، وابن رشيد، ملء المينة ١٩/٥، وانظر أيضاً، رحمة ابن طرحة ٩٥/١

(٦) انظر، رحلة ابن بطوطة ١/ ١٠٤-١٠٥، وقد سجل الرحالة الأندلسيون والمغاربة عدداً ليس بالقليل من تلك الزخارف والنقوش، ومنها ما كان شواهد الصور أو ما كان لتسجيل حادثة ما، وانظر في ذلك أيضاً، رحلة ابن جبير، ص ٦٤، ٦٥، ٦٩، ٨٤، ٨٥، ١٤١، ١٧٣، ١٧٤، والتجبي، مستند الرحلة والاعترا ب ص ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٤٨، ٣٥٩، واللوي، تاج المشرق ١/ ٢٨٥-٢٨٧،



ومن المعالم الحضارية التي نقلتها بعض كتب الرحلات، البيوت المشغلة التي كانت تحملها العربات، حتى إذا نزل المسافرون مكاناً أنزلوا البيوت أيضاً، وذكر ابن بطوطة أنه يجعل على العربة شبه قبة من قصبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور حلد رفيق. وهي خضيفة اللحم، وتكسى باللبد أو بالملف، ويكون فيها حيطان مشبكة ويرى البدي بداخلها أساس ولا يرونه، ويتقلب فيها كما يحب، وينام ويأكل ويقرا ويكتب^(١)

وأشارت كتب الرحلات إلى بعض المؤسسات الاجتماعية التي عرفت في المدن الإسلامية، ومنها الحمامات العامة، وعدت كتب الرحلات مصدراً هاماً لحصل من خلاله على صورة جلية لتلك الحمامات في تلك العصور. وقد قال ابن جبير عن هذه الحمامات إنها مطلية بالفار مسطحة فيخيل للناظر أنه رخام أسود صفيق^(٢)

ولم تتوقف أهمية تلك الحمامات على أنها مؤسسة لنظافة الجسد فقط، بل إنها مراكز طيبة هامة في المدن الإسلامية، فكان إذا دخل المريض الحمام عد ذلك إيذاً شاماً^(٣)

أما المستشفيات، فقد حظي المرضى بقسط كبير من الاهتمام والرعاية في المدن الإسلامية في العصور الوسطى، وجاءت هذه الرعاية مصحوبة بإنشاء هذه المستشفيات لمعالجة المرضى، ومنها ليبارستان الدين شيدته نور الدين زنكي في دمشق، واعتبره ابن جبير مفخر عظيم من مفاخر الإسلام^(٤)، وله فومة بأيسيهم الأزمة المحبوبة على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأعذية وغير ذلك، والأطباء يكرّون إليه في كل يوم ويتمقدون المرضى ويسامرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية ولأعذية حسبما يليق بكل إنسان منهم^(٥).

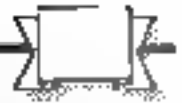
(١) رحلة ابن بطوطة، ٢٩٦/١

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٠٤-٢٠٥، ورحلة التجاني، ص ٢٣٧-٢٣٨، ورحلة ابن بطوطة ١، ١٩٩-٢٠٠.

(٣) انظر، رحلة التجاني، ص ١٠

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٥٦

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٥، ورحلة ابن بطوطة ١، ٤٠.



وقد حصصت الأقسام في ابيمارستانات تبعاً لجنس المرض، ومنها أقسام للمصابين بأمراض عقلية، وللمجانين المعتقلين أيضاً صرب من العلاج، وهم في سلاسل مرتقون.^(١)

ومن المعالم الحضارية الأخرى التي تمثل ارتباط الصناعة بالعمارة، الساعات العجيبة التي لعت أنصار الرخالة، فقد وصف ابن جبير ساعة دقاقة في دمشق، وهي غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طبقان صفر قد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ودرت تدبيراً هندسياً، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صحتان من صفر من نبي ناريتين مصوريين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب والثاني تحت آخرها، والطاستان مثقوبتان، فعند وقوع البدقين فيهما تعودان داخل الحدار إلى لعره، وتبصر لباريين بمدار أعناقهما بالبدقين إلى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيل الأوهام سحراً، وعند وقوع البدقين في الطاستين يسمع لها دوي، ويغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تغلق الأبواب كلها وتقضي الساعات...^(٢)

أما القصور والتصور والرخارف، فقد تحدثت الرخالة عن التصوير على الصخر وتزيين القصور والمساجد بالرخارف والمسيح^(٣)، وقد حذر أهل الصين في لتصوير

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢٥٥-٢٥٦، وانظر المصدر نفسه، ص ٢٦، والتجني، مسعاد الرحلة، ص ٤-٥، ورحلة ابن بطوطة ٢١٠/١، وقد تحدث بعض الرخالة عن استخدام الأعشاب والأتات وغيرها في الطب والعلاج، انظر، الإدريسي، برهة المشان، ص ٩٠، ١٣١، ورحلة ابن بطوطة ٣٤٩/١، ١٧٥/٢.

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٤٣-٢٤٤، وانظر، إشارات أخرى لكل هذه الساعة، من الحاج السعدي، فض العباب، ص ٨٧.

(٣) انظر، الإدريسي، نزهة المشتاق، طبعة ليدن، ص ٢١٩، ورحلة ابن جبير، ص ١٧٢، ٢١٠، ولعناط، تحفة الألب، ص ٦٣-٦٤، ورحلة ابن بطوطة ٨٢/١، ٥٠/٢.



حيث لا يجاريهم فيه أحد، وقال ابن بطوطة في ذلك ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك، آتي ما دخلت قط مدينة من مدنها ثم عدت إليها، إلا ورأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في الخيطان والكواغد، موصوعة في الأسواق^(١).

وأشار ابن بطوطة إلى ما يشه مسرح الفرجة أو الأضحوة، حيث دخل الشعراء على مسطبان مالي وكل واحد منهم في جوف صرة مصنوعة من لريش تشبه الشقشاق، وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كآه رأس الشقشاق ويقفون بين يدي السلطان تشك اهنة المضحكة، فيشدون أشعارهم^(٢).

على هذا النحو، أخذت أعين الرّحالة ترصد وتسجل كل ما يروونه في فنّ العمارة الإسلامية، ما كانت عليه وما عرأ عليها من تغيرات أو زوال، أو تجديدات أو إصلاحات، وكانت هذه لأوصاف على جانب كبير من الأهمية في علم الآثار ولفنون.

ب- السياق الاجتماعي والديني

ركّزت الرّحلات على العلاقة بين المكان والإنسان، برسمت صرراً للحياة الاجتماعية، والتأثير الديني الذي كان عنصراً مشتركاً بين الرّحالة بصفة عامة، وألقت الرّحلات أبصاً الضوء على كل ما لفت نباه الرّحالة من أحول المعيشة، وما بلعته الحياة من وفي في أوساط فئة الحكام والأمراء، والأغنياء من التجار وكبار الموظفين. وصورت الرّحلات المحطات الهامة في حياة الإنسان المبلاد والرواح والموت، وكل ما يرتبط بهذه المناسبات من مظاهر اجتماعية واحتفالات بالنسبات السعيدة أو الحزينة، وما يرافقها من العادات وانتقاليد والبدع والمعتقدات التي قد تختلف من بلد إلى آخر بنسب متفاوتة فيها. وإن كانت متشابهة في مختلف البلدان، غير أن لكل بلد خصوصيتها

(١) رحلة ابن بطوطة ٢/ ٢٢٤

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٢٨٠



وكان ما قدمه الرّحالة أشبه ما يكون بمريح بين الرّحّة والأثوجرايا التي تسعى إلى تقديم توصيف موضوعي للشعوب وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها وطريقه بأسها وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية، فقد اتجه الرّحالة إلى استخلاص أسلوب حياة في البلدان التي قصدوها من خلال استقراء وتحليل القيم والأفكار والجوانب المادية أو الروحية التي تشكل بدورها الأسلوب الحياتي للناس ومعالمهم التراثية، ويتخذ هذا التراث طابعاً شعبياً يمثل لغة مشتركة لدى الجميع، وبه ندرس المجتمعات بتواحيها الإنسانية والتاريخية والاجتماعية والدينية والفولكلورية والمعتقدات لشعبية لها، ونقصن الشيخ والأولياء والحكايات الأسطورية والخرافية وحكايات حيوان، فجاءت الرحلات مصدراً هاماً لوصف الثقافات الإنسانية.

أولاً: العادات والتقاليد والملابس

روى لرحالة كثيراً من عادات وتقاليد ولباس أهل البلاد التي نزلوا فيها، ومنها عدة أهل الشام في السلام، التي تجري كنيته بالانحاء على نحو ما يعمل في الركوع والسجود^(١)، وكذلك عادة دفع السودانية عمائمهم عن رؤوسهم عندما يتكلم السلطان^(٢) أما أهل مكة فيتحنّون بمكارم الأخلاق وحميد العادات، ومن عاداتهم في ليالي رمضان، تزيمهم الأسواق وضربهم الطبول وتهليلهم وتكبيرهم وطوافهم^(٣)

ويبرز المأثور الشعبي عند أهل ظفار من خلال عاداتهم الحسنة، ومنها التصافح في المسجد إثر صلاة الصبح ولعصر، ويستند أهل الصّف الأول إلى القنلة ويصافحهم الدين يلويهم وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصافحون أجمعين^(٤)، وكان في كل دار من دورهم سجادة الخوص معقاة في البيت يصلي عليها صاحب البيت، كما يفعل أهل

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٦٩

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢/ ٢٧٨

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٠٦-١١٠، ورحلة ابن بطوطة ١/ ١٤٦، ١٥١

(٤) رحلة ابن بطوطة ١/ ٢٣٥



وكان ما قدّمه الرّحّالة أشبه ما يكون بمريح بين الرّحّة والأثوجرايا التي تسعى إلى تقديم توصيف موضوعي للشعوب وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها وطريقه بأسها وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية، فقد اتجه الرّحّالة إلى استخلاص أسلوب حياة في البلدان التي قصدوها من خلال استقراء وتحليل القيم والأفكار والجوانب المادية أو الروحية التي تشكّل بدورها الأسلوب الحياتي للناس ومعالمهم التراثية، ويتخذ هذا التراث طابعاً شعبياً يمثل لغة مشتركة لدى الجميع، وبه ندرس المجتمعات بتواحيها الإنسانية والتاريخية والاجتماعية والدينية والفولكلورية والمعتقدات لشعبية لها، ونقصن الشيخ والأولياء والحكايات الأسطورية والخرافية وحكايات حيوان، فجاءت الرّحلات مصدراً هاماً لوصف الثقافات الإنسانية.

أولاً: العادات والتقاليد والملابس

روى الرّحّالة كثيراً من عادات وتقاليد ولباس أهل البلاد التي نزلوا فيها، ومنها عدة أهل الشام في السّلام، التي تجري كغيرها بالانحاء على نحو ما يعمل في الركوع والسجود^(١)، وكذلك عادة دفع السودانيين عمائمهم عن رؤوسهم عندما يتكلّم السلطان^(٢)، أمّا أهل مكة فيتحنّون بمكارم الأخلاق وحميد العادات، ومن عاداتهم في ليالي رمضان، تزيمهم الأسواق وضربهم الطبول وتهليلهم وتكبيرهم وطوافهم^(٣)

ويبرز المأثور الشعبي عند أهل ظفار من خلال عاداتهم الحسنة، ومنها التصافح في المسجد إثر صلاة الصّبح ولعصر، ويستند أهل الصّف الأول إلى القنلة ويصافحهم الدين يلوهم وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصافحون أجمعين^(٤)، وكان في كلّ دار من دورهم سجادة الخوص معقّة في البيت يصلي عليها صاحب البيت، كما يفعل أهل

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٦٩

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢/ ٢٧٨

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٠٦-١١٠، ورحلة ابن بطوطة ١/ ١٤٦، ١٥١

(٤) رحلة ابن بطوطة ١/ ٢٣٥



المغرب^(١)، ومما له صلة بالمعتقد الشعبي أيضاً لدى أهل هذه المدينة أنه لا يقصدها أحد بسوء إلا عاد عليه مكروه وحيل يبه وبيتها^(٢)

ومن العادات الدينية المرتبطة بالمعتقد الشعبي، ما نقل عن أهل قرية خارج مدينة صور - في بلاد الشام - أن بعض أهلها أراد الوضوء فبدأ بغسل رجله ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق، ثم مسح بعض رأسه فانقذ ابن بطوطة فعله فقال له الرجل إنَّ الشاء إنما يكون ابتداءً من الأساس^(٣)

وأشارت كتب الرحلات إلى بعض العادات الدالة على تدين بعض الشعوب، ومنها، أنهم لا يعترضون القوافل في رمضان، وإذا طلب إنسان غريباً به فنجاً إلى المسجد أو إلى الخطيب، لم يظلمه احتراماً للمسجد وشيخه، حتى السلطان نفسه يترك حريمه إذا لجأ إلى مسجد أو خطيب^(٤)، ولا يتعرضون لمال الغرباء أو مال الميت حتى يأخذ مستحقه شرعاً^(٥)

ومن العادات الدائمة التي لاحظ بعض الرحالة انتشارها، وتناقضها مع طبيعة الذين وتعاليمهم في المجتمعات الإسلامية، تعاطي الخشيش، وشرب الخمر^(٦)، ويبدو أن العادة الاجتماعية المحلية أقوى تأثيراً من الأثر الديني، ففي بعض البلدان يرى أهلها أن الجسد المتعري من الأمور التي لا تتعارض مع ممارسة الشعائر الإسلامية، وكذلك العلاقات القائمة على الاحتلاط والمداينات بين الرجل والمرأة دون أن يرى في ذلك عيباً أو

(١) المصدر نفسه ٢٣٥/١

(٢) المصدر نفسه ٢٣٥/١

(٣) المصدر نفسه ٦٤/١

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة، ٢/ ٢٨١

(٥) انظر، المصدر نفسه ٢/ ٢٧١، ٢٨٢

(٦) المصدر نفسه ١/ ٢٤٦، ٢٨٨، والقزويني نقلاً عن ابن سبيد، مع الخطيب ٢/ ٢٠٩، ٣٤٩، وابن

الخطيب، نقاضة الخراب، ص ٢١، ١٨٣



شدوداً أو خروجاً على العادات والتقاليد، وأن السوسة السافرات يخالطن الرجال وينعردن بهم وفي الوقت ذاته يحرصن على أداء اصطوانات كاملة^(١)

وفي مالي اعتبر جسد المرأة مصدراً للغذاء وإشباعاً للطن، ويعود هذا إلى عادات متوارثة قديمة، يقول ابن بطوطة: قُدمت على السلطان منسي سليمان، جماعة من هؤلاء السردان الذي يأكلون بني آدم، معهم أمير لهم فأكرمهم السلطان وأعطاهم في الضيافة خادمة فذبحوها وأكلوها، ولطخوا وحوشهم وأيديهم بدمها وأتوا السلطان شاكرين، وأخبرت أن عاداتهم متى ما وفدوا عليه، أن يفعلوا ذلك، وذكر لي عنهم أنهم يقولون: إن أطيب ما في لحوم الأدميات الكف والثدي^(٢)

وقد يبدي الرخالة سحقهم على بعض صفات أهل المناطق التي قصدوها، ويعتونها دعوتاً فيها مبالغة ونحاس، وربما يعود ذلك إلى طبيعة وتكوين شخصية الرخالة الحادة أو قد تثيرهم بعض لمادات والأخلاق البعيدة عن الدين في بعض المجتمعات الإسلامية، فيبالغون في تبذرها وإتكراها، ومن ذلك تعليق بن جبير على صفات أهل بغداد: فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء، وبذهب بعينه عجباً وكبرياء، يرددون الغريب، ويظهرون لمن دونهم الألفة والإباء ويستصغرون عن سواهم الأحاديث ولأبواء، قد تصور كل منهم في معتقده وخلده أن الوحود كله بصغر بالإضافه لبلده. كأنهم لا يحتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم^(٣)

وصورت كتب الرحلات معاً من أيدع أدبية والمعتقدات الخاطئة^(٤) التي شاعت بين الناس في تلك العصور، ومنها وجود هبة في بلز يسعى الناس لصعودها بالإصانة إلى

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة، ٢/ ٢٧١- ٢٧٢

(٢) رحلة ابن بطوطة ٢/ ٢٨٤، وانظر عن العادات المختلفة، المصدر نفسه ١/ ٢٦١- ٢٦٢، ٢/ ١٧٥- ١٧٩، ٢٧١

(٣) رحلة ابن جبير، ص ١٩٤، وانظر مثل ذلك، وصف العبدري لأهل القاهرة، الرحلة المغربية، ص ١٢٧

(٤) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٧٢، وابن رشيد، مله العيبة ٥/ ١٣١، ٢٦٤، والتجبي، مستعاد الرحلة، ص ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٨٩، ٣٥٣، ٣٥٦



دحو لهم لمكان يزعمون أنه النار الذي أوى إليه الرسول صلى الله عليه وسلم، وصاحبه عند هجرتهم إلى المدينة المنورة، وأشار العبدري إلى عدم صحة ذلك لوجود العار في جبل ثور على مقربة من مكة^(١)، وتعلق عواطف نواب على ذلك، فتقول وهذا يدل على انقطاع المعرفة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت من قبل العامة^(٢).

ومن اندح الدينية أيضاً، تعدد الأئمة بالحرم المكي المكرم، حيث لكل مذهب من الأربعة إمام ومؤذن، وموقف خاص لمصلي أهل مذهبه^(٣) ومن المعتقدات الخاطئة أيضاً أن الصحراء تسكنها الشياطين، وأن الشياطين يستخرجون الدليل الذي يسير بمفرده حتى يضل طريقه ويهلك في الصحراء^(٤) كما شاعت بعض السبع التي امتزجت حتى الوقت الحاضر، مثل زيادة ماء رمزم ليلة النصف من شعبان^(٥) وعدم وقوع الحمام على الكعبة المشرفة^(٦)، وتمشت عادة التبرك بقبور الأولياء والصالحين وصحابه^(٧) رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن هنا، فإن المعتقدات ذات المدلول الأسطوري واسديني الخارق، تحتل فيها الحدود الدينية بالخيال البشري وتصوراتها، وترتبط بعض المعتقدات بالأساطير أو بالوقائع التي هي أشبه بالخيال، والتي لا يستطيع المطلق العملي تصديقها، ويلجأ البعض إلى القول

(١) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص ١٦٤، ١٨٦.

(٢) نواب، عواطف محمد يوسف، (١٩٩٦) الرحلات المغربية ولأندلسية، الرياض مكتبة الملك فهد الوطنية، ص ٢٢١.

(٣) انظر، التجيبي، مستعد الرحلة، ص ٢٩٥، ٢٩٧.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢ ٢٧٠ وانظر من الخرافات والأساطير والمعتقدات الخاطئة رحلة أبي حامد لغرناطي، تحفة لأنياب، حيث تكرر فيها مثل هذه الأمثلة.

(٥) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١١٨-١١٩، والعبدري، الرحلة المغربية، ص ١٢٥-١٢٦، والتجبي، مستعد الرحلة، ص ٢١٦-٢٢٠، ورحلة ابن بطوطة: ١-١٤٩.

(٦) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٧٥ ٧٦، ورحلة ابن بطوطة ١/ ١٢٦.

(٧) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢١-٢٢ والعبدري، الرحلة المغربية، ص ٢٠٣-٢٠٥، والتجبي، مستعد الرحلة، ص ٢٨٩، والسوي تاج المرق ١/ ٢٢٢ ٢٢٥، ورحلة ابن بطوطة ١، ١٣٠.



إن هذه الظواهر لا يفترها سوى الدين أو بعض انشغالات الفلسفة الصوفية، ونتيجة لمس نتائجها من قبل الناس أصبحت من المعتقدات الهامة التي تسيطر على العقيدة الشعبية أكثر من غيرها من المعتقدات الأخرى، ولعل مرجع هذه المعتقدات أو مصادرها تعود إلى بعض الحكايات النادرة والحوادث التي دونتها شعوب المناطق^(١).

أما الملابس، فقد جعلت بعض كتب الرحلات بالكثير من الإشارات إليها، وأخذ الرحالة يصفونها وهو يتنقلون من مكان إلى آخر، وكان لكل منطقة أو جماعة رتبا الخاصة بها، وربما دل نوع تلك الألسة واختلافها ونقاوتها بين الحكام والطبقات الغنية، وطبقة عامة الشعب على الحالة الاقتصادية والوضع الاجتماعي في تلك العصور. وقد كانت العنقاقات الحاكمة والغنية تتفاخر بمظاهر اللباس، وتبالغ فيها، لا سيما في المناسبات ولأعياد ومراسم لتشريفات الرسمية^(٢) وكان لبس بعض علماء مصر مثلاً عباءة صوف خشنة، وعمامة صوف سوداء^(٣)، ولباس القاضي الخطيب في مكة ثياب سوداء^(٤)، في حين ساد اللون الأبيض ثياب أهل مكة^(٥)، أما لباس أهل ظفار فهو القطن، يشدّون القوط في أوساطهم عوص السروال وأكثرهم يشدّ قوطة في وسطه، وتجعل فرق ظهره أخرى من قطة الحرّ ويعتسلون مرات في اليوم^(٦) ووصف التجيبي قوماً من اليمن ليس عليهم من اللباس إلا ما يوري سواتهم خاصة^(٧)

(١) الباش، حسن، واسهلي، محمد توفيق، (١٩٨٠) المعتقدات الشعبية في التراث العربي، دمشق: دار الجليل، ص ١٥٧

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة ١ ٣٠٤، ٣٤١ ٦٢/٢، ومواطن أخرى متفرقة من الرحلة، واس الحاج النميري، فيض العباب، ص ٢٨٥، ٢٨٨، وابن الخطيب، خطرة الطباق، ص ٥٣

(٣) رحلة ابن بطوطة، ٤٦/١.

(٤) انظر، رحلة ابن جبر، ص ١٣٥

(٥) انظر، المصدر نفسه، ص ٧٤ ٧٥

(٦) رحلة ابن بطوطة ٢٣٥/١

(٧) لتجيبي، مسعود رحمة، ص ٢٦٧، وانظر رحلة ابن جبر، ص ١١٢ والسدي، الرحلة المغربية، ص ١٨٥



ويذكر العبدري أن كل امرأة من نساء الأعراب في أرض برقة يبلاد طرابلس لا يذ لها من خرقه تسد لها على وجهها، ويسمونها البرقع، وهي تتحلل لباس مكشوفة الرأس والأطراف، حافية القدمين لا تهتم بستر ما سوى وجهها، كأن ليس لها عورة سواء، فلا تزال تلك الخرقه عرضة للالتساخ ومرصداً لعارض لأوساخ^(١)

وأظهرت بعض كتب الرحلات ارتباط الملابس ببعض المناسبات، فالحرن له لباس^(٢)، وللمظلومين ثياب يلبسونها حتى ترفع عنهم الظلّامة^(٣)، ولأيام المطر والبرد أثواب من الصوف يستعد الناس لبسها أثناء انتقالهم من بلد إلى آخر^(٤).

وقد صوّرت بعض كتب الرحلات حرص أهل بعض المدن على النظافة، نظافة البدن والثوب حتى إنه لو لم يكن لأحدهم إلا قميص حلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة^(٥)

كما ألفت بعض كتب الرحلات الضموم على بعض عادات أصحاب العرق الإسلامية المتعددة في المدن الإسلامية فيما يتعلق باللباس، ومن ذلك ليس أصحاب بعض تلك العرق أطواق الحديد^(٦) وكانت بعض قائل الصين تجعل في آذانها اقراطاً كماراً، وتكون فتحة القرط منها نصف شبر، وينلحتمون في ملاحف الحرير^(٧)

(١) العبدري، الرحلة المربية، ص ٨٦-٨٧

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة، ١/٢٨٨، ٢/٢٣٧

(٣) انظر، المصدر نفسه ٢/٤٠

(٤) انظر، المصدر نفسه ١/٢١٣، ٣٢٥

(٥) المصدر نفسه ٢/٢٨٢

(٦) انظر، المصدر نفسه ١/٣٥٧

(٧) انظر، المصدر نفسه ٢/٢٨٤



إن عين الرحّالة اللافتة لمثل هذا التنوع والاختلاف في اللباس في مختلف أبلدان التي تنقل فيها الرحّالة، قد فذمت ما يشكّن أهمية كبرى لعلماء الأثروبولوجيا^(١) والفولكلور الشعبي^(٢).

ثانياً: لأطعمة والأشربة

أظهرت بعض كتب الرحلات أن أسامى عامة في مختلف البلدان يتفقون في كثير من الأطعمة والأشربة والعادات المتبعة فيها، غير أن اختلاف الوضع الاقتصادي والمستوى الاجتماعي لبعض البلدان يظهر التفاوت أحياناً، فطعام الملوك والسلاطين يختلف عن العامة وقد كان طعام بعض السلاطين طعامين، طعام العامة وطعام الخاصة، ومجلس كل إنسان للطعام معين لا يتعداه ولا يراحم أحد منهم أحداً^(٣).

وسلطت بعض الرحلات الضوء على طعام بعض السلاطين في رمضان، حيث كان بعضهم يقطر على نريد في صفحة صغيرة عليه العدس مسقى بالسمن والسكر، ويقدمون النريد تبركاً بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم^(٤)، أما موائد بعضهم الآخر فقد كانت مليئة بالدجاج^(٥) وري ومرخ اللحم والخبز المعجون بالزبد والكماء والحلوى ومختلف أنواع الفواكه^(٦) في حين انصف بعض السلاطين بالحل، إذ لا يقدمون ما يستحق التقدير في الولائم^(٧).

(١) الأثروبولوجيا دراسات الشعوب، وأدواتها، وطرق مسكنها، وأنواع الألبسة إلخ انظر، سليم،

شاكر مصطفى (١٩٨١) قاموس الأثروبولوجيا، ط ١، جامعة الكويت، ص ٢٢٤، ٢٧٠، ٣١٤

(٢) انظر، بهيم، حين (١٩٨٧) اثر ث الشعبي في أدب الرحلات، مجلة «المأثورات الشعبية»، العدد

(٥)، السنة الثانية، ص ٧٤-٨٣، وانظر كتابه، أدب الرحلات، دراسة تحليلية من منظور

أنتوجرافي، ص ٤٩-٧٤، ١١٢-١٢٩

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة ١/٢٦٦، ٢/٦٥-٦٦

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة ١/٢٦٠

(١) انظر، المصدر نفسه ١/٣٣٤، وانظر أيضاً في تربيات موائد الطعام، المصدر نفسه: ١/٣١١، ٢/٢١

(٢) انظر، المصدر نفسه ٢/٢٧٥-٢٧٦، وانظر أيضاً عن البهل، رحلة التجاني، ص ٨٥-٨٧.



ووصف لسد الدين بن الخطيب، أنواع المأكّل والمشارب التي ملأت موائد أهل جبل هتانة^(١) احتفاء بهم، فقال ولم يكذب فيّ الفرار، ولا تنزع الخفاف، حتى غمر من الطعام البحر، وطما لمرج، ووقع البهت، وأسل الطحو، ما بين قصاع لشيزي أفعمها الثرد، وهل بها السمن، وفراكت عليها لسمان الحملان الأعجار، وأخوة تنوء بالعصاة أولى القوة، خاصة من الأية المألّذهب والمحكم، مهنّية كلّ مختلف الشكل، لديد الطعم، مهنّان فيه عرير التابل، محرم عنده سيده الأحامرة لثلاثه، إلى السمك الرصاص والذجاج فاضل أصناف الطيّار، ثم تلوها صحون نحاسية تشتعل على الطعام خاص من الطير والكناب واللقاق. ويتنو ذلك من أصناف الحلواء بين مستوطن للاب البر، ومالح بالقلو، وأطلق مذحر العاكهة. وقد قام لسماط من حدام وأساودة أحدهم الآداب وهتنتهم الدربة بحفت منهم الحركة^(٢)

ولعلّ من أشهر الموائد، تلك المائدة التي ذكرها ابن العربي، ومن قوله فيها شأدت المائدة بطور زينا^(٣) مراراً وأكلت عليها ليلاً وبهاراً، وذكرت الله سبحانه فيها مراراً وحهاراً، وكانت صحرة صلداء لا تؤثر فيها المعاول وكان الناس يقولون مسخت صحرة والذي عندي أنها صحرة في لأصل وقطعت من الأرض محلاً للمائدة لنزلة من السماء، وكلّ ما حولها حجارة مثلها وكان ما حولها عموداً تقصود، وقد عجب في ذلك الحجر الصلب بيوت أبوابها منها، ومجالسها منها مقطوعة فيها.^(٤)

وقد ألقت بعض كتب الرحلات لصوّء على بعض العادات المشبعة في الطعام، وفيها عدة أنّ المرأة في بعض البلدان لا تأكل مع زوجها، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة^(٥) ومن عادات سكان بعض المدن في رمضان تناولهم طعام الإفطار في دار السلطان^(٦)

(١) انظر الدراسة هنا ص ٤٥، الحاشية ١

(٢) ابن الخطيب، رحلة خطرة الطيف، ص ١١٧

(٣) طور زينا جبل مشرف على مسجد (مسجد القدس) وقيت بينهما وادي جهنم انظر، ياقوت

الحموي، معجم البلدان ٤/ ٤٨

(٤) المغربي، فتح الطيب ٣٧/ ٢

(٥) رحلة ابن بطوطة، ٢/ ١٧٨

(٦) انظر، المصدر نفسه ٢/ ٦٥- ٦٦



أما الأشرية، فيبدو أن اللين مادة غذائية هامة في معظم البلدان التي قصدها الرحالة، فقد اشتهرت مدينة دمياط في مصر بها، وألبانها لا مثل لها في عدوية الطعام وطيب المذاق^(١)، وفي السودان العربي طعامهم اللبن والعسل باندوحة الأولى وهو الصياغة الكبيرة عندهم^(٢) ومن جانب آخر، فقد أشارت بعض كتب الرحلات إلى انتشار القحط ولفقر والمجاعات والأوبئة في بعض البلدان، وفقدان الأرواح الكثيرة نتيجة ذلك^(٣).

ثالثاً: صورة المرأة

أظهرت كتب الرحلات صورة (المرأة المثقفة، الشاعرة) صاحبة العلم وراوية الأحاديث، ولخريصة على أداء العريضة وريادة المدينة المنورة^(٤) ويصف ابن جبير يوم طواف النساء بقوله: أمرت ليلى لتساء خاصة، فاجتمعن من كن أبوب ولم تنق امرأة بمكة إلا حصرت المسجد الحرام ذلك اليوم وأفرح الناس من عسى الطواف وعن الحجر ولم يبق حول البيت المبارك أحد من الرجال تبادر النساء إلى الصعود، وتسلسل النساء بعضهم ببعض وتشابكن حتى تواقعن، فمن صائحة ومعلمة ومكبرة ومهذلة،^(٥) وصردت الرحلات كذلك حرص المرأة في بعض المدن على أداء صلاة الجمعة في المساجد، وقد وصف ابن العربي نساء مدينة نابلس بقوله: رأيت أئمت فيها أشهر، فما رأيت امرأة في الطريق بهاراً، لا يوم الجمعة، فإنهن يخرجن حتى يمتلئ المسجد منهن،

(١) المصدر نفسه ٣٥/١

(٢) المصدر نفسه ٢٧١/٢

(٣) انظر، النجدي، مستعاد الرحلة، ص ٣٢٧، ورحلة ابن بطوطة ١، ٩٢، ١٢٨، ٢٣٥، ٢/ ٥٤، ٨٣، ١٤٩، ٢٥٠-٢٥١

(٤) انظر، هذه الدراسة، ص ٧١، وخاضه رقم ٢، من الصفحة نفسها، ورحلة ابن بطوطة ١/ ٣٥٠، و ليكر، خالد، الرحلة الأنطليبية إلى الجزيرة العربية، ص ٥٢، ٥٤

(٥) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١١٥-١١٦، ورحلة من، تعيه ٢١، ٥، ومستعاد الرحلة، ص ١٥٩، ١٨٤، ١٤٥، ٤٣٩، ٤٤٠



فإذا قضيت الصلاة وانقلبت إلى مزارع لم تقع عيني على واحدة منهن إلى الجمعة الأخرى^(١).

وكانت ساء بعض المدن يجتمع لسماع الوعظ كل يوم اثنين وحميس وجمعة في المساجد وربما يجتمع منهن الألف والألفان، بأيديهن المراوح يروحن على أنفسهن من شدة الحر^(٢)، هذا وقد رتطت مكانة المرأة في بعض المجتمعات الإسلامية بالعناية بتثقيفها ثقافة دبية راقية، حيث خصصت هن مراكز تعليمية نساءهن وتشرف على تعليمهن وتحبطن القرآن الكريم^(٣).

ولم تقف الرحلات عند هذا الحد، بل أعطت صورة جليلة لما تمتعت به المرأة في بعض المدن من تحرر من القيود ومن أبرز مظاهر هذا التحرر إبداء المرأة رأيها في اختيار الزوج المناسب لها فقد امتنعت ابنة وزير سلطان جرائر ذية المهل (المالديف) عن الزواج بانن بطوطة، وقال له الوزير إن بنته امتنعت وهي مالكة أمر نفسها^(٤)، وم تكنف المرأة باسساواة مع الرجل بل تهوقت عليه في الحقوق، فهي أعظم شأنًا من الرجال في بلاد الترك وبعض مدن المغرب^(٥)، وافصل منهم في مهنة حراسة القرائل^(٦)، وركوب الخيل^(٧)، وحسن الرماية والفن كما هو الحال عند ساء الترك وبلاد الصين^(٨) وكانت المرأة تعمل خارج المنزل وتشارك في لتجارة والبيع ومن ذلك ما وصف به ابن بطوطة ساء الأتراك حيث تأتي حذاهن إلى السوق ومعها عبيدها بالعلم واللين، فتبيعه من

(١) ابن العربي، أحكام القرآن، ١٥٣٥/٣

(٢) رحلة ابن بطوطة ١٨٣/١

(٣) انظر، المصدر نفسه، ١٥٨/٢

(٤) انظر، المصدر نفسه ١٨٥/٢

(٥) انظر، المصدر نفسه ٣٠١/١، ٢٨٧/٢

(٦) انظر، المصدر نفسه ٢٧٩/٢

(٧) انظر، المصدر نفسه ٢٧٩/١، ٢٢٠/٢

(٨) انظر، المصدر نفسه ٢٢٠/٢، و انظر، ليكري، جغرافية الأندلس، ص ١٧٠



الناس بالسلع اعطرية، وربما كن مع امرأة منهن زوجها فيظنه من يراها بعض
خدامها^(١)

وكذلك نساء الأعراب في أرض برقة -ببلاد طرابلس- حيث كان الأعراب
يستعملون ساءهم في البيع والشراء^(٢) وهي إلى ذلك أيضاً نهتم بحسنها وجمالها، فقد
كنت نساء مكة المكرمة يكثرن التظيب حتى إن إحداهن لثيبت طاوية وتشترى بقوتها
طيباً^(٣)

أما نساء مدينة زبيد اليمنية، فهن الحسن العاتق، حيث يصف ابن بطوطة
مشاركتهن في سنوت التحل، وذلك أنهم يخرجون في أيام السر والرطب، في كل ست
إلى حدائق التحل، ولا ينفي بالمدينة أحد من أهلها ولا من العرياء وتخرج نساء
مخيطات الجمال في المخامل، ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائق والأحلاق الحسنة
والمكارم. وللعرب عندهن مزية، ولا يمتنعن من تروجه كما يفعله نساء بلادنا، فإذا أراد
السر خرجت معه وودعته، وإن كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى أن
يرجع أبوه، ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها وإذا كان مقيماً فهي
تفنع منه بغليل النعنع والكسوة، لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبداً، ولو أعطيت إحداهن
م عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل^(٤)

ومن مظاهر تحرر المرأة أيضاً خروج النساء في جماعات كثيرة للمشاركة في توديع
واستقبال مواكب بعض السلاطين، واحتلاظهن بالرجال فقد وصف الرحالة ابن الخاح
الميري النساء وقد خرجن يشاركن في توديع لسلطان أبي عنان حين قرر انقياهم برحلته
دخل العرب الأقصى والبلدان الإفرقية، حين بهول فما رافق لعمول كالهوادح التي
هلت فوق ذرى البرل الهوادح، وبدت كأنها الأكمامات لمكثلة بأنواع الأرواح، سامية

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة ١/٣٠١، ٢/١٢٨

(٢) العبدري، الرحلة المغربية، ص ٨٦

(٣) المصدر نفسه ١/١٣٦

(٤) رحلة ابن بطوطة ١٠/٢٢٤

الطامات في لجو المنخرق جامعة الحسن بن المتقن والمتقن إلى غير ذلك من لأثواب العراقة والأندلسية والرومية كنّ يستبي الألباب بالوانه المختلفة ويباب كلّ هودج حارية عليها الخلل والحلي، . وجميعهنّ يعنين بذكر الحروب، والملاحم التي طال بها عن المضجع تحياي لجسوب داعيات إلى ركوب الحياض . وصل السيوف الباترة من الأعماد^(٥) أما ابن الخطيب فيشير إلى خروج النساء في جماعات كبيرة واختلاطن بالرجال للمشاركة في استقبال سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف الأول، وذلك بعد عودته من رحلة تفقدية لأحوال لشغور اشرقية مملكة غرناطة سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م، وس قوله واختلط النساء بالرجال، والتمت أرباب الحجاء يرمات الخجال، فلم يفرق بين السلاح والعيون الملاح، ولا بين حر البنود وحر الخدود^(٦) . كما دخلت امرأة ميدان السياسة، وتولّت مقاييد لحكم في بعض البلدان، وكانت تصدر الأوامر السلطانية باسم السلطان، فإساء لدى الأتراك والشر من حظ عظيم، وهم إذا كتبوا أمرا يقولون فيه عن أمر السلطان والخواتين^(٧)، وكانت المرأة تشارك في الأمور العامة^(٨)، وتلبّي القوامرات ضدّ السلطان^(٩) في حين أنّ المرأة في بعض مدن لندوان كانت صورة لفساد حيث تقيم مع الرجال دون صداق. فيدخل الرجل بيده فيجهد امرأته ومنها صاحبها، فلا يكر ذلك^(١٠) وقد أثار هذا الأمر الرخالة ابن بطوطة، فسأل أحد الرجال وقد كانت امرأته مع

(٥) انظر، ابن الحجاج النعمري، لبض العباب، ص ٦٨ - ٦٩، كذلك لمصحات، ٢٣٦، ٢٢٧، ٢٨٦

(٦) ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ٥٣

(٧) رحلة ابن بطوطة ٢٠٤، ١، وانظر المصدر نفسه ٢٧٩، ١، ١٧٩ / ٢، وانظر دور المرأة في الحياة

السياسة، ابن الخطيب، نقابة الخراب، ص ١٣-١٥

(٨) كان للمخدومة جهان أم سلطان الهند دور كبير في مساعدة الحاجين وكانت كثيرة الصدقات،

وعثرت روابا كثيرة، وجعلت فيها الطعام للزور والصادق، وكذلك روجة السلطان عماد أوريك

خان، انة مالك القسطنطينية، السلطان تكفور التي كانت تهتم بالمعطاء ونقدم لهم الطعام والكساء

والدراهم، وانظر، رحلة ابن بطوطة ٢٦٠، ١ / ٢، ١٠٩

(٩) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٠٤ / ١

(١٠) المصدر نفسه ٢٧٢ / ٢



صاحبها أترصى بهذا. ؟ فقال له الرجل. مصاحبة النساء للرجال عندنا على حير وحسن طريقة، ولا تهمة فيها، ولسن كنساء بلادكم^(١) وفي بعض بلدان آسيا الصغرى كنت النساء يدخلن الحمام مع الرجال، فمن أراد الفساد فعل ذلك من غير مكر عليه^(٢).

ومن صور الفساد أيضاً، نعري جسد المرأة، فقد كان النساء يظهرن للناس هرايا باديات العورات، لا يحتشمن من الرجال ولا يحتججن^(٣)، ونساء جرر المالديف لا يلبس أكثرهن إلا قوطة واحدة نسترها من الثرة إلى أسفل، ومائر أجسادهن مكشوفة وكذلك عشين في الأسواق وغيرها^(٤).

رابعاً: الأعياد والأعراس والاحتفالات الشعبية

لا شك أن لاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي في مختلف البلدان التي زارها الرحالة، قد ساهما في إبراز الكثير من المظاهر الاحتفالية، وما رافقها من ترفيات لائقة بمحلف تلك المناسبات، وقد حظيت هذه المظاهر باهتمام الرحالة فكتبوا عنها، وعما كان يجري فيها من شاعر ومفوس أو م أكثرها بالصفة الشعبية أو لطابع الملكوتي ويلحظ في ما كتبه الرحالة عن هذه الأعياد والأعراس والاحتفالات، أن معظمها احتمالات دينية وبعضها الآخر كان محلياً اجتماعياً، وقد شارك فيها لسلطين والأمراء وأفراد الشعب.

وفي بعض كتب الرحلات، يوجد الكثير من الشواهد الدالة على هذه المناسبات، فقد رسم الرحالة صوراً للمجتمع المحلي في موسمته المختلفة، ووصفوا الشعائر التي اعتاد أهل مكة أن يؤدوها في مختلف المناسبات الدينية، مثل، استقبال الهلال الوليد، واحتفائهم

(١) المصدر نفسه ٢٧٢/٢، وانظر، النجبي، مستعاد ارحله، ص ٢٠١

(٢) رحلة ابن بطوطة ٢٦١/١ ٢٦٢

(٣) انظر، المصدر نفسه ٢٧٢/٢، ٢٨٢

(٤) المصدر نفسه ١٧٧/٢، وانظر، النجبي، مستعاد ارحله، ص ٢٠٦

بالحمرة الرجيئة، وما كان يجري فيها من خروج الناس ليكنها إلى شوارع مكة بالهوادج التي تلوح على ظهور الإبل كالفقار المصروقة، وإشعلهم النار على جانب الطريق ويفادهم الشموع، وصر بهم أطبول والبقوات عند رؤية الهلال شعاراً بأنها ليلة الموسم، وكذلك رصف الرخالة، عارضة الناس لألعاب العروسة أمام موكب الأمير، كعبهم بالسيف والفرس، ورميهم الحراب إلى الهواء وتناولها بسرعة، وركوب الأعراب الحمال ومسابقه الخيل لها، ومرفقه الأمير إلى منزله على هذا النحو

وكان المزدن يزدن في قبة رمرم ويهنيء بالموسم، والرجال في أثناء ذلك يتلاقون فيصافحون ويتهادون الذعاء والتساء كذلك والكل قد لبس أحسن ثياب واحتفل احتمال أهل البلاد للأعياد، وقال ابن جبير فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهدي ذكره عرايه وعجياً^(١).

ووصف بعض الرخالة احتفالات الهند والمسلمين في الأعياد والرواح، فإذا كان يوم العيد خرج الناس للصلاة في المساجد، وعبهم الثياب الحسن الطيعة، وركب السلطان على رأسه الطيسان^(٢)، ولا يلبسونه إلا في العيدين، ويلبس كل من القاضي والخطيب ولقهاء طيلسانهم في كل يوم، وفي الطريق إلى المسجد يسير أساس بين يدي السلطان، وهم يرفعون أصواتهم بالتكبير وبين يديه العلامات الحمر من الخويز ثم يصلي ويقف الخطيب بعد ذلك بين يديه يلقي مرعطة، وبين المصلين يقف رجل في يده دمع يترحم مرعطة الخطيب إلى لعنتهم. وبعد العصر من أيام العيد يخرج السلطان إلى مجلسه ويجيء رجاله يحملون السلاح العجيب من الذهب والفضة وديس من البلور، ثم يأتي ترجمانه

(١) رحلة ابن جبير، ص ١٠٦ - ١١٠، وانظر أيضاً في مختلف الاحتمالات البدية بما فيها المولد البوري رحلة ابن بطوطة ٤٦/١، وابن الحاج الميري، فيض العباب، ص ٨٦-٨٧، وابن الأحرر، شير فرائد حمان ص ٢٢٤ - ٢٢٥، وابن أبي روع القاسمي، عني، الدجيرة نسبة في تاريخ الدولة امنية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص ١٢٤، ١٦٠، وابن حطون، لتعريف، ص ١١٢-١١٦

(٢) ضرب من الأكسية، والطيسان، لبس عربي، انظر، ابن منظور، لسان العرب ١٢٥/٣



بشائه الأربع وجواربه ويبلغ عددهن نحو مائة ومن في هذه المرة غير عرايا بل عليهن الثياب الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة، ثم يصب لترجمانه كرسي يجلس عليه ويصرب على آلة من قصب ويعني بشعر يمدح فيه السلطان ويذكر عرواته وأفعاله الحسان، وتغني النساء والجراري معه ويلعنن بالنسي ومعهن نحو ثلاثين من الغلمان عليهم ثياب حر وعلى رؤوسهم عصائب بيض، وكل واحد منهم متخذ طبله يصربه. ثم يأتي الصبيان يلعبون ويتقلّبون في الهواء، وهم في ذلك رشاقه وحفّة بديعه ويلعبون بالسبوف أجنس لعب وكذلك يلعب الترجمان، ثم يأمر السلطان للجميع بالإحسان^(١)

أمّا الأعراس، فقد تحدث عنها بعض الرّحالة موضحين مراسيمها وترتيباتها الخاصة بها، ووصف ابن بطوطة عرس ابن ملك جاوة الذي شارك في الاحتفال به، فعند ذلك شاهد عيان على ما كان يجري من مظاهر احتفالية بهذه المناسبة، من مثل مجيء العروس من داخل قصرها على قدميها بادية الوجه ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن أديانها، من نساء لسلطان وأمراء وورثائه، وكلّهن باديات الوجوه ينظر إليهن كلّ من حصر من رفيع أو وضعيف ويسب تلك بعادة هنّ إلا في الأعراس خاصة وصعدت العروس المنبر، وبين يديها أهل الطرب، رجالاً ونساء يلعبون ويقفون، ثم جاء الزوج على ميل مزّين على ظهره سرير وفوقه قبة والتج على رأس العروس وعن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك والأمراء، قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة، وعلى رؤوسهم الشواشي المصنعة، وهم أتراك الزوج ليس فيهم ذو لحية وشعر الدماير ولذراهم على الناس عند دخوله، وقعد السلطان بمظرة له يشاهد ذلك ورل إليه فقيل رجله، وصعد المنبر إلى العروس، فقامت إليه وقبلت يده، وجلس إلى جانبها والخواتين يروحون عليها، وحاموا بالقوفل والتشول، فأحده أروح بيده وجعل معه في فمها، ثم أخذت هي بيدها وجعلت في فمه ثم أخذ الزوج بعمه ورقة تبول وجعلها في فمها، وذلك كلّ على

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢/٢٧٩، وكذلك ١/ ٣١ ٣٢١، ٢/ ٦٢ ٦٤



أعين الناس، ثم فعلت هي كعمله، ثم وضع عليها الستر، ورفع المنبر وهما فيه إلى داخل القصر، واكل الناس وأنصرفوا ثم كان من ألبس جمع الناس، وأجرى له أبواه العهد، وبايعه الناس، وأعطاهم العطاء الخرج من الثياب والذهب .^(١)

وكانت تقام بعض الاحتفالات شفاء السلاطين والملوك من الأمراض^(٢) أو لمودتهم مسلمين من أسفارهم، فحين قدم سلطان المتمد محمد شاه من أسفاره رُبِيت القيلة، وصنعت قباب من الخشب مقسومة على طبقات، وتكسى بثياب الحرير، ويكون في كل طبقة اخواري المعينات عليهن حمل لباس وأحسن حلة، ومهن رواقص، ويكون ما بين القباب مفروشاً بثياب الحرير، يطأ عليها مركب السلطان وترى حيطان الشارع الذي يمر به من باب المدينة إلى باب القصر بثياب الحرير، ويمشي أمامه المشاة من عبيده وهم آلاف، وتكون الأقواح والعساكر خلفه ..^(٣)

أما الحمارات، فكان لها برنسيتها الخاصة بها في بعض البلدان، ففي دمشق كانوا يمشون أمام الجنّارة بقراء يقرأون القرآن بأصوات شجية وتلاخين مبكية تكاد تنحطع لها النفوس شجواً وحناناً يرفعون أصواتهم بها، فتلقاها الأذان بأدمع الأجفان، وجنائزهم يُصنّى عليها في الجامع قبالة المقصورة، فلا بد لكل حنّارة من جامع، فإذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة ودخلوا إلى موضع الصلاة عليها ، فإذا استكملوا أو فرغوا من القراءة ونهى المجلس بهم مستهاه قام وعاطهم وحدث واحداً بحسب رتبهم في المعرفة، فوعظ وذكر وته على خدع الدنيا وحذر.^(٤) وكانوا يرفعون أصواتهم بالدعاء لكل من يصلح للمراء من كبار البلدة وأعيانها ويقولون: بسم الله فلان الدين، من كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك، فإذا أتموا القراءة، قام المؤدبون فيقولون أفتكروا واعتبروا، صلاتكم

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٤٢/٢-٢٤٣

(٢) انظر، المصدر نفسه ٣٩/١

(٣) انظر، المصدر نفسه ٦١، ٦٥، وبين الحاج المبري، فيض العباب، ص ٤٥، ٥٦، ٢٣١، ٢٣٧.

ومواضع متفرقة من الرحلة

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٦٧-٢٦٨.



على فلان الرجل الصالح لئالم ويصعوبه بصفات من الخير، ثم يصلون عليه، ويذهبون به إلى مدفته^(١)

ولم يقف الرحالة عند هذه الظواهر الاجتماعية والدينية وحسب، بل نجد في بعض رحلاتهم إشارات لظواهر اجتماعية ودينية أخرى، ارتبط بعضها بالمأثور والمعتقد الشعبي، ومنها انسحر ولشعوذة، والتنجيم^(٢)

وقد روى ابن سعيد أن الأمير عبد الرحمن الأوسط^(٣)، قد قال عن التنجيم إنه مخرفة ورجم بالغيب وأراد ابن الشعر^(٤) أن يبرهن على صدق ما جاء به فقال للأمير: احتر في مقامك بما شئت، فقال إن أنا أتيت على أي باب من أبواب المجلس أحرع في قيامي صدقت بملكك، فكتب بن الشعر في ورقة مخنومة ما اقتضى له الطالع، ودعا الأمير من فتح له باباً محدثاً في غارب المجلس الذي يلي مقعده، ثم خرج منه، وترك الخروج من أبواب المجلس الأربعة، وفتح الورقة فوجد فيها ما فعله الأمير، فتعجب ورصده^(٥)

كما ألفت بعض كتب الرحلات الصّوّ على بعض المعتقدات الشعبية أو الحكايات الدالة على نوع من الثقافة لطيفة، فاهل السودان، مثلاً كانوا يكافحون القمل بالرفيق^(٦) وكذلك وصف ابن بطوطة طريقة علاجهم لسم الخبيثة، حيث كانوا يسحرون جملاً، وتدخل يد المصاب في كرشه، وتترك كذلك ليلة، ثم يشاثر لحم اصبعه، فتقطع من

(١) رحلة ابن بطوطة ٩٨/١، وانظر بعض لغادات في الجنائز والدهن، المصدر نفسه ١٢٨/٢، ٢٣٧.

وانظر، ابن الحاج المبري، بعض العباب، ص ٣٨-٤٠

(٢) انظر، رحلة أبي حامد الغرياطي، تحفة الأبيات، ص ١٣٧، ورحلة ابن بطوطة ٤٢/٢، ١٤٩.

١٥٠، ١٥٤، ١٥٧، ٢٣٣، رحلة النجاني، ص ٣١٤.

(٣) انظر ترجمته في الدراسة، ص ٣٤، والمخاشية وم ٥

(٤) هو عبد الرحمن بن الشعر صجيم، الأمير عبد الرحمن الأوسط، انظر، المقرئ، مع الطبيب ١٣٠/٣

(٥) انظر، ابن سعيد المغربي، لمرب، قسم الأندلس، ١٢٦/١-١٢٧

(٦) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٦٩/٢



الأصل^(١) وكان لبعض البربر تجاورين لنهر من أنهار ملاد المغرب تجارب منها أن المريض إذا أرادوا أن يعلموا هل هو يستريح أو يموت حملوه لرأس العين بذلك الموضع المهول، فيعطسونه فيه حتى يقرب أن يطمس، ثم يحرقونه فإن حرق على فمه دم فيستشرون بحياته وإن لم يخرج من فمه دم أيقروا بهلاكه^(٢)

وبعد، فقد امتازت المدن الإسلامية في العصور الوسطى بحياة اجتماعية ودينية متنوعة الثقافات ومتباينة المؤسسات والمنشآت ومتعددة العادات وتقاليدها تبعاً لاختلاف الأوصاع الجغرافية والجدور الحضارية، ومهما يكن الأمر، فإن الروح الإسلامية ونعاليم الدين جعلت بين تلك المجتمعات قدراً كبيراً من عناصر الوحدة يجمع بينهما

خامساً: صورة الآخر

كانت الفترحات الإسلامية والتجارة والانتقال بين البلدان والحروب الصليبية، بوفد للاتصال بالآخر، وكتشاف ثقافته وحضارته. ومع تساع أرجاء الدولة الإسلامية التي أصبحت مترامية الأطراف، نشطت الرحلة وتوسعت مجالاتها، وأخذت تخضع رؤيتها إلى الآخر لمقاييس الجذيل والقبيح في مختلف الجوانب والمظاهر الحياتية. والأخلاق والمبادئ والتقاليد، وكل ما يساهم في حدوث لاردهار الحضاري، فدفعها الحنين لوصفه وإشادة به، في حين أن انقيص دعاها لبيده ونقده، لمخالفته تعاليم الدين الإسلامي

وجاءت الرحلة في مواجهة بين الذات، الأب، والآخر، الغير، لاكتشاف الأفاق الأخرى والتكيف مع قيم الإنسانية، ورسم ملامح هذه الصورة من خلال تسليط الضوء على ملامح الحياة الثقافية والاجتماعية والدينية للذات والآخر في تلك العصور التي تمثل نظاماً معرفياً فكرياً للدولة الإسلامية، يقوم على أساس مفاضلة العربي على الأعجمي^(٣).

(١) انظر، لمصدر نفسه ٢٧٠، ٢ وكذلك ٢٧٧، ٢٣٤٩، ٢٧٥ / ٢

(٢) مؤلف مجهول، الاستبصار، ص ١٨٤

(٣) انظر، مهيم، حسين محمد، أدب الرحلات، ص ١٩١ - ١٩٩



وتعدّ رحلة ابن جبير نموذجاً لدراسة الذات والآخر، فقد تضمنت بعض الإشارات الدالة على حضور الذات والآخر في الرحلات^(١)، كما أظهرت هذه الرحلة، ثقافة الذات وتغيّرها الديني والحصاري من خلال الإشادة بعدل صلاح الدين الأيوبي، وإزالته للضرائب التي كانت تؤخذ على الحجاج، وغيرها من المكوس التي كانت تؤخذ على كل من يباع ويشترى فكفى الله للمؤمن على يدي هذا السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطباً أليماً^(٢).

وقد كان لبعض الأندلسيين والمعاربة دور أساسي ساهم في الوقوف ضدّ الصليبيين من أجل تحرير مدينة القدس، حيث لم تتخذ المقاومة للصليبيين ببلاد الشام شكلاً فردياً، وإنما اتحدت صورة جماعية، الأمر الذي جعل الصليبيين في المغرب يلجؤون إلى اتخاذ إجراءات ضدّ المقاربة تحسب بقدر ضرورية عليهم دون غيرهم، وذلك جراء مشاركتهم العرب المشاركة في حروبهم ضدّ الإفرنج وذكر ابن جبير أنّ أحد الحصون كان مكاناً لمكيس لقوافل، وسببها أنّ طائفة من أتباعهم غرب مع نور الدين أحد الحصون فكان لهم في أخذه على ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضرورية المكسية الرموها رؤوسهم، فكلّ مغربي يزن على رأسه الديتار المذكور في اختلاف على بلادهم وقال الإفرنج إنّ هؤلاء المعاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسألهم ولا يرأهم شيئاً، فلما تعرضوا لحرب وتألّوا مع إخوانهم المسمين علينا وجب أن نضع هذه الضرورية عليهم، فلمعاربة في أداء هذا المكس سب من لذكر الحمل في نكابتهم العدو يسهله عليهم ويخفف عنهم^(٣).

(١) أقاض في الحديث عن الإشارات والتدلّالات في رحلة ابن جبير IAN RICH. ARO NETTON(199) "Basic Structures And Signs of Alienation in The Rihla of Ibn Jubayr", Journal of Arabic Literature. XXII, p. 21 37

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢١

(٣) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٤



إن الإشارات المنتشرة في نص رحلة ابن جبير، تكشف عن حضور الوجود المسيحي في العالم الإسلامي، هذا الحضور الذي بدا من تلك الإشارات أنه تطفّل، كما كشفت أيضاً أن هذا لدحيل الغريب في الحصار الدينيّ يلعب دوراً م. ومن هذه الإشارات

- الصليب المسيحيّ الإفريقيّ، وقد عده ابن جبير إشارة للظلم والاضطهاد، ولرمر لأساسيّ للمعتدي الذي احتلّ بعضاً من المواقع والأماكن المقدسة لدى المسلمين، كما في مدينة عكا التي تستعر كهراً وطغياناً، وتنفور حناير وصلباناً، انتزعها الإفريج من أيدي المسلمين في العشر لأول من المئة السادسة، فبكى لها الإسلام ملء جفونه، وكانت أحد شجونه فمادت مساجدها كنائس، وصوامعها مصارب للنوائس^(١)

وارتبط الصليب الإفريقيّ في نص ابن جبير بالقدارة العاقبة التي أحرقت المدن الإسلامية، فقد أصبحت مدينة عكا قدرة مملوءة كلّها رجساً^(٢) أمّا مدينة مسينة من جزيرة صقلية فهي مظلمة الآفاق بالكهر لا يقر فيها لمسلم فرار، مشحونة بعبدة الصلابة مملوءة نتناً ورجساً^(٣) وعاش عبدة الصليان في هذه المدينة المملوءة بالرخاء والرهبة ولمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، قد حسوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم لذلك- صربوا عليهم إناوة في فصلين من العام يؤذونها^(٤)

وقد عانى المسلمون الكثير من الآلام النفسية تحت ظلم عبدة الصليب الإفريقيّ في مدن جزيرة صقلية، فكان الصليب رمواً للردة عن الدين، حيث بذل عبدة الصليب كلّ ما بوسعهم ليمارق المسلمين دينهم، وينغمسون في النصرانية، ويحفظون الإنجيل وقوانين شريعتهم، ويحولون مساجدهم كنائس وعلق ابن جبير على ما سمع من تحول بعض

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٦.

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٧.



المسلمين عن دينهم، فقال: ومع ذلك فأعلمنا أنه يكتفم إيماناً، فلعنه داخل تحت الاستثناء في قوله (إلا من أكره وقلبه منطش بالايثار)^(١)

وأظهرت رحلة ابن جبير أن الصليب علامة ترمز للثروة والرخاء والازدهار الاقتصادي الذي غمر المسيحيين في مدن جريرة صقلية، وقدم ابن جبير وصفاً لذلك من خلال عدد الكنائس لصحمة المخرقة المربعة كلها بمصووص الذهب، التي صيغت صلباتها من الذهب والفضة^(٢) وكان بن جبير يصرح برأيه في أولئك عبدة الصليب الإفرنجي وأصحاب القذارة والرجس، من خلال إشارات قليلة جاءت في رحلته، ومنها أنهم ملعونون، وخنازير، وكذلك أطلق على أمهاتهم^(٣)

- منك صقلية، غنيام الذي وصفه ابن جبير، بأن شأنه عجيب في حسن الشيرة^(٤)

وقد أدهش ابن جبير إعجاب هذا الملك بالحضارة الإسلامية، واستعماله للمسلمين في إدارة مملكته وحكمها^(٥)، فهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشعاله^(٦)، وهو يشته في الانعماس في نعم الملك ورسب قواسه ووضع أسانه وتقسيم مراتب رجاله، وتفخيم آبهة الملك وإظهار ريشته بملوك المسلمين ومن عجيب شأنه أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به الحمد لله حقّ حمده، وكانت علامة أبيه الحمد لله شكراً لأنعمه^(٧).

(١) سورة لمحن / الآية، ١٠٦

(٢) رحلة ابن جبير ص ٣١٣

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٣٠٣-٣٠٦، وأبي حامد الغرناطي، رحلة المغرب ص ١١، ٧٢، ١٧٥ -

١٧٦، ورحلة ابن بطوطة ١/ ٧٩، ٢٧٤، ٣١٩، ٣٢٢

(٤) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٧٤-٢٨٢ .

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٩٧

(٦) مؤلف، عثمان، (١٩٧٣) لوز من أدب الرحلات. الإسكندرية، ص ١٥

(٧) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٨

(٨) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٨

وعلى الرغم من ذلك فقد عذّب ابن جبر مشركاً، كافراً بالله، عيباً تجاه مسلمي صقلية فيما يخصّ الإجماع على التحول إلى دين أو مذهب جديد، ويدعو أن ينفذ الله المسلمين من إثمهم وتحبّره، وكفى الله المسلمين عادته وبسطته^(١). كما دعا المسلمين إلى اليقظة والحذر من هؤلاء المسيحيين المهذّبين، الذين يهسفون من وراء هذه السلوك المهدّب تجاه المسلمين كما يرى ابن جبر - إلى إحداث الفتنة، والشهامة واللفظ ما هما إلا تصليلاً، وفي ذلك يقول وطوائف النصارى يتنقوسا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسوننا، قرأنا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس أهل الجهل، عصم الله جميع أمة محمد، صلى الله عليه وسلم، من لفتة بهم بعزّه ومته^(٢).

وفدّ تبه بعض الرّخالة أيضاً مثل هذا الخطر حين أصبحت أرضهم تحت النفوذ الصرانيّ وقصّوا البقاء في وطنهم، ولكنهم كانوا مهذّبين في فهم الدينيّة والخصاريّة، فشعر هؤلاء الرّخالة بأنّ واجب الأخوة الدينيّة يفرض عليهم أن يقدموا خدمات لهذه الأقلّيّة، التي كان يهددها خطر الجهل بتعاليم الدين، وما يتبع ذلك من خطر التصير الاحتباريّ أو الإجماري، لذا عمد الرّحالة عبد الله بن الصّباح الأندلسيّ - ومن خلال رحلته - إلى التأكيد على بعض المظاهر الدينيّة التي كانت الغاية منها تعجيد الإسلام وتعزيزه في نفوس أهله من المدجّين وهو في حديثه لم يقتصر على ذكر الأماكن المقدّسة الإسلاميّة، وإنما ذكر الأماكن المقدّسة الصرانيّة وليهوديّة أيضاً^(٣).

أمّا ابن بطوطة، فقد هدّ التصريّ الإجماعي أهل عدر^(٤)، وثار حين سمع أصوات الوقس في الكنائس، وأمر أصحابه أن يصعدوا الصومعة ويقرأوا القرآن ويذكروا الله

(١) نفس المصدر والصفحة

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٢.

(٣) انظر، شحنة، جمة. (١٩٩٤) بعض لمظاهر الدينيّة في رحلة عبد الله بن الصّباح الأندلسيّ، دراسات أندلسيّة، عدد (١٢)، ص ٣٧-٣٨

(٤) رحلة ابن بطوطة ١/ ٣١٤، وانظر، ابن خلدون، التعريف، ص ١٢٥



ويؤذنوا فعملوا ذلك^(١). كما ثار وغضب لرؤيته طيبياً يهودياً يقدم على المسلمين في بلاط أحد سلاطين الدّول الإسلامية، فأحد يشتمه ويصفه بالملعون ابن الملعون، إذ كيف يجلس فوق قراء القرآن وهو يهودي^(٢).

- العرس المسيحي في مدينة صور، فقد سحر ابن جبير به، واعترف بأنه مظهر مشير، حيث أعجب بملايس وحلى العروس، وصلى ليبقى بعيداً عن أي فتنة قد تبرر من خلاله، ويلمح هنا استخدام ابن جبير لكلمة الفتنة مره أخرى، وقد استعاد بالله منها ومن وصفه لهذا العرس، قوته وقد احتمل بذلك جميع النصاري رجالاً وساء واصطموا سباطين عند باب العروس المهددة، والبقوات تصرب والمزامير وجميع الآلات البهوية حتى خرجت تهدي بين رجلين بمسكانها من يمن وشمال كأنهما من ذوي أرحامها، وهي في أهى زي، وأفخر لباس تسحب أذيال الحرير المذهب مسحاً على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حُفَّت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لبتها مثل ذلك متطعم، وهي رائدة في حليها وحلّتها، ثمشي فتر في فئر مشي الحمامة أو سير الغمامة، نعوذ بالله من فتنة المناظر^(٣).

- أعياد النصاري، حيث يحتفلون به صغاراً وكباراً، دكوراً وإناثاً، ويوفدون الشموع ويصنّون صلاتهم، وقد لست النصرايات ثياب الحرير المذهب، ومطرون وتحضن وترين بالخلي والجوهر، ووصف ابن جبير وهو في عكا عبداً لهم، فقال احتملوا له في إسماع الشمع، وكذا لا تخلو أحد منهم، صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو أنثى، من شمعة في يده، وتقدم قسيسوهم للصلاة في المركب بهم، ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم، والمركب يزهر كله أعلاه وأسفله سرجاً متقدة^(٤).

(١) المصدر نفسه ٢٩٥/١

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٧٢/١

(٣) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٨-٢٧٩

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٦، وانظر أيضاً، المصدر نفسه، ص ٧-٣

وَمَا سَبَقَ، فَرَأَى مَا ذَكَرَهُ بَنُ جَبْرِ مِنَ النَّصَارَى لَا يَبْعَدُ تَضَارُفًا فِي الْأَرَاءِ، فَالْجُرَانِبُ الْإِيمَانِيَّةُ الَّتِي لَمَحَهَا فِي صُورَةِ الْآخَرِ بَرَّرَهَا فَحْثًا يُحَاوِلُونَ إِيْقَاعَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ، وَجَدِبَهُمْ غُرُوبَ دِينِهِمْ، وَهُوَ وَإِنْ أَعْجَبَ بِجَمَاعَةِ مَسِيحِيَّةٍ وَيَعَادَاتِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ مِنْ وَقْتٍ لآخر، بَلَا أَنَّهُ لَمْ يُحِبَّ حَقِيقَةَ الْمَسِيحِيَّةِ، فَقَدْ أَعْجَبَ وَأَشَادَ بِالْمَهَارَةِ الْبَحْرِيَّةِ لِقَائِدِ بَحْرِيٍّ مَسِيحِيٍّ، وَهُوَ كَارَهُ بِوَضُوحٍ الْحَقِيقَةَ أَنَّ ذَلِكَ الْقَائِدَ الْبَحْرِيَّ يَرِثُ مَمْلُكَاتٍ كُلَّ مَنْ الْحِجَابُ الْمَسِيحِيِّ وَالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي الرِّحْلَةِ الْبَحْرِيَّةِ عَلَى مَقَرِّ الْقَارِبِ الْمُبْحَرِ مِنْ عِكَاءٍ^(١)

وَابْنُ جَبْرِ، حِينَ يَصُورُ رَدَّةَ فِعْلِ الْأَدَاتِ الْعَرَبِيَّةِ السَّلْمَةِ الَّتِي اتَّسَمَتْ بِالتَّقْوَى وَالطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَهِيَ تَوَاجِهَ تَحْطُّمِ السَّفِينَةِ الَّتِي يَرْكَبُونَهَا، بِصُورِ الْآخِرِ الْمَقْعَمِ بِالْحَرَنِ وَالْأَسَى وَفَلَّةَ الْإِيمَانِ ثُمَّ يَسْلُطُ الصَّوْءَ عَلَى الْحَصُورِ الْخَارِقِ لِلْمَلِكِ الْمَسِيحِيِّ فِي حَادِثَةِ السَّمِينَةِ الْعَارِفَةِ، مَصُورًا ذَلِكَ بِاللَّطْفِ الْإِلَهِيِّ لِحُجَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ جَمَلِهِ صَنَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - لَنَا وَلَطَعَهُ بِنَاءٌ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ، كَوْنُ هَذَا الْمَلِكِ الرَّومِيِّ حَاضِرًا فِيهَا^(٢)

وَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الْإِشَارَاتُ وَغَيْرُهَا، هِيَ نَفْسُهَا، الَّتِي تَنْقِي الصَّوْءَ عَلَى تِلْكَ الشُّعُوبِ وَهِيَ تَعِيشُ فِي جَوْزٍ مِنَ التَّسَامُحِ وَالْعِلَاقَاتِ اسْتِجْرَائِيَّةٍ الْوَدِّيَّةِ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ الْبُلْدَانِ كَانَتْ مُلْتَقَى تِجَارَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَمِيعِ الْأَفَاقِ^(٣) وَكَانَ تِجَارَةُ النَّصَارَى يَشْكُلُونَ مَصْدَرِ دُخْلٍ عَظِيمٍ لِلدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، لِهَذَا كَانَ حُكَّامُ تِلْكَ الدَّوَلِ بِمَحْرُصُونَ عَلَى أَمْنِهِمْ وَوَحْدَتِهِمْ^(٤) وَقَدْ تَصَفَّحْتُ بَعْضَ كُتُبِ الرِّحَالَاتِ بِعَصِ الْإِشَارَاتِ الَّتِي كَشَفَتْ عَنْ التَّقَاءِ بَعْضَ الرِّحَالَةِ بَعْدَ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى^(٥)، وَرَغْمَ مَا كَانَ يَلَاقِيهِ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِنْ أَسْرِ وَهَجُومٍ وَمَنَاسِكَاتٍ مِثْلَ^(٦)، إِلَّا أَنَّ الرِّحَالَةَ قَدْ

(١) المصدر نفسه، ص ٢٨٧

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٥

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٩/١، ٣٠، ٢٩٥، وابن الخطيب، حاضرة الطيف، ص ٤٨

(٥) انظر، ابن العربي، قانون التأويل، ص ٩٥-٩٦، وابن خلدون، التعريف، ص ١٢٨

(٦) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص ٣٧، وابن خلدون، التعريف، ص ١٢٥



اعترفوا بذلك. بعض أولئك العلماء وبراءة اليهود والنصارى في فنّ لعمارة وبعض الصناعات، ومن ذلك ما ذكره ابن خلدون حين رر القدس، بأنه انصرف إلى مدفن الخليل عليه السلام، ومرّ في طريقه إليه بيت لحم وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح، شيدت القباصة عليه بناء بساطين من العمد الصحور، منجدة مصطفة، مرقوماً على رؤوسها صور ملوك القباصة، وتورخ دولهم، ميسرة لمن يتعمي تحقيق نقلها بانتراحه العارفين لأوصاعها، ولقد يشهد هذا المصنع بعظم ملك القباصة وضخامة درلتهم^(١).

أما السفن التي كانت تقبل المسلمين والنصارى، فقد بدت رمراً للوحد ولصدّاقة، حيث جمعت بينهما في عالم صغير من الكلّ المسيح، ولتحرر بعلاقات المسلمين وللمسيحيين بلامح من الثقة والعرفان، في حين أن لقتال كان دائراً بين الطائفتين^(٢).

وبعد، فقد استطاع الرّحالة أن يقدموا للأجيال صفحات من تاريخ البلدان التي كانوا يمرّون بها في سبيلها وحربها، فحملت كتب الرحلات في طياتها قدراً كبيراً من الأحداث مما جعلها تدخّل في عداد مصادر التاريخ سواء في جانبه السياسي والاقتصادي أو الثقافي والاجتماعي، وهي مادة تميد المؤرخين والدارسين وتمنح لهم بعض الأدوات التي قد لا تيسرها لهم مصادر التاريخ^(٣).

(١) ابن خلدون، التعريف، ص ٣٨٥، وانظر أيضاً، رحلة ابن جبير، ص ٢٩٨-٣٠٦، ورحلة بيلامين التيطلي، ص ٩٩-١٠٠، والعبدري، الرحلة المغربية، ص ٤٠-٤١، ورحلة ابن بطوطة ٢٥٧/١، ٢٤٥، ٢٢١.

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٦٠.

(٣) العبدري عباس، (١٩٧٧) الرحلات كمصدر للتاريخ، مجلة الفيصل، السنة الأولى، العدد (٦)، ص ٦٠.



الفصل الثاني

الرحلات والتفاعل الثقافي



كانت الرحلات لوناً من ألوان لتبادل العكري ولأدبي، إذ مكّنت واسطة احتكاك بين الثقافات لمختلفة من جانب، وأداة تفاعل داخل الثقافة الواحدة من جانب آخر، بحيث أفادت الشعوب بعضها من بعض، كما لمس الرحالة انوارق بين مختلف الثقافات في البلدان التي قصدوها، وألّوا بمظهر الحاضرة في تلك البلدان، وربما أصبح بعضها جزءاً من التكوين الثقافي للرحالة، أو شكّل بعضها الآخر صراعاً حصارياً في فكر الرحالة، لا سيما مواقف الحرية والمساواة، فابن بطوطة يثير دهشته أن لرحال مدينته إيالات في السودان، صواحب من السماء الأجنيات، حيث يقول: دخلت يوماً على قاضي بإيالاتين بعد إذنه في الدخول، فوجدت عنده امرأة صغيرة السن مديعة الحسن، فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع، فضحكت مني ولم يدركها حجل، وقال لي القاضي لم ترجع؟ إنها صاحيتي! فعجبت من شأنهما، فإله من الفقهاء الخجّاج^(١) وقد أدت الرحلة دوراً كبيراً في الكشف عن مختلف الثقافات الإنسانية. الثقافية والعرقية ولدينية، وجوانب الحياة اليومية البيئية، والملبس، والمأكل، ولعادات والتقاليد واحتفالات، والحكايات الشعبية وقارن الرحالة بين وقع مجتمعاتهم والمجتمعات الأخرى التي قصدوها، حيث العمل لرحالة يشوبهم. ثم انقلوا إلى شروب أخرى وثقافات جديدة، وعادوا بعد ذلك إلى بلادهم بشخصية صقلتها التجارب، وبمعارف زوّدهم بها حضارات وثقافات متعددة.

ويرى عبد القادر رمادة أن ابن رشيد والتجبي ومعاصرهما الرحالة العبدري قد خرجوا من المغرب بعدما طمعتهم نهافتها بطابع خاص، ودفعتهم إلى محاولة المزيد من المعرفة مع الربط بين ما عاشوا فيه من عطاءات مغربية وأندلسية وبين ما تحتفظ به أمصار تونس ومصر ولشام والحجاز من عطاءات أخرى جادت بها فرائح، وموهب شتى في موضوعات شتى.^(٢)

(١) رحلة ابن بطوطة ٢/ ٢٧٢

(٢) رمادة، عبد القادر، (١٩٨٢) لرحالتان البتيد ابن رشيد والتجبي، مجلة الماهل، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، المغرب، العدد (٢٢)، ص ٥٤٤-٥٤٥



ويؤكد شوقي ضيف لذور الكبير للمشرق في إفادة الأندلسيين علم وفكراً، فجلّ ما أقادوه أدهم من المشرق، إذ نقلوا الثروة العلمية المشرقية إلى بلادهم بكلّ ما فيها من فقه ولغة وبحر وفلسفة وطب^(١) فمعظم كتب الأدب والتاريخ والراجم الأندلسية والمغربية تتحدث عن أعلام وضعها الدين نرحوا نحو المشرق لتحقيق غنية ما، وقصوا شطراً من حياتهم بالأندلس والشرق الآخر في المشرق، ولعلّ خير نموذج لهؤلاء الرّحالة ابن سعيد المغربي^(٢)

وتشير بعض المصادر إلى كثرة المرتحلين الأندلسيين والمغاربة إلى المشرق، فقد سمّي أحد أرباض غرناطة الخارجية بحور الوداع؛ لكثرة عدد المسافرين من غرناطة حيث اعتاد المرناطيون في هذا المكان توديع أهلبهم وأحبابهم قبل رحيلهم^(٣)

ولم يقف الأمر عند انتقال علماء الأندلس والمغرب إلى المشرق أو ارتحالهم إليها، بل إن علماء المشرق كانوا يعدون إلى الأندلس والمغرب، وكانت كتبهم ترافقهم في رحلاتهم، ممّا أثبتا بحركة ثقافية متبادلة ساهمت في نمو الحركة العلمية والفكرية في الأندلس والمغرب، فقد انتقلت الحياة اللغوية والأدبية في الأندلس والمغرب إلى طور جديد عالي المستوى برسهامات عدد من علماء المشرق، ومنهم العالي^(٤) حيث قام بالتدريس في

(١) ضيف، شوقي، (١٩٦٠) الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط٣، القاهرة: دار المعارف، ص ٣١٧

(٢) تجوّل ابن سعيد المغربي في مختلف الأمصار، والتقى بأكابر العلماء، ورأى أفضل كتب الشارقة، انظر، نهج الطب مخصصاً من الإحاطة ١/٢٠٩، ٢/٢٧٢، ٢٧٣

(٣) انظر، ابن الأهر، أبو الوليد الأمير إسماعيل بن يوسف بن محمد، (ت ٨٠٧هـ) تثير مراند الجمال في نظم فحول الزمان، تحقيق محمد رشوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧، ص ٢٩٥

(٤) هو أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي (٢٨٨هـ - ٣٥٦هـ) صاحب الأمالي والسوادر، وقد على الأندلس أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن، انظر ترجمته، ابن خلكان، وفیات الأعيان. ١/٢٢٦-٢٢٧، رواقوت الحموي، معجم الأدباء ٧/٢٥، وابن العماد، حلي الشذرات ٣/١٨، والمقري، نهج الطب ٣/٧٠، ٧٥، ويدلثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٧٢ والأمثلة الدالة على كثرة المرتحلين من علماء المشرق إلى الأندلس والمغرب تمنع بها كتب المصادر ومنها نهج الطب الجزء الثالث



قرطبة، وخرج عدداً كبيراً من العلماء، ورود الأندلس بمجموعة ضخمة من الكتب المحررة المضبوطة في مجال لشعر والنقطة^(١)

وعليه، فقد عذت الرحلة عاملاً مهماً من عوامل التفاعل الثقافي حيث ترك الرحالة الأندلسيون والمخارية آثاراً قيمة في البلدان التي قصدوها، كما يهلوا معرفة واسعة من تلك البلدان أفادوا بها شعوبهم بعد عودتهم لبلادهم، وتمثلت جوانب التفاعل الثقافي في الرحلات الأندلسية والمربية بصورة عدة، حاولت لدراسة إحاطها بما يلي.

أولاً: الحياة الاجتماعية ودينية

لا شك أن تنوع العناصر و لغات والطبقات والطوائف في المجتمعات، ترك أثراً واضحاً في الحياة الاجتماعية والدينية في العصور الوسطى، فقد عكست الرحلات صور مظاهر الحضارة والتقدم في مختلف البلدان التي قصدتها الرحالة، فألفت الرحلات الضوء على أحوال المعيشة، والعادات والتقاليد ولأعياد والأعراس والأرياء، والمآتم، وأصناف الأطعمة والأعذية، وغيرها حيث أخذ الرحالة يعقدون مقاربات عدة لاستجلاء أرجح الشبه أو الاختلاف بين مظاهر التلاقي والتفاعل في الجوانب الاجتماعية والدينية والثقافية والمكرية بين مختلف شعوب البلدان التي زاروها، وقد حاولت الدراسة حصر بعض هذه المؤثرات في المجالات التالية

أ المصاحرات

إن الامتزاج والتفاعل بين أفراد المجتمعات، وخاصة عن طريق المصاهرة قد ساهم في ازدياد الصلات وتوثيقها وتماسكها، ولا شك في أن هذا التمازج الاجتماعي والعرفي أثر تأثيراً واضحاً في المجال الثقافي، فتلاقت الثقافات، وتجاوزت الحضارات، ضمن مبدأ التأثير والتأثر^(٢).

(١) انظر، ابن الفريسي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف، (ت ٤١٦هـ) تاريخ العلماء بالأندلس،

ط ١، تحقيق روجيه عبد الرحمن السويحي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧، ص ٦٧

(٢) انظر، لمطفي، عبد الله بن سالم، (١٩٩٤). منظور الحضاري للتراث الأدبي في الأندلس، حوية

الجامعة التونسية، العدد (٣٥)، تونس، ص ١٤٦



وفد أشارت الرّحلات لأندلسية ومغربية إلى بعض النماذج من زواج العلماء ولرحالة بنساء أجنبيات، ومنها رواج أبي حامد القرناطي في بلاد البحر بجزيرة رومانية، حيث ررق منها بولد ومات، فأعتقها وسماها مريم^(١) وكذلك تزوّج والده لأكر حامد بسيدتين من أهالي بلاد البحر ودرق أولاداً^(٢)، كما تُخذ لرحالة إبراهيم الساحلي إمأة للتسرّي من البرنجيات ودرق أولاداً منهن وهو في بلاد السودان^(٣)

أمّا ابن خلدون، فعينما زار الأندلس، تزوّج بقناة إسبانية، تدعى همد، ولعلّ هذا ما شجّع ابن الخطيب على أن يطلب من سلطان المغرب أبي سالم لمربي أن يهديه جارية إسبانية^(٤) في حين دخلت المرأة حياة ابن بطوطة بشكل واسع لاسيّما في بلاد الترك حيث كان ابن بطوطة موضع تكريم المسلمين وحكامهم في مختلف البلاد التي قصدتها، فأنعموا عليه بالكثير من الخوري ونزوح عددًا من النساء^(٥)، وبهذا فإنّ الرّحالة قد جسّدوا صورة هذا التمازج الاجتماعي والثقافي لأنهم جمعوا في أنفسهم ثقافات مختلفة وتأثروا بها

ومن جانب آخر، أظهرت بعض الرّحلات حرص المسلمين على مشاركة جيرانهم البصري في أعراسهم، حيث يصف بن جبير مشاركة المسلمين والبصري في احتفال البصري بعرس نصراني في مدينة صور، فيقول والمسلمون وسائر البصري من النظائر قد عادوا في طريقهم سماطين، يتطلعون فيهم ولا يتكرونها عليهم ذلك، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلمها، وأقاموا يومهم ذلك في وليمة^(٦)

(١) انظر، أبو حامد القرناطي، تحفة الألياب، ص ١٤٠

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٢

(٣) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأنصاري، ولد (٧١٣هـ) جواب لأفان دخل مصر والسودان ودمشق والعراق. ، بقي في السودان أوائل ٧٣٩هـ انظر ترجمته، ابن الخطيب، الإحاطة

٣٣٧-٣٧١، والمقري، مع الطيب ٤١٠/٣

(٤) انظر، ابن الخطيب، نفاة الخراب، ص ١٨، بشر أحمد غنار العبادي

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة ١/٢٤، ٣٣٩، ٢/٩٤، ١٨٥-١٨٦

(٦) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٨-٢٧٩



أما الطلاق، فقد حاول بعض الرّحّالة تغيير بعض العادات السيئة والحفاظة، حيث ذكر ابن بطوطة أنّه عندما ولي القضاء في دليّ أراد أن يغيّر بعضاً من عادات السيئة، وأوّل ماغيّر مكث المطلقات في ديار المطلقين، وكانت إحداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره، ويقول ابن بطوطة: فحسنت علّة ذلك، وأوتيت إليّ بحو حسة وعشرين رجلاً ممن فعل ذلك، فصرّيتهم وشهرتهم بالأسواق، وأخرجت النساء عنهم ثم اشتدّت في إقامه الصلوات . وحدث أن أكرم النساء، فلم أقدر على ذلك^(١) وفي هذا ما يؤكد دور الرّحّالة في التأثير في بعض المجتمعات التي زاروها، وقدرتهم على تغيير بعض الجوانب الحفاظة في حياة تلك المجتمعات

ب الأعياد والاحتفالات

إنّ عيد الفطر والأضحى وعيد المولد النبوي^(٢)، من الأعياد الدّينية التي شاركت فيها الأندلس والمغرب العالم الإسلامي، فقد نجم عن تعايش الأندلسيين والمغاربة مع مختلف عناصر المجتمع، شيوع بعض المظاهر التي تمثّل التّمازج الثقافيّ والحضاريّ بين سكّاد، الأندلس والمغرب كاه، حيث اتّسعت دائرة الاختلاط، فالمسلمون والنصارى في مدينة أطرابش من جزيرة صقلية يقيمون معاً، ولكلا الطرفين المساجد والكنائس^(٣)، وفي مدينة عكا كانت محاريب تجمع المسلمين والإمريج معاً يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه^(٤)

وجعلت كتب الرّحلات بالعديد من صور التّمازج بين شعوب البلدان التي قصدتها الرّحّالة، البلاد الإفريقيّة والآسيويّة، وبعض البلاد الأوروبيّة، وأشار بعض الرّحّالة إلى

(١) رحلة ابن بطوطة ١٨٦/٢

(٢) انظر، المصدر نفسه ١١٤/٢ ١١٥- ٢٧٩، وابن الحاج الحبري، قبض الغاب، ص ١٤٩- ١٥٠.

وابن خلدون، التعريف، ص ١١٢- ١١٦

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٣٠٨

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٧



نواحي التمازج بين الحضارات، حيث وصف بن بطوطة شيء من التفصيل نواحي التمازج بين الحضارتين الإسلامية والحديثة. فذكر العديد من الأعياد والاحتفالات التي تشير إلى تنوع الثقافات وتباين لتقاليد ولعادات، وطبيعة لتفاعل بين اليهود وغيرهم ومن ذلك ما وصف به ابن بطوطة ليلة العيد في قصر سلطان دلفي محمد شاه، حيث يقول: وإذا كانت ليلة لعيد بعث السلطان إلى الملوك والخواص، وأرباب الدولة، ولأعيان، والكتّاب، والمحاسب، والنقباء، والقواد والعبيد، وأهل الأخبار الجُلجُل التي تعمهم جميعاً، فإذا كانت صبيحة العيد رُيّت الفيلة كلها بالحرير والذهب والجواهر ويركب السلطان فيلاً منها، وترفع أمامه العاشية، وهي ستارة سرّجه وتكون مرصعة بأنفس الجواهر. ويمشي بين يديه عبيده ومماليكه. ويمشي بين يديه أيضاً انقباء. ويركب قاضي القضاة وكبار الأعيان من الخراسانيين والعراقيين، والشاميين، والمصريين، أو المغاربة، كلّ واحد منهم على بيل^(١).

وحرص الأدليّون والمغاربة على الاحتمال بعيد المولد النبوي، احتمالاً كبيراً، حيث أحد بعض الرّخالة يظلمون الأشعر في مدح الرسول -صلى الله عليه وسلّم- وذكر معجزاته^(٢)، وتما تميزت فيه هذه الاحتفالات أيضاً، بإقادة الشموع الملتفة وإطعام الأطعمة المختلفة، وتوزيع ماء الورد، كما كانت توزّع صلوات كثيرة، وتؤدّى لليون عن المسجوبين الذين عجزوا عن أداء الديون وعن الأموات كذلك^(٣) وقد أشار المشتالي إلى أنّ شيخه أبا مروان كان يذبح -في مولد النبي عليه السلام- من ابقر والغنم ما يكفي الآلاف من الناس، فيأكل المحترم والمُحترم، والعقراء يقتربون إليه من اللدان،

(١) رحلة ابن بطوطة، ١٢/٢

(٢) انظر، ابن خلدون، التعريف، ص ١١٢-١١٦، والمشتالي، لحفة المغرب، ص ١٠٨. وانظر غمادج من

هذه الأشعار، الدراسة هنا، ص ٧٠

(٣) انظر، ابن الحاج السيري، حبص العباب، مقدمة لمحقق، ص ٨٧ وانظر رحلة ابن بطوطة



فيردون على أحصب ما كان من بشاشة وبرٍّ وإمكان، فيبقى الإطعام والسَّماع في كلِّ ناحية ثمانية أيام متوالية^(١).

أما المراسيم والاحتفالات التي كانت تقام لاستقبال الحكام والأمراء أو السفراء وبعض الرُّحالة، فقد شارك النصارى واليهود أهل الأندلس والمغرب والمشرق في بعضها، حيث استقبل تجار لروم السنتطان العرابطي أبا الحجاج يوسف الأول في جولة له على النعمور، فيقول ابن الخطيب وتأنق من تجار الروم من استخلص العدل ههنا وتساوى سرَّه ونجواه، في حرق من البرِّ ابتدعوها، وأبواب من لا حتفاء شرعوها، فرموا بوق الركاب المولوي على عمد الساج، مظلة من الديباج، كانت على قمر العلياء عمامة، وعلى زهر لحد كمامة، فراقنا بحسن المعاني^(٢).

وقد أعجب بياض التطيلي بما شاهده في ودي الرافدين من جماعات يهودية، كانت يؤمنون تعم بالصلبان في ظلَّ الخلافة الإسلامية، فمدح حليفة المسلمين المستنجد بالله العباسي، ووصف موكبه في طريقه إلى الجامع لإقامة فريضة لصلاة يوم العيد، وابتهاج الرعية بوزنه، وسجل هتافهم وتهليلهم ونكيرهم، ثم ذكر الجماعة اليهودية بعداد وعمائتهم^(٣)، وأشار إلى أعيادهم، ومنها عيد الكفارة، ومهرجان التوراة، وعيد العنصرة^(٤).

وفي مدينة مالي، استقبل سكانها الرُّحالة ابن بطوطة بحفاوة كسره، وتنافسوا في تقديم الضيافة له^(٥)، وإن دلَّ هذا على شيء فإنه يدل على مدى التقدير الحضري الذي وصلت إليه مدينة مالي نتيجة تفاعل الحضارات المصرية والسودانية والمغربية، وتمازجها

(١) المشتالي، تحفة لغريب، ص ١٠٨.

(٢) ابن الخطيب، خطرة لطيف، ص ٤٨، ومشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص ٤٣ - ٤٤.

(٣) انظر، رحلة بياض التطيلي، ص ٢٦.

(٤) انظر، مصدر نفسه، ص ١٤٣، ١٧٢.

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢٧٤/٢ - ٢٨٢.



معاً، لتشكل حضارة متطورة برزت ملامحها بجلاء في وصف ابن بطوطة للمناسبات الدينية التي يشارك فيها الحكام وشعوبهم على حد سواء.

ومن جانب آخر، فقد شارك أهل المشرق ولأندلس والمغرب إخوانهم المسيحيين في عدد من أعيادهم واحتفالاتهم^(١)، وأشار بعض المؤرخين إلى وصف بعض الرحالة لتلك الأعياد، ومظاهر احتفال النصارى بها، وذلك على أساس نظرة احترام للمسلمين للسيد المسيح وابتدئاً بالسيحية، فاحتفل المسلمون بعيد القيوم أو القيوم، وخاصة في بغداد، وكان ذلك من المؤثرات الفارسية^(٢).

ويذكر ابن سعيد المغربي عيد القيوم أو القيوم، فيقول: «التدور المعروف عندهم بـ «بيرو»^(٣)، ومن مظاهر مشاركة أهل لأندلس في هذه الأعياد أنهم كانوا يصنعون مدينة في القيوم من العجين، وبأصناف الألوان احتمالاً بتلك الأعياد^(٤)».

ويصف ابن جبير عيداً لـ «نصارى المعروفين بالبلعريين» حين كان في مدينة عكا، في ليلة الخميس الرابع والعشرين لـ «رجب المذكور»، وهو أول يوم من نوفمبر تشرين الثاني - العجبي كان لـ «نصارى عيد مذكور عندهم، احتفلوا له في إسراج الشمع، وكاد لا يخلو أحد منهم، صغيراً، أو كبيراً، ذكراً أو أنثى، من شمعة في يده»^(٥)، وفي وصف إحدى الكنائس في مدينة صقلية، يقول: «أبصرناها يوم الميلاد، وهو يوم عيد لهم عظيم، وقد احتفلوا لها رجالاً ونساء»^(٦).

(١) انظر، العبادي، أحمد مختار، (١٩٧٩) الإسلام في أرض الأندلس، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر،

العدد (٢)، ص ٢٩١.

(٢) انظر، البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، (ت ١٠٤٨هـ) الآثار النافذة عن القرون الخالية ط

ليبرج، بغداد، ١٨٧٨، ص ٢١٥ - ٢٢٤.

(٣) ابن سعيد المغربي، المغرب ١/ ٢٩٤، وانظر، المغربي، فتح الطيب ٣/ ١٢٥.

(٤) انظر، ابن سعد، عربي، المغرب ١/ ٢٩٤، والمغربي، فتح الطيب ٤/ ٦٣، ١٣١، ولأوسمي، الدين

والتكلمة، ص ١، في ٥، ص ٥٦٥-٥٦٦.

(٥) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٦.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٠٦، وانظر، هذه الدراسة، ص ١٣١.



وقد رافق هذه الأعياد وغيرها من المناسبات والنفرات، تبادل اعدايا حيث كان حكام الأندلس والمغرب ولوزراء والأدباء يتبادلون الهدايا بينهم، وبين ملوك الإفرنج أيضاً^(١) أما الألعاب التي كانت تقام احتفالاً بلك المناسبات، فقد أشارت بعض الرحلات إلى عدد منها، حيث كانت تقام بعيد ميلاد في قسطنطينية المصارعة بين صروب الحيوان من ضواري وسباع ودمية وعمود وحر وحشية وطيور خارجة مدبرة^(٢) وقد مثلت المراء المسلمة في الرحلات الأندلسية والمغربية جانباً من جوانب التفاعل وصورة من صور التسامح الديني، فجواري ملك صقلية، غليام، مسلمة كلهن، والإمرجية من النصرانيات تقع في نصره فتعود مسلمة، تعيدها الجوري المذكورات مسلمة^(٣) كما شاركت نساء المسلمين في عراء غير المسلمين وارتدين ثياب العراء البيض^(٤)

ج الأطعمة والأزياء

قدمت الرحلات بصوراً واضحة عن مدى التنوع والاختلاف في العادات والتقاليد المحلية، ونقل لرحالة صوراً واضحة عن كل المناطق التي قصدوها، ليؤكدوا أن ثقافة الإنسانية متنوعة ومتعددة جميع المناسبات والعادات وتقاليد الشعوب الأخرى، وعكسوا بذلك حقيقة التفاعل بين الإنسان والمجتمع، كما قدموا صورة للاحتكاك والتلاقح الحضاري بين المشرق والأندلس والمغرب وبعض الدول الأجنبيّة، فكان لرحلات بلا ريب - أثر كبير على لتفاعل الثقافي والأدبي والاجتماعي والاقتصادي^(٥)

(١) انظر، ابن الحاج النميري، فيص العباب، ص ٢٩، ورحلة ابن بطرصة ٦٨/٢، وابن خلدون، التبريد، ص ١٢٨، ٤١١

(٢) رحلة بياض التتيلي، ص ٨٠

(٣) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٩

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطه ٢٣٧/٢

(٥) انظر، مرقص، عبد الملك، (١٩٨٢) لحدل الثقافي بين لمغرب والمشرق، ط ١، دار الحداثة، ص ٧٢ وبوتشيش إبراهيم الفانري، (٢٠٠٤) محطات في تاريخ التسامح بين لأديان بالأندلس، مجلة دراسات أندلسية، عدد (٣)



وقد تعامل الرّحالة الأندلسيون والمغاربة مع العناصر الأخرى في مختلف البلدان التي قصدوها، وفي المجتمع الأندلسيّ لذي كان يرخر بالعناصر المتعددة في تلك لعصور سواء من حيث المأكل والمشرب والملبس، والعادات والمأاميات، أو في لفكر والهن والبعة

وفد تحدث بعض الرّحالة الأندلسيين والمغاربة عن الطعام عند العامة والخاصة^(١)، حديثاً يستشمت منه دلالات كثيرة من أحوال المجتمع الاجتماعي والاقتصادي، وانتفاع الشعوب من بعضها من خلال انتقال بعض الأفكار والعديد من العادات وانتقاله المتعلقة بأنماط اعداء وأساليه، وطرق الضافة، ضمن إطار التفاعل، حيث يذكر الرّحالة تلك الأطعمة التي تلائم مكان اساطق الأخرى، أو قد لا تلائم بعضهم الأخرى، ففي الخليج العربيّ يصف ابن بطوطة نوعاً من الطعام لم يأكل قبله ولا بعده، صنعه بعض تجار عُمان، وهو من لدرة، طبخها من غير طحين، وصبّ عليها السيلان، وهو غسل النمر، وأكلناه^(٢)

ومن جانب آخر، يصف ابن بطوطة طعاماً تناوله ورفاقه في مدينة مالي، حيث يقولون وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع من شيء شبه القلقاس يُسمى المائي، وهي عندهم مفصلة على سائر الطعام، فأصبحنا جميعاً مرضى، وكنا منه قمامت أحيدنا، وذهبت أنا بصلاة الصبح، فغشي عليّ فيها، وطلبت من بعض المصريين دواءً سهلاً، فأتى بشيء يسمى بيدر، وهو عروق نبات، وخلطه بالأنيسون ولسكر ولته بالماء، فشربته وتقيأت ما أكلته من صفراء كثيرة، وعافاني الله من اهلاك، ولكني مرضت شهرين ..^(٣)

كما نقل بعض الرّحالة بعض العادات الخاصة بتناول الخلوى بعد الطعام، يقول ابن بطوطة حين رار سلطان لحد وأمر بالطعام، فأكلت فلما فرغنا من ل طعام أكل

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة ٦٥ / ٢، والدراسة هنا ص ١١٩ - ١٢٥

(٢) المصدر نفسه ٢٤١ / ١

(٣) المصدر نفسه ٢٧٥ / ٢



الخلواء ثم شرب المقاع بعد ذلك، وأخذنا التبول وانصرفنا^(١) ويذكر أيضاً أنه بعد الانتهاء من أكل اللوازم في حضرة سلطان أهدت يُجعل أُم كل إسان من الشرفاء ولفقهاء، والمشايخ والقضاة، وعاء شبه المهد، به أربع قوائم مسوح مسطحة من الخوص، وجعل عليه الرقاق، ورأس عسم مشوي، وأربعة أقراص معجونة بالسمن محموة بالخلواء وطبقاً صغيراً مصوغاً من الخلد فيه الخلواء والسمنوسك^(٢)

ووصف بعض لرحالة موائد الطعام وطرق إعدادها والآلية المستخدمة في ذلك، ففي احتفال السلطان محمد الخامس الغي بالله بالمولد النبوي الشريف سنة ٧٦٤هـ استخدمت أوعية وأطباق خشبية رومية، مما يطرب بها تجار جوره وما يصاحبها من الحزائر الروميات، ملة بالورق الذهبية، مرصعة بالزجاج المرسوم فيه صور الحيوان ولأشجار^(٣) أما سلطان مدينة بركي، إحدى مدن أسيا الصغرى، فيذكر ابن بطوطة أن تخدم السلطان كانوا يأتون إلى مجلسه بصحاف من الذهب والفضة محموة بالجلاب المحلول قد عصر فيه ماء الليمون، وجعل فيه كعكات صغار مقسومة وفيها ملاعق ذهب وبضعة، وجاءوا معها بصحاف صيني فيها مثل ذلك وفيها ملاعق حشب^(٤) ويسر في ذلك انتقال ثقافة جانب إلى آخر، وتأثره بها

وسدو احترام الرحالة لثقافات الآخرين وأصبحوا سواء في حالة استحسانهم للطعام، أو استقناعهم له، ومحاولتهم التفاعل مع مختلف أنواع الأطعمة، فقد ورد في الاستبصار أنه كان لمبارة الإسكندرية مجتمع في العام يسمونه بخميس العدس، وهو أول خميس من شهر مائة لا يتخلّف في مدينة الإسكندرية عن الخروج إلى المنار في ذلك اليوم أحد، وقد أعدوا لذلك اليوم الأطعمة والأشربة، ولا بد في ذلك الطعام من العدس^(٥)

(١) المصدر نفسه. ١٢٦/٢

(٢) رحلة ابن بطوطة ١٢٩/٢

(٣) ابن الخطيب، نقاصة الخراب ٢٧٨/٣، وانظر، رحلة ابن بطوطة ١/٢٦٢، ٣٢٤، وابن الخطيب،

خطرة الطيب، ص ١١٧

(٤) رحلة ابن بطوطة ١/٢٧٢

(٥) مؤلف مراكشي مجهول، الاستبصار، ص ٩٨



أما الرّي فقد وصف ابن جبير رّي نصرايين في إحدى مدن جزيرة صقلية، حيث يقول رّي النصرايين في هذه المدينة، زي نساء المسلمين، قصبات الألسن، منتحات، منتحات، خرجن في هذا العيد المذكور يوم الميلاد- وقد بسم ثياب تحرير المذهب، ولتحص اللحف الرائقة، وانتقن بالثقب ملوثة، وانتعلن الأحفاف، المدهية، وبرزن لكائسهن أو كئسهن حاملات جميع ربة نساء المسلمين من لتخلي والتحضب ولتطر^١ ويظهر في ذلك رسوخ التقاليد وامتدادات الإسلام في الجزيرة المذكورة، وتأثر الآخرين بها

وأشير أيضاً إلى أن بعض ملوك الإفرنج قد تأثروا بالعرب وقوانينهم وأساليبهم حيث يذكر ابن جبير أنه ليس في ملوك الصاري أثرب في الملك ولا أنهم ولا أرفه مـ عليام ملك صقلية-، وهو يتشبه في الاعماس في تعيم ملوك وتربيت قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتصميم أنه الملك وظهر زيتته بملوك المسلمين..^٢

وقد تأثر بعض الرّحالة الأندلسيين والمغاربية برّي أهل المشرق، حيث يصف ابن الخطيب هيئة لرّحالة اللوي الذي كان يرندي أحسن الناس عند مشاركة لاستقبال سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف الأول، فيقول أرمى من البياض طيلساناً، وصبن لحيته بالحاء والكنم، ولاث عمامته، واحتتم^٣ وكان اللوي تشبه بالمشاركة شكلاً ولساناً^٤

وحفل بعض كتب الرحلات بتسميات للأرياء والتخلي، فهي جرر المالديف يصف ابن بطوطة خلاخل نساء السلطان، وكانت تسمى البائل، وفلائد ذهب يجعلنها على صدورهن، ويسمونها البسدر^٥

(١) رحلة ابن جبير، ص ٣٠٧

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٨، وليريد من التعرف على ملامح السائر والتأثير في الرّي العربي أو الأوروبي، انظر: ابن الخطيب، لإحاطة ١٢٢/٢-١٢٤، و ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأسلمي، ط ٢، تحقيق برونتسان، بيروت، ١٩٥٥، ص ٥٦١

(٣) ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ٤١

(٤) التيكني، ميل الانتهاج، ص ١١٥

(٥) رحلة ابن بطوطة ١٢٨/٢



بأن ما قام به الرحالة من وصف لمأكّل ومشرب وملبس أهل كلّ بلد قصدها يعدّ في ذاته إشارة تحمل دلالة اتّفاعل، حيث تطّبع الشعوب على عاداتها وتقاليدها، كما ذكره إبراهيم الطرطوشي، مثلاً، عن رأيّ رسّ ملك البلغار حين وفدوا على هوتو، نقل إلينا مجلّاء صورة عن ملابسهم وحليهم، حيث يقول: إنهم يلبسون ملابس ضيقة، ويتسقطون بأحرمة طوال قد ربّ عليها تراس الذهب والفضة، ومنكهم عظيم القدر، يصع على رأسه الثّاج^(١) أما ابن بطوطة، فيذكر أنّ ساء مدينة لاذق في آسيا الصغرى، لها عمائم كبار^(٢)

وبدل ما وصفه الرحالة من طرق الطبخ وأنواع الأطعمة وصناعة الحلويات وتوسّع الأزياء، دلالة واضحة على تداخل الحضارات وتوسّع العادات والثقافات في مختلف البلدان التي قصدها الرحّالة، ولعلّ رحلة ابن بطوطة تمثل معجماً لمرّ الطبخ وتعدّد الأزياء والحلي في مختلف البلدان التي زارها.

٤ الحجّ وزيّارة الأماكن المقدّسة

كانت الرّحلات من الأندلس والمعروف إلى المشرق أكثر من رحلات الأندلسية، وذلك لوجود الكعبة المشرفة، وبيت المقدس، ومزارات العلم في المشرق، حيث اتّجهوا نحو المشرق لأداء فريضة الحج، فتأثّروا بما وجدوه هناك من حضارة وعلوم، فالمشرق فيله العصاد، وكعبه طلاب العلم والحجّ بفضل أماكنها المقدّسة، ومراكزها العلميّة، وقد هيأت هذه الرّحلات الالتقاء بالأئمة والعلماء في المدينة المنورة ومكة المكرمة، ودمشق، وحلب، والقاهرة، وبيت المقدس، والأخذ عنهم وتبادل المعارف وعلوم والثقافات معهم والحصول على الإجازات، فترك علماء المشرق أثراً كبيراً في التكوين الثقافي للرحالة الأندلسيين وانغارية مثلما ترك الرحالة الأندلسيون أثراً علمية وثقافية عميقة في العلماء الذين التقوا بهم

(١) البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا، من كتاب السالك والممالك، ص ٨٠-٨١، ١٥٤-١٧٠

(٢) رحلة ابن بطوطة ٢٦١/١



يتضح من ذلك أن لعامل لديني شكل عامس جذب في التعامل الثقافي، ورغبة منحة تدفع المسلمين والصاري واليهود إلى قطع المسافات، وافتحام المخاطر، لحج البيت الحرام أو بيت المقدس، والتبرك بقبور الأنبياء ومقامات الصالحين، فاليهودي كان يشعر بلهفة متأججة إلى زيارة أماكن النوراة ومثوى الأنبياء خير عابث بأنه لا يمنع بحماية سلطان أو حاكم سيما أيام الحروب لصليبية، بل إن من نعمة الله عليه أن يتاح له حج البلاد المقدسة، لذا كان بيت المقدس حطياً من كل أمه ولساناً^(١) وموتلاً للعلماء والمعكرين والفلاسفة المسلمين واليهود والصاري وكانت مكة المكرمة مركز استقطاب للمسلمين بوجود الكعبة المشرفة فيها

وفد كانت الأماكن المقدسة تستقبل آلاف الحجيج والزائرين والمجاورين في كل الأوقات، فنهياً بذلك الحول لتعاش الوافدين، وتبادل لمعرفة وامتداد العلاقات بين الأئمة والعلماء، وكان التلاقي والتعامل في شتى ميادين المعرفة ويذكر الرحالة ابن الصباح الأندلسي في رحلته الصاري واليهود مرات متعددة في حديثه عن عزاة الإسلام في بيت المقدس، ويصف الأماكن المقدسة لنصرايته واليهودية، كحبل الطور الذي نزلت فيه التوراة على موسى، وبيت لحم حيث ولد المسيح، ثم يتحدث عن علاقته الوطيدة مع الرهبان وحجاج هذه الأماكن المقدسة، ويذكر أنهم طلبوا منه وصف لكعبة لهم بعمل، وطلبوا منه أن يدعو لهم -وهو الخاج صاحب البركة- فاحتار في كيفية استدعاء، وبكته في نهاية الأمر تقطن وقال اللهم أمتهم على خير الأديان، فقالوا آمين^(٢)

ويدور واضحاً أن لبيت المقدس، ومكة المكرمة، أثر كبيراً في نفوس جميع الطوائف، حيث يصف ابن بطوطة منكاً راحاً في مدينة القسطنطينية، وقد أخذ بيد ابن بطوطة، حين علم بأنه رار بيت المقدس، وقال له أنا أصافح ليد التي دخلت بيت

(١) رحلة بابن النطلي، ص ٩٩، وانظر، مؤس، حسن، (١٩٥٩) فجر لأندلس، دراسة في تاريخ

الأندلس من الفتح الإسلامي إلى لدونة الأموية، ط ١، القاهرة الشركة العربية، ص ٢٠٧

(٢) انظر، شيخ، جمع، بعض المظاهر الدينية في رحلة عبد الله بن الصباح الأندلسي، مجلة دراسات

المقدس، والرجل التي مشيت داخل الصحرة، والكيسة العظمى التي تسمى قیامة وبيت لحم^(١) ويقول ابن بطوطة وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه، فعجبت من اعتمادهم، في من دخل بتلك المواضع من غير ملتهم^(٢) ويذكر ابن بطوطة أن الكيسة المعظمة بالقدس يحجها البصاري، وهي التي يعتقدون أن قبر عيسى عليه السلام بها^(٣)

أما ركب الحجاج الذي سافر فيه ابن بطوطة، فيصفه بقوله: وخرجنا بعد طوف الوداع إلى بطن مر - وأمر دمر الظهران - في جمع من العراقيين والخراسانيين والفراسيين ولأعاجم، لا يحصى عددهم، تجوج بهم الأرض موجاً^(٤)

ولعل في ذلك إشارة إلى أن الحج إلى الديار المقدسة، كان بمثابة رابط روحي عميق، وكانت فريضة الحج دائماً عاملاً قوياً من عوامل خلق حياة مشتركة في الإسلام^(٥). وعاملاً مؤكداً على أن ما جمع تلك الشعوب وعناصرها المختلفة هو وحدة الثقافة والعقيدة وقد وصف ابن جبير التفاعل بين المغرب والمشرق حين أشار إلى المكانة الدينية لمقدمة بيت المقدس، حيث كان المسلمون يهبون للدفاع عنها، فتشارك المعاربة مع إخوانهم المشاركة في حروبهم ضد الصليبيين، الأمر الذي دفع الإفرنج لقول إن هؤلاء المعاربة كانوا يحتلّون على بلادنا وسالهم ولا نردّ أهم شيئاً، فلما عرّضوا لحرب وماتوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نصح هذه الصربية عندهم^(٦)

ووصف ابن جبير مكة المكرمة في موسم الحج، ودورها في التفاعل الثقافي حيث يجتمع أهل المشرق والمغرب، ويتعاون الذخائر العيسية وأنواع الطيب المتعددة التي تجلب

(١) رحلة ابن بطوطة ٣٢٢/١

(٢) المصدر نفسه ٣٢٣/١

(٣) انظر، المصدر نفسه، ١/٦١، ٣٢١، ٣٢٢

(٤) المصدر نفسه ١/١٥٢-١٥٤.

(٥) أوليري، دبلاس، (١٩٦١)، الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ترجمة تمام حسان، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة، ص ٢٢٩، وانظر، ابن الخطيب، خطرة الطيب، ص ١٢٢

(٦) رحلة ابن جبير ص ٢٧٤، وانظر، جرار، صلاح، علاقات بين فلسطين والأندلس مجلة القبيل، السنة لثالث، العدد (٢٩)، ص ١١١-١١٥



من الهند والحبشة، كما كانوا يتأخرون الأمتعة العراقية، واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية، والبضائع المغربية، ويقول: «الطريق إليها - يقصد مكة المكرمة - ملتقى لصادر ولوارد، وشمرات تحيي، ليهي من كل مكان... ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم ففيه جمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد، فضلاً عما يتبعه من الذخائر النخبة كالحواجر ومن أنواع الطيب المسك، والكافور... إلى غير ذلك من السلع الخراسانية، حلب الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية، ولبضائع المغربية...»^(١)

وقد ظهرت بدور التلاقي في رحلة ابن جبير حين استقل من عكا مراكاً مسيحياً إلى صور فترل بها وطاف ثم اتجه إلى صقيفة، حيث ترل بها وتعرف بأهلها^(٢) ويصف ابن جبير أيضاً ركوب البصاري السفينة معهم وهم حجاج بيت المقدس، عالم لا يخصص، ينتهي إلى أزيد من ألفي إنسان.^(٣) ويذكر ملكهم غليم الذي كان يسأل عن مكة مشاهدتها المعظمة، وعن مشاهد المدينة المقدسة، ومشاهد الشام، وهو يذوب شوقاً وتحرفاً، ويقول ابن جبير: «استهذى متاً - يقصد الملك غليم - بعض ما استصحاه من الطرف المباركة من مكة والمدينة قدسهما الله»^(٤)

إن تسامح المسلمين في الأندلس والمغرب والمشرق إزاء مختلف الطوائف، ساهم في تشكيل وحدة ثقافية رسمت أبعاد لشخصية الحضارة الأندلسية والمغربية والمشرقية فابن بطوطة كنما ذكر الروايات وانتشارها في مختلف البلدان، ذكر مثلاًتها في بلاد البصاري، وهي الأديرة أو المانسرات^(٥)

(١) انظر: رحلة ابن جبير، ص ٩٧، ١٥٨، ١٦٣

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص ٤٨

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٣

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٩

(٥) انظر: رحلة ابن بطوطة ١- ٣٢٢، ونظر، مثل ذلك، الإدريسي، ترجمة لمشتاق، ص ١٨٠- ١٨١.

ويصف ابن جبير أحد مساجد مدينة عكا، ويذكر أنَّ عند محرابه قبر النبي صالح عليه السلام، وفي شرقي عكا عيناً باسم عين البقرة، عليها مكان مسجد ويقدمه السكان المسلمون، والنصارى على السواء، فهم في أرض واحدة ونراث شعبي مشترك^(١) ومن جانب آخر، أدت هذه الأماكن المقدسة دوراً كبيراً في التفاعل الثقافي، من خلال عقد حلقات المناظر والتجارر العلمي والأدبي، حيث شارك الرّحالة في مثل تلك حلقات انعمية والأدبية، انبي كانت تجري بين العلماء الذين توافدوا من مختلف انحاء لبلاد الإسلام، فتعلم الرّحالة وعلموا^(٢)

وكان مستقطاب هذه لأماكن المقدسة للعديد من العلماء والأدباء والشعراء فدأى إلى اتساع دائرة التأثير المتبادل بين المشرق ولأندلس ولعرب وفتح أبواب الحرار ولتفاعل مع الآخرين، حيث يصف الرّحالة ابن العربي بيت المقدس، بأنها كانت نعلج بالعلماء من أهلها، لوافدين، وأنها ملتقى المناظرين في الأدب الالالة الإسلام ولنصرنية واليهودية وذكر ابن العربي، أيضاً، أنه حضر مجلساً تناظر فيه حبر اليهود المعروف بالنستري، حيث وصفه بأنه كان لقناً فيهم ذكياً بطريقتهم^(٣)

ويشارك ابن العربي في الكثير من المناظرات والمحاورات انبي كانت عاا في بيت المقدس، حيث يقول 'عمد' إلى مدرسة الشافعية بباب الأسباط، فالفيت بها جماعة علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة، وهم يتناظرون على عاتقهم فالتحدث بيت المقدس مساء، ولزمت فيه لقرعة وأدخل إلى مدارس الحنفية والشافعية في كل يوم لحضور المناظر بين الطوائف . . .^(٤)

(١) انظر، رحلة ابن جبير، ٢٧٦-٢٧٧

(٢) انظر، رحلة ابن جبير، ص ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٤، وابن حجر العسلافي، الدرر الكامنة، ترجمه ابن

رشيد ١١١/٤ ١١٣

(٣) انظر، ابن العربي، قانون التأويل، ص ٩٥-٩٦

(٤) المصدر نفسه، ص ٩١-٩٥



ويُضخ من ذلك، أنَّ الرّحالة كانوا يتطلعون إلى مراكز الإشعاع العلميّ أينما وجدت، كما مثل تياراً علميّاً، نقل معه لكثير من أهل المشرق من علم ومعرفة إلى الأندلس والمغرب، فهيأ ذلك فرصة للإفادة المتبادلة بين الثقافات وتقريب الأفكار، وكما استقطب المشرق الكثير من العلماء والفقهاء ولأدباء، استقطبت الأندلس والمغرب العديد من العلماء والفقهاء والأدباء، فكانت الرحلات وسيلة لنقل المعارف والعلوم ولثقافات من شعب إلى آخر

أمّا التعايش بين الأديان، فقد خلق حواراً من التّواضع، ومجالاً للقاء، تكوّنت فيه هوية اجتماعية ثقافية من نسيج واحد تتألف من طوائف وعناصر مختلفة، فالتعايش بين الأديان، عنى الاعتراف بالآخر المحالف في الرأي، ولبدأ بإمكانية الإقامة معه في مجتمع واحد، ومدّ العلاقات معه، والإقرار له بحريته العقائدية والمذهبية، فكلّ هذا خلق الحوار واللقاء، والتسامح، والتلاحق بين لأديان^(١) وقد رافق ذلك كتب التراجم، والرحلات التي دوّن فيه كثير من انظار الحصارية للبدان التي مرّ بها الرّحالة والعلماء الذين قصدوا الحج وزيارة الأماكن المقدسة

(١) شهر، عبد المرير، (١٩٩٥) التعايش بين الأديان في الأندلس من خلال نصوص شعرية أندلسية، دراسات أندلسية، العدد (١٤)، ص ٣٠



ثانياً: حياة الثقافة والسياسة

أ. التأثيرات اللغوية والترجمة

قدّم الرّحالة مسرّ خلال تجوالهم في مختلف البلدان - صوراً للتأثيرات اللغوية والترجمة، أعنت حصيلتهم الثقافية، ليس هذا وحسب، بل إنّ بعض الرّحلات كانت أشبه بمعاجم لغوية، زودتنا بالعديد من نعات الشعوب ولحجاتها، حيث أطلع الرّحالة على لغات ولحجات الأمم التي زاروها أثناء تجوالهم، وأشاروا إلى لغات يعرفونها، وأخرى لا يفهمون منها شيئاً، وذكروا ما كان يواجههم من صعوبة لتقاعهم بين الشعوب في التّول خارج البلاد العربية، إلا أنّهم حاولوا تدليل تلك الصعوبات، ممّا جعلهم أدوات لنشر اللّغات المختلفة ها وهناك، وساعدوا في أعمال الترجمة بين تلك اللّغات ولعلّ الدراسة ها، تحمل بعض الصّور التي نقلتها الرّحلات والمذالة على التفاعل الثقافي، ومنها

- دقة الرّحالة البكري في رسم الأعلام الجغرافية، وتفسيره بعض أصولها اللاتينية، ومن ذلك قوله ومعنى طيطلة باللاتيني تولاطو، ومعناه مريح ساكوها، يريدون لخصانتها ومنعتها^(١) وقوله عن مدينة إشبيلية رعم أهل نعلم باللسان اللطيني أنّ أصل تسميتها إشبالي، ومعناه المدينة المنبسطة^(٢) وقوله في وصف ماردة وقد أهدق بالمدينة سور عرضه اثنا عشر ذراعاً، وارتفاعه ثمانية عشر ذراعاً وعلى بابها كتابة ترجمتها بالأصحجية، براءة لأهل إيلياء بيت المقدس^(٣)

وأشار البكري، أيضاً إلى وقوع عدد كبير من نساء المسلمين في أسر الروم، ولعلهن كنّ وسيلة من وسائل نقل الثقافة والمعرفة العربية إلى البلاد الأوروبية، حيث كان بعضهن يعرفن الموسيقى العربية، ويغنين بالعربية في قصور ملوك أوروبا^(٤)

(١) البكري، جغرافية الأندلس، ص ٨٦-٨٧

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٧

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٢، ١١٩-١٢٠

(٤) انظر، المصدر نفسه، ص ٤٢، والمقري، معجم الطيّب ٤/ ٤٥٠-٤٥٣



- أمّا العبدري، فسدو عرفاً باللهجة الأمازيغية المستعملة، وفي رحلته م يؤكد

ذلك، فقد تعرّض لأخطاء الجغرافي الأندلسي الرحالة أبي عبيد الكري، فقال إنه الكري ذكر بلاد اصحراء بلداً يقال لها قديمكة ونرجها -الكري فقال معنى تاد الهيئة أي أنها على هيئة مكة وليس معنى تاد الهيئة كما ذكر ولا هيئة اسم في لسانهم البتة، وإنما معنى تاد هذه، وهي من أسماء الإشارة عندهم يقولون لهذا ود، ولذين ويد، هذه تاد، ولهاتين وهؤلاء تيد، وليس للمشي عندهم عبارة سوى عبارة الجمع، إلا في ألفاظ العدد فمعنى تاد مكة، هذه مكة أي مشبهتها^(١).

- ووصف بعض الرحالة، تأثر بعض حكام الإفرنج بالعرب والإفادة منهم، فقد ذكر ابن جبير أن عليام ملك صقلية، كان يقرأ ويكتب بالعربية، وأنه اتخذ علامه ملوك الإسلام الحمد لله حقّ حمده وفي ذلك دلالة على التفاعل وتذوق الحضارة الإسلامية^(٢).

وأشار ابن جبير، أيضاً، إلى إتقان بعض الوعاظ للسانين العربي والعجمي، حيث وصف واعظاً خراسانياً صعد منبر الوعظ في شهر رمضان المبارك، فقال فصيحاً واعظاً خراساني حسن الشارة مليح الإشارة، يجمع بين اللسانين عربي وعجمي، فأنى في الخليل بالسحر الخلال من البيان، فصيح المنطق، درع الألفاظ ثم يقلب لسانه للأعاجم بلغتهم، فيهزهم إطراباً، ويذبيهم رفرات وانتحاباً^(٣).

وذكر بعض الرحالة وجود من كان يترجم تلك اللغات، ممّن كان يعرف اللغة العربية من أبناء تلك البلاد، أو من العرب الذين استقروا فيها كما عرف بعض حكام البلاد غير العربية، اللغة العربية، وإن لم يحسن عدد منهم التحدث بها^(٤).

(١) العبدري، الرحلة المغربية، ص ١٥٩

(٢) انظر راحة ابن جبير، ص ٢٩٨

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٩، وانظر، المصدر نفسه، ص ٢٧٥

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة ١١٥/٢، ١٢٠، ١٧٨، ٢٧٢ وانظر أيضاً، دور الترجمة في سماره يحيى

الغزالي، المقري، مع الطب: ٢/٢٥٧-٢٥٩

- ويقول الفشتالي على لسان شيخه أبي مروان، حين راد راوية في حراسان وهي على حدّ الصحراء، لم أعدها بحياً ولا شمالاً قال فسلمت على الشيخ وعلى أصحابه، وكانوا نحو ثلاث مائة رجل، وكنت لا أفهم لسانهم الفارسي ولا يهيموني، ومن يوم دحولي عليهم، لم يتكلموا إلى أن ورد قفريهم لسانهم، فقلت به لعلي أسأت الأدب عليهم في دحولي، فغيرتهم، فسألتهم^(١)، فإن كان من قبلي انقباصهم استعمرت الله وتأذيت بأديهم فذكر لهم ما قلت له، فقالوا والله ما صدر منه ما يكره وإنما رايانا امرادنا دونه بطيب الكلام سوء أدب في عشرته، فراقبناه في انصمت وأما من اليوم فأنت لسانه لنا، ولساننا له^(٢)

- أما ابن بطوطة، فلعله أكثر الرّحّلة إدراكاً لأهمية التّحاطب بلغة الشعوب التي نزل في بلادها، حيث اهتم بتعلّم شيء منها من خلال الطّواف في البلدان لتكون عروفاً له في تيسير معاشه، وانتقاله بين المدن، فعرف الفارسية إلى جانب العربية، ثم التركية، والم ببعض الفاظ وتراكيب لغات وفجأت معظم البلدان التي قصدتها، فقد قال معلّقاً على حديث أحد العتيان مع شيخه في إحدى مدن الأناضول باللسان التركي ولم أكس يوماً أفهمه^(٣)

وحين برز ابن بطوطة ورفاقه براوية أحد الأحياء في مدينة كاوية، إحدى مدن آسيا الصغرى، وتكلموا معه فلم يفهم أحدهم ما عني الآخر، ويصف ابن بطوطة ذلك بقوله فكلمناه بالعربية فلم يفهم، وكلمنا بالتركية قسم منهم عنه، فقال اطلبوا لغته فإنه يعرف العربية. فأتى الغني فكلمنا بالفارسية، وكلمناه فلم يفهمها متاً، فقال للغني إيشان عربيكها ميقوان، ومن عربيسوميدانم وإيشان معاه هؤلاء، وكهنا قديم، وميقوان

(١) يقول محقّق رحلة تحفة المغرب هكذا في الأصل ولعلّ صحتها فاسطلم، وانظر، الفشتالي، تحفة

المغرب، ص ٨٧، حاشية رقم ١

(٢) الفشتالي، تحفة المغرب، ص ٨٦-٨٧

(٣) رحلة ابن بطوطة ٢٥٨/١، وانظر، المصدر نفسه ٢٧٢/٢، ١١٥/٢



يقولون، ومن أنا، ونو جديد، ومبدأ تعرف وإني أريد الفقيه بهذا الكلام ستر نفسه عن الفصيحة، عندما ظنوا أنه يعرف اللسان العربي فهو لا يعرفه، فقال هؤلاء يتكلمون بالعربي القديم، وأنا لا أعرف إلا لعربي الحديدي فظن المتي أن الأمر على ما قاله الفقيه. ونعنا ذلك عنده وبالغ في إكرامه، وقال هؤلاء تحب كرامتهم لأنهم يتكلمون باللسان العربي القديم، وهو لسان النبي صلى الله عليه وسلم تسليماً وأصحابه ولم تفهم كلام الفقيه إحدائك، لكنني حفظت لفظة، فلما تعلمت اللسان الفارسي فهمت مراده^(١) ومن لأمثلة الذئلة على تعلم ابن بطوطة الفارسية، وصفه لقدومه على سلطان أهد، حيث يقول ثم سألي وصاحبي، وأمسك يدي، وجعل يخاطبي بأحسن خطاب، ويقول لي بالفارسي حلت البركة، فدومك مبارك.. ثم سألي عن بلادي، فقلت له بلاد المغرب..^(٢)

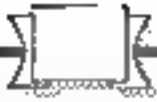
وقد رصدت لدراسة جملة من الألغاز والتراكيب والمواقف التي تبرز مدى تأثير ابن بطوطة بلغات ولهجات شعوب البلدان التي زارها، مما ساعده في التعرف على ثقافات تلك الشعوب، ونقلها إلى ثقافته بلاده، ومنها^(٣)

- كساي، وهو اسم الله عز وجل - عند أهل أهد، فقد وصف ابن بطوطة بعض أهل أهد، وهم يعرفون أنفسهم في أحد الأنهار، ويقول أحدهم لمن حصره لا تظنوا أنني أعرق نفسي لأحل شيء من أمور الدنيا، أو لقلة مال، إنما قصدي التقرب إلى كساي، وكساي اسم الله عز وجل بلسانهم^(٤).
- وكانت المرأة في أهد تحرق نفسها مع زوجها عند موته، ويقول ابن بطوطة وقد حُجبت نار مملوكة بمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها - المرأة - النظر إليها،

(١) المصدر نفسه ٢٨٠/١

(٢) المصدر نفسه ١١٥/٢، وانظر أيضاً نفس المصدر والجزم، ص ١٢٠، ١٢٨، ٢٧٢

(٣) انظر، المصدر نفسه ١٠٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٦، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧، ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١، ١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨، ١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٣، ١٣٢٤، ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣٠، ١٣٣١، ١٣٣٢، ١٣٣٣، ١٣٣٤، ١٣٣٥، ١٣٣٦، ١٣٣٧، ١٣٣٨، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ١٣٤١، ١٣٤٢، ١٣٤٣، ١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٤٩، ١٣٥٠، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٦٠، ١٣٦١، ١٣٦٢، ١٣٦٣، ١٣٦٤، ١٣٦٥، ١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧٠، ١٣٧١، ١٣٧٢، ١٣٧٣، ١٣٧٤، ١٣٧٥، ١٣٧٦، ١٣٧٧، ١٣٧٨، ١٣٧٩، ١٣٨٠، ١٣٨١، ١٣٨٢، ١٣٨٣، ١٣٨٤، ١٣٨٥، ١٣٨٦، ١٣٨٧، ١٣٨٨، ١٣٨٩، ١٣٩٠، ١٣٩١، ١٣٩٢، ١٣٩٣، ١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦، ١٣٩٧، ١٣٩٨، ١٣٩٩، ١٤٠٠، ١٤٠١، ١٤٠٢، ١٤٠٣، ١٤٠٤، ١٤٠٥، ١٤٠٦، ١٤٠٧، ١٤٠٨، ١٤٠٩، ١٤١٠، ١٤١١، ١٤١٢، ١٤١٣، ١٤١٤، ١٤١٥، ١٤١٦، ١٤١٧، ١٤١٨، ١٤١٩، ١٤٢٠، ١٤٢١، ١٤٢٢، ١٤٢٣، ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦، ١٤٢٧، ١٤٢٨، ١٤٢٩، ١٤٣٠، ١٤٣١، ١٤٣٢، ١٤٣٣، ١٤٣٤، ١٤٣٥، ١٤٣٦، ١٤٣٧، ١٤٣٨، ١٤٣٩، ١٤٤٠، ١٤٤١، ١٤٤٢، ١٤٤٣، ١٤٤٤، ١٤٤٥، ١٤٤٦، ١٤٤٧، ١٤٤٨، ١٤٤٩، ١٤٥٠، ١٤٥١، ١٤٥٢، ١٤٥٣، ١٤٥٤، ١٤٥٥، ١٤٥٦، ١٤٥٧، ١٤٥٨، ١٤٥٩، ١٤٦٠، ١٤٦١، ١٤٦٢، ١٤٦٣، ١٤٦٤، ١٤٦٥، ١٤٦٦، ١٤٦٧، ١٤٦٨، ١٤٦٩، ١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٧٢، ١٤٧٣، ١٤٧٤، ١٤٧٥، ١٤٧٦، ١٤٧٧، ١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٠، ١٤٨١، ١٤٨٢، ١٤٨٣، ١٤٨٤، ١٤٨٥، ١٤٨٦، ١٤٨٧، ١٤٨٨، ١٤٨٩، ١٤٩٠، ١٤٩١، ١٤٩٢، ١٤٩٣، ١٤٩٤، ١٤٩٥، ١٤٩٦، ١٤٩٧، ١٤٩٨، ١٤٩٩، ١٥٠٠، ١٥٠١، ١٥٠٢، ١٥٠٣، ١٥٠٤، ١٥٠٥، ١٥٠٦، ١٥٠٧، ١٥٠٨، ١٥٠٩، ١٥١٠، ١٥١١، ١٥١٢، ١٥١٣، ١٥١٤، ١٥١٥، ١٥١٦، ١٥١٧، ١٥١٨، ١٥١٩، ١٥٢٠، ١٥٢١، ١٥٢٢، ١٥٢٣، ١٥٢٤، ١٥٢٥، ١٥٢٦، ١٥٢٧، ١٥٢٨، ١٥٢٩، ١٥٣٠، ١٥٣١، ١٥٣٢، ١٥٣٣، ١٥٣٤، ١٥٣٥، ١٥٣٦، ١٥٣٧، ١٥٣٨، ١٥٣٩، ١٥٤٠، ١٥٤١، ١٥٤٢، ١٥٤٣، ١٥٤٤، ١٥٤٥، ١٥٤٦، ١٥٤٧، ١٥٤٨، ١٥٤٩، ١٥٥٠، ١٥٥١، ١٥٥٢، ١٥٥٣، ١٥٥٤، ١٥٥٥، ١٥٥٦، ١٥٥٧، ١٥٥٨، ١٥٥٩، ١٥٦٠، ١٥٦١، ١٥٦٢، ١٥٦٣، ١٥٦٤، ١٥٦٥، ١٥٦٦، ١٥٦٧، ١٥٦٨، ١٥٦٩، ١٥٧٠، ١٥٧١، ١٥٧٢، ١٥



رأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحقة، نزعتهما . وقابت ماوا ميتراسيني
أزاطش من ميدانم أواطش إست رهاكي مارا، ومعنى هذا الكلام: أبالنار تخوفوني؟
أنا أعلم أنها نار محرقة^(١).

• سراكنوا، ومعناه المسلمون، فقد رافق ابن بطوطة ركب امته إمبراطور
القسططبيية، زوجة أوزيك خان، داهية لزبارة أبيها، وعند وصولهم إلى قصر
الإمبراطور، سمع الرجال يقولون سراكنوا، سراكنوا، ومعناه المسلمون^(٢)
• جيكس، وهو من الألفاظ الفارسية، ومعناه من أنت؟ ودشاد، ومعناه لقلب
الفارح^(٣)

• أما أسماء بعض الأطعمة في المدن التي قصدها ابن بطوطة، فيذكر منها، ما يطلقه
أهل مدينة أصفهان على الخبز، وهو نان، وعنى الذين ماس^(٤) والسّمك بالفارسية،
شير ماهي، ومعناه أسد السمك، لأن شير هو الأسد وماهي السمك . ويقول ابن
بطوطة وهو يشبه الحوت السمّي عندما تنارت^(٥) ويعرف لمور في إحدى قري
مدينة قلعت بالمروراري، ويقول ابن بطوطة والمروراري بالفارسية، هو
الجوهر^(٦)، والزمان في جزائر ذبة لهل يسمى آثار، وجلنار بالفارسية جن، الزهر،
ونار الزمان^(٧)

• ويذكر ابن بطوطة، أيضاً، أسماء بعض المواضع، ويتحقق من تفسير تلك
التسميات، فهي مدينة الماجر، إحدى مدن الترك، موضع يقال له بش دغ،

(١) المصدر نفسه ٢٧/٢

(٢) المصدر نفسه ٣١٩/١

(٣) المصدر نفسه ١٤٤/٢

(٤) المصدر نفسه ١٤٥/٢

(٥) المصدر نفسه ٢٤١/١

(٦) المصدر نفسه ٢٤٣/١

(٧) المصدر نفسه ٢٢/٢



ومعنى شئ عندهم حمسة، ومعنى دغ الجبل؛ أي الجبال الخمسة^(١) أما في الهند،
فهناك موضع يقال له بيج هير، ومعنى بيج خمسة، وهير الجبل، فمعناه خمسة
جبال^(٢)

■ أمّا الحكّام والسلاطين، فقد حظيت رحلة ابن بطوطة، بالعديد من المواقف الدالة
على تعاملهم مع مختلف الحضارات، فحين ولي ابن بطوطة لقضاء في دهلي،
حاطبه السلطان باللسان العربي بل أنت سيدنا ومحمدنا تراصعاً منه وفصلاً
وإياساً^(٣) وعندما دخل ابن بطوطة قصر أمير طور القسطنطينية، وفُتئى قال له أحد
اليهود هناك بالعربي لا تخف، فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد، وأنا المترجم،
وأصلي من بلاد الشام، فسألت كيف أسلم؟ فقال قل السلام عليكم ثم وصلت
إلى فيه عظيمه، واستلطان على سريره. ثم وصلت إليه فسلمت عليه، وأشار أن
أجلس فلم أفعل، وسألني عن بيت المقدس، وعن الصخرة المقدسة، وعن القيامة،
وعن مهد عيسى، وعن بيت لحم، وعن مدينة الخليل -عليه السلام- ثم عن دمشق
ومصر والعراق وبلاد الروم، فأجبت عن ذلك كله، واليهودي يترجم بيني وبينه،
فأعجبه كلامي وقال لأولاده أكرموا هذا الرجل وأمّوه، ثم خلع عليّ خلعة، وأمر
لي يمرس مسرح ملجس، ومظلة من لني يجعلها، لذلك فوق رأسه، وهي علامة
الأمان^(٤)

إن سؤال أمير طور القسطنطينية لابن بطوطة عن هذه الأماكن يؤكد دور الرحالة في
نقل المعرفة والثقافات عبر الأقطار التي كانوا يبحرون بها

ويصف ابن بطوطة أبصاً، وهو في مدينة الختسا من أعمال بلاد الصين حروح
ابن أمير الصين معهم، في برهة بحرية، وقد كان معهم في السفينة أهل الطرب والموسيقى،

(١) رحلة ابن بطوطة. ٣٠٢/١

(٢) المصدر نفسه ٣٦١/١

(٣) المصدر نفسه ١١٩/٢

(٤) المصدر نفسه ٣٢٠/١



وكانوا يفتنون بالصيني والعربي والعارسي، فيقول: وكان ابن الأمير معجباً بالغناء العارسي، فعتوا شعراً منه، وأمرهم بتكريره مراراً حتى حفظته من أفواههم^(١)

ولعل في وصف ابن بطوطة لسلطان فارس أبي عنان، دلالة واضحة على مدى الفاعل الثقافي الذي أثر في التكوين الثقافي لشخصية ابن بطوطة، حيث يقول قانسيتي هيته هية سلطان العراق، وحسنه حسن ملك الهند، وحسن أخلاقه حسن خلق ملك اليمن، وشجاعته شجاعة ملك الترك وحلمه حلم ملك الروم، وديانته ديانة ملك تركسان، وعلمه علم ملك الحوة^(٢) إن هذه المقدرات التي يعقدها الرحالة لا تنهاهم إلا بسب رحلاتهم ومعرفتهم بعادات الشعوب وخصائصها وأنظمتها السياسية والاجتماعية وغيرها مما يجعل منهم محقّ علماء في علم الاجتماع المقارن

وفد كان بعض الرحالة دور في نشر العلم والمعرفة في مختلف البلدان التي قصدوها، فأبو حامد الغرناطي يقول عند دخوله أنقورية ولما دخلت بين أولاد المغاربة أكرموني، وعلمتهم شيئاً من العلم وأطبقت السنة بعصمهم بالعربية، وكنت أجتهد معهم في الإعادة والتكرار في فرائض الصلاة وسائر العبادات، فعلموا صلاة الجمعة، فعندهم اليوم أكثر من عشرة آلاف مكان محط فيه يوم الجمعة ظاهراً وباطناً، لأن ولايتهم عظيمة^(٣) كما جعلت رحلة أبي حامد الغرناطي المغرب بأسماء الأشهر باللغات المختلفة العربية، ولعارسية، واربومية، وأسماء شهور المغاربة وشهور الهند^(٤)

ودخلت بعض الألفاظ المشرقية إلى اللهجة لغرناطية، ومنها ما ذكره ابن الخطيب، حويد، وحويد لفظ تركي أو فارسي وأصله خُد أو تُد بصم الخاء ومعناه

(١) المصدر نفسه ٢٣٦/٢-٢٣٣.

(٢) رحلة ابن بطوطة ٢٥٧/٢

(٣) المشتابي، مجلة المغرب ص ١٣٨، ونظر، المصدر نفسه ص ١٢٥، ١٤١

(٤) أبو حامد الغرناطي، رحلة المغرب: ص ٤٦-٥١



السيد أو الأمير". وفي ترجمة ابن الخطيب لابن الحاج النميري يقول: العذب الجامع بين جزالة المغاربة ورقة المشارقة^(١)

أما ابن خلدون فيشير إلى أن الشاعر العرابطي ابن زمرك^(٢)، قد أرسل بقصائد من وضعه إلى مصر بمتدح فيها لسلطان برقوق^(٣)، ويذكر ابن خلدون الذي كان في مصر وقت وصول هذه القصائد أنه كان لا بد أن تنقل هذه الأشعار المكتوبة بالخط المغربي إلى خط مشرقى لتسهيل قراءتها في مصر^(٤)

وكان للرحالة دور كبير في نقل الكتب والمؤلفات بين اشرق والمغرب وبين العرب و لنبصارى فأدوا بذلك دوراً هاماً في لائصال والتفاعل الثقافي، حيث كانوا يعودون إلى الأندلس والمغرب، وقد بلغ الواحد منهم مبلغ العلماء بما اكتسب من علم ورحله من كتب، وما حصله من معرفة وثقافة جالياً معه ما أمكه الحصول عليه من كتب ومصنفات كان لها الأثر العلمي الكبير في تطور ثقافة بلده، ويصف ابن العربي أثر العائدين من الرحلة، فيقول: لولا أن الله تعالى من بطائفة تفرقت في ديار العلم، وجاءت بلباب منه . فرشوا من ماء العلم على هذه القلوب الميتة وعطروا أنفاس الأمة الرقيقة، لكان الدين قد

(١) ابن الخطيب، معاضة الخراب، المقدمة ٢/٢، وانظر، ابن الخطيب، حطيرة الطيف، ص ١٠٧، والمقري، نفع الطيب، ١٧٨/٢

(٢) المقري، نفع الطيب ١١٠/٧، وانظر، ابن الخطيب، الإحاطة ٣٥٠/١-٣٢١

(٣) هو أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن محمد، أصبه من شرقي الأندلس، ولد عام ٧٣٤هـ وأكمل الرحلة في طلب العلم ولأزدياد، فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم إبراهيم بن أمير المسلمين أبي الحسن، وقيل قتل بعد عام ٧٩٥هـ انظر ترجمته، المقري، نفع الطيب ١٤٥/٧ وما بعدها، وابن الخطيب، لإحاطة ٢٢١/٢-٢٤٠، وابن خلدون، لتعريف، ص ٢٦٤، وبالنسبة تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٣٩-١٤٢

(٤) هو أبو سعد برقوق بن أنص، ويعرف برقوق لثعاني نسبة إلى بحر لدين عثمان بن مسافر تولى الملك أول مرة سنة ٧٨٤هـ وأسيّد ببلنك حتى مات سنة ٨٠١هـ انظر ترجمته، تاريخ ابن خلدون (١٩٧١) مشورات مؤسسة لأعلمي بيروت ٤٥٤/٥-٤٦٢

(٥) انظر، ابن خلدون، التعريف، ص ٣٠٧-٣٠٨.



ذهب، ولكن تدارك الناري سبحانه قدرته ضرر هؤلاء، وتمسكت لحال قليلاً، والحمد لله تعالى^(١)

وقد وضع بعض الرحالة الأندلسيين ولغارية مصنفاتهم التي تضمنت أخبار رحلاتهم بعد أن زاروا مختلف البلاد، فابن سعيد المغربي جال الديار المصرية والعراق ولشام، فجمع وصنف كتابه المشرق في حنى المشرق، حيث أتاح له الفرصة الاطلاع على نخبة من كتب المصارفة، فهو الرحالة الإخباري العجيب الشأن في التجول في الأقطار، ومذحلة الأعيان والتمتع بالخرائن العلمية، وتقصد القوائد المشرقة^(٢).

وذكر بعض الرحالة أنهم قد اطلعوا أثناء تجوالهم في بلاد المشرق، على عدد من الكتب والمصنفات الفقهية، ودرسوها، وأخذوا عنها، مثل صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وغيرها^(٣)، وذكر ابن بطوطة أنه أثناء زيارته لبلاد السودان، وفي مدينة منها سعى اسمها، وجد عبد أميرها كتاب المدهش لاس الخوري^(٤)، ويقول: فجعلت أقرأ فيه^(٥) وقد حصل بعض الرحالة على إجازات برواية مؤلفات بعض الفقهاء ومروياتهم، حيث أجاز الفقيه شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن^(٦)، الرحالة التجيبي ما قرأ عليه من مؤلفاته، يقول التجيبي^(٧): وكتاب فصل الخيل قرأت عليه جميعه، ووهبني نسخة وكتاب فصل إتياع صوم رمضان يست من شؤل، قرأت أيضاً عليه جميعه ووهبني نسخة

(١) التبركي، ميل الابتهاج ٢٨٤/١

(٢) المقرئ، فتح الطيب ٢٧١/٢

(٣) انظر، ابن رشيد، ملء اليد ١٦٢، ١٧٣، ٢٣٧، والتجبي، مستدرك الرحلة، ص ٣٨٦، ٣٨٣، ٣٧٦، ٣٦٥، ٣٦٤، ٣٦٨، ٣٨٤، ٣٨٨، ورحلة الجبالي، ص ١٦، ٤٣، ١، ١٠٢، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧، ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١، ١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨، ١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٣، ١٣٢٤، ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣٠، ١٣٣١، ١٣٣٢، ١٣٣٣، ١٣٣٤، ١٣٣٥، ١٣٣٦، ١٣٣٧، ١٣٣٨، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ١٣٤١، ١٣٤٢، ١٣٤٣، ١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٤٩، ١٣٥٠، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٦٠، ١٣٦١، ١٣٦٢، ١٣٦٣، ١٣٦٤، ١٣٦٥، ١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧٠، ١٣٧١، ١٣٧٢، ١٣٧٣، ١٣٧٤، ١٣٧٥، ١٣٧٦، ١٣٧٧، ١٣٧٨، ١٣٧٩، ١٣٨٠، ١٣٨١، ١٣٨٢، ١٣٨٣، ١٣٨٤، ١٣٨٥، ١٣٨٦، ١٣٨٧، ١٣٨٨، ١٣٨٩، ١٣٩٠، ١٣٩١، ١٣٩٢، ١٣٩٣، ١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦، ١٣٩٧، ١٣٩٨، ١٣٩٩، ١٤٠٠، ١٤٠١، ١٤٠٢، ١٤٠٣، ١٤٠٤، ١٤٠٥، ١٤٠٦، ١٤٠٧، ١٤٠٨، ١٤٠٩، ١٤١٠، ١٤١١، ١٤١٢، ١٤١٣، ١٤١٤، ١٤١٥، ١٤١٦، ١٤١٧، ١٤١٨، ١٤١٩، ١٤٢٠، ١٤٢١، ١٤٢٢، ١٤٢٣، ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦، ١٤٢٧، ١٤٢٨، ١٤٢٩، ١٤٣٠، ١٤٣١، ١٤٣٢، ١٤٣٣، ١٤٣٤، ١٤٣٥، ١٤



يخط يده أثناءه لقله... وكتاب معجم مشائخه قرأت عليه بعضه، وأجارنا صائره وهو مجلدان^(١) ومن الرخالة أيضاً، الذين حفلت رحلاتهم بالرويات والكتب المقررة والمسموعة والمصنقات التي أثير بها في مختلف العلوم والفنون، ابن رشيد. وعذ بعض الباحثين، أن ابن حبير أكثر الرخالة تأثراً بالشرق وبأفكاره، وكان لكتبه تأثير كبير في ظهور أدب الرحلات في بلاد الأندلس والمغرب^(٢).

وكان الرخالة بذلك مؤثرين في الغير لا متأثرين فقط، فالتواصل الثقافي والمعرفي، ظل متواصلاً مع المشرق، وقد نقل كثير من العلماء الأندلسيين والمغاربة كتب أهل المشرق معهم إلى بلادهم، حيث بعث ابن زمرق إلى صديقه ابن خلدون أثناء وجوده في مصر، يطلب منه إرسال بعض المؤلفات لمشرقية والمرعوب من سيدي أن يبعث لي ما أمكن من كلام فصلاء الوقت وأشباههم على العائنة^(٣).

ومن الكتب التي جلبت من المشرق، كتاب الأمالي لأبي علي القالي^(٤)، وقد أشار ابن خلدون إلى أن القالي قدم من المشرق، فأورث أهل الأندلس علمه^(٥) فتأليفه مطلب كن المثقفين في الأندلس والمغرب، وكان تأثير أبي علي القالي كبيراً في نقل علوم اللغة والأدب في الأندلس والمغرب في الأندلس والمغرب^(٦) أما كتاب الأصبهاني لأبي الفرج الأصبهاني، فقد أرسل في طلبه الخليفة المستنصر^(٧).

(١) النجيب، مستعاد الرحلة، ص ٤٢-٤٨ وما بعدها.

(٢) انظر، أبو ديك صالح محمد، (١٩٨٧). التبادل المعرفي بين المغرب والأندلس وشبه الجزيرة العربية مجلة الدائرة، السنة ١٣، العدد (٢) ص ١٠٣.

(٣) ابن خلدون، تعريف، ص ٢٠٩-٢١٠.

(٤) وسمر ترجمه في صفحة ١٣٤ من هذه الدراسة، حاشية رقم ٣.

(٥) تاريخ ابن خلدون، ١٤٦/٤.

(٦) انظر، المقرئ، فتح الطب ١، ٣٨٦، و نظر، أمين، حسن، (١٩٨٥) العلاقات الثقافية بين الأندلس وبلاد في العصر العباسي الماهل، السنة ١٢، العدد (٣٣)، ص ١١٩.

(٧) هو لحكم الثاني المستنصر (٢٥٠هـ-٢٦٦هـ)، أكثر العلماء الأندلسيين ناصحاً وحرية فكرياً، انظر ترجمته، الصبي، بنية الشمس ١/ ٤٠-٤٢ والمقرئ، فتح الطب ١/ ٣٨٢ وما بعدها.

ولعل معظم الكتب التي افنتها مكتبات قرطنة الخاصة والعامة، هاجرت مع العلماء وطلاب والتجار وغيرهم إلى أنحاء الأندلس المحتقة^(١)، وكانت هي التي صدعت كبـ الرحانة ابن العربي، وقرعت حلده، وكان عدم فهم فقهاء بلده لتلك لكتب، هو ما جعله يقرر الرحلة في طلب العلم، حيث يقول وناهيك من أمة يجلب إليها هذا القدر الطميف، فلا يكون منهم أحد يضاف إليه، إلا بصدة العاجر الضعيف وبذرت في نفسي طيه، لئن ملكت أمري لأهاجرن إلى هذه المقامات، ولأفدن على أولاء الرجالات، ولأتمرس بما لديهم من اعقائد والمقالات.^(٢)

هذا، لم يكتب الرحالة الأندلسيون والمعاربة يجلب الكتب وحسب، بل خاص بعضهم غمار الحركة الفكرية، فأولوا العلوم التشريعية عناية خاصة، حيث خصصوا لها العديد من المصنفات، ودونوا المسائل الفقهية، وتناولوها بالاختصار أو الشرح أو التعليق، ومنهم أبو بكر العربي، وابن رشيد، ولنجي، وابن تومرت، وعبيد الدين بن عربي، لذي قيل عن كتبه لها سلال اليمن والروم صيت عظيم^(٣) وفي ذلك دلالة على عناية الأوروبيين بكتب المسلمين

أما ابن الخطيب وابن خلدون، فقد تركا مؤلفات عديدة، دامت وانتشرت بين البلدان، لتشهد على براعتهما في التاريخ والأدب والرسائل ولشعر ويظهر من ذلك أن الثقافة المشرقية، قد بركت ظلها في الثقافة والفكر الأندلسيين والمغربيين، حيث وفق لأندلسيون والمعاربة بين ثقافة المشرقة وثقافتهم، إلى أن أخذت نمو حصاره متميره للأندلسيين والمعاربة، لها شخصيتها وطاقها

(١) انظر، لقري، مع الطيب ١ ١٥٥ ٣٨٥ ٣٨٦

(٢) ابن العربي قانون لتأويل، ص ٧٦-٧٧

(٣) لقري، مع الطيب ١٦٦/٢



كما انتقلت لثقافة الإسلامية إلى الدول لأوروبية، وتطوّرت لتترك أثر كبيراً في الفكر المسيحي واليهودي، فعبّر هذا الامتزاج اللغوي عن تفاعل الحضارة العربية الإسلامية بالحضارات الأخرى، مما جعلها بحق لغة الحوار الحضاري الأندلسي والمغربي آنذاك^(١)

ب السفارات والاستفادة من ثقافة الآخر

أدت السفارات دوراً مهماً، ساعد على تطوير العلاقات الثقافية وتعميقها، فمدت نصّاً من نصوص الرحلات، وعكس صورة المصالح الثقافي بين مختلف الحضارات. وكانت مجالس الخدم والسلاطين والملوك، تمثل صورة من صور التفاعل الثقافي، فقد مثل بلاط روجر الثاني ملهى الحضارة العربية والأوروبية، حيث صوّرت حرائط الإدريسي العالم للأوروبيين، وعده كتابه أكثر كتب الجغرافية باللغة العربية روجاً وصيتاً في أوروبا^(٢) وكان تكليف روجر الثاني لعالم عربي بالذات بوضع وصف للعالم المعروف آنذاك ليدل ساطع على تفوّق الحضارة العربية في ذلك العهد وعلى اعتراف الجميع بهذا التفوق^(٣). أمّا ابن بطوطة، فقد وصف إحدى ليالي في مجلس السلطان أوزبك خان، حيث يقرأ القراء بالأصوات الحسن، ثم يأخذون في الغناء يُعَنّون بالعربي ويسمّونه القول، ثم بالفارسيّ يسَمّونه الملمع^(٤).

(١) ونريد من الاطلاع على هذا الامتزاج اللغوي وأثره في التفاعل الثقافي بشكل عام- انظر، بالنيابة، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٤٨٥-٤٨٨، وريموند هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٥٢٩، و لأندلس قرون من التقنيات والعطاءات، كحيلة، عبادة عبد الرحمن رضا، الخصوصية الأندلسية، أصولها الجغرافية، ابن رض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٩٩٧، ط ١، ٤٤١/٢ وانظر، العبادي، أحمد مختار، (١٩٧٩) الإسلام في أرض الأندلس، مجلة عالم الفكر، مجلد ١، عدد (٢)، ١٩٧٩، ص ٥٩-١١١ Nicholson, R A, (1996) Ahterary History of the Arabs Watt, W M (, ٩67) A History of Islamic Spain (Islamic و India S Sajid Ali, P 415 Surveys,4, Edinburgh, University Press, P 151

(٢) كرتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٠٤

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٩

(٤) رحلة ابن بطوطة ٢٩٩/١

ولنأخذ أهم جوانب الحياة السياسية، التي عكست صورة التعامل الثقافي وحلقت جواً من حوار الحضارات والثقافات، هي السفارات^(١) وماراقفها من ترنيمات أمية واهتمام خاص بنظام التشريفات، وتبادل للهدايا بين الملوك، فقد حرصت الدول من خلال السفراء على المحافظة على كيانها وتقريب علاقاتها مع الدول الأخرى من مستوى المحايدة إن لم يكن مستوى الصداقة، حيث شكّلت السفارات بين الدول مجالاً وسعاً للانفتاح على مختلف الجوانب الحضارية، فكان لا بد من اتصال الحكام وأمرأه الأقاليم المختلفة ببعضهم، ولا بد، أيضاً، من اتصالهم بغيرهم من حكام صر المسلمين، فالظروف السياسية الداخلية والخارجية، كانت تستوجب وجود السفارات وتعدد السفراء، لعقد التحالفات والمعاهدات، وصولاً إلى الأمن والاستقرار، وتنظيم العلاقات الدولية، وإبرام الاتفاقيات، بهذا يكون السفراء قد أدوا دوراً هاماً في ررع بدور لثقافة العربية الإسلامية، ونشر الثقافات المختلفة بشكل عام إلى انحاء الدول الأخرى وقد كان بعض الرحالة سفراء بلادهم للبلدان الأخرى، ثم سفراء تلك البلدان إلى غيرها، حيث نقلوا صورة جليلة عن أحوال البلاد العربية والإسلامية، وأحوال بعض الدول الأوروبية، فكتبت الرحلات، بذلك، أبرز ملامح التفاعل بين المسلمين والناصر الأخرى. ولعلّ رحلة يحيى العرّال^(٢) تؤكد دور السفراء في التعامل الثقافي، من خلال عهدهم لمجالس التناظر والتناظر التي ساهمت في تطوّر الثقافات وتمازجها، حيث كان للغزال مع الروم مجالس مذكورة، ومقاوم مشهورة، في بعضها جادل علماءهم فبكتهم، وفي بعضها ناضل شجعانهم فائسهم^(٣). كم تناظر العرّال مع زوجة ملك الروم التي أعجبت به وسحاورة معها واستمعت لسماع شعره بعد أن يترجمه لها المترجم، ليس هذا وحسب، بل إن

(١) انظر، هذه للدراسة، ص ٢٣-٢٧

(٢) انظر، ابن دحية، المطرب، ص ١٤٢ ١٤٣. والمفري، مع الطيب ٢٥٧/٢ ٢٥٩

(٣) ابن دحية، المطرب، ص ١٤٢. وانظر، دور سفارة العرّال في التبادل الثقافي، جرّار، رمان ابووصل،



سفارة الغزال كشفت عن دور المرأة في فتح باب التواصل الثقافي والاطلاع على ما لدى كل طرف من أخبار وثقافة

وكشفت سفارة ابن خلدون عن دور اليهود والنصرى، الذين يعملون في قصور الأندلسيين والمغاربة والأوروبيين، وتقربهم إلى السلاطين ليكونوا من خواص رجال الدولة، ومنهم الطبيب اليهودي إبراهيم بن رزرق، كما وصف ابن خلدون الهدايا التي حملها إلى ملك قشتالة من السلطان المغربي بالله، وما حمله ملك قشتالة من هدايا للسلطان المغربي بالله ولابن خلدون^(١)، ويرى صلاح جرار أن سفارة ابن خلدون تدل على عمق الاتصال الثقافي بين الأندلس وقشتالة، وأدوات هذا الاتصال، فهو يكشف عن دور العلماء والمثقفين الأندلسيين بما يحظون به من تقدير لدى الأوروبيين- في إنجاح مساعي التقارب بين الأندلس وجيرانها الأوروبيين^(٢). كما أن سفارة ابن خلدون كشفت عن دور بعض العناصر اليهودية والمسيحية التي يتنقلون للعمل في قصور الأندلسيين وقصور الأوروبيين في لتقريب بين الطرفين، وتعريف كل منهما بثقافة الآخر^(٣) ويصف ابن خلدون أيضاً انتظامه في محسن أبي عسان، وحصوله على المائدة من السمرات، حيث يقسول وحكف على النظر، والقراءة، وبقاء المتباعدة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس لروايتهم في غرض السفارة وحصلت على الإعادة منهم^(٤)

أما الرحالة بن بطوطة، فقد كان له دور كبير في تساع دائرة التبادل الثقافي، من خلال سفارته^(٥) وزياراته للسلاطين والملوك، وتحاوره مع زوجاتهم، وتزويدهم بثقافة بلاده واكتسابه من ثقافة بلادهم، ومن ذلك حديثه مع ملكة مدينة كيلوكري إحدى

(١) ابن خلدون، التعريف، ص ١٢٥، ١٢٨، ٤٠٦، والمقري، معج الطيب ١٢٠/٥، وانظر هذه الدراسة، ص ٢١، حاشية رقم ٥

(٢) جرار، زمان الوصل، ص ٢٨

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨

(٤) ابن خلدون، التعريف، ص ١٠٢

(٥) انظر، رحلة ابن بطوطة ١٣٥/٢، والدراسة هنا، ص ١٤، حاشية رقم ١

مدن جاوه ، التي كانت تتحدث بالتركية، وترغب في الاطلاع على ما لدى الرحالة ابن بطوطة من ثقافة ومعرفة، ثم أسهم في تفعيل دور الرحالة ضمن إطار التفاعل الثقافي يقول ابن بطوطة : . وكانت تحسن الكتاب العربي فقالت لبعض خدمها دراة ويتك كاتور، معناه الدواة والكاغذ، فأوتي بذلك، فكتبت، بسم الله الرحمن الرحيم، فقالت ما هذا؟ فقلت لهـ - - - - - أنصري نام ومعنى ذلك، اسم الله، فقالت حسن ومعناه جيد. ثم سألتني من أي البلاد قدمت؟ فقلت لها من بلاد الهند، فقالت: بلاد المنفل؟ فقلت نعم فسألتني عن تلك البلاد وأخبارها، فأجبتها^(١)

وكان لسقراء الدول الأخرى دور في ترويض بعض الرحالة في مختلف الثقافات، ومثال ذلك ما كتبه ابن الخطيب في كتابه أعمال لأعلام عن تاريخ الممالك المسيحية الإسبانية، وهي فشتاله، وأراجون، والبرتغال، وبيون، وبرمشويه، وقد استعان ابن الخطيب في كتابة هذا الجزء بسفير مملكة قشتالة يوسف بن وقار الإسرائيلي في أثناء زيارته لمملكة غرناطة في مهمة رسمية، وفي ذلك يقول: وقد كنت طللت شيئاً من ذلك من فطته، وهو الحكيم الشهير، طبيب دار فشتاله وأستاذ علمائها، يوسف بن وقار الإسرائيلي الطليطلي، لما وصل إلينا في غرض لرئاسة عن سلطاننا، فقبّدت لي في ذلك تقييداً أقل منه بلفظه أو بمعناه ما أمكن، وأستدرك ما أضلل، إذ ليس بقادح في العرض^(٢).

ومن جانب آخر، فإن الهدايا والهبات والأعطيات التي رافقت السقراء، وتبادلها ملوك البلدان المختلفة، عُدّت مطهرات من مظاهر التماثل الثقافي، ونقل لعدوات والمعتقدات وعكست صوراً لمختلف جوانب الحضارة في تلك البلدان. فقد وجّه ملك الروم إلى أبي عسان هدية احتفل بها غاية الاحتفال، وأعرب بها عن مخافته ولسان الحال أفصح من لسان الحقال فما سبق من بلاده أحسن من بغلاته التي أومدها شاحمة، حافظة للصواهل أرحاماً واشجة من كلّ مشرفة الهادي نبات عبد الضال، عيلة لم تر

(١) انظر: رحلة ابن بطوطة ٢٢١/٢

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٣٢٢-٣٢٨



شاحمة عنثرة إلا يهده الموقف الكريمة والجمال نيرة اللون لا يسابقها ظليم، عجيبة قياس مشيها متنج وهي عقيم، عالية القرى مرمعة كمار القرى، ولحوابرها في زيارة الأرض ذات الطول والعرض . بعلات حس ما فخر، وأنشدت وما التأنيث باسم الشمس عار فهي محار ركبت محاراً، ووافقت أعظم منها جواداً وإيثاراً^(١)

إن هذه لاتصالات الدبلوماسية بين مختلف الأطراف وتبادل الوفود والسفارات، احتاجت لتربيات أمنية معينة في عمية الاستقبال والوداع، الأمر الذي دعا إلى تطور نظام لتشريفات في تلك العصور، فقد كان ملك انصارى عليام يحيط نفسه بحرس من المسلمين، حيث يقول ابن جبير وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ القيان المجايب وهو كثير ثقة بالمسلمين، وماكن إليهم^(٢)

أما ابن الحاج الميري فيذكر في رحلته أن الانصارى قد شكلوا عصباً من عناصر السكان في فاس، وفضل جزء كبير منهم الخدمة والانضمام إلى الحاشية السلطانية، ومنهم من حل اسلحاً وحارب إلى جانب الجيوش المغربية، وذكر أيضاً، أن عناصر الجيش تألفت من الأعلاج الرومية، والممالك الرميحة والأحساد الأندلسية، والطوائف التركية ولترية، والأمازيق العرائية، والمصرية ولشامية واليمية والهندية وسائر لتركمانية^(٣) بالإضافة إلى الجنود المغربية

وقد اتخذ بعض السلاطين تربيات أمنية أخرى، بحيث يتم إخبارهم عن يدخل أو يخرج من البلاد، حيث كان لسلطان الموحدين محمد شاه جماعة من المحبرين فإد كتب المحبرون إلى السلطان يخبر من يصل إلى بلاده، استوعبوا الكتاب وأمعوا في ذلك وعرفوه أنه ورد رجل صورته كذا، ولباسه كذا، وكتبوا عدد أصحابه وعيانه، وخدماته ودوابه، وترتيب حابه في حركته وسكونه، وجميع تصرفاته، لا يغادرون من ذلك كله شيء^(٤)

(١) ابن الحاج الميري، فيص انساب، ص ٢٩، وانظر المصدر نفسه، ص ٢٢٥-٢٢٧

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٧-٢٩٨، وانظر المصدر نفسه، ص ١٧٧، ٢٠٦

(٣) ابن الحاج الميري، فيص انساب، ص ٢٤٣، وانظر رحلة ابن جبير، ص ٢٥

(٤) رحلة ابن بطوطة ٩/٢



ومن الاحتياطات الأسمية، أيضاً، أنه من عادة ملك أهند أنه يجعل مع كل أمير، كبير أو صغير، مملوكاً له يكون عيناً عليه ويعرفه بجميع حاله، ويجعل أيضاً جراري في الدُور يَكُنْ عيوناً له على أمرائه، ريسوة يُسميهن الكتاسات، يدخلن الدُور بلا استئذان، وغيرهن الجواري بما صدرن، فتحير الكتاسات بذلك ملك المخبرين، فيحبر بذلك السبطان. ^(١)

وفد ألفت بعض الرحلات الصُّور على كثير من صور الترتيبات الأسمية المتبعة في استقبال السلاطين للروار أو توديعهم لهم أو نظام التشریفات في مختلف المناسبات، لا سيما في الأعياد، فابن بطوطة يصف الترتيبات المتبعة في محل قعود السلطان محمد أوزبك حان وسفره، حيث كانت أمور ترتب تريباً عجيباً، بحيث ينسى من أراد السلام عليه الوصول إليه، فمن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب مربية بديعة، وهي من فضين حشب مكسوة بصفائح الذهب، وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة لدهة وقوائم فضة خالصة ورؤوسها مرصعة بالجواهر ويصف أسفل اسرير على اليمين ولد لسلطان وعن الشمال ولده الثاني. وتجلس بين يديه ابنته وأما طبطعلي وهي الملكة فإنه يستقبلها إلى باب القبة، فيسلم عليها ويأخذ بيدها، فإذا صعدت على السرير وجلست، حيث يجلس السلطان. ويأتي بعد ذلك كبار الأمراء فتصحبهم كراسيهم عن اليمين والشمال، وكل إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه، ويقف بين يدي السلطان أباء الملوك من بني صته ورحوته وأقاربه، ويقف مقابلهم عند باب القبة أولاد الأمراء لكبار، ويقف خلفهم وجوه المساكر من يمين وعن شمال، ثم يدخل الناس للسلام الأمثل فالأمثل، ثلاثة ثلاثة، فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بُعد ^(٢)

ويصف ابن بطوطة، أيضاً، ترتيبات خروج الخاتون زوجة أوزبك حان، -اسم امبراطور القسطنطينية- ثم يصف ترتيبات استقبالها في بيدها، فيقول ونرجل لها أخوها، لأنه أصغر منها، وقتل ركبائها، وانصرفت مع أخيها ووصل أخو الخاتون ولي العهد

(١) المصدر منه ٩٦/٢، وانظر أيضاً، المصدر منه ٥٣، ١

(٢) رحلة ابن بطوطة ٣٠٤ ٣ ٢/١، وانظر أيضاً، المصدر منه ١٦/٢ ١٧



في ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع، وعلى رأسه تاج وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك، وعن يساره مثلهم، وقد رُتب هرمائه على ترتيب أخيه سواء، إلا أن الحمل أعظم وجمع أكثر. وصريت عند الصباح الأطباء والأبواق والأنهار، وركبت العساكر. وخرج السلطان وروجه أم هذه الختاتون، وأرباب الدولة والخوص، وعلى رأس الملك رواق يحمله خصوع التجار المسيحيين وغيرهم لبعض القيود في الموضع الإسلامي، إلا أن معظم المبادلات جملة من الهرمان، ورجال بأيديهم عصي طوال في أعلى كل عصا شبه كرة من جلد يرفعون بها الروق ولما أقبل السلطان احتلقت العساكر وكثر المعجاج. (١٢)

وفد هال بن بطوطة تلك الترتيبات المتبعة لأي زائر يقصد إمبراطور القسطنطينية يصف دخوله قصر إمبراطور القسطنطينية، فيقول: وفي اليوم الرابع بعثت إلي الختاتون الفتى سبل اميدي، فأخذ بيدي، وأدخلني القصر، فجرنا أربعة أبواب في كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم فلما وصلنا إلى الباب الخامس تركني امي سبل ودخل، ثم أتى ومعه أربعة من لغتيان الروميين ففتشوني لئلا يكون معي سكين، وقال لي الفائد تلك عادة لهم، لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك (١٣)

وكما حرص الحكام والسلاطين على الأمن داخل قصورهم، حرصوا على أمن البلاد وسكناها، فقد وصف ابن بطوطة حالة الأمن في بلاد الصين، وذلك بقوله وبلاد الصين آمن البلاد وأحسها حالاً للمسافر، فإن الإنسان يسافر مفرداً مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها، وترتيب ذلك أن لهم في كل منزل ببلادهم فندقاً عليه حاكم يسكن به في جماعة من لفرمان والرجالة، فإذا كان بعد المغرب والعشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه، فكتب أسماء جميع من بيت به من المسافرين وختم عليها، وأقبل باب الفندق عليهم، فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه، فدعا كل إنسان

(١) المصدر منه ٣١٦-٣١٧، ونظر أيضاً المصدر منه ٢٧٧/٢

(٢) المصدر نفسه ٣١٩/١



باسمه وكتب به تفصيلاً، ويبحث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثاني له وبأتية براءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه، وإن لم يفعل طلبه بهم^(١) إن هذه الصور التي نقلتها الرحلات لسفارات والرتيبات الأمنية في البلدان العربية والإسلامية ولأوروبية، أطلعت كل جانب على حضرة الجانب الآخر، في نظام تشريفاته وقرتيته الأمنية، بل إن ما قام به بعض الرحالة من مقارنات بين هذه الحواش الحصارية، يقدم صورة جلية للمتلقي عن تلك الأنظمة في مختلف البلدان.

ج الحياة الاقتصادية والنشاط العمراني

أظهرت الرحلات أن العلاقات بين لأندلس والمغرب والمشرق وبعض الدول الأوروبية، أخذت تتسع لتعبر ملامح حصارية واحدة، فالمجتمع الأندلسي والمغربي اكتسب من العناصر المتنوعة محيزات كثيرة، فهص في مختلف المجالات والأنشطة بحيث صهرت الرحلات تلك الحضارات والثقافات في وحدة حضارية مشتركة، فما هو إنساني تتلاقى فيه الحضارات.

ومن تلك المجالات التي ألفت الرحلات الصور على دورها في التعامل الثقافي، التجارة، وقد أشارت الدراسة سابقاً^(٢)، إلى أن التجارة أدت دوراً هاماً في تطور الحضارة العربية في العصور الوسطى، فكان التجار وسطاء فكر وثقافة ودعاة علم ومعرفة، مثمما كانوا وسطاء نقل للسلع المختلفة، ومثلت التجارة داعماً هاماً إلى التجوال وتبادل الخبرات، ففتح عن هذه الصلات اتجارية فوائد معرفية وثقافية وجمعية ومادية متعددة، حيث مدرس النصارى واليهود في المدن الإسلامية كافة ألوان النشاط الاقتصادي وغير الاقتصادي، وتغلدوا المناصب الهامة في الدولة

إن تبادل السلع التجارية في القرون الوسطى، دلالة على العلاقات والتواصل بين البلدان والأطلاع على ما لدى الدول، ولعل رحلة بياض التظلي تقي الضوء على مثل

(١) رحلة ابن بطوطة ٢٢٥/٢

(٢) انظر، هذه الدراسة، ص ٩٢ ١٠١



هذا الدور، حيث كان الرحالة نفسه ت جراً بدليل اهتمامه بالشؤون الاقتصادية ولأحوال التجارية لبلدان التي زارها، ووصفه لأحوال اليهود في كل مدينة زارها وظروفهم ومراكزهم الاجتماعية، وطرق كسبهم وتجارتهم، كما يصور لتاجر اليهودي الذي يجوب الأقطار البعيدة، قادماً من أوروبا يحمل مختلف البضائع والسلع بليغ، ثم يعود إليها ساج اشرق العبي بحيراته ومحاصيله^(١).

ويذكر بيامين التطيلي، كذلك، مواقع التجارة المدة لليهود، مثل مدينة موبليه المرسية التي كان يجتمع فيها التجار من نصاري ويهود ومسلمين، من مختلف الأمصار من المغرب ومرسا وإسبانيا وإيجلتر من الذي يتحدثون بكل لغة ولسان^(٢)، ويشير أيضاً إلى أسواق الإسكندرية التي يؤمها التجار من الممالك الصراية كافة، وناتيا من الهند الوبل والعطور بأنواعها فيشترها تجار انصارى^(٣).

وقد أشارت بعض المصادر إلى بعض المواقع التي يلتقي فيها التجار من مختلف الطوائف فمدينة لمرية الأندلسية كانت ملتقى التجار المسلمين والروم ومراكبهم^(٤) ويذكر ابن بطوطة أن في القسطنطينة حثاً خاصاً بالتجار الأحانب الذين يعدون عليها من جميع الجهات، وأن المدينة يعيش فيها مختلف الطوائف من الناس، بعضهم مسلمون ومنهم الروم والروم وهم نصارى^(٥)، ويذكر، أيضاً، أن هناك قسماً خاصاً بنصاري لأفريق يسكنونه، وهم أصناف منهم الجويتون، والبنادقة وأهل رومية وأهل إفراسنة^(٦).

وذكر بعض الرحالة العملات وطرق التعامل النقدي في مختلف البلدان، من خلال مقارنتها بعملات الدول لأخرى، فمثل هذا الحديث يحسن في طياته ملامح التفاعل الثقافي^(٧).

(١) انظر، رحلة بيامين التطيلي، ص ١٦، ١٩-٢٠، ٣٧-٣٨.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ٥٣.

(٣) انظر، المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٤) انظر، القري، دفع الطيب ١٦٢/١-١٦٣.

(٥) رحلة ابن بطوطة ٣٢٦/١.

(٦) المصدر نفسه ٣٢٠/١.

(٧) انظر، المصدر نفسه ٢٥٨/٢، وانظر، هذه الدراسة، ص ٩٩-١٠١.



أما ابن خلدون، فيشير إلى دور التبادل التجاري في التعامل الثقافي، لا سيما عن طريق مصر، حيث يقول ولا أوفر اليوم في الحصار من مصر، فهي أم العالم، وليوان الإسلام، ويتنوع العلم والصنائع.^(١)

إن انتشار مصوغات ومنتجات مختلف البلدان في مختلف الأقطار يؤكد عموم التعامل الثقافي في مختلف المجالات، كما أن التشابه في الإنتاج والصناعات يدل على أن الإسلام كان عاملاً توحيد تجاري إلى جانب كونه عاملاً توحيد ديني وثقافي بين بلدان العالم الإسلامي، فرغم الاقتصادية كانت تجري على أساس المساواة والاحترام المتبادل، وكانت السفن تحمل على متونها الناس من كل دين وجنس ودون تعصب، فقد استخدم الرحالة ابن بطوطة نفسه سفناً جنوية^(٢) في رحلاته، كما اشترى عجلة تجرها فرس من طائفة نصرانيه في بلاد الأتراك^(٣).

ولاحظ ابن جبير حين رار دمشق، أن تجار الطرفين المسلمين والنصارى يغدون ويروحون في ديار المسلمين وديار النصارى سرون أي صعوبة تحقيق طريقهم ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين المتيين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان ويضع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى مختلف بينهم دون اعراض عليهم. وحلاف القوافل من مصر إلى دمشق على ملاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك، وتجار النصارى أيضاً، لا يمنع احد منهم ولا يعترض^(٤) ويبدو من ذلك أن الطوائف المتعددة كانت تجتمع في الأسواق، وتجري العلاقات بينها بشكل عادي، فتوثقت الصلات بين التجار على الرغم من اختلاف محلهم، وقويت علاقات الود وشائج المعرفة.

(١) المقدمة، ص ٤٥٢

(٢) رحلة ابن بطوطة ٢٩٤/١

(٣) انظر، نفس المصدر والحزم والصحة

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٦٠



ولعل في بعض عادات بعض الشعوب التي زارها الرّحالة ما ينطوي على ملامح التوصل والانفتاح على ثقافة الآخرين، فإن أهل الصين يحترمون التجار من المسلمين عدية لاحترام ولا يؤخذ منهم أحشار في بيع أو شراء، ولا مكس^(١)، وفي مدينة بانباس يتشاطر الإفرنج والمسلمون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف، يجري بينهما فيها^(٢)

أمّا النشاط العمراني، فقد كان حكام المسلمين يستعيون بالصناع الإفرنج، حين أمر أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ببناء اجتماع لأمرى، وجه إلى ملك الروم بقسطنطينة يأمره أن يبعث إليه لصناع فبعث إليه اثني عشر ألف صانع^(٣).

ويصف ابن بطوطة جندف، فيقول: "وهي بلدة قديمة على ساحل البحر يقصد البحر الأحمر"، يقال: إنها من عمارة الفرس، وبجارجها مصانع قديمة^(٤) أما ابن جبير فيذكر جامع مدينة حرّان^(٥) المكرّم، حيث يقول: "وهو عتيق عجّذ قد جاء على غيبة الحسن، وله صحن كبير فيه ثلاث قباب مرتفعة على سوار رخام. وتحت كلّ قبة بئر عذبة وفي الصحن أيضاً قبة رائعة عظيمة قد قامت على عشر مسور من الرخام دور كلّ مسارية تسعة أشبار وهذه اقنة من بياض الروم، وأعلها بحجّوف كأنه الرح المشيد، يقال إنّه كان محروبا لعذتهم الخريسة^(٦)".

وكان حكام البلدان المحلّمة يهتمون بمعرفة أحبار المشرق وفنّ العمارة فيها، لذا فقد كان ملوك المسلمين بأمرؤن بأن يندار يرسل ملوك الروم في مختلف المدن الإسلامية حتى يروا عمارة تلك المدن^(٧).

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٢/ ٢٢٣، ٢٢٥

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٣ - ٢٧٤

(٣) رحلة ابن بطوطة ١/ ٨٢.

(٤) رحلة ابن بطوطة ١/ ٢٢٠، انظر، (النجي)، مستعاد الرحلة، ص ٢١٨

(٥) انظر الدراسة هـ، ص ٨١، حاشية ٨

(٦) رحلة ابن جبير، ص ٢٢١

(٧) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص ١٢٨



وبهذا، فإن الرحالة استطاعوا أن يرسموا صورة جليلة لمعظم مبادئ الشعوب ونقائدها، وأنظمتها لأمية، ومختلف الأنشطة الثقافية واقتصادية، حيث بينت الرحلات أن العلاقات بين مختلف العصور كانت تقوم على أساس الأخذ والعطاء، ومساهمة كل طرف في تطور الحضارات وازدهارها، فلا حرب في أن يحدث مثل هذا التأثير بين مختلف الطوائف في الأندلس، المسلمون، واليهود، والنصارى، فهم يعيشون في بيئته واحدة وبلد طويله، الأمر الذي ترك أثره في نفوسهم جميعاً، فتشكّلت حضارة إنسانية ذات أصل واحد، حيث لا حضارة معزولة عن الحضارات الأخرى، فكل حضارة تأخذ من الأخرى يسهم ذلك في تكوين المجتمع الإنساني المزود بالكثير من المعومات في شتى الميادين



الفصل الثالث

الرحلة والسيرة الذاتية



١- السيرة الذاتية: المفهوم والنشأة

إن حاجة المرء للتعبير عن ذاته أمر طبيعي عند الناس جميعهم، عند بداية الوجود الإنساني، وهو راعب في البقاء والخلود يريد - جهد استطاعته - أن يؤكد ذاته فكان يكتب اسمه وطرفاً من حياته على أحجار يبسبها فوق مقبرته، وكان هذا أول غرض قصد إليه الإنسان منها^(١)

وعلى الرغم من أهمية الدراسات التي عمت سيرة الذاتية، وعاصرها التي تميرها عن المصون الأدبية الأخرى مثل المذكرات، وليوميات، والاعترافات، والرسائل، ولرحلات، فإن هذه الدراسات لم تستوف كل ما يمكن أن يقال في من السيرة الذاتية، الأمر الذي جعل من اعتبار السيرة الذاتية جنساً أدبياً مستقلاً في الأدب العربي إشكالية كبيرة صعب معها ضبط الفوارق بين المذكرات، والاعترافات، واليوميات والرسائل، وسير الذاتية

غير أن لسيرة الذاتية تبقى نوعاً من الأدب الحميم الذي هو أشد لصوقاً بالإنسان من أية تجربة أخرى يعانها^(٢)

ومن التعريفات التي وقع عليها البحث للسيرة الذاتية، تعريف جاور عبد السور، حيث قال: إنها كتاب يروي حياة المؤلف بعلمه، وهو يختلف مادة ومنهجاً عن المذكرات وليوميات^(٣)

(١) انظر، ضيف، شوقي، (١٩٥٦) الترجمة الشخصية، القاهرة: دار المعارف، ص ٢٧، وبدوي، عبد

الرحمن، (١٩٦٢) الموت والمعبرة، ط ٢، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ص ١٠٩

(٢) شلق، علي، (١٩٧٤) لشر العربي في عداجه وتطوره معصري النهضة والحديث، ط ٢، بيروت: دار القلم، ص ٣٢٤

(٣) حد النور، جاور، (١٩٧٩) المعجم الأحي، سان، بيروت: دار الملايين، ص ١٤٣.



وعند مجدي وهبة وكامل لمهندس، السيرة الذاتية سرد متواصل يكتبه شخص ما عن حياته انفاضية^(١) وفي الموسوعة البريطانية السيرة الذاتية نوع خاص من السيرة يسرد فيه المؤلف حياته بقلمه^(٢).

وبصورة أسط بقول ستارويسكي: هي سيرة شخص يرويها نفسه^(٣)، بحيث يكتب تاريخ نفسه نفسه، فسجل حوادثه وأحاديثه ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته. أي أنها تبدأ من أصل الأسرة والطفولة، ثم تتدرج حسب أدوار العمر، تسجل فيها الوقائع يوماً فيوماً، أو دفعة واحدة، أو بصيغة متقطعة بعد أن تجمع عناصرها من مصادر متعددة^(٤).

ويرى أحمد علي آل مريع أن السيرة الذاتية تعني الشمول والامتداد الزمني والاحتصاص بالذات والتركيز عليها وكشف معالمها الداخلية -ويرى أن السيرة الذاتية أكثر استيعاباً ونصجاً ووعياً بالذات من سائر الأنواع السابقة، وأنها كلها بما فيها السيرة الذاتية أجراء داخل فرع من فروع الأدب، يعنى بالشخصيات الإنسانية، ويهتم بالبحث عن الـ (أنا) أو (الذات) لفهمها أو لشري ماحتها، وشري الإنسان بمختلف التجارب ولعواصف أو ينه لئاس إلى قيمتها وما قدمنه من تصحيات وب انجرت من أعمال أو ليراقب حركتها ونموحاتها في الحياة أو ليعمل ذلك كله معاً^(٥).

(١) وهبة، مجدي، المهندس كامل، (١٩٨٤) معجم المصطلحات العربية في اللغة ولأدب، ط ٢، بيروت مكتبة لبنان، ص ٩٤.

(٢) International copy right unios(1974). The New Encyclopedia Britannica, USA Volume 11 P 24

(٣) نقلاً عن، البخوب، شكري، (١٩٩٢) سيرة، لعائب، سيرة الأني السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطفه حسين، تونس دار الجنوب، ص ٩.

(٤) أبو الخير، محمود، (١٩٨١) الترجمة الذاتية في الأدب العربي، مجلة أفكار الأدبية، عدد (٤٩)، ص ٦-٧ وحسن، محمد عبد العبي، (١٩٥٥) التراجم والسير، القاهرة دار المعارف، ص ١٢٣.

(٥) آل مريع، أحمد، (٢٠٠٣) الحدا والمفهوم، أبها سادي أبها الأدبي، ص ٨٣-٨٤، وانظر، مهران، رشيد، (١٩٧٩) طه حسين بين لسيرة والترجمة الذاتية ط ١، الإسكندرية، المطبع المصرية العامة للكتاب، ص ٢٩.



أما فليب لوجون، فقد حاول أن يقدم تعريفاً دقيقاً للسيرة الذاتية، إذ يقول إنها تحكي استعادي نثري، يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة^(١) وهو بتعريفه هذا ركّز على أن الكلام في السيرة مرد لحياة صاحب السيرة، وأن حياته نفسها موضوع السيرة بصفة خاصة، وهذا ما تميل إليه الدراسة هنا

وهذا ما يجب أن يدركه صاحب السيرة الذاتية، مشخصته، وتقلّبات حياته المادية والمعنوية، فضلاً عن أفعاله ومواقفه ونصوّراته. هي المحور الأساس، والأشخاص الآخرون ولأحداث تدور في فلكه، فاسيرة الذاتية وإن عرضت للأحداث التاريخية في عصر كاتب السيرة، فإنها ليست وثيقة تاريخية^(٢)، فليس كل حديث عن العصر سيرة ذاتية، إذ ليست الترجمة حديثاً صادقاً عن النفس، ولا هي تدوين للمفاحر والمآثر^(٣) بل هي قصة حياة إنسان يرويها بنفسه، فصاحب السيرة حين يكتب حياته إنما يقدم لنا شكلاً معيماً لتلك الحياة.

أما اليوميات، فهي سجلّ للتحارب والخبرات اليومية، وحفظ لأحمار، والأحداث الحياتية للشخص^(٤) وهي وإن كانت تعمل على رصد المواقف عند وقوعها إلا أنها تقتصر للحكي الاستعادي في العصر، وتأتي على شكل متقطع غير رتيب^(٥).

(١) لوجون، فليب، (١٩٩٤). السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمه عمر حلي، بيروت: المركز الثقافي العربي، ص ٢٢

(٢) الشاوي، عبد القادر، (٢٠٠٠) لكتلة والوجود السيرة الذاتية في المغرب، بيروت: إفريقيا الشرق، ص ١٣٩

(٣) عباس إحسان، (١٩٥٦) فن السيرة، بيروت: دار بيروت، ص ٩٨

(٤) شعبان، أنغام عبد الله، (١٩٩٠) السيرة الذاتية في الأدب العراقي الحديث مد مطبع القرن التاسع عشر حتى بداية الحرب العالمية الثانية، رسالة ماجستير غير مشورة، جامعة المتصرية، العراق، ص ٣٨

(٥) عبد الدائم بحى إبراهيم، (١٩٧٥) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث القاهرة: مكتبة النهضة، ص ٢.



ويبدو أنَّ هذه اليوميات، لحظات يقف فيها الإنسان مع نفسه، ويدون ما يدور في دخله يوماً بيوم، ويذكر ملاحظاته عن الأحداث التي شاهدها أو رويت له من شهود عيان، ويسجل اتهاماته إزاء الأحداث التي تتلاحق بسرعة متريضة، ويأتي هذا التسجيل مرتباً ترتيباً زمنياً قد يكون متسلسلاً أو متقطعاً فتكون كتابته هذه مؤشراً على تمسك الإنسان بتلك اللحظات الخاصة قبل أن تطويها مسافات الرميّة، وتحيلها جراً من الذاكرة

والمذكرات مثل السيرة- استجابة لحبّ البقاء والخلود، وإبعاد شبح السيان، ولعلّ أكثر ما يميّزها عن السيرة الذاتية، اهتمامها بالأحداث الخارجية، فكانت المذكرات يعني بتاريخ عصره ومجمعه، ويذكره من خلال رؤيته للأحداث، وهو بذلك يخلف عن المؤرخ الذي ينظر للحقائق نظرة موضوعية

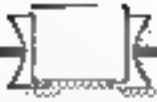
ويرى يحيى إبراهيم عبد الدّيم، أنَّ كاتب مذكرات يعني فيه بتصوير الأحداث التاريخية أكثر من عنايته بتصوير واقع الدّاني^(١)، فهو شخصيّة تلتزم عادة بالتسجيل والتحليل وتوضيح لما يدور حوله، أمّا ما يدور داخلها فيظلّ في الظلّ^(٢)

حيث لا تهتمّ لمذكرات بالتعلّل والتعمّق والنمّش لدات الإنسان إزاء ما يواجهها من مواقف وأحداث وتجارب، وإنّ وصف بعضهم الخسرة والأسى وما ملأ أنفسهم من اهموم بسبب بعض المواقف التي مرّوا بها، فهذا هو الأمير عبد الله بن بلقين^(٣) يكشف النقاب، في مذكراته، عن الكثير من الأحداث لسياسية، ومؤامرات الملوك ضد بعضهم، والصراعات الخارجية مع الأسبان، ممّا أدّى إلى تصاعد أزمة الأمير، بعدما

(١) المصدر نفسه، ص ٣، وانظر، آل مربع، الحذ والمفهوم، ص ٦٠

(٢) راغب، بيل، (١٩٧٨) معالم لأدب العلمي المعاصر، القاهرة دار المعارف، ص ٤٧

(٣) هو، عبد الله بن بلقين بن باديس بن حوس من ربي، الملك لأحمر لملكية غرناطة، ولد في سنة ٤٤٧هـ ١٠٥٦م، كتب مذكراته تحت عنوان: البيان عن الحادثة لكائنة بدولة بني ربي بغرناطة وشرها إيمي برومال تحت عنوان مذكرات لأمر عبد الله ينظر مذكرات الأمير عبد الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٧-٨، وانظر، ابن الخطيب، الإحاطة ٣/ ٣٧٩- ٣٨٢



هاجم العرنس السادس غرناطة، اضطرّ الأمير عبد الله لمهادنته بشروط قاسية، بحيث لا يتعدى أحد على الآخر، وأن يدفع للفارس عشرة آلاف مثقال في العام، ويقول الأمير عبد الله في ذلك 'فقدنا قوله، ورأينا عطاء عشره آلاف في العام يدفع بها مصرتة حيراً من هلاك المسلمين وفساد البلاد، إذ لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابرتة، ولا وجدها من سلاطين الأندلس عوناً عليه إلا من يسوقه إليها هلاكاً'

وقد كان الأمير عبد الله صريحاً في سيرته، حيث يعترف في أكثر من موقف أنه قد أصيب بالارتباك وعدم الاستقرار، ولا سيما في مواقفه أمام يوسف بن تاشفين^(١) قائد المرابطين واعترف أيضاً أن وضع ملوك الطوائف كان يستلزم على يوسف بن تاشفين برع الأندلس من بين أيديهم، إذ إن الخلاف اشتدّ بينهم، فلم يعودوا أماء على مصالح الأندلس، يقول وأخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده، وهو قد اطلع عياناً ومماح من اختلاف كلمته ما لم ير وجهاً لبقائنا في الجزيرة^(٢)

إن مثل هذه المواقف والأحداث التي وصفها الأمير عبد الله قد ملأت نصه حسرة وأسى حيث يقول والصبوة تحدث للإنسان هيجاناً وهموماً كالمثهم بالنظر في ماله، أو المشغب بمحاوله ما يصلحه، فليس كل متعب ضاراً، بل يؤم منه مكابدة الأعداء ومقاساة طلب العيش. ولتقس نوبة متى سميت إلى مرتبة، نافست إلى ما فوقها. ونقد بلوت من نفسي بعض ذلك، إذ الطبع البشري واحد، لا يكاد يختلف إلا في الأقل^(٣) ويبدو أن الأمير عبد الله في مذكراته قد تجرد من أيّ عصبية، فصور تاريخ بلاده، وإمارته وإمارته هو تصوير صادقاً سلط من خلاله الضوء على عصر أمرء الطوائف بالأندلس^(٤).

(١) مذكرات الأمير عبد الله، ص ٧٦

(٢) انظر، ترجمته، القري، هج الطيب، ٣٠١/١، ٤٢٨-٤٤٢.

(٣) مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٠٧

(٤) المصدر نفسه، ص ١٩٥-١٩٦

(٥) انظر، صيف، شوقي، الترجمة الشخصية، ص ٩٠-٩١



ونناء على ذلك، فإن مادة المذكرات أوسع مدى من السيرة الذاتية، حيث يرصد كتب المذكرات الأحداث التاريخية ويدونها إلى جانب التأملات، والانطباعات، ولأحداث الخاصة التي تهم كاتب السيرة الذاتية، بل إن مادة اليوميات والمذكرات قد تعين كاتب السيرة على تذكر الأحداث التي مرت به قديماً، إلا أن السيرة الذاتية تبقى تركز على الواقع الذاتي لصاحبها^(١).

وفد تأخذ المذكرات شكل الاعترافات، وهي كون أدبي لصيق بفن السيرة الذاتية يروي فيها المؤلف مواقف نمسية أو عاطفية لا يعترف بها واضعو الترجمة الدائنة عادة^(٢)، لأنها أحداث لا يرغب الكاتب أن يتحدث عنها، وتجرب لا يؤذ أن يطلع عليها أحداً حتى لمقربين إليه، وتبع قيمتها من شدة وكثافة الصراعات داخل نفس صاحبها أما باحثين يرى أن الاعترافات والمذكرات هي أجناس تعبيرية جوهريه ضمن الجنس الروائي^(٣).

ولعل أشهر ما وصل إلينا من الكتب التي تضمنت شيئاً من لاعتراقات، واحتوت بعضاً من الملامح النفسية لصاحبها، كتاب طوق الحمامة في الألفة والآلاف لابن حزم الأندلسي^(٤)، حيث ذكر فيه تجاربه وأخلاقه، وتحدث كثيراً عن نفسه وعلاقاته بالنساء، وصفاً يصيب المحبين من البين الذي يعد شجى في القلب، وعرض لسين الموت الذي لا

(١) انظر، القلماوي، سهير، (١٩٦٠) فن كتابة السيرة تاريخ أم أدب، مجلة العربي، عدد (١٧)، ص ٥٤

(٢) وهـ، والمهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص ٤٩

(٣) باعنين، ميخائيل، (١٩٨٧) خطاب الروائي، ترجمة محمد بركات، القاهرة دار الفكر، ص ٩٠

(٤) هو، أبو محمد علي بن أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي، ووالده كان من ورراء المنصور بن أبي عامر، ولد ٣٨٤هـ وتوفي ٤٥٦هـ انظر ترجمته، ابن خافان، المصباح، ص ٥٥، والمراكشي، عبد الواحد محي الدين بن عبي التميمي، أبو محمد، (ت ٤٦٧هـ) العجب، في تمحيص أخبار العرب، ط ٣ تحقيق محمد بن سعيد الريان، لقاهرة، ١٩٤٩، ص ٣٠، والمقري، مع الطيب،

يرجى للمحبوب بعده إياب، فيقول ذهبي أحبك أني أحد من ذهبي بهذه العاذلة وتعجّلت له هذه المصيبة، وذلك أني كنت أشدّ الناس كلفاً وأعظمهم حباً بمجارية لي، كنت فيما حلا اسمها نغم وكانت أمية المتمني^(١)

ويعترف ابن حزم أنه تربى في حجور النساء، وشأ بين أيديهن، فعرف من أسرارهن الكثير، حيث يقول: ولقد شاهدت وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غربي، لأنني ربّيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حدّ الشاب. وهنّ علمي القرآن ورويتني كثيراً من الأشعار ودرّسي في الخط^(٢)، وهو بهذا الوصف يلقي الضوء على مجتمع الرجال والنساء في عصره، إذ لم يكن الفصل بين الحسنيين بالشدة التي تفتصر أحياناً، فقد كان الرجال والنساء في اختلاط منذ الطفولة، ولا يقتصر ذلك على فراه الدم بل يشمل الأتباع^(٣)

وقد اهتم ابن حزم بتصوير حالته انفسية، والكشف عن في داخلها من حلال اعترافاته وتصريحاته للقارئ شجاعه لماطية، ومن ذلك قوله ذهبي أحبك أني ما رويت قط من ماء لوصل ولا رادني إلا ظمأ ولقد بلغت من الشك من أحب أبع العايات اني لا يحيد الإنسان وراءها مرمى فما وجدني إلا مستريداً^(٤)، وبهذه الصراحة النادرة لوجود في تلك العصور استطاع ابن حزم أن يتجسّد بطوق الحمامة نحو السيرة الذاتية، فالتجارب الوجدانية تكشف عن عوالم الإنسان لباطنية، والسيرة الذاتية تهتم في إبراز مثل هذه التجارب لأنها من أكثر تجارب لشرقية وخصوية، وما

(١) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، (ت ٤٥٦هـ) طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق حسن كامل الصيرفي، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٩، ص ٢٢٣

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٦.

(٣) كاكيا، بيير، (١٩٩٩) الأدب الأندلسي، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، في الخبوسي، سلمى الحصرام، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط ٢، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،

٤٦٨/١، ٦٦٣

(٤) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١٨٤



ذلك إلا لأنها حبرة وجدانية عميقة تشتمل على مضمون روحي باطني^(١) ويقول إحصان عباس وبذلك يرى أن ابن حزم الأندلسي كان قدأ في تلك التف الاعترافية لتي ضمنتها كتابه طرق الحمامة^(٢)، كما لم يكتب أحد في موضوع الحب كتابة قائمة على التجربة والمشاهدة والاعتراف، وبعض التعمق النفسي، مثلاً، فعل ابن حزم^(٣)، فلا تكاد تمضي خطوات معه في طرق الحمامة حتى تجد نفسك أمام قبض من ذكرياته^(٤)

وقد يصريح بعض الرحالة في أثناء وصف رحلاتهم بلحظات ضعفهم ومرصهم، وعدم مقدرتهم على متابعة الرحلة، مثل ما براه عند التجاني حيث يقول: "وعرض لي في هذه الأيام عارض مرضي، رجوت أن يهون أمره فاشتد، ورميت أن يقصر أمدته فامتد، وبلغ مني في هذه المنزلة أشد مبلغ، فأقام مخدوم والمشاركة وجميع الركب بسبي هنالك خمسة أيام رجاء أن أجد ابلاً أو أطيع معهم ارتحالاً، فلم تسعف الأقدار بذلك، فعزم عليّ محسوماً في الرجوع من هنالك، فلم أطب بذلك نفساً، وأظهرت مجدداً، وقوة تكلفت بها الارتحال معهم وعجرت بالجملة عن الركوب فلم يكن بد من الرجوع"^(٥)

واعرف أبو بكر بن العربي، أن رحيله عن وطنه بصحبه ولده جاء ضرورة فرصتها عليهما ظروف الحياة في بلادهم، ووصف ذلك قائلاً: فخرجنا والأعداء يشتمون بنا . وفي علم الباري -حلت قدرته- أنه ما مر عليّ يوم من الدهر كان أعجب عندي من يوم خروحي من بلدي ..^(٦)

(١) إبراهيم، زكريا، (١٩٧١). مشكلة الحياة، القاهرة: مكتة مصر، ص ١٣٨

(٢) عباس، غن السيرة، ص ١٢١

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٢-١٢٣.

(٤) انظر، مكّي، الطاهر أحمد (١٩٩٣) دراسات عن ابن حزم وكتابه طرق الحمامة، ط ٤، القاهرة دار المعارف، ص ١٨٨

(٥) رحلة التجاني، ص ٣١٦-٣١٧، وانظر، المصدر نفسه، ص ١٨٣

(٦) ابن عربي، قانون التأويل، ص ٧٥

أما ابن بطوطة فيصريح بمشاعر الحزن والأسى التي انتابته عند وصوله مدينة تونس، حيث برر أهلها للسلام على الشيوخ والعلماء، في حين لم يتقدم أحد للسلام عليه، ويمول في ذلك. ولم يسلم عليّ أحد لعدم معرفتي بهم فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه سوانق العبرة، واشتدّ مكاني^(١)، كما اعترف ابن بطوطة بدخول الخوف التي كانت تمرّ به أثناء رحلته، ومن ذلك قوله: وأصابني الحمى، فكت أشدّ نهي بعمامة فوق السرج خوف السقوط، بسبب الضعف، ولا يمكّني السؤل من الخوف، إلى أن وصل إلى مدينة تونس^(٢)، ولم يكن ابن بطوطة أيضاً - يخفي أنه نسي اسماً لموضع أو لشخص قابل أو حاوره^(٣) أما القلصدي فيصف بعض الحاطر التي وجهته والمشاعر التي انتابته بقوله: مشقات عظام، تحار في وصفها المخابر والأفلام، حتى وقع من كلّ أمر الله الاستسلام، وصار الإنسان ينادي بلسان الحال أن الغريق فما خوفي من الليل^(٤) ومن هذه المحاولات، نرى أن الدارسين قد سلطوا الضوء في تعريفاتهم لنص السيرة على الصفات المشتركة بين السيرة الذاتية والأنواع الأدبية الأخرى، فالسيرة الذاتية قد تتجسد عبر كتابة اليوميات أو المذكرات أو الرسائل، وهذا قد لا تتسع الذاكرة وحدها، إذ لا بد من جمع الوثائق وتدوين القوارخ. وهذه الوثائق يمارس كاتب السيرة من خلالها أن يرتب الوقائع والأحداث بغية إكساب السيرة مقياس الصدق والحقيقة^(٥)

غير أن هذا التشابه بين السيرة الذاتية، والأنواع الأدبية الأخرى لا يصل إلى حدّ التطابق التام، إذ يوجد كذلك أوجه اختلاف بها، و (نص السيرة الذاتية يحكي ماصاً

(١) رحلة ابن بطوطة ٢٢/١

(٢) المصدر نفسه ٢٨٥/٢

(٣) المصدر نفسه ٢٨٥/٢

(٤) رحلة القلصدي، ص ١٢٤

(٥) نور الدين، صديون، (٢٠٠٥) سير، تفكير السيرة الذاتية ركي لحبيب، لويس عوصي، إحسان عباس،

محمد عابد الجابري، الدار البيضاء المركز الثقافي العربي، ص ١٤



سرد متواصل، فيما تكون المذكرات وليوميّات عبارة عن مدونات لها قرة الوثيقة التي لا يمكن تعديل رمها^(١) بالإضافة إلى أن اليوميّات والمذكرات اجناس أدبيّة تفتقر إلى عنصر التّكامل والتّرابط، الذي يلحظ في السّيرة الذاتيّة.

وقد حاول إحسان عباس أن يصف السيرة الذاتية ويميّزها عن غيرها، فعقد فصلاً كاملاً عن السّيرة الذاتية بعنوان السّيرة الدّائيّة - نظرة عامة، حيث أشار إلى أن كل سيرة ذاتيّة في حدّ ذاتها تجربة ذاتيّة لمرء من الأعراد، فإذا سغت دور الضّج، وأصبحت في نفس صاحبها نوعاً من الفلّو الفّي، فإنّه لا بدّ أن يكتبها، وأنّ هذه التجارب إمّا أن تكون جسديّة أو رويّة، وأنها تتطلب أن يكون بطلها شخصاً ذا تميّز وضح في ناحية من النّوحي، وتكون سيرته ذات حظ من عمق الصّراع الدّاحي، أو من شدة الصّراع الخارجيّ، بحيث تكتب على أساس من التطور الدّاتيّ في داخل لتفس وخارجها، ومن ثمّ قد نجيء السّيرة الدّائيّة صورة للإدفاع المحمّس، والتّراجع أمام عقوب الحياة، وقد تكون تعبيراً للحياة نفسها، وفيها قد يرسم الكاتب الحركة الدّاخلية حياته معقلاً الامتزازات الخارجيّة إسهالاً جريباً، وقد تكون مجرد تذكّر اعترفيّ موجه إلى قارئ متعطّط مع لكاتب أمّا إذا اقتصر الكاتب على تدوين مذكراته أو يوميّاته، أو رحنه سيرته لتصوير أحداث أكثر من تصوير (دات)، فنّ عمله حينئذ يلتقي مفهوم السّيرة الدّائيّة وليس هو. ووصف إحسان عباس أيضاً قرب صاحب السّيرة من لقارئ، وثقة القارئ به^(٢)، فما يشدّ القارئ نحو هذه الأنواع، هو ذلك التّجاوب بين الطّماع، حيث يقارن انقارئ بين عوطفه وتجاربه، وعواطفه وتجاربه لكاتب، فيجد أنّ عذور عذّة تتلاقى بينهما الولادة، وتعلّم لعلوم، والتّدرّيس، والوظيفة، وتكوين الأسرة، والتّميّز في الشّفاة والمكر - الخ.

(١) الصّكر، حاتم (١٩٩٤) كتابة الذات، عمان دار الشروق، ص ١٩٢

(٢) انظر، عباس، إحسان، فنّ السّيرة، ص ٩٨ - ١١٩

وكما احتنف النقد ولندارسون في صياغة تعريف محدد ودقيق للسيرة الذاتية، اختلما في تحديد الزمن الذي بدأت فيه السيرة الذاتية، فعدها بعضهم^(١) من أقدم الأنواع الأدبية لبي تحدث فيها كاتبها عن نفسه، في حين رأى البعض الآخر أنها من أحدث الأجناس الأدبية، التي أحدث ملاحظها تظهر في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، فقد ورد في الموسوعة البريطانية، أن أول نموذج السيرة لذاتية ظهر في القرن الخامس عشر الميلادي^(٢) غير أن هذا الرأي بعيد عن الموضوعية، لأن جذور السيرة الذاتية موجودة بشكل متأثر في الأدب العربي منذ القدم، أما في العصر الحديث، فلأن كتاب السيرة الذاتية قد اطلعوا وتأثروا بما وصل إلينا من لأدب الغربي، وهذا لا يعني انفصالهم عن تراثهم العربي.

ولعل أقدم نماذج السيرة الذاتية، ما كان ينقشه القدماء على شواهد قبورهم، وقد أشار إلى ذلك شوقي صيف، إذ قال واشنهر لمصريون في عصور الفراعنة بكثرة ما بنشوا على قبورهم وأهراماتهم، وفي معابدهم وهياكلهم، من توابيتهم، وأفعالهم، وكانت تسري هذه الروح في الأمم القديمة من حولهم^(٣)

أما نقطة انطلاق السيرة في الأدب العربي القديم، فقد كانت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث قام بعض المؤرخين^(٤) بكتابة سيرة الرسول عليه السلام، ثم قام بعضهم الآخر^(٥) بتهديب هذه السير، فحدوا الأقسام الصغيرة منها

(١) ديورانت، ر. (١٩٥٦). قصة الحضارة، ترجمة دكي نجيب محمود القاهرة، حنة الساليف والترجمة والنشر، مج ١، ج ١، ص ١١١، ٢٣٨

(٢) انظر، The New Encyclopedia Britannica. P 24-25

(٣) صيف، شوقي، الترجمة التحميت، ص ٧

(٤) ومنهم محمد بن إسحاق (١٥١هـ/٧٦٨م)

(٥) ومنهم ابن هشام (١١٨هـ/٨٣٣م)



كما لم تحل بعض المصادر العربية القديمة من بعض القطع والصوحن المتناثرة، من السيرة الذاتية مثل كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني (٣٥٠هـ / ٩٦١م)، حيث تضمن مجموعة من قصص الشعراء والمعبرين، التي تمثل قطعاً من السير الذاتية، ومنها تلك لقطع التي سردت شيئاً من سيرة المغني إبراهيم الموصلي (١٨٨هـ / ٨٠٤م) ^(١)، إذ تقترب سيرته كثيراً من من السيرة الذاتية وهذه القطع وإن لم تكن سيرة تامة إلا أنها تشكل حدود السيرة الذاتية عند العرب، فمثل هذه استتب للذاتية في بعض المصادر القديمة عند العرب قنبي بوجود السيرة الذاتية، غير أن الكتابات لذاتية في الأدب العربي - لم تستغل بكتب خاصة بها قبل القرن الخامس الهجري، وربما كان كتاب الاعتبار لأسامه بن منقذ في القرن السادس الهجري، وكتاب التعريف لابن خلدون في أواخر القرن الثامن الهجري، أقرب أثريين في القرون الوسطى إلى فن السيرة الذاتية، الذي انتشر في الأدب الغربي في أواخر القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ^(٢)

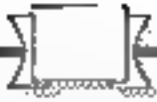
لهذا، فإنه لا يمكن أن يغفل دور العرب في سيرة الذاتية، حيث عرفها الأدب العربي بأشكالها المختلفة واتجاهاتها المتعددة التي أحدثت تنمو وتطور لتأخذ مكانها في الوجود، فالسيرة الذاتية سناب عند العرب قبل العرب، لكنها لم تتخذ مصطلحاً خاصاً بها في الأدب العربي القديم ولعل أدب الرحلات يمثل شكلاً من أشكال السيرة الذاتية، واتجهاً من اتجاهاتها المتعددة، وهذا ما تميل الدراسة إلى تأكيد.

ب. مبررات كتابة السيرة الذاتية:

قد يشعر الإنسان بالثغور والتميز، وبحاجته إلى تبرير أفعاله التي قام بها، أو الأفكار التي جاء بها، ودافع عنها أمام الناس، ونصيح هذه الحاجة أكثر إلحاحاً حين يعتقد الكاتب أنه تعرض للظلم، فيقوى لديه الإحساس بأنه يجب أن يترجم حياته للآخرين، رغبة منه بالبقاء حتى بعد موته، ودفاعاً عن النفس والاعترار بها، وتسجيل كل ما أثر في

(١) انظر، الأصفهاني، الأغاني، ج ١، ص ٢٥٩، ج ٥، ص ١٥٧-٢٦٧، ج ٨، ص ٢٩٣

(٢) انظر، عبد العبي، حسن محمد التراجم والسير، ص ١١١



تكوينه العقلي، وتصوير حياته الفكرية، فلا يمكن لأي شخص أن يروي للناس قصة حياته إلا إذا كان واعياً الواعي كما لما لوجوده من فريدة وغمير، حتى تكون سيرته الذاتية جذيرة فعلاً بعناية الآخرين^(١).

ولعلّ فترات الاضطراب والتقلقل في تلك العصور، قد دفعت لكتابة السيرة الذاتية، ويرى علي أدهم أنّ الاتجاه إلى كتابة التراجم الذاتية يقوى ويشد في عصور الانتقال وأوقات الاضطراب والتقلقل وذلك لأن بعض النفوس الحساسة، تشعر في مثل تلك الأزمات، بأنها في حاجة إلى إلمامه بين نفسها وبين الظروف المحيطة^(٢) أمّا الألم، فهو امر الذي يدفع صاحبه للسوح ويضطر أذئاب إلى أن تخلع على حياتها معنى، وما كتابة السيرة الذاتية إلا بهدف أن ينجع الكاتب على حياته معنى^(٣).

ومن المبررات الأخرى، إحساس كثير من كتّاب السيرة الذاتية بالحاجة لسبب أو لآخر إلى تسجيل ما شهدوه من أحداث ومواقف، ورحلات قاموا بها، ولقاءات بالعلماء ولأدباء والعقهاء، وربما يروى الكتب في سترجاع الذكريات، وقد يسوح بذكريات شابه العاطفية، ومثال ذلك ابن حزم في كتابه طوق الحمامة

ج علاقة الرحلة بأنماط كتابة السيرة :

أدب الرحلات من تغمره احياة، ويرى بالتجارب الحية، والحركة والانتقال من مكان لآخر، وهو بهذا يلتقي بالسيرة، ذلك أنّ كلمة سار تدل على السير والانتقال^(٤)، ونومي بصول الطريق، وقطع المسافات، وتمتد المراحل، وهذا يتفق مع الكتابات التي تؤرخ لسيرة الإنسان منذ طفولته إلى شيخوخته

(١) المبحوث، سيرة الغائب، سيرة الأنبي، ص ١٠٥

(٢) أدهم، علي، لقاء بشي الإنسان فصول في الحياة والمنجم والأدب والتاريخ، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ص ٢٦٤

(٣) شرف، عبد العزيز، (١٩٩٢) أدب السيرة الذاتية بيروت، مكتبة لبنان، ص ١٧

(٤) انظر، ابن منظور، لسان العرب: ٤/ ٣٨٩



وقد عمدت هذه الدراسة إلى القراءة الذاتية لبعض الرحلات ، لإلقاء الضوء على نقاط التلاقي بين أدب الرحلات وفي السيرة، وسعت للوقوف على أهم مقومات فن السيرة داخل تلك الرحلات، كما اهتمت بتتبع أهم المحطات الاجتماعية والسياسية ولفكرية لصاحب الرحلة، ورصدت تفاعله مع تلك المحطات، حيث ترجم الرحالة حياتهم المعاصرة

وبالنسبة فإن مثل هذه الرحلات تطلعا على سير أصحابها وعلى حقيقتهم، ونكشف عن مواهبهم ودوافعهم للقيام بتلك الرحلات، والأثر الذي خلفوه للأجيال فرحلة ابن تومرت، وابن رشد، والتجلى، والبسوي وغيرهم، وإن كانت تركز على الجوانب العلمية، والرواية عن الشيوخ، وذكر لمصنفات، إلا أنها أهدت في إلقاء الضوء على أحوال أولئك الرحالة، وتجاربهم في الحياة وطرفاً من الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية التي مثلت عصورهم.

وقد جاءت تجارب ابن عربي الروحية دافعة لكتابة سير رحلته^(١)، حيث يشرح لأساعه ومريديه ما مر به من مجاهدات وتجارب روحية جديدة بأن يكتب، بحث نفسه الآخرين وتوجههم، فالمحالة التي عاشها ابن عربي من التجلي، نتج عنها لدافق القوي الذي جعله يبدأ بكتابة كتاب الإسراء والفتوحات لمكة التي جاءت تنويعاً لكتاب الإسراء والتجلي هو ما يكشف للقلوب من أنوار الغيوب، ولذلك تم رسم هذا التلقي للمصطفى بالتلقي المكاشف، وفي مثل هذا التلقي ليس العارف من يتعرف على النص، ويكشف أسراراً بمقتضى نظره وتفكره، وإنما النص هو الذي يتعرف إليه ويتجلي له فتحاً وهبة من الله^(٢)

(١) انظر، عباس، إحسان، فن السيرة، ص ١٠٣

وانظر في مثل هذه الجوانب الروحية والصوفية، نخبة المغرب ببلاد المغرب حيث حوت الكثير من كرامات الشيخ أبي مروان أثناء انتقاله من مكان لآخر، ص ٣١، ٣٢، ٣٣، ٥٠، ٦١، ومواظف أخرى كثيرة في الرحلة

(٢) بالأشهب، محمد، (١٩٩٨) التلقي المكاشف شروطه وحدوده، ابن عربي نموذجاً، مجلة علامات،

وقد بين ابن عربي أن كتاب الإسراء سيرة معرفية قدمها لأصحابه من كبار المتصوفة، إذ يقول: «أما بعد فإني معاشر الصوفية، أهل المعارج العقلية، ولقائات الروحانية، والأسرار الإلهية، والمراتب العلية الفلسفية في هذا الكتاب المسمى لأبواب المترجم لكتاب الإسراء إلى مقام الأسرى، اختصار ترتيب الرحلة من العالم الكوني إلى الموضع الأروني ويئت فيه كيف ينكشف الكتاب بتجريد الأبواب لأولي البصائر ولألباب، وإظهار الأمر العجائب، بالإسراء إلى رفع الحجاب»^(١)

إن كتب ابن عربي كلها قد جاءت بصوراً لسيرته الصوفية القائمة على الإيمان بوحدة الوجود، وعلى المكاشفات والمساعدات، وبهذا فإن رحلات ابن عربي ذات علاقة بلسيرة الذاتية حيث تركز على التجربة الروحية وإبرار الذات لنفسها بصورة متميزة عن دوات الآخرين، كما تسمى ببلوغ أعلى درجات الارتقاء الروحي بما تتضمنه من كرامات ومكاشفات، وذلك لإشراك المتلقي في إحياء تجاربهم لتقدم موطأ تهذيباً، وتجذب الناس إلى طريقتهم بما فيها من موجد ومشاعر حثاً على القدوة والاحتذاء، لأن أصحابها من أعلام الصوفية، يحاطبون بها الأتباع والمريدين، حيث يصورون موحيدهم وأدواتهم^(٢).

أما رحلة ابن جبير، فقد أظهرت صاحبها كاتب يوميات دقيقاً، وبدأ وقد خطط رحلته شهراً شهراً، اعتماداً على التقويم القمري الإسلامي، وكان يدعم ذلك بظهير من التقويم المسيحي، ومن ذلك قوله: «ثم كان الخروج منها أول ساعة من يوم الإثنين التاسع عشر لشهر شوال المذكور وموافقة ليوم الرابع عشر لشهر فبراير المذكور أيضاً»^(٣) وعن شهر محرم، قال: «أستهلّ هلاله ليلة الثلاثاء، وهو اليوم السادس والعشرين من أبريل»^(٤)

(١) كتاب الإسراء إلى مقام الأسرى، ص ١٦٤ من رسائل ابن عربي ٤٦/١

(٢) عبد السلام الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ص ٣٧

(٣) رحلة ابن جبير، ص ٧

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢



وقد تابع ابن جبير جميع الموقع في مراحل رحلته حال حدوثها، وأثبت الوقائع فلا يسي فيها شيئاً، لذا رُخِرت رحلته بالتفاصيل، والتعليقات، كما أثبت انطباعاته وآهاته، وهي وإن بدت عادية إلا أنها كشفت انقباب عن ملامح شخصية ابن جبير، وعمق رؤيته للآخر، فقد وصف في يومياته بعض طبائع المرنج، وأحلاقهم وعاداتهم وأعيادهم، وصفاً دقيقاً صريحاً حل في ثيابه طابع الصراع الحصارى، وعكس صورة الآخر في مختلف جوانب حياته الاجتماعية والثقافية والسياسية، وهو لا يكتفي بذلك، بل يعمل على تحليل تلك الصورة ويقدم انطباعاته عنها بعبارات دالة تمثل رؤيته وقناعته، وعمق دريته بملامح تلك الصورة. ومثال ذلك ما وصف به ملك الفرنج عياداً، حيث وصفه بالعظمة، راطاعيه^(٥)، ودعا الله أن يكفي المسلمين عاديته وسطته^(٦).

وتحدث ابن جبير، أيضاً، عن بعض المصاعب التي واجهتهم في الرحلة، فوصف حالة الاضطراب والخوف التي مر بها هو ومن معه، ويقول واصفاً حالهم وقد عصفت بمراكبهم الرياح ونحن نحري بريح شمالية موقفة، مذررت وعصفت قطار لما المركب بجناحي شرعه، وقد كئنا. برحم الظنون، ونعادل الموت، حذراً من معاد لزاد والماء. واصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يريد، والبحر قد هاج هاتجه، وماج مائج، فرمى بمرج كالجبال، يصدم المركب صدمات يتقنب لها على عظمه ثقل المعصن الرطب. ومتشوي عصفوف الرياح فحطت الشرع. واستسلمت القوس لأربها ومركبا بين السفينة ومجربها^(٧)، وقد أبررت هذه الأحداث شخصية ابن جبير الدينية المؤمنة بقضاء الله وقدره، ولطفه بمعاده^(٨).

وفي الوقت الذي اعتمد فيه ابن جبير على التوثيق اليومي والشهري الدقيق لأحداث رحلته، اعتمد ابن بطوطة على الذاكرة في إثبات مراحل رحلته، وربما يكون

(٥) المصدر نفسه، ص ٣١٣-٣١٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٩٨.

(٧) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٩-٢٩٦.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٩٢.



قد دون ملاحظاته ولكنها فقدت منه أثناء تعرضه لقطاع الطرق، وهو ينتقل من مكان لآخر^(١)

وقد عد بعض الدارسين^(٢) رحلة ابن بطوطة سيرة ذاتية تصور حياته على ما يزيد عن ربع قرن قصها في الحركة والانتقال في مختلف البلدان، ونرى الترامسة هي، أن رحلة ابن بطوطة جاءت ممزوجة بشيء من التاريخ والاجتماع والبيئة والحياة والحيوان والنبات ومليشة بصور لمشاهدات ابن بطوطة ونجاربه في الحياة، فشخصيته حاضرة في رحلاته، كما حوت تلك الرحلات في داخلها مذكرات لمس الوقائع ولأحداث الاجتماع والسباسة التي حدثت مصدراً عظيم لأهمية، لا سيما فيما يتعلق بأخبار الدول الإسلامية في إفريقيا وبلاد الهند، وهي من جانب آخر تحمل من الحديث عن طفولة صاحبها، فلا يعرف شيئاً عن طفولته وأسرته، وما ذكره عنهم كان مجرد إشارات خاطفة وردت في ثنايا رحلاته، تؤكد اشتغال بعض أفراد أسرته بالقضاء، وقد أشار إلى أحدهم وهو ابن عم له اسمه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة، التقى به أثناء رحلته إلى لأندلس، وكان يعمل قاضياً^(٣) وبالتالي فإن رحلة ابن بطوطة -في شكلها العام- مزيج من السيرة الذاتية والمذكرات.

ويبدو أن ابن بطوطة لم يفكر يوماً بأسرته، وكأنه لم يكن وثيق الصلة بها، فحين سمع وهو في الغربة بيا وفاة أبيه لم يعلق على ذلك شيء يذكر^(٤)، كما لم يرد قبره في طنجة، عند عودته إلى أرض الوطن، إلا بعد أن ذهب إلى السلطان أبي عان بحضرته في ناس^(٥)، ومثل هذه الإشارات تناقص ما قاله ابن بطوطة في بداية رحلته

(١) انظر، رحلة ابن بطوطة، ٢٠٦/٢

(٢) انظر، مصطفى، أحمد أمين، (١٩٩٢) الحياة في القرن الثامن الهجري كما تصورها رحلة ابن بطوطة، القاهرة: مطبعة السعادة، ص ١٥

(٣) رحلة ابن بطوطة، ٢٦١/٢

(٤) المصدر نفسه، ٢٤٨/٢

(٥) رحلة ابن بطوطة، ٢٥٧/٢، ٢٦١



فحزمت أمري على مجر الأحاب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور وكان والذي بقيد الحياة، فتحملت بعدهما وصبا^(١) ويرى بعض الدارسين^(٢) الدارسين^(٣) أن هذه العبارة إضافة من ابن جري، حيث إن مرحلة الرحلة جميعها لا تحوي ما يؤكد مثل تلك المشاعر عند ابن بطوطة، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن ابن بطوطة في رحلته لم يكن كثير الاهتمام بأسرته التي يكونها في معظم البلدان التي قصدها، فهو يذكر نسائه وأولاده، ثم يتركهم حيث هم، ليرحل إلى مكان آخر، ويقول في حديثه عن دمشق وكنت تركت بها زوجة لي حاملاً، وتعرفت وأن ببلاد الهند أنها ولدت ذكراً^(٤)، ولا أنوي ما فعل الله فيهما^(٥)

ويبدو أن ابن بطوطة كان مأخوذاً بالترحال والتجول، فيحدث عن أسرته وكأنها لا تعنيه، أو ربما ظن أن مثل هذه الأحداث ليست هامة أو نافعة للناس كي يطلعهم عليها ولو أنه أشار إلى شيء من طهرته وصباه ومراحل تلقيه العلم، ومكانة أسرته في المجتمع، فربما كانت تلك الإشارات كهيلة بالكشف عن سبب حبه الشديد للشهر والترحال والاعتراب عن وطنه.

أما ما أشار إليه من باعث عودته إلى لوطن بعد رحلته الطويلة، فيتضح من قوله مع ما شافني من نذكار لأوطان والحسين للأهل والخلان، والحببة إلى بلادني التي لها الفضل عندي على البلدان^(٦)، فلا يحسن القارئ بحرارة ذلك الحين، حيث يتبين له بعد ذلك ذلك أن الباعث الحقيقي لعودته، سعيه إلى كرم السلطان أبي عثمان^(٧) في حين يميل القارئ

(١) المصدر نفسه، ٢٠/٢.

(٢) انظر، خصاك، شاكرو، (١٩٧١) ابن بطوطة ورحلته، لسيف الأشراف مطبعة الآداب، ص ٢٢

٢٢

(٣) رحلة ابن بطوطة، ٢٤٨/٢، وانظر، المصدر نفسه، ٢٠٦/٢.

(٤) المصدر نفسه، ٩٤/٢.

(٥) المصدر نفسه، ٢٥٣-٢٥٤/٢.

(٦) المصدر نفسه، ٢٦٤/٢، ٢٩٠.



القارئ إلى تصديق مشاعر لسان الدين بن الخطيب، حيث وصف حزنه الشديد لعقله وروجه ويظهر ذلك في قوله وفي السادس لذي القعدة من عام اثنين وميتين وسبعمائة، طرفني ما كدر مربي ونقص عيشي، من ولاء أم الولد عن أصاغر رغب الحواصل بين ذكران وإناث في بلد العربية، وتحت مرادق الوحشة، ودون أذيال النكبة، فجلت عليها حسرتي واشتد جرعني إذ كانت واحدة ساء زمانها جراحة وصبراً ومكارم أخلاق، حارت بذلك مربيه لشهرة ووهت على غيرها وصلد عني ثما كتب على صرغها، وقد أصرى به التنويه والاحتفال

ذخيرتي حين حاني رمي	وعذتي في اشتداد أهوال
حصرت في داري الصريح لها	تعللاً بالمحال في الحال
وغصة نوحهم لمقام ممي	وكيف لي بعدما يأمهال
فانتظري فالشوق يقنقسي	وتقتصي سرعتي وإعجالني
ومهدي بي لديك مصطجعاً	فمن قريب يكون ترحالي

ويقول أيضاً مصوراً صراعه اندحلي في نفي، وهو في الجن

مُدننا وإن جاورتنا اليوت	وجنا بسوعظ ونحس صُوت
وكنّا عظاماً فصرباً عظاما	وكنّا نقوت فهب نحن قُوت
وكنّا شمس سماء العللا	عربناً ^(٣) فناحت عليها اليوت ^(٤)
فمن للعدا ذهب ابن الخطيب	وقبض ومن ذا الذي لا يفوت

(١) ابن الخطيب، الإحاطة ١٧/٢-١٨ وابن الخطيب، أعمال، الأعلام ٣٢٢/٢

(٢) المقرئ، صبح الطيب ١١١/٥-١١٢، وانظر، بن الخطيب، ديوان لسان الدين بن الخطيب، تحقيق

تحقيق محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٩، ص ٨٦

(٣) في النسخ، عربن

(٤) في النسخ، السموت.



أما البجائي، فقد عبر عن معاناته حين انقطعت المراسلات بينه وبين صديقه المشدالي، فأخذ يسأل عنه الركبان والحجيج، ويتطلع إلى أخباره، ثم أخذ يعاتب صديقه على سكوته، لأن الخليل لا يحبو حليته، إلى أن جاء ردّ المشدالي معاتباً لبجائي على خشونة صابه له، فاستوجب ذلك ردّ أبي عصيلة البجائي، الذي صفاه رسالة العريب إلى الحبيب، بوضع فيها أسباب تلك الخشونة في اللفظ واشدّة في الخطاب، إذ يقول بل والله إنما كانت كلمات حفيفات صدرت عن فكرة ضئيلة من نفس عذيلة، وعين المحب حمر يصبّ كليلته^(١) ثم صوّر مشاعر الحزن والألم لفرقه، وأنّ انقراق ما راده إلا تعلقاً به، فيقول يا أحي من لم يذق مرارة المراق لم يدرك حلاوة التلاق، إذا وصل العريب إلى دار الحبيب، وجد في لتقريب كل أمر عجيب، وإذا وقف بالباب عرف لذّة الاعترا ب. قالعاقل يكون في نفسه غريباً وقلبه في صدره غريباً وروحه في داته غريباً، وسره في حاله غريباً. فلا يستريح من همّ العربة ما لم يصل إلى الحبيب^(٢)

ومثل هذه المشاعر مجدها عند الرحالة لبني، الذي وصف مشاعره وعواطفه الشخصية حين التقى بصديقه ابن الحاج النميري في الإسكندرية، فكان اللقاء مثيراً للمشاعر العاطفيّة، وحديث التكريات^(٣).

ويرى بعض الدارسين، أنّ لسيرة قد نشأت في حوض التاريخ وترعرعت واثخذت سمناً وضحاً^(٤)، وأنّ بعض الرحالة قد سجدوا إلى جانب ملاحظاتهم ومشاهداتهم وتأملاتهم، واتصالاتهم اليوميّة بكثير من أدباء بيتهم وعصرهم، النقليات والتطورات السياسيّة في الداخل والخارج، ومنهم ابن الحاج النميري، فهو وإن كان كاتب رحلة فيص العباب، وأبو عاب المريّ الفائم بمراحلها، فإنّه قد ارتبط بالرحلة، وبالكثير من عناصرها، وتحمل نفس المسؤوليّة، وكان الناطق الرسميّ بلسان السلطان أبي عاب

(١) البجائي، رسالة العريب إلى الحبيب، ص ٤٥

(٢) البجائي، رسالة العريب إلى الحبيب، ص ٧٥

(٣) انظر، البوي. تاج الفرق، ٤٣/٢

(٤) حناس، إحسان، فنّ السيرة، ص ١١



أما ابن خلدون، فقد كان السمر ولقرحال من الأمور التي ارتبطت بطموحه، ورغبته في الوصول إلى تحقيق الذات وكان أكثر من احتفظت سيرته الذاتية بالرحلة، فعدت رحلته نموذجاً قريباً من لسيّره الذاتية، حيث سلّطت الضوء على مراحل هامة من حياة ابن خلدون، ومنها

- مرحلة الوجود داخل عائلته، وبدأ بانولاده والتسبب الشريف الذي لعب دوراً كبيراً في التعريف بذات ابن خلدون ومركزه الفريد، حيث يقول أنا شائي وإني ولدت بتونس، في غرة رمضان سنة اثنين وثلاثين ومبعمائة^(١). وتحدث كذلك عن أصول عائلته التي أرجعها إلى عرب اليمن، فقال: وسبينا حصرموت، من عرب اليمن، إلى وثل بن حجر من أقبال العرب،^(٢). وقد شاركت أسرته في مختلف مجالات الدينيّة ولعلميّة والسياسيّة، وكانت تربطها بالأسرة الحاكمة في تونس صداقات وعلاقات عائلية خاصة، فعند هذا المناخ الثروة التي ارتبطت بها شخصيّة ابن خلدون^(٣)

مرحلة تلقي العلم، وكانت البداية على يد والده، حيث ارتكز على قراءة القرآن، ثم انتقل داخل بلاده وأخذ يعلم عرب، عدد كبير من العلماء والعقهاء، إلى أن ختم القرآن الكريم على إمام في القراءات السبع، وحفظ كتاب الأشعار الستة والحماسة للأعظم^(٤)، وشعر أبي تمام، وشعر المتنبي، وكثيراً من أشعار الأغاني، وهو بذلك يطلعنا على جوانب عدّة من ثقافة عصره وشيوخه، وإقاله على مجالس العلم^(٥)، وهو إنقال

(١) ابن خلدون، التعريف، ص ٦٦

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٠

(٣) انظر، المصدر نفسه، ص ٥١-٦١

(٤) هـ، يوسف بن سليمان بن عيسى الحوي، اشتعري المعروف بالأعظم (٤١٠هـ - ٤٧٦هـ)، انظر ترجمته، السيوطي، بعية الوعاة ١ ٤٢٢، ابن حلكان، وفيات الأعيان، ٢ ٤٦٥، القرني، مع الطيب ٧٩-٧٥/٤

(٥) انظر، ابن خلدون، التعريف، ص ٦٢-٦٨



دائم، حيث يقول: لم أزل منذ نشأت، وناهزت مكناً على تحصيل العلم، حريصاً على اقتناء الفضائل، متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته^(١)

أما الشعر، فيعترف ابن خلدون، أنه قد برع نفسه على قوله -ركائنه من مستلزمات ثقافة لأديب والفقيه والمؤرخ- فيقول: ثم أخذت تهني بالشعر فانشال عليّ منه مجور توسّطت بين الإجادة والقصور^(٢)

- مرحلة الوظائف والمناصب الرفيعة، والرحلات والاتصال بأسلاطين والملوك، فقد تدرّج ابن خلدون في سلم العلم والمعرفة، والبحث عن لأمثل، ولارتقاء والتصرّح العلمي والفكري، ليشكل طريقته في تكوّن الشخصية المتعددة والتميّز، لذا، مرّجى ابن خلدون حياته للأخريين، رغبة منه في البقاء، ودفعاً عن النفس والانتصاف له، وتبريراً لما كان يحدث له، حيث اتهم بالمشاركة في بعض الانقلابات والمؤامرات، وتكرّر له حتى أمر الأصدقاء، مثل لسان الدين بن الخطيب، فقد شعر ابن خلدون بألمه عليه وشتم منه رائحة الانتقام، حيث قال: لم يلبث الأعداء وأهل السعائيات أن حيّلوا الوزير ابن الخطيب من ملاسقي للسلطان، واشتماله عليّ وحركوا له جواد العرة، فتكرّر وشتمت منه رائحة الانتقام مع سبباده بدلالة وتمكّنه في سائر الحواما^(٣). ورغم ذلك فقد سعى ابن خلدون لإطلاق سراح ابن الخطيب، وإخراجه من سجنه، إذ يقول: وبعث إليّ ابن الخطيب من حبسه مستصرخاً بي، ومتوسلاً، فخاطبت في شأنه أهل الذوة، فلم تنجح تلك السعاية، وقتل ابن الخطيب بحبسه^(٤)

ويتضح من ذلك، أنّ رحلة التعريف سيرة ذاتية قد سلطت الضوء على صراعات السلطة والأحداث السياسية والتقلّبات والمؤامرات التي عاش ابن خلدون صراعاتها، ودرأى أنها تستحق التسجيل

(١) المصدر نفسه، ص ٩٩

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٢

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٦

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٦٤



كما لم تحمل سيرة ابن خلدون من غرض آخر هو تصوير الشهرة العريضة والمزلة الرفيعة التي بالها في الحياة السياسية والاجتماعية^(١) وما لقاء ابن خلدون بتمورلوك في دمشق إلا دليل على ذلك، بما يحمل من دلالات كشفت عن شخصية ابن خلدون الطموحة، وقدرته على مواجهة شخص عرف بفوقته وسطوته، فقد استطاع ابن خلدون بذلك، وسعة اطلاعه في التاريخ والأسم والشعوب، وبجنته ودرايته بملوك العرب ولهمس واشترك أن يقف أمام سلطان التتر، ويفاوضه في أمر أهل مدينة دمشق بعد أن حاصرها، ويهديه مصحفاً رائعاً حنياً، وسجادة أنيقة، ونسمة من قصيدة البردة للبوصيري^(٢)، ويصف ابن خلدون دخوله على بيمورلوك فيقول فلما دخلت عليه، فاتحت بالسّلام، وأرمت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومدّ يده إنّي فقيلتها، وأشار بالخلوس فجلست حيث انتهت^(٣)

وقد خلق بعض الدارسين^(٤)، أن موقف ابن خلدون أمام بيمورلوك من المواقف الدالة على نصيبه في عهد الشيعوكة، وحرصه على السلامة، حتى أصبحت شخصيته أقرب إلى الإمتسلام ولانسحاب من المصاعب والصّراعات التي تراجه، وفي ذلك مبارقة واضحة لروحه المقاتلة وشجاعته قبل ذلك في أيام القضاء وتمسكه بما يعتقد أنه العدل والحق، ومن قوله في ذلك نصدح في ذلك بالحق، وكبحب أمة أصل الموى ولجل، ورددتهم على أعقابهم، وكان فيهم ملثمون سمعو من المغرب، يشعرون بمترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك، لا يتمرون إلى شيخ مشهور، ولا يعرف لهم كتاب في فن، قد تحموا الناس هرواً، وعقدوا المجالس مثلة للأعراس فأرغمهم ذلك مي، وملاهم حسداً وحقداً علي^(٥). وبذلك يكون ابن خلدون قد لعب دوراً خطيراً في الأحداث والشؤون السياسية المغربية

(١) عباس، إحصان، فن السيرة، ص ١٣٣

(٢) انظر، ابن خلدون، التعريف، ص ٤١١

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٤

(٤) انظر، عباس، فن السيرة، ص ١١١

(٥) ابن خلدون، التعريف، ص ٢٩٣



من هنا، فإن إحساس ابن خلدون بمرتبته قد دفعه لكتابة سيرته ذات الصلة الوثيقة بالأحداث التاريخية، حيث أضفى على ما كتبه من أحداث صبغة دائية بما أثبت من آرائه وأحكامه الشخصية، فلم يهتم بوصف الطرق والمسافات والتاس وطبائعهم وأحوالهم الاجتماعية، بل كان هدفه تصوير حياته وظروفه منذ مشأته حتى قيس وفاته، ويرى أنيس المقدسي أن اغنية الرئيسة لما كتبه ابن خلدون عن نفسه هي أن يثبت الوقائع التي ذكرها في تاريخه، وبهذا لم يفرح تعريفه بنفسه عن نطاق التبريح إلا في مواضع قليلة جداً^(١). في حين يرى عبد السلام المسدي أن من السيرة لذاتية في كتاب التعريف جاء عرباً مقصوداً لذاته^(٢) استطاع ابن خلدون أن يسجله من خلال رحلته، ويرى كامل العملي أن التعريف، ليس من كتب الرحلات بالمعنى الدقيق للكلمة بل هو في الحقيقة سيرة ذاتية وضعها ابن خلدون، ووصف فيها ما مر به من أحداث، وذكر فيها الرحلات التي قام بها، والتي مرضتها عليه ظروف حياته لمنقلة، فقد كان أحياناً رحالاً على الرعم منه^(٣) أما إحسان عباس، فيرى أن ابن خلدون يروي معظم الأحداث والمصائب التي كانت تجري حوله وكأنها بعيدة عن شخصيته وفكره ولا تعيه، فهو يعزل ثم يولى، ثم يزل ثم يولى. ويعتبر هذه الأسور كأنها أحداث بمنزل منه، وعن تفكيره وتقديره^(٤) ويغرق أهله جميعاً في مهينة قادمة من تونس ويكتفي بالقول أفركبوا البحر من تونس في السفينة، فما هو إلا أن وصلوا إلى مرسى الإسكندرية، فعصفت بهم الرياح، وعرق المركب من فيه، وما به، وذهب الموجود والمولود، فعظم الأسف، واحتلظ الفكر^(٥).

(١) المقدمي، أنيس، (١٩٦٣) الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة الحديثة، بيروت دار الكتاب

العربي، ص ٥٥٧

(٢) المسدي، عبد السلام، (١٩٨٣) النقد والحداثة، بيروت دار الطليعة، ص ١١٤

(٣) العملي، كامل، بيت المقدس في كتب الرحلات، ص ٨٠

(٤) عباس، إحسان، من السيرة، ص ١٢٠

(٥) ابن خلدون، التعريف، ص ٣٢٠



وذهب الموجود والسكن والمولود فعظم المصائب والجزع، ورجح الزهد^(١) وبرغت لشأني من الاشتغال بالعلم بتدريساً وتأليفاً^(٢) فلم يجد ابن خلدون عراء إلا في العودة إلى العلم ولتدريس والقراءة، وموقعه هذا يشبه موقعه من فاجعة فقد له ولديه بمصر الطاعون، ووصف ذلك فقال إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب بالأعيان، والصنادير، وجميع الشيخة، وهلك أبراي، رحمهما الله^(٣)

وقد يكون اكتفاء ابن خلدون بهذه العبرات متعمداً، وذلك ظناً منه أن ذكر مثل تلك المواقف ولأحداث التي تثير المشاعر والعواطف، وسعت على الحزن والأسى، شيء ينقص في الرحلة أو القدرة على التحمل، أو ربما لاعتقاده أن مثل هذه الأحداث لا تقدم نفعاً للقارئ.

إن التعريف سيرة ذاتية يلحظ فيها المنظور الاستعادي الذي تروى به الأحداث، وتكتشف الأبعاد ودوافعها وأسمائها وتناجها، فتبدو شخصية ابن خلدون، شخصية العالم انقيس، والمؤرخ، وشاهد العيان لأحداث ذلك العصر كما تظهر رحلته وقد استطاعت أن تربط الأحداث التاريخية في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، حيث تقل في بلاده وارتقى أعلى المناصب ابتداء من كتابه العلامة، وهي وضع أحمد الله ولشكر الله بأنقسم الخليط وما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم^(٤)، ووصولاً للقضاء ثم رحل إلى المشرق ليؤدي فريضة الحج، ولكنه لا يواصل رحلته، حيث استقرفته القاهرة بما فيها من نشاط علمي، ويقول فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وستان العالم، وبحشر الأمم،^(٥)

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩٥

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٩

(٤) ابن خلدون، التعريف، ص ٩٩

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٨٤



ويصف إقبال الطلبة عليه هناك ولما دخلتها أتمت أياماً وأثنال عليّ طلبة العلم بها يلتصون الإفادة فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها^(١) ثم عزم على أداء فريضة الحج وعازمت على قضاء الفريضة، فودعت السلطان والأمراء، ورؤدوا وأعانوا فوق الكعابة، وخرجت من القاهرة^(٢). وشده الحين إلى زيارة بيت المقدس، فدخل المسجد الأقصى، وتبرك بزيارته والصلاة فيه، ثم انصرف إلى الخليل لزيارة قبر إبراهيم الخليل، ومزى طريقه بيت لحم، ثم إلى غزة ومنها توجه إلى مصر^(٣)

- مرحلة الاعتزال والانفعال بالكتابة والانقطاع لها، فعند تلك الوظائف السياسية ولدبلوماسية والقضاء والتدريس، أدرك ابن خلدون أن السياسة قد جرت عليه الكثير من المتاعب، فتركها وفرر الاعتزال والانقطاع للكتابة، فوجأ إلى قلعه بقي سلامه، متحياً عن الشواغل السياسية والدنيوية^(٤) ابقي ولدت له الحصاد الذين أخذوا في السعاية والكيد له، وبسبب ذلك عزل من القضاء غير مرة، ثم حطت رحال ابن خلدون في القاهرة، حتى أدركته المنية سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م.

وبعد، فإن هذه الرحلات قد شكّلت أصولاً للسيرة الذاتية الحديثة، وانفتاحاً يكشف عن وجود روح واحدة بينهما من خلال المشاهدة والمعاينة السياسية والاجتماعية وثقافية، كما أن اهتمام الرحلات بالتاريخ الزمني لتدوين وكتابة قريها من المذكرات ولأصل أن أدب المذكرات بثانة التواة الأساسية لمن لسيرة انقائية^(٥)، وبهذا تكون هذه هذه النماذج قد أدت نوعاً من وظائفها، كإصاغة حياة أصحابها، وإبرار دورهم الفكري والسياسي والاجتماعي، لتصبح آثارهم مرجعيات فكرية وأدبية

(١) المصدر نفسه، ص ٢٨٦

(٢) المصدر نفسه، ٢٩٦-٢٩٧.

(٣) انظر، المصدر نفسه، ص ٣٨٤-٣٨٥

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٦٥

(٥) صائق، نور الدين، سير المفكرين الثانية، ص ٧١



ومن جانب آخر، فإن هناك أشكالاً أخرى أقل أهمية عند الحديث عن أصول السيرة الذاتية، لأن أصحابها اقتصروا على ذكر أسماء لمشايخ والترجمة لهم، وذكر مصنفاتهم والكتب التي يدرسونها، ورواياتهم.

وبالنسبة إلى الأدب العربي القديم، لا يقدم لنا سيرة ذاتية تبرز فيها ملامح السيرة الذاتية الحديثة، حيث لا نجد نموذجاً، تناول فيه مؤلفه ذاته بصفتها ذاتاً مستقلة، ورغم ذلك فإن السيرة ليست نصاً مغلقاً، أو مجالاً صيقاً محدوداً، وإنما هو نص مفتوح على الكثير من الأجاس الأدبية، حيث إنها نوع يدع إلى الانفتاح على مجالات ذاتة عند، فكل نص يبدو أن مؤلفه يعتبر فيه من حياته وإحساساته^(١). لذلك فإن أدب الرحلات يعد من الكتابات الذاتية في التراث العربي القديم، ومن أصول السيرة الذاتية، وإن لم يكن مبرراً ذاتية مفهومها الحديث.

(١) لوجون، فليب السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمه عمر حلمي، مقدمة المترجم، ص



الفصل الرابع

الدراسة الفنية لأدب الرحلات

يمكن أن تُدرس الرحلات بوصفها فناً سردياً، ذا طابع أدبي، له سماته وملامحه الدائرية، التي تميزه عن غيره من الفنون الأدبية، بحيث يساعد ذلك في استخلاص هذا النوع من الأدب، وكشف خصائص لباء القني له؛ كيف بدأت الرحلة، وكيف انتهت، وعناصر تلك البداية والنهاية التي يحكمها الزمان والمكان، واللغة والشخصيات بمسئولياتهم المختلفة الاجتماعية، والثقافية، والفكرية، ونطباعات تلك الشخصيات التي كثيراً ما تكون شيقة وتقرّب الرحلات من الحكاية، لذا فإن الرحلات بحاجة إلى دراسات جديدة وجهود كبير من الدارسين والباحثين لاستكشاف أبعاد القصصية، وتحليل جماليات الصور السردية في كل رحلة على حدة، من حيث هي بناء فني، وإبداع أدبي، يتصنع الحياة بكل ما فيها من أساطير، وقصص، وأشعار، وأمثال، ورسائل، فكك الرحلات وإن كانت مصدراً تاريخياً لمعرفة أحوال بعض المجتمعات، أو مصدراً جغرافياً لائصاله بعلوم كانت في صميم الجغرافيا، كعلم السكان والاقتصاد، والتجارة، وغيرها، فهي تهتم بحياة الناس اليومية وعاداتهم وتقاليدهم وأساطيرهم ومعتقداتهم، وغير هذا كثير، ثم أخذ تدوين الرحلات يتطور شيئاً فشيئاً، حيث أصبح لكتابة الرحلة تقاليد فنية يلتزم بها مدوّنو الرحلات، مما يتطلب توجيه النظر إلى دراستها لمعرفة إلى أي مدى يمكن أن تُحد هذه الرحلات فناً أدبياً له جذور قصصية، ويمكن تطبيق سيمياء لقصة عليها بما فيها من إشارات ودلالات، وما جمع فيه كائنه من أساليب الأدبية، كدقة وصف، وجمال لعظ، وحسن تعبير.

وقد حاولت الدراسة هذا، أن تخطو خطوة في تبين ملامح تلك السمات والأبعاد القصصية، حيث تم اختيار بعض النماذج من رحلات الأندلسيين والمغاربة، لإبرار تلك السمات والأبعاد القصصية، التي يبدو فيها تأثير بعض الرحالة بأساليب المشاركة الأدبية، وقد أشار من سام في كتاب الدخيرة إلى ذلك بقوله: «إن أهل هذا الأقطر الأندلس أسوا إلا متابعه أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتاد»، حتى لو بقى بتلك الأقطار عراب، أو طن بأقصى الشام ولعرق دباب، بلجثوا على هذا صمماً، وتلوا ذلك كتاباً حكماً»^(١)

(١) ابن سام، أبو الحسن علي بن سام الشترجي، (ب ٥٤٢هـ) الدخيرة في محاسن أهل الحريرة،



أولاً: الأسلوب واللفظ والمنهج

تأثر الأندلسيون والمغاربة بأسلوب الكتابة الأدبية المشرقية، وكان تأثيرهم بطريقه القاضي القاضى^(١) واضحاً، وهي طريقة تعتمد على المبالغة في الحساس والسجع المتكلف، وكثرة التوريات، ولطفاً، ولاقتباس، وقد شاعت هذه الطريقة في عصر ابن خلدون وابن الخطيب.

وباستعراض نصوص الرحلات الأندلسية والمغربية التي بين أيدينا يمكن أن نرى على بعض المواضع التي يتضح فيها العديد من الظواهر الفنية التي يبدو أنها في العصور الأولى للموجود الإسلامي في الأندلس والمغرب- لم تصل درجة الالتزام بها وتكلمها، فتجد طبعاً وجاساً وسجعاً وبورق، وغير ذلك، لكنها فتون قليلاً الانتشار وفريقه من الطمع، وعصوية لا تثقل على السمع، بحيث أضاف لأسلوب الرحلات قوة مؤثرة وفي أواخر القرن الرابع الهجري، وصلت المحسنات ابدئية إلى مستوى متقدم وملحوظ من التألق والرخرفة، فوجدت النصوص التي احتوت سجعاً متكلفاً رادت سيطرته في أواخر العهد الإسلامي في الأندلس والمغرب

ومن جانب آخر، فإن غنى موضوعات الرحلات، قد جعل معظم أصحابها يؤثرون التعبير السهل المؤدي للغرض بدلاً من التكلف، وتزويق العبارة، ولعل التجارب التي مرّ بها معظم الرحّالة كان لها دور في توضيح الأسلوب العلمي السليم في كتاباتهم، لما وصلوا إليه من علم غزير، فحرصوا على تدوين ملاحظاتهم أولاً بأول، ومن لم يمس ذلك، دون رحبته بعد عودته إلى بلاده معتمداً على قوه ملاحظته في وصف مشاهداته، فقد تمت

(١) القاضي القاضى، هو أبو علي عبد الرحيم الياسي، مبة إلى يسان بين حوران وفلسطين، وزير صلاح الدين الأيوبي، قال النويري فيه إلى القاضي لقاضى انتهب صناعة الإنشاء وقصده، عُرف أسلوبه بالترام السجع الطويل والتشبيه والاستعارة، توفي سنة ٥٩٦هـ ترجمته: ابن خلكان، وفیات الأعيان ١٥٨/٣ ١٦٢، والنويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت ٧٣٣هـ) بهاية الأرب في فنون الأدب تحقيق حسين صابر، يصدرها لمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣: ١٠/٨ ٥٦.

رحلاتهم مادة علمية متنوعة الموضوعات مما ترتب عليه ازدهار فن الرحلة الأندلسية ولعربية، كما وفر لصوص الرحلات الانسجام مع الذوق والطبع العربي الأصيل، وحسن الوقع على الأذن، فكانت نماذج حلالها التوفيق والنجاح.

جاءت ألفاظ معظم الرحالة سهلة وواضحة، وبعبارة عن التعقيد والعراة، فقد كان ابن جبير، يفتح بعض كلامه فقرات مبنية بالسجع والجناس والطباق، ولكن دون إسراف أو مبالغة تخرجه إلى حد التكلف، حيث يرسل عباراته إرسالاً لطيفاً، ومن ذلك ما وصف به مدينة مرسية^(١)، إذ يقول هذه المدينة موسم تجار الكفار، ومقصد جوازي البحر من جميع الأنظار، كثيرة الأرفاق يرحاء الأسفار، مظلمة الآفاق بالكفر، لا يقر فيها لمسلم فرار، مشحونة بعبدة الصلابة^(٢)، ومن قوله أيضاً في ذكر مدينة حران^(٣) بلد لا حسن لديه، ولا حل يتوسط برديه، قد اشتق من اسمه هواؤه، فلا ياله البرد مائه، ولا ترال تنقد بلعج الحجير ساحاته وأرجائه^(٤).

وقد جاءت عبارات ابن جبير سهلة تخلو من العراة والنوصرة والتعقيد، فبينما يهتم بمفرداته فتخرج قطعاً أدبية فريدة، فإنه يكتفي في مواضع أخرى بتسجيل مشاهداته وملاحظاته بأسلوب سهل ودقيق حتى إذا خرج عن ذلك أتى بعبارات عده حالية من التكلف والابتدال على نحو ما يذكر من مساجد أو أسواق بغداد وأردحام الناس فيها واشتغالها على بشر لا يحصيهم إلا الله تعالى الذي أحصى كل شيء عدداً^(٥).

ومما غمير به أسلوب ابن جبير أيضاً ما وصل إليه من حكمة تمحضت عن التجارب التي مر بها خلال مراحل رحلته، حيث يقول: "وإن كان المخذور لا يُغني عن المقدور شيئاً"^(٦).

(١) مرسية، بلدة على ساحل جزيرة صقلية انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان ١٣٠/٥ ١٣١

(٢) رحلة ابن جبير، ٢٩٦

(٣) وردت ترجمتها، الدراسة هنا، ص ٨٢، لخاصية رقم ٤

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢١٩

(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٤، انظر، المصدر نفسه ص ١٨٢، ١٩٠، ٢٨٣، ومواضع أخرى متفرقة

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٩٠



ومن جانب آخر، يُلحظ في أسلوب ابن جبير أنه يتسم أحياناً بالعفوية ولاضطراب، غير أن ذلك لا يؤثر سلباً في عرض الأفكار، ومن ذلك حديثه عما يتاله الخاخ بعيناب وجدة من أدى بسبب المكس، فعدت توجهه من الإسكندرية إلى قوص، ووصفه بجاني البيل، يتذكر خبراً فيقطع حديثه بعبارة ذكر ما استترك خبره، مما كان أغفل، وذلك أننا لما حللنا الإسكندرية عايت مجتمعاً من الناس عظيمًا^(١) ويستمرسل في الحديث ثم يعود ليفول: رجع الذكر، ومن المواضع التي احتزنا عليه في الصعيد^(٢).

وقد أناد عدد من الدارسين بأسلوب ابن جبير، ووصفوه بأنه من أوسع الرُخالين العرب فكراً وأشملهم ملاحظات، وأحلمهم أسلوباً وأنقاهم تعبيراً، وأسلسهم بياناً وأعمقهم استنتاجاً وإدراكاً وأكثرهم اهتماماً بأوصاف السياسة الإسلامية العامة في زمنه، وأشدهم اهتماماً بتتبع أحوالهم واستقصاء أدوائها وعلاجها^(٣).

أما العدري، فقد كان حاذق الطبع، كثير النقد، حريصاً على عاسة العلماء والأخذ بهم، وفي الوقت ذاته امتاز بدوق أدبي، وقدرة عالية على التصرف في قواعد اللغة العربية، الأمر الذي أعانه على تتبع أخطاء بعض الأدباء والعلماء وتقديم رأيه وتوجيهاته لهم، فجاء أسلوبه توجيهياً، بعيداً عن النفاق، حيث كان يمدح ما يوافق رغبته، وينور ويغضب بما لا ينسجم مع رغبته وأفكاره.

ويظهر طبع العدري الحاد حين يدخل مدينة فلا يعثر فيها على عالم، حيث يعدّ ذلك المكان كأنه معدوم، فلا وجود لمكان علا فيه الجهل وحلا من العلماء، ويرداد عضبه إذا كان لذلك المكان ماض عريق، فهو قد سافر من أجل العلم والبحث عن المعرفة، وإذا لم يجد ذلك في المدن التي قصدتها، تصطرب نفسه، وتعود حدة أسلوبه إلى حدّ انهجاء.

(١) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥، وانظر مثل ذلك، المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٣) الأنصاري، عبد القدوس، مع ابن جبير في رحلته، ص ١٦، وانظر، كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب المغربي العربي، ص ٣٣٥، وقنديل مزاد (٢٠٠٢)، ط ٢، القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، ص ٣٨٩-٣٩٠.



ولعلّه قصد بأسلوبه هذا شحذ همّة سكان تلك المدن، ليراجعوا أحوالهم، ويحاولوا الخلاص من الجهل، حيث يقول العبدري ^(١) وربما هل الامتناع لحرب الفضائل على فرط تحزّب وتآلب على فئة الرذائل، فيقع في اللفظ إقذاء ^(٢) وإقذاع ^(٣) ويرسم في باب همزهم تحكين مذ وإشبع، لا جهلاً بمواقع الإغضاء ^(٤) من أخلاق ذوي الآداب، ولا ميلاً إلى ما عابه اشترع من مدموم الاعتباب، وإنما هو لغرض صحيح لا يرمى بهم التضييع، وهو إعطاء ذي الحقّ حقّه، وأن لا تكون الفضائل لغير أهلها مستحقّة، فيكون الماضل في الوصف مبخوساً، ويُرَى الناقص في غير مبيته مغروماً، وقد يردع السيء عن إساءته، ما يرى ويسمع من مبادئه ومن التأديب كلّ ما كفّ المرء عن زلله، وبينة المؤمن أبلغ من عمله وعلى أيّ نعم الله قبل ما امتنع لنفسه أو أزحزح في غرضها عنسي، وما أغريت قلبي بالانتصاب ولا أعملته في ذكر ذميم الأوصاف. لا لحرمة من الفصل أشلاؤها شمرّة، أو وظيفة من الشرع أحكامها مُصيّمة ^(٥)

ومثل مشاعر لانفعال هذه، مجدها عبد الرحّالة ابن سعيد المغربي، حيث امتزجت صوره بانفعالات العصب التي لا تحلو - أحياناً - من طابع السحرية، فقد رسم صورة ساهرة تعبّر في الوقت ذاته عن ضربة سخطه لبعض المشاهد التي رآها في القاهرة مثلاً، حين اضطرّ لركوب الخمار من باب زويلة في القاهرة إلى القسّاط، وقد عد به لأرقّة فاكتحلت عيوبه بالعدس ولم يرحم الكاري صراحه ولم يرق له، عما أدّى به إلى الوقوع سجوداً على وجهه، وجاءت هذه الصورة بحركات متلاحقة. ساعد في تسارعها استخدام قامة الرء التي عكست اضطراب ابن سعيد وغصه، وفي الوقت ذاته عكست روح النكته لديه، حيث يسجل ذلك شعراً ظريفاً، فيقول:

(١) إقذاء. فساد، انظر، ابن منظور، لسان العرب: ١٧٤/١٥.

(٢) إقذاع الفحش من الكلام الذي يبيع ذكره، انظر، المصدر نفسه ٢٦٢/٨.

(٣) الإغضاء الصبر على الأذى، انظر، المصدر نفسه: ١٢٨/١٥.

(٤) العبدري، الرّحلة المغربية ص ٢.



لَقِيتُ بِمَصْرَ أَشَدَّ الْبُورِ^(١) رُكُوبَ أَحْمَارٍ، وَكُحْلَ الْغُبَارِ
وَحَصِي مُكَارٍ يَفُوقُ الزُّبَارَ ح لَا يَعْرِفُ الرِّفْقَ مَهْمَا اسْتَطَارَ^(٢)
أَنْدَبُهُ مَهْلًا فَلَا يَرْقُوي^(٣) إِلَى أَنْ سَجَدْتُ سَجُودَ الْعُثَارِ
وَقَدْ مَدَّ فَوْقِي رِوَاقَ الثَّرَى وَأَلْخَدَ فِيهِ ضِيَاءَ الْتَهَارِ^(٤)

أما بحسب انغزال فقد برز أسلوبه الفكاهي في رحلته حيث سأله روجة ملك الروم يوماً عن سنة فقال مداعباً ها عشرون سنة، فعالت للترحان ومن هو ابن عشرين سنة يكون به هذا الثيب؟ فقال وما تنكرين من هذا؟ ألم تري قط مهرأ يتج وهو أشهب؟ فصحكت وأعجبت بقوله^(٥)

وقد حرص عدد من لرحالة على أن يكون كلامهم منسقاً، يعتمد على السجع غير المتكلف، وفتاس كثير من المعاني من الآيات القرآنية والأحاديث السنية، ويلتزم قواعد اللغة العربية والنحو والملاحة والعروض، مما يساعد ذلك على تتبع إنتاج الأدباء ولعلماء، فقد اعتمد العبدري في نقده لكثير من إنتاج الأدباء والعلماء على ذوقه الأدبي ومصادر معرفته وثقافته اللغوية والنحوية، ويتضح ذلك من الأمثلة المتعددة، في رحلته، حيث ناقش بعض الشعراء في قصائدهم، وعلق عليها، ومن ذلك ما أورده من قول لأبي عبد الله محمد بن عمر بن حميس^(٦) في قصيدة يقول فيها:

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ أَيْمٍ يَبْلُدُ يَوْمًا وَأَسْلَمَ مِنْ أَدَى حُفَاهَا

(١) البوار (هلاك) انظر، ابن بطوطة، بيان العرب: ٤، ٨٦.

(٢) استطار الغبار، إذا انتشر في الهواء انظر، المصدر نفسه ٤/ ١٣.

(٣) يقصد لا ينكأ ولا يرحر انظر، المصدر نفسه ١٤، ٣٢٩.

(٤) المقرئ، نفع الطيب ٢/ ٣٤٠.

(٥) ابن دحية، لطرب، ص ١٤٤، والمقرئ، نفع الطيب ٢/ ٢٥٧.

(٦) انظر، ترجمته، العبدري، الرحلة المغربية، ص ١٥، والمقرئ، نفع الطيب ٥/ ٣٥٩، ٣٧٨.



إلى أن يقول:

ولا تحسبو ألي على الدهر عائب وأعظم ما بي منه أسرم بي
وما اسمي إلا شيا ب خلعتـه وشيت أبي إلا نصاب حصاب^(١)

فقد أدرك العبدري بذوقه وحسنه الأدبي، أن مقطع القصيدة الأخير، لا يتسجم مع ما قبله، ولهذا قال بعد ذكرها، هذه القصيدة مهدية الألفاظ والمعاني، ألد من نغمات المثالث والمثاني، إلا أن مقطعها قلو ناب، لا يلين ولو مضع بضر من وباب، ليس يلتئم بما قبله ولا يمتزج، ولا يرال السمع به يفلن ويترجع^(٢).

وهو بهذا يرى أن الانسجام المعنوي يكمن أصلاً في سجع القصيدة، لأن التلحرج إلى المقطع يجعل المستمع مستائساً بما يسمع، وقد خشي أن يكون حكمه سريعاً غير مبني على الممارسة، لذا يذكر أنه قرأ لقصيدة عدة مرات كي يحس بالالتحام، فلم يشعر بذلك ولم يهتد إليه. فهذا التدخل من العبدري تدخل ذاتي، وقد كان يتدخل أحياناً تدخلاً لغوياً أو عروضياً مبياً على معرفة واسعة، ومن ذلك أن ابن حميس حينما قال:

ولكنها الدنيا تكرّ على الفتى وإن كان مها في أمر نصاب
وعادتها ألا توسط عـبدها إنا سماء أو تخوم تراب^(٣)

علق العبدري بعد ذلك، فقال قوله إنا سماء أو تخوم تراب الوجه فيه وإنا تخوم تراب بتكرير إنا بعد حرف اعطف، وقل ما يؤتى بها غير مكررة إلا نادراً^(٤). ويظهر هذا أن لعبدري كان ينظر للإنتاج الأدبي بعين الناقد الباحث عن الطواهر الخفية في النصوص، والثوار بين اللفظ والمعنى، فهي التي تكسب الأدب الجاذبية

(١) العبدري، الرحلة المغربية، ص ١٤-١٥

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥ وهناك ملاحظات عديدة ذكرها العبدري في رحلته، تؤكد خبرته بعلم

العروض والإيقاع والدوق المرفق في المجال الأدبي اللغوي، انظر، رحلته، ص ١٧، ٢٥



القوية. ولعلّ مثل هذه الروح النقدية، لم يكن جميع الرّحالة يمتلكونها، فالرّحالة أبو حامد الغرناطي لم يكن يمتلك الروح النقدية لما يسمع، وقد رأى شوقي ضيف أن ملكة نقد الأحبار عنده لم تكن واسعة^(١).

أمّا ابن بطوطة، فيمار عن غيره من الرّحالة، بأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا اهتم بها، وفصل الحديث عنها، وكان من أشدّ الرّحالة عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية ولعادات والتقاليد. وامتد أسلوب كاتب رحلته بالبساطة والوضوح ودقّة الملاحظات، وحلت عباراته من السجع والخماسة وأشكال البيان إلا ما ورد في مقدّمة الرحلة وخاتمها، وكذلك كلّ مقدّمة لوصف مدينة عظيمة، ولعلّ ذلك عائد إلى ابن جزّي، الذي أدّى دوراً هاماً في خلق عمل قيّ مناسك لرحلة ابن بطوطة ليظهر براعته، فهو كاتب أديب في حاشية السلطان أبي عنان^(٢).

ولغة ابن بطوطة سهلة بسيطة تخلو من التكلف، وتنبّل إلى لغة لحادثة انعادية، فقد كان جلّ اهتمامه أن يقصّ ما لديه من حكايات ومشاهدات في حين بلغ أسلوب الرّحالة ابن الحاجّ النّميري حدّ التكلف، فقد طغى اسجع على أسلوبه منذ بداية الرحلة حتى نهايتها، ومن ذلك قوله: «وكم من رجال عاتتهم الأعلال، وبث في أعصاهم من أهل الأضلال والإدلال، وحلوا من الأحران كلّ ثقل المحمل، وأهملوا فلم يعرفوا من الكتب إلا قبيد المهمل»^(٣).

ومن كلامه عن أهل قسنطينة ومكنت وماحر سزاغهم، وشطّطت مراحم قناهم، ولايت معاجم بحالهم، ونجّدت نيران جلادهم^(٤).

(١) انظر، ضيف، شوقي، الرّحلات، ص ٥٦، وكراشكومسكي، تاريخ الأدب الحمصاني العربي، ص ٣٢٧.

(٢) انظر، لمصري، معج الطيب ١٧٠ / ٢، ورحلة من بطوطة ٣١٢ / ٢، وانظر، عريب، حورج، (١٩٧٢) أدب الرحلة، تاريخه وأعلامه، بيروت، لبنان، دار الثقافة، ص ٦٤ - ٦٥.

(٣) ابن الحاجّ النّميري، فيص العباب، ص ٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

ويلحظ اضطراب الأسلوب عند ابن الحاج في بعض الأحيان، مثلاً عندما يتحدث عن ابتداء أبي عنان للأسرى كلما عقد صحباً أو هدنة مع الإفرنج، وتحدث عن اغائب ثم يخطبها، ويقول: «فما كان بأسرع من انطلاق نسائهم»، وقد لطمس صفحات خدودهن^(١) حيث يبدو أن هناك شيئاً قد حذف، ويلحظ أيضاً في رحلة ابن الحاج أن هناك نقلات عشوائية من موطن إلى آخر ثم العودة إلى الموضع الأول وهكذا، وهو كذلك يختم رحلته بشكل مفاجئ، إذ يتحدث عن سجن شيوخ بني مرين، وعن وفاة أبي عنان، وعن من تولى الحكم بعده^(٢).

وقد يلجأ ابن الحاج إلى التطويل والاختصار أو التفسير أو الإطباب، ولعل ذلك كان بحكم حدثه عند السطان إذ ظلّ خاضعاً لإرادة السلطة لقوية، فلم يكتب بموضوعية، ويقول محقق الرحلة فلم يكن ابن الحاج والحالة هذه سوى أداء طبيعة كمن من افتناع سحرتها يد أبي عنان لرسم بوحه كاملة تعكس بصدق وأمانة معالم شخصيته^(٣).

أما لسان الذين بن الخطيب، فقد امتار أسلوبه بكثرة الإطباب، حيث تطول جملة، فتكرر المعاني، ويذكر المقرئ وصف بعض علماء المشرق لأسلوب ابن الخطيب. مر كذب مرسل بلغ، لولا ما في إنبائه من الإكثار الذي لا يحل من عثار، والإطباب الذي يعضي إلى الاجتناب، والإسهاب^(٤). ويتضح تأثر ابن الخطيب بأسلوب القاضي الماضل، في بناء جمه على أساس انتفاء اللفظ وتعدد الجملة والإطباب في التعبير، ومرح الشعر بالثر^(٥) ويعلق المقرئ على ما وُصف به أسلوب ابن الخطيب، فيقول: فإنّ لسان الذين ورن أطيب وأسهب، فقد سلك من البلاغة أحسن مذهب^(٦).

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤، وانظر أيضاً: المصدر نفسه، ص ١٩، ٥٣، ٥٤، ٢٨٠.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٣) ابن الحاج التميمي، فصول العباب، المقدم، ص ٢٠.

(٤) المقرئ، نفع الطيب ٢٦/٦.

(٥) البلوي، تاج الفرق ٩٩/١.

(٦) المقرئ، نفع الطيب ٢٧/٦.



وأظهرت رحلة ابن الخطيب إلى جبل هتاتة^(١)، توسع لرحالة في استخدام الصنعة اللفظية^(٢) وعلى العالب فإن لغة ابن الخطيب سهلة واضحة، تكثر فيها الاستعارات وتشبيهات، والصور المخارية.

وقد اعتبر بعض الدارسين لسان لدين بن الخطيب، قطب الشعر والنثر في عصره، ومحور الحركة الفكرية الأندلسية^(٣) وأنه كان مستجيباً للذوق السائد في ذلك العصر، ومواكباً لأساليب النثر المشهورة، وفي مقدمتها طريقة القاضي الفاضل^(٤) كما أن نشره يشتم بدقة الوصف، وغزارة المعنى^(٥).

إن هؤلاء الرحالة وإن اعتمدوا على السجع والمحسنات البديعية، والصور البيانية، فهم لم يعملوا الحقائق والمعلومات، بل هم في هذا الحجاب امتازوا بالدقة والشمول ويبدو أن بعض الرحالة قد حاول التخلص من سيطرة المحسنات البديعية عليه، حيث يقول ابن حلدون: إن تكلف المحسنات البديعة ومعاناتها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام،.. ولا يبقى في الكلام إلا تلك لتحسينات، وهذا هو الغالب اليوم على أهل العصر^(٦) ويقول ابن حلدون عن نفسه، عندما كتب للسلطان أبي سالم المريني، وصفاً أسلوبه واستعملي في كتابه سره، والترسيل عنه والإشياء لمخاطباته، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل بدون أن يشاركني أحد ثم يتحل الكتابة في الأسجاع

(١) و. دت ترجمته، الدراسة هـ، ٤٥، حاشية رقم ١

(٢) انظر، ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ١١٦-١١٧، ومؤنس- حسين، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٥٩١

(٣) صان، محمد عبد الله (١٩٨٨) دولة الإسلام في الأندلس، ط ٣، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص ٤٨١، وابن الخطيب، الإحاطة ٥٢/١

(٤) الشكعة، مصطفى، (١٩٧١) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، بيروت: دار النهضة العربية، ص ٥٧٢

(٥) أمين، أحمد، ظهر الإسلام، (١٩٥٥) القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ٢١٩/٣

(٦) مقدمة ابن خلدون: ١٣١/١

لصحتف انتحالها، وحماء العالي منها على أكثر الناس، بخلاف المرسل، فانصرفت به يؤمئذ، وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصاعقة^(١)

ويتضح من ذلك، أن ابن خلدون متمكن من اللغة والأدب وصياغته صيغة فصيحة رصينة، ويدل على ذلك مصادر ثقافته ومعرفته المختلفة، فقد تعلم صاعقة العربية على والده وعلى علماء تونس، وحفظ كثيراً من كتب الشعر^(٢)، لذا انسم أسلوبه، في ألعاب، بالجزالة والقوة مع الوضوح، أما استخدامه للبدیع فقيل، حيث كان بحاملة لأصحابه ممن تأثروا باسمات الفنة لتلك العصور، ومن هذا قوله في رسالة إلى ابن الخطيب يا سيدي، ونعم الدخر الأدي، والعروة الوثقى ابني اعتلقتها يدي، أسلم عليكم سلام القدام، على المخدم، والخصوع، لملك المبرع لا بل أحبك تحية المشوق، للمعشوق، والمذلل، لتصباح المتلج، وأمر ما أنتم أعلم بصحيح عقدي في من حبي لكم، ومعرفتي بمقداركم، وذهابي إلى أبعد العايات في تعظيمكم، والثناء عليكم، ولإشادة في الأفاق بمناقبكم، ديداً معروفاً^(٣).

وعلى الجملة، فإن جل الرحلات كانت مهله مألوفة ودقيقة طريقة، ركزت على الأفعال؛ لانتفاها وطبيع الرحلة، ولسماحها بالحركة المتتالية للصور ذات الاتصال السريع، لذا امتاز الأسلوب بالتلقائية، ولاسترسال، ووضوح المعاني، فقد كان للأفعال دور كبير في بيان دلالات بعض الرحلات، حيث أظهرت رحلة ابن عربي دلالة فعل السمر، فاسفر إرادي يتم بالجهد الشخصي، ولا إرادي، حيث يتعلق الإنسان بالقدرة الإلهية، دون حول ولا قوة

وقد نوع الرحالة في استخدامهم للصمائر المتصلة بثلاث الأفعال حيث وردت أفعال أسندها الرحالة إلى صمير الجمع وأخرى إلى صمير المتكلم لمجرد، ومهب، (أفلساء،

(١) ابن خلدون، تعريف، ص ١١٩ - ١١٢

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ٦١ - ٩٢

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٠ - ١٨٦.



وشاهدنا، وركبت البحر، وتلكنني (١)، الأمر الذي أكسب الأفعال حيوية وحركة
تنسجم مع فعل الرحلة

وحملت كتب الرحلات، كذلك، بالجمل المعترضة، وبخاصة لدعائية، ثم إن تكرار
هذه الجمل لم يؤثر سلباً في أسلوب الرحلات، ولعلّ عناية الرحالة بها يعود لاعتبارها من
الأصول التي يعتمد عليها التعبير الأدبي في العصور كافة، والمعبرة عن التعظيم لله تعالى
ولدعاء للسامعين بالتوفيق ولرحمة^(٢). ومن أمثلة ذلك، واستقبلنا البلد حرسها الله
و^(٣) واستقبلنا المريّة^(٤)، عصمها الله^(٥) وركب السلطان آية الله ثالث يوم^(٦)
و منهم من يقول: (إن مقصده مئودة^(٧))، حرسها الله، ومنهم من يرغم أن مفصله
إفريقية، حماها الله...^(٨)

ويبدو الأثر اللغوي واضحاً في أسلوب الرحالة، فقد كان القرآن الكريم، والأحاديث
السنة الشريفة أساس تصافتهم، ومصدر بلاغتهم، فكثير الأخذ عنهم، -ولا غرامة في
ذلك- فالعامل اللغوي من الدوافع الهامة للرحلات، وكان الاقتباس في اللفظ والنص وفي
المعنى، تعدت الآيات القرآنية ولأحاديث النبوة الشريفة أسلوباً من الأساليب والأدوات
العبة للرحلات، مرز الاهتمام بالجميل والعبارات، وتحقيق الاستجمام بين الألفاظ والمعاني،
وردد في كلام الرحالة الاقتباس من القرآن والتصميم من الأحاديث النبوية الشريفة كذلك
تصميم الأمثال والمرح بين الشعر والنثر، فأنشئت، تبعاً لذلك، المعاني

(١) الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد العهود الأسطلي من أعلام القرن السادس، إحكام صنعة
الكلام، تحقيق محمد وضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦، ص ٧٢-٨١

(٢) ابن الخطيب، خطرة الطيب، ص ٣٤

(٣) هي مدينة كبير من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس، انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان
١١٩/٥

(٤) ابن الخطيب، خطرة الطيب، ص ٤٧

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٩، والرحلة تعج بمثل هذه حمل الدعائية

(٦) مئودة جريدة في شرقي الأندلس، انظر، معجم البلدان ٢٤٦/٥

(٧) رحلة ابن جبر، ص ٣١٠، وانظر، المصدر نفسه، ص ٨٣، ٨٧، ١٠٣، ومواضع متفرقة كثيرة.



ويظهر أثر القرآن الكريم في نموس الرّحالة، جلياً، حيث كان الرّحالة يتبشرون بالآيات القرآنية، فيجعلون القرآن الكريم معهم في جميع مراحل رحلاتهم، ويقول ابن بطوطة ففتحت لمصحف أنظر فيه فكان في أول المصحف، ﴿وَلْيُصْرَتْ لَهُ مِّنْ يَّصْرَةٍ﴾^(١) فاستبشرت بذلك^(٢).

ووظف ابن جبير^(٣) النصّ القرآني في رحلته، ومن ذلك قوله تعالى ﴿إِلَّا مَن أَصْحَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٤)، و﴿إِن أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾^(٥) ويظهر تأثره بالآيات القرآنية في بعض عباراته، ومن ذلك قوله: وقرّ منهم من نصي الله سبحانه، وحقت كلمة العذاب على الكافرين^(٦)، وهو بذلك يشير إلى تأثره بقوة تعالى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ حَتْمٍ دُمَرًا خَقَّ إِذَا هَاءُ وَهِيَ قُبْحٌ أَبْوِيهَا وَقَالَ لَهُمْ حَارِثُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّمَّنْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمُ آيَاتِ رَبِّكُمُ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٧)، ويقول ابن جبير أيضاً ثم بعد ذلك غشى البحر صاب رقيق سكبت له أمواجه فعاد كأنه صرح عمرد من قوارير^(٨)، حيث تأثر بقوله تعالى ﴿قِيلَ لِمَ أَذْهَبَ الصَّرْحُ ظَنَّمْنَا أَنَّهُ حَبِصَتُهُ لِحَبَّةٍ وَكَفَعَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالِ إِنَّهُ صَرْحٌ مَُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٩) ويستعد ابن جبير في أسلوبه عن المكارر والاستطرادات، وهو وهو حين يستخدم السجع، يستخدمه دون تكلف

(١) سورة الحج، آية ٤٠

(٢) رحلة ابن بطوطة، ١٧٠/٢

(٣) انظر، رحلة ابن جبير، ص ١٥٨، ١٩٨، ٢٥٨، ٣٠٤، ومواقع أخرى متفرقة من الرحلة

(٤) سورة الحن، الآية ١٠٦

(٥) سورة آل عمران، الآية ٩٦

(٦) رحلة ابن جبير، ص ٣١٥، وانظر مثل ذلك، ص ٢١٣، ٢٤٦، ومواقع أخرى.

(٧) سورة الزمر، الآية ٧١

(٨) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٦

(٩) سورة النمل، الآية ٤٤



ويبدو أنَّ النَّاتِرَ بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ عِنْدَ ابْنِ الْحَاجِّ، كَانَ يَقْصِدُ بِهِ تَأْكِيدَ الْمَعَانِي فِي عِبَارَاتِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ «وَتَلَا لِسَانُ مَجَازَاتِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْبُرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَعْبُرُوا مَا يَنْفُسُهُمْ»^(١)، وَقَوْلُ حِينَ وَصَفَ أَهْلَ قَسَنْطِينَةَ عِنْدَ طُلُوعِ الْخَيْوشِ كَثِيرَهُ اأَعْدَدَ وَلَعْنَةً وَقَدْ بَلَعَتْ قُلُوبُهُمُ الْخَنَاجِرَ»^(٢)، وَيَقْتَبِسُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلَهُ تَعَالَى «سُكَّرِي وَمَا حُمُّهُمْ سُكَّرِي»^(٣).

أَمَّا ابْنُ الْخَطِيبِ، فَيَنْضَحُ نَاتِرُهُ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي مَحَلِّ رَحَلَاتِهِ، فَيَقُولُ فِي رَحَلَتِهِ إِلَى جَبَلِ هَتَانَةَ: «وَالْتَوَكَّلْ عَلَى التَّمَارِقِ الْمَصْفُوفَةِ، وَالرَّرَابِيِّ الْمَشْوُتَةِ، فِي الْمَتَوَا الْكَرِيمِ، وَاسْتَقَالَ طَلْعَةُ الدَّرِّ»^(٤).

وَيَقُولُ ابْنُ خَلْدُونِ فِي بَعْضِ عَمَرَتِهِ وَصُورِهِ، مَائِرًا بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ «وَسُورَ ضَرِيبِ الْأَمْثَالِ بِمَشْكَاتِهِ وَرَيْقَتِهِ»^(٥)، وَيَقُولُ أَيْضًا: «وَتَرَكْتَكُمْ عَلَى أَيْمٍ مَا أَرْضَاهُ» . وَإِنْ فَسَّحَ اللَّهُ فِي

(١) رحلة بَيْضِ الْعَابِ، ص ٨، وَيُشِيرُ إِلَى الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ «لَمَّا مَقَّيَّتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، يَخْفَتُ وَمِنْ أَمْرِ أَمْرِ الْقُرْآنِ إِنَّهُ لَا يَخْفَتُ مَا يَوْمُ نَحْيٍ يَخْفَتُ مَا يَنْفُسُهُمْ وَإِلَّا أَرَادَ اللَّهُ بِقُوَّةٍ شَوْءًا مَلَأَ سَرَّكَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ شَرٍّ مِنْ

وَالِ» سورة الرعد، الآية ١١

(٢) ابنُ الْحَاجِّ النِّمِيرِي، بَيْضِ الْعَابِ، ص ١٣١-١٣٢، وَيُشِيرُ إِلَى الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ «إِذْ جَاءَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ رِيحٌ أَسْفَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَبْنَسْرِ» وَيَلْقَبُ الْقُلُوبِ الْحَكِيمِ وَطُفُونِ يَأْتِيهِ الطُّغُونُ، سورة الأحزاب، الآية ١٠

(٣) سورة الحج، الآية ٢

(٤) ابنُ الْخَطِيبِ، عَطَرَةُ الطَّيِّبِ، ص ١١٩، وَيُشِيرُ إِلَى نَاتِرِهِ بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ «وَعَلَّيْتُ مَصْفُوفَةً»

(٥) وَرَزَقِي مَشْوَةٌ» سورة العنكبوت، الآية ١٥-١٦

(٥) ابنُ خَلْدُونِ، التَّعْرِيفُ، ص ١٢٦، وَابْنُ خَلْدُونِ هَا يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى «أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ»

مَنْ تَوْبِهِ، كَيْشْكُورٌ مِمَّا يَصْبِغُ الْيَمِينُ فِي دِمَاجِهِ الرِّجَاهُ كَأَنَّ كَوْنَهُ دَرَكٌ يَوْفَى مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَصَكَةٍ رِيحٌ لَا شَرَفَ وَلَا عَرَبِيَّةً بِكَادَرٍ مِمَّا يَنْصُرُهُ وَلَوْ لَمْ تَنْصُرْهُ سَأَلَ قَوْمٌ عَلَى قَوْمٍ هَدَى اللَّهُ لِيُورِيَهُمْ سَبِيلَهُ وَيُضْرِبُ اللَّهُ لِلْأَنْثَلِ

لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» ، سورة النور، الآية ٢٥



الأمد، وقضى الحاجة، فأملني لعودة إلى ولدي وتربيته، وإن قطع الأجل، فأرجو أن أكون ممن وقع أجره على الله^(١)

وقد ضمن بعض الرحالة رحلاتهم الأحاديث النبوية الشريفة^(٢)، لا سيما تلك الأحاديث التي تؤكد أهمية الأماكن المقدسة، كبيت المقدس، وقعة لصخرة، يقول اللري 'ولو تتبعت الأحاديث المأثورة، والأخبار المشهورة لأملأت رملات'.^(٣) ومن الأحاديث التي أوردها البلوي في رحلته 'لا نشد الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول، والمسجد الأقصى'^(٤)، وإنما يسافر إلى ثلاثة مساجد الكعبة ومسجدي ومسجد إيلياء^(٥)

ويذكر ابن بطوطة^(٦) أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ذكر أهل البلاد الموالية المولية لمكة وأثنى عليهم، وأنه صلى الله عليه وسلم قد أدخلهم في عموم قوله الإيمان بمان والحكمة بمانة^(٧) ومن الأحاديث التي أوردها ابن الحاج^(٨)، للرسول

(١) ابن حيدر، التبريد، ص ١٨٨ - ١٨٩، ويشير ابن حيدر بذلك إلى تأثره بقوله تعالى (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوَيْلُ فَقَدْ أُوذِيَ عَظِيمًا) سورة النساء، الآية ١٠٠

(٢) من الرّحالة لدين ضمنو رحلاتهم لأحاديث النبوة، العبدري، الرّحلة المغربية، انظر، ص ١١٠، ١٩٧، ٢١٥، ٢٦٤، ٢٧٣، ومواضع أخرى من الرّحلة

(٣) البلوي، تاج المشرق، ٢٥٦/١

(٤) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، (ت ٢٥٦هـ) صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لث ١/ ٢٢٠، ٢/ ٥٦، ٥٨، ومسلم، أبو الحسب، (ت ٢٦١هـ) صحيح مسلم، دار

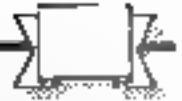
المعرفة، بيروت لبنان، مج ٢، ج ٢، ص ١٢٦

(٥) مسلم، صحيح مسلم، مج ٢، ج ٢، ١٢٦

(٦) انظر، رحلة ابن بطوطة ١ - ١٤٨، وانظر، المصدر نفسه ٨٥/١، ١٠٩، ١٢٧، ١٣٤، ومواضع أخرى متفرقة

(٧) مسلم، صحيح مسلم، مج ١، ج ١، ص ٥٢

(٨) انظر، ابن الحاج النميري، قبض الجباب، ص ٢



صلى الله عليه وسلم، في رحلته، إن مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع^(١) وقد اشتملت بعض الرحلات على مجموعة كبيرة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، كرحلة ابن رشد.

أما الشعر، فله في معظم الرحلات وجود ملحوظ، وكان من محكمات الرحلة مثله مثل الأحاديث ولأخبار، والمشاهدات، والقضايا اللغوية، وغيرها، هذا عُدَّت الرحلات من المصادر الهامة التي حفظت الكثير من النصوص الشعرية من الصياع، وربما نصمت بصراحة لا توجد في مصادر أخرى، وهو ما يصفى على هذه الرحلات قيمة أدبية كبيرة إن تضمن الشعر في بعض الرحلات، احتلّ قضاء ضمن قضاء الرحلة الشعرية، ليصح نية وموضوعاً أساساً في النص واستمراراً للسياق النصي، ونوعاً له ليصح الشعر النصّ جزءاً لا يجرّ فصله عن الرحلة^(٢)، حيث حرص بعض الرحالة^(٣) على تضمين رحلاتهم أبياتاً شعرية تارة تكون من نظمهم وإبداعهم، وأخرى تكون من أشعار غيرهم، وهم بذلك يحاولون إظهار مهارتهم وقدرتهم في النظم والشعر، وهي سمة بارزة تلقّت النظر في بعض الرحلات، بل إن بعض الرحلات أشبه ما تكون بمختارات شعرية، مثل رحلة العبدري، ومحاور بعض الرحالة ذلك إلى تضمينهم لرسائل في رحلاتهم، مثل رحلة ابن الحاج النميري، ورحلة ابن خلدون.

وقد جاء هذا التضمين حسب ما تقتضيه الحال، فما يريد من روعة لأسلوب، وجلالة، فانرحالة ابن رشد أشد لنفسه شعراً في حينه لمشاهد الديار المقدسة، والشوق

(١) مسلم، صحيح مسلم، مج ٤، ج ٢، ص ١٣٦

(٢) انظر، صالح، صلاح، (٢٠٠٣) مرديات الرواية العربية المعاصرة، ط ١، القاهرة المجلس الأعلى للثقافة، ص ٢٢١

(٣) ومسلم بن طوطية، انظر رحلته ١/ ٤١، ٤٨، ٥٩، ٧٠، ٧١، ١١٧، ١٢٠/ ٢، ٢٩١-٣٠٤، ومواضع متفرقة وابن الخطيب، حطرة الطيب، ص ٣٣، ٣٩، ٤٢، ٤٥، ٤٨، ٥٠، ٥١، ومواضع متفرقة وابن خلدون، لتريم، ص ٦٩-٧٥، ٩٢-٩٣، ١٠٩، ١١٢-١٢٣، ١٢٦، ١٢٩-١٣٦، ومواضع أخرى متفرقة



إلى معالمها وأعلامها، مختتماً فرصة مروره بخيصر وهو منزل نرله لحجاج بعد رايغ في
توجههم من المدينة إلى مكة حيث قال

أمن ودي لا تديسوا بالصددود مدام كان في وادي زرود^(١)
وخلينص إد وردنا خلصص فرعى الله أوقات الـورود^(٢)

وكذلك أنشد البلوي لنفسه شعراً يصف فيه حنيه للديار المقدسة

وكيف رحيلي عن معاد لم تزل على الخل والترحال لي غاية لأنس
أروخ وأغدو يسها شيقاً لها وأصبح فيها مستهاماً كما أمسي^(٣)

وقد صرح العبدري بقصده من تدوين الأبيات لشعرته المعردة، والمقطوعات،
ولقصائده، إذ يقول وقد رأيت أن أثبت القصيدة هنا بجمانها لحسها وإعوارها وهي
" وهو لا يكتفي بتدوين أشعار غيره، بل يثبت شعره كذلك، ومن ذلك قصيدة بعث
بها إلى ولده، يقول قبل إثبات القصيدة. وقد نظمت بالقيروان قصيدة بعثت بها إلى ولدي
محمد وفقه الله فرايت إثباتها في هذا الرسم، إذ هو أليق المواضع بها بحول الله تعالى،
وهي هذه^(٤)

أصح سمأ أوصيك يا نني وصية والد ير حفي
جري القدر المتبحر لنا ببيس قصاء جاء من ملك علي
وقد فئت بواكم في فوادي واشجت بالأسى قلب الخلي

(١) وهو واد بطريق الحاج من الكوفة، انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١٢٩/٣

(٢) ابن رشد، ملء العية، ٧٦/٥

(٣) البلوي، تاج الفرق، ١٤/٢، ١٥

(٤) العبدري، الرحلة المربية، ص ٢٠

(٥) المصدر نفسه، ص ٧٢، ٧٤



ولم يقف العبدري عند هذا الحد، فكتب في رحلته قصيدة شعرية حتم بها رحلته الشريفة، ويقول عنها وهذه قصيدة نظمتها في الرحلة، رأيت أن أختم بها هذا التقيد^(١)

ولعل قصد العبدري، واضح، وراء هذا الأسلوب، ففي رحلته الشريفة أراد إفادة المثقفي بالمعروف، ووصف البلدان واشاهدات المختلفة، وأحوال الناس أما مقصده من رحلته الشعرية، فهو الرعظ، حيث ختم رحلته بقصيدة وعظية، وقد أشار إلى ذلك في بداية رحلته الشريفة^(٢).

ومن جانب آخر، افتتح أبو عصيدة البجائي رحلته بقصيدة شعرية من نظمته^(٣)، وضمن رحلته أيضاً شعر غيره، فيقول: وكفى الحياة حظاً إسهال، ليوم لا تعد والموت وإن أبطأ الفتى مرة ما فهو كاطول المرحى وثياه باليد^(٤) وهو بهذا يشير إلى قول طرفه بن العبد^(٥).

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكاطول المرحى وثياه باليد^(٦)

وفدّمت بعض الرحلات صورة من السمات الفنية لأسلوب الرسائل في تلك العصور، وذلك بما تتضمنه تلك الرحلات من رسائل عكست البنية الفنية لها^(٧).

(١) المصدر نفسه، ص ٢٨٠ - ٢٨٤

(٢) المصدر نفسه، ص ٢

(٣) انظر، البجائي، رسالة المريب إلى الحبيب، ص ٤٢ - ٤٣ والذرة هذا، ص ٧٤

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٢ - ٥٤. وانظر مثل ذلك، المصدر نفسه، ص ٦٢، ٧٦، ٧٨، ٨٥

(٥) هو، ابن سديان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، كان في حسب كريم، وعلم كثير،

قتل، وهو ابن عشرين سنة، انظر، الأصبهاني، لأغاني، مج ٤، ج ١٥، ص ٦٢، وانظر الروزني، أبو

عبد الله الحبيب بن أحمد، (١٩٨٢) شرح المعلقات السبع، سوريا، حلب دار الكتاب العربي،

١٩٨٢، ص ٨٦

(٦) الروزني، شرح المعلقات السبع، ص ٨٦



فقد ضمّن ابن الحاجّ بعض الرسائل في رحلته، حيث سلّط الضوء على أهم الحاضر
العنيفة للرسائل في تلك الفترة

- المرسل، من عبد الله لثوكل على الله .
- المرسل إليه، الشرفاء، والعقلاء، والأعيان، والخاصة، والعامّة
- الإشارة إلى الموضوع
- السلام
- أما بعد حمد الله والصلاة والرضى على آله . .
- ذكر الموضوع وتفاصيله والإطّاب في ذلك
- الخاتمة، حيث تشعر بنهاية الرسالة بما تتضمنه من دعاء طيّب للسلطان و البرّعية
ويلحظ في الرسائل التي أوردها ابن الحاجّ في رحلته، أنّها اختصرت اختصاراً،
ويظهر ذلك من قنصار الرّحالة على ذكر أهم أبوابها، باستعمال عبارة، ومنها التي
وردت في الرسالة الأولى، أربع مرات^(١)، وثلاث مرات في الرسالة التي تحبر بتناج
الرحلة والعودة إلى الديار^(٢)، ومن العبارات الأخرى الدّالة على أنّ الرسائل مختصرة في
رحلة ابن الحاجّ النميري، عبارة «ومن الكتاب المذكور»^(٣) ومن هذه الرسائل، الرسالة
المتعلّقة بفتح تونس، حيث يقول فيها لا حرم أن الله تعالى من علينا بفتح تونس التي
كمت لفتوح، فريضة مسك الختام ولبة التمام، وصوان طرس النصر الذي قام على أقدام
الإقدام، وعدة الزمان الذي كتيها بمداد انليالي في قراطيس الأيام، . . تونس وم أدراك

(١) انظر، بعض الرسائل، في رحلة ابن خلدون، التعريف، ص ١٢٦-١٢٨، ١٣٦-١٣٨، ١٤٦-
١٥٩، ومواضع متفرقة

(٢) ابن الحاجّ النميري، فيص العباب، ص ١٣٨-١٣٩

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٣-٢٧٥

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨٤-١٨٦.



ما توس جنة البلاد، ونزهة الحاضر والبدد، ذات الجسات التي حين سوادها من العين بالسواد^(١)

ولم يفف الأمر عند هذا الحد وحسب بل ضمن بعض لرحالة حديثاً لرحانة غيرهم في وصفهم لبعض البلدان؛ فقد تضمنت رحلة ابن بطوطة حديثاً لابن جبير في وصف حلب^(٢) ودمشق^(٣) ويقاد^(٤)، ويبدو أن ابن جزي هو من فعل ذلك إذ ربما لم يقعه كلام ابن بطوطة فركه وروى مكانه كلاماً لابن جبير نقله بنمته كما نجد الإشارة إلى أن بعض الرحالة قد وظف الأمثال في رحلاته للتأكيد على صحة المعاني التي يدعو إليها، ومن الأمثلة على ذلك ما أورده ابن بطوطة في رحلته، كسير وعوير وكل غير خير^(٥)، وهما جبلان قرب البحرين^(٦)، ومن الأمثال الأخرى التي وردت عند ابن بطوطة بطوطة الكركدد رأس بلايدن^(٧) وكذلك وظف ابن الحاج النميري الأمثال في رحلته، حيث يقول: ورمب كبولهم بدائها وأسلت^(٨)، واحنوا من السلامة بالحصن المشيد، واعجبت أرجلهم في حديثها المطلق لا المقيّد وأست الكبول منها مواعد عرقوب^(٩)، و^(١٠) فلما أعطت القوس ناريتها^(١١) وقد كثي ابن حلدون عن كثرة الحش

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٣ ١٨٦

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٦٩/١، ورحلة ابن جبير، ص ٢٢٥

(٣) انظر، رحلة ابن بطوطة: ٨٢/١، ورحلة ابن جبير، ص ٢٣٤

(٤) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١٩٩/١، ورحلة ابن جبير، ص ١٩٣ ١٩٤

(٥) رحلة ابن بطوطة: ٢٥٠/١، وانظر، الميداني، أسرار الفضل أحمد بن محمد الألبوري (ت ٥١٨هـ)

مجمع الأمثال ضبط وتعليق سعيد محمد بلحاج دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٢ ١٧١/٢ - ١٧٢

(٦) انظر، باقرت الحموي، معجم البلدان: ٤٦١/٤

(٧) انظر، رحلة ابن بطوطة: ١١/٢

(٨) يشير إلى المثل القائل: رمبي بدائها وأسلت، انظر، الميداني، الأمثال: ٣٥٥/١

(٩) يشير إلى المثل القائل: مواعد عرقوب، انظر، المصدر نفسه، ٣٦٥/٢

(١٠) ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ٣٥

(١١) المصدر نفسه، ص ٢١، ويشير ابن الحاج إلى المثل القائل: أعط القوس ناريتها، انظر، الميداني،

يُحِرُّ الشوك والمدر^(١) ولعله بذلك نظر إلى المثل القائل جاء بالشوك والشجر^(٢).
ولشجر^(٣) ونصمت رحلة العبدري، أيضاً، الكثير من الأمثال^(٤) الدالة على المعاني
التي قصدها، ومن ذلك ما وصف به أهل القاهرة- شجاعهم أجبن من صافر الجناد^(٥)،
الجناد^(٦)، وعالمهم أجهل من فرائس^(٧) .

أما المنهج الذي اتبعه الرحالة، فقد لزم بعضهم نظاماً معيناً أو ترتيباً زمنياً يثير
الدهشة في سرده للأحداث ودقته في التصوير، ومنهم ابن جبر، حيث ينقل المتلقي إلى
عكس يوماً يوم معتداً على معيته للمواقع أو سماعه للأخبار والأحداث، مما يشعر
المتلقي بصدق الرواية، في حين تبدو رحلة أبي حامد الغرناطي المعرب لا تلتزم نظاماً
معيناً أو ترتيباً تاريخياً أو جغرافياً، وإنما جاءت أحاديته بالتداعي، فكل ما يرد على ذهن
الرحالة يدونه، لا سيما ما يثير الدهشة، ولعله في ذلك قد خدم الأدب الشعبي ويعرض
ابن عربي تفوق معراجه وانظروا على مستويات معرفية عجيبة، وأنه سلك في معراجه
منهجاً خاصاً، مؤكداً أن الإحفاق الذي يحصل في فهم القارئ لأسلوب معراجه، هو
مسئولية القارئ، حيث يبدو أن القارئ أقلّ مرتبة من ابن عربي، ومن قوله في ذلك فإنه
لا يفهم كلامي إلا من رفا مقامي^(٨)، فمعراجه معراج أرواح لا معراج^(٩) أح وإدراكه
ومرء أسراء لا أسوار رؤية جنان، لا عنان، وسلوك معرفة ذوق. ووصفت الأمر
بمشور ومنظوم، وأودعته بين مرمور ومفهوم، مسجع الألفاظ ليسهل على الحفاظ ويثبت

(١) المدر الطين اليابس المتماسك، انظر، ابن منظور، لسان العرب: ٥/ ١٦٢

(٢) ابن خلدون، لتعريف ص ١٤٤ وانظر، المصدر نفسه، ص ٢٤٠ ٢٤١

(٣) الميداني، الأمثال: ١/ ٢٠٨

(٤) انظر، العبدري، الرحلة المقرية، ص ١٢، ٥٠، ١٥١، ١٦٣، ١٧١، ٢٨٤. ومواضع أخرى متفرقة
متفرقة

(٥) الميداني، الأمثال ١/ ٢٣٠

(٦) المصدر نفسه ١/ ٢٣٤

(٧) العبدري، الرحلة المقرية، ص ١٢٦، ونظر مثل هذه الأمثال، ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص ١٠٢

(٨) الإسرا في مقام لأسرى، ضمن رسائل ابن عربي ١/ ٤.



الطريق وأوضحت التحقيق، ولوحت بسر الصديق، ورئيت الحاجة بإحصاء بعض اللغات^(١)

وحملت رحلة ابن بطوطة بالكثير من امشاهدات والأحداث والقصص، وعلّه لم يذكر جميع تلك الأحداث والقصص التي كان يعيش أحداثها أو يسمع أخبارها، وإنما يتقي منها ما ثبت في ذكرته، ومما يلاحظ أيضاً في منهج ابن بطوطة تعقيبه وتعليقه على أصل عدد من الأعلام والمواقع التي وردت في أثناء حديثه^(٢) وركز بعض الرّحالة على الاتصال بالعلماء والشيوخ، وأخذ الإجازات وسماع الروايات، وحفظ الأسانيد، ولاطلاع على الكتب والأخبار، وتراجم الرواة ولحفاظ واخذتين والعقهاء واللغويين، أما أخبار السفر برّاً وبحراً، ووصف المشاهدات والبلدان، فمهر شيء ثانوي استخدمه الرّحالة للربط والتوثيق، فكانت رحلاتهم أقرب إلى المهارس العلمية، فابن رشيد في ورود، وصدوره يسجل ما أخذه عن الشيوخ ويترجم لهم، ويذكر مؤلفاتهم وأسانيدهم بحيث يعكس ذلك الحالة العلمية في تلك الفترة

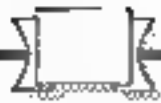
ويصف البلري مهبج، فيقول هذا تقييد أطلعه عون من الله وتأييد، قصدت به ضبط موارد الرحلة الحجازية، وذكر معاهد الوجهة المشرقية، جعلها الله تعالى في داته وبتناء مرضاته^(٣). وقد ركّز البيوي على ذكر مراحل رحلة الحج ثم الترجمة لشيوحه، فيقول إني خرجت قاصداً للحج وطالباً للعلم^(٤). وكانت ترجمته لشيوحه تأتي في أثناء حديثه عن المدن والمساجد التي زارها أما النجيب، فقد كان يهمل

(١) المصدر نفسه ١/ ٢-٣

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة ١/ ١٧٩، ٢٠٩، ٢١١، ٢٠١، ٢/ ١١٢، ١٧٤، ٢٧٣، ومواضع أخرى متفرقة

(٣) البلوي، تاج الفرق ١/ ١٤٢ وما بعدها

(٤) المصدر نفسه ١/ ١١٣



ذكر تواريخ ميلاد تراجمه أحياناً، ثم يذكر ذلك، آخر الترجمة^(١)، وفي ذلك إشارة إلى تطلعه للاتصال بالعلماء والرواة والمؤرخين ولاطلاع على الكتب والأخبار

وقد امتاز منهج ابن الحاج النميري في رحلته بعدم التزام ترتيب معين للأبواب من بداية الرحلة إلى نهايتها، ويلمح ذلك في كثرة الانتقالات بين تلك الأبواب، والتكرار ولتقديم والتأخير، فكثيراً ما يجد عبارة رجع حديث في جميع مراحل رحلته، ولعلّ مثل هذا المنهج قد يربك لأسلوب إلا أنّ ابن الحاج قد التزم في رحلته، كما أكثر من مسح سلطانه وإبراز معالم شخصيته وحرص على أن يختم أبوابه بعبارة التقدير والثناء الصالح^(٢).

أما من خللوه، فكان يسوق الأحداث ويذكرها بعناية ودقة، لأنه يؤرخ حياته وتاريخ الدول التي اتصل بها، ومع ذلك هم تكن رحلته مجرد مادة مرديّة جانبية، حيث ذكر الكثير من لمسات والأشعار، وأولى اعاني عناية أكثر من عابته بزحرفة لألفاظ^(٣) وبهذا تكون معظم الرحلات قد أفررت بشكل جلي الخطاب المركزي لها، وهو الخطاب الديني، فمعظم الرحالة أصحاب ثقافة دينية انعكست في أسلوبهم حيث قصدوا جمع كل ما يدعم هذا الخطاب، كما لم يكن الخطاب الديني مستقلاً عن الخطاب التاريخي أو الاجتماعي، على سبيل المثال، ويمكن إدراك ذلك من حشد الرحالة للأماكن المقدسة الموصوفة، وجمع العبارات النصية الدينية ولتاريخية والشعيرة التي تكشف أبعادها وتثبت مركزيتها

ثانياً: لوصف

(١) انظر، المصدر نفسه ٢٠٤، ٢٢٥، ٢٩٤، ٢/٦٥، ١٠١، ومواضع أخرى منه

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٤٨، ١٥١، ومواضع أخرى منه

(٣) انظر، ابن خلدون، التمهيد، ص ١١٢-١٢٤، ١٢٩، ١٣٥، ٢٧٤-٢٨٣، ٤١٤-٤١٥، ومواضع



احتلّ الوصف مكانة كبيرة في الرحلات، التي كانت تثقل خطاً طويلاً به، فلو وصف أبعاد جمالية، بما يقدّم من رسم للامع الشخصيات أو إضاءات عن لمواقع والأحداث، حيث حاول الرّحالة رصد كلّ ما شاهدوه وسمعوه، وسجّلوا كلّ ما تقع عليه أعينهم من مشاهد شتى تتعلّق بالمسالك والممالك، والسكّان والمخلوقات، وما يتعاطاه الناس من مختلف الأنشطة والمناسبات والأعياد والعادات والتقاليد ونقلوا ذلك إلى كلّ من حالت دون رحيلهم الأسباب والعوائق

وقد استطاعت هذه الأوصاف أن تعثر عن انطاعات الرّحالة، وترسم صورة لشخصيتهم، فهم ينقلون الأخبار والأحداث، ويصفونها بحيث تصل إلى عام المحسوسات المدركة بالمشاهدة والسمع، بحيث يصغي الرّحالة على رحلتهم من مشاعرهم وعواطفهم، ويجعلونها تنض بالحياة والحركة فقدّمت الرحلات بذلك، المتعة ولتشويق لبقارئ، وكشفت عن مكّام الجمال الطبيعي لمختلف المخلوقات التي شاهدوها، وغنّفت المواقع وانبثاق التي زروها

ويتضح من خلال وصف الرّحالة ولغتهم المستخدمة قدرتهم على الوصف الذي اتسم بالصدق عابياً والدقة والشموا، فقد وصف كراتشكوفسكي عمل العبدري، مثلاً، فقال يُقدم لنا المؤلف صعباً دقيقاً للمواضع ولبقاع المختلفة مع تفاصيل رابية عن الآثار القديمة وأخلاق السكان المحليين^(١)

كما عي عدد من الرّحالة، مثل ابن جبير، والبُلوي، والتجبي، وابن بطوطة بالجانب الوصفي في رحلاتهم، وأعقب بعضهم وصفهم للمدن بأرثهم الشخصية، ومن العبارات الدالة على ذلك قول التجبي وهو عسدي من خرق العوائد، فاستعريت ذلك جد^(٢). ويصف ابن خبيرة مدينة صقلية فيقول: هي بهذه الجزائر أم الخضراء، ولجامعه

(١) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب المغربي العربي، ص ٣٩٨، وانظر، فهم، حسن، (١٩٩٧) الرحلة والمرحلة، دراسة إسانية، ط ١، دبي، فلوقة الثقافة والعنوم، ص ٤٧

(٢) انظر، التجبي، مستفاد الرّحلة، ص ٢١٨-٢١٩، وانظر في ذلك، رحلة ابن جبير، ص ٥٣-٥٤، ولعسدي، الرّحلة المغربية، ص ٣١، ٣٤



بين الحسين غصارة وبضارة، فما شئت بها من جمال سحر ومنظر، ومراد عيش يانع
احضر عتيقة أنيقة، مشرقة موقنة، تتطلع بمراى فتان، وتتحايل بين ساحات وبساتين كلها
بستان، فسريحة السكك والشوارع، تروق الأبصار بحسن مظهرها البارع. ^(١) ويضفي
ابن جبير عنى وصفه فضلاً جيلاً من البيان، فيقول في وصف مدينة نصيبين فحارجها
رياضي الشمال، أندلسي الحمايل، يرفّ عصارة وبضارة، ويتألق عليه رونق الحصار ^(٢)

ومن صوره الأخرى المليئة بحركة الأجسام، تصويره للطواف، وقنابل لسرو
وتدافعهم وهم أهل جبال حصية باليمن، تُعرف بالتراة، حيث يفزل فهم إذا
طافوا بالكعبة المقدسة يتناطحون عليها تطارح اليبس على الأم المشمة، لاثنين يجودها
متعلقين بأستارها، حينئذ علق أديهم منها تترق لشدة اجتدابهم لها، وانكبابهم
عليها وفي أثناء ذلك تصدع الستهم بأدعية تصدع لها القلوب وتتصغر الأعين
الجو مد ^(٣) وجاءت بعض صوره صوتية، حيث استعمل ألفاظ المعبرة اثيرة
للقارئ، فنصور عاصفة بحرية داهمته في البحر لأبيض المتوسط، وعثر عن اضطراب
البحر قائلاً: أشتد تلاطمه، وصكت الأذان غماغمه ^(٤)

وتبدو قدرة ابن الحاج الراسمة على التصوير - حيث يكثّر من التشبيهات
والاستعارات، ويعتمد على العناصر المادية المحسوسة المستمدة من العالم المحيط به -
وهي صور تشابه عند معظم الرّحالة لأنها مستمدة من الإنسان والحيوان ومظاهر
الطبيعة المحيطة - كوصفه للخيل وبعض المواقع، فيقول واصفاً ألوان الخيل وحوادثها
ورؤوسها وأذانيها: ونصاهلت الجرد السّوابق، ولاعبت ظلالها الصعر لنوحق، من
كن أدهم أشبه المسك العتيق، لكن خالطه لكافور فهو بروحه تسمى عرة، وحكى الليل

(١) رحلة ابن جبير، ص ٣٠٥

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٤

(٣) رحلة ابن جبير ص ١١١، وانظر بش هذه الصور في المصدر نفسه، ص ٥٩ وما بعدها

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٩



الهيم، لكس حجوله الصَّبح الذي نهر أنواراً وراق مسره، مسرح بالهلال، ملجم بالنجوم^(١).

النسيم^(٢)، وضمي الليل، وقد سدل المسح راهبه^(٣)، وتجري تحتها عين خسارة كاعظم الأنهار فوق حصي كثر لبحور، القرية العهد بلجج المحور، أو كشايا الخور^(٤)، ومنها أيضاً، قوله: وما شينا أروح الزيتون والأشجار تساقوها جريثات الأنهار، تتخللها أطلال اخلل والديار نبهاً على شطر البريد لا تال صفح ثراه الشمس ولا ترتاده الخرداء، تتجاوب أصوات الحدم المطوق فوق غصونه^(٥).

ووصف البلوي مدينة انديم وصفاً مرجحاً بطواهر الطبيعة، فقال: هي بلدة الأفق الخير ومجده، والنجم الذي لا تغطي صهواته، وصلاته والليل في سن الاكتهال وأبدىا مخدة بالشكر لله تعالى والابتهال ظل ظليل، وماء سلسيل، ورياضات تحبي القوس تنسبها العليل،...^(٦)

ومن وصفه قوله: ولم نزل نخوض أحشاء كل واد كالتعبان، فكان تلك الأودية سيوف لقتل لأس مسلولة، ولولا زرقة ألوانها لقلت دماء مطلولة، حاتم نظامها ومسك ختامها، ومتهى كمالها وتماها، وآخر عديها وانتقامها يسمى (أبو جردة) قبل لأنه يجرّد الإيمان من قلب شاره،...^(٧).

أما القلصدي، فلم يتوسّع في ذكر خصائص انبلاد لبي راره، ومميزات حياتها الاجتماعية، ولم يعرض لخرثيات الأحداث، ورغم ذلك، فقد جمعت رحلته بين

(١) ابن الحاج السيري، فيص العباب، ص ١٢٥-١٢٦

(٢) ابن الخطيب، رحلة خطرة الطيف، ص ٣٥

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٨

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢١.

(٥) المصدر نفسه، ١٢٧

(٦) البلوي، تاج الفرق ١/ ٢٤٥

(٧) المصدر نفسه: ١/ ١٦٥

وصف البلدان وذكر الأحداث متوجهاً لإيجاز عالٍ في وصفه، بحيث جاءت رحلته صغيرة الحجم

ويبدو أن الرحلة، منهم من كان وصفه مختصراً، ومنهم من أسهب، فالبيوي، مثلاً، لم يكن وصفه على درجة واحدة، فأحياناً يميل إلى الإيجاز، وأحياناً أخرى يسهب في الوصف، فقد كان يذكر اسم المدينة ويشير إلى موقعها فقط، مثل حديثه عن مدينة الجزائر التي أحاط بها البحر إحاطة السوار بالرناد، فألبس ذلك اجسم روح المجد^(١) وكان يسهب، أيضاً، في الوصف، فتوسع في حديثه، حيث يتعرض إلى تزيين بناء بعض المدن وآثارها، من ذلك وصفه لمدينة الإسكندرية^(٢) والقاهرة^(٣).

وتوسع بعض الرحالة في وصف الحياة الاجتماعية، فتناول الكثير من جواسها بالتقدم والتحليل، واهتم بعضهم الآخر بعلم النبات والحيوان، فكانت الرحلات بذلك أداة تفاعل حضري ووسيلة من وسائل التقدم، مما جعل الكثير من الدارسين والمفكرين يدركون قيمة ما دونه الرحالة في كتبهم، فعمدوا إلى استخراج ما يمكن الاستفادة منه من الماضي واستغلال معطياته وتوظيفه في المجالات العلمية والأدبية، وليس هذا وحسب، بل ربما سهلت أساليب الرحالة هذه على القارئ التعرف على المعالم العمرانية وملاحظتها ومعالجتها من خلال رسم لتصور لعناية الجميلة التي تقدم الموائد الأدبية والمادية ليشأت أطلعت بكثير من انبعاث الاجتماعي والاقتصادي لسائدة في عصور الرحالة

وقد كانت بعض تلك الأوصاف تطول أو تقصر حسب أهمية تلك المشاهدات وأثرها في نفس الرحالة فابن جبير يحاول أحياناً إبراز أثر المكان على نفسه، فقد وصف مشهد الكعبة في مكة، حيث يقول: فألفنا الكعبة الحرام عروماً مجلوة مزققة إلى جنة الرصوان مخفوقة بوقود الرحمن^(٤) ووصف طرر البناء الذي شاهده قائلاً: والبيت

(١) المصدر نفسه ١٥٢/١

(٢) انظر، المصدر نفسه ١٩٨/٢، ١٩٩، وما بعدها

(٣) انظر، المصدر نفسه ٢١٥/٢ وما بعدها

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٥٨، وانظر أيضاً، رحلة ابن بطوطة ١٢٣/١



العثيق مبيّ بالحجارة الكبار الصّم لستمر، قد رُحِنَ بحصها على بعض وألصقت بالعقب الوثيق، إلصافاً لا تحبسه الأيام ولا تقصمه الأزمان^(١)

أما العبدري، فافتتح كلامه عن المسجد الأقصى بالوصف الجغرافي^(٢)، ولم يجد أجمل من البيان، يستعين به على تصوير لذهشة التي تملكته حين رآه، ومعطيات جماله الساحرة التي تدفع القارئ إلى تشرب ذلك الجمال بما تمسحه ومضات العبدري الوصفية للمكان حيث يقول وفي وسط فضاء المسجد قبة الصخرة، وهي من أعجب اباني الموضوع في الأرض وتجلّت في جمالها الرائع كمرو من حساء جلّت على منصة قامت مشرفة منبرجة على بهاع...^(٣)

وعن باطن لقمة المثمنة في المسجد الأقصى، يقول وأما باطنها فيكل من وصفه اللسان، ويحار في حسنه إنسان الإنسان نهر الاطرق أشعته لباهرة وتستوقف الخاطر عاصمه الظهيرة، أسكرت العقول فصارت لها عمالاً، وكلّت الأسن فما وجدت مقالاً، فاقت حسناً وكمالاً...^(٤)

ومن جانب آخر، فإن بعض الرّحالة قدّم وصفاً لبعض الأماكن امتاز بالشدة وللبالغة، فقد امتاء العبدري من تصييع المساجد وإهمالها، في القاهرة وقلة لتخطّط فيها حتى تصير مثل الرّبل ونسوة حصرها وحيطانها من الأرماسخ^(٥)

ويلحظ في وصف الرّحالة للأماكن التي قصدوها، انتقالهم من الوصف الكلّي إلى الوصف الجزئي، مدركين القيم الجمالية تلك الأماكن، وقد تجلّى ذلك بإطلاقهم أحكاماً جمالية تنم عن إعجاب حاص من قداسة تلك الأماكن وبهاليات العن المعماري، فقرة

(١) رحلة ابن جبير، ص ٧٥

(٢) العبدري، الرحلة المغربية، ص ٢٢٩

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٩

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٠

(٥) المصدر نفسه، ص ١٢٧

الصحرة مثلاً من أعجب المباني الموضوعة في لأرض^(١) وأنتهى وأغربها شكلاً، قد توفّر حظّها من الخاسن وأخذت من كلّ بديعة بطرف فهي تتلأأ نوراً وتلمع لمعان البرق، محار بصر متأملها في غامستها، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها^(٢) وقد تشابه أوصاف بعض الأماكن لدى بعض الرّحّالة، مثلاً وصف بيت المقدس، فعند العبدري: وله أبواب كثيرة من الشرق والغرب والشمال ولا أعلم له باباً قليلاً سوى الباب الذي يدخل منه الإمام^(٣)، وعند ابن بطوطة: وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث، فأما الجهة القلّة منه فلا أعلم بها إلا باباً واحداً، وهو الذي يدخله الإمام^(٤) وفي القصة يقول العبدري قبة مثمّنة على نشر في وسط المسجد ويطلع إليها في درج من رخام، وقد أحاط بها ولها أربعة أبواب والدائر معروش بالرخام المحكم الصّنع^(٥) أف ابن بطوطة، فيقول القبة قائمه على نشر في وسط المسجد، يصعد إليها في درج رخام، ولها أربعة أبواب، ولدائر بها معروش بالرخام أيضاً محكم الصّنع^(٦)

أما البحر، فقد أعطى الرّحّالة مساحة واسعة ليظهروا براعتهم الأدبية، حيث وصفوا مخاطرهم وأهواله، فابن جبّير استطاع في وصفه لأهوال البحر التي عانى منها في رحلته البحرية فادماً إلى مكة، وفي عودته إلى وطنه، أن يحرك المشاعر، ويجعل القارئ يعيش معه تلك الأحداث، التي أثرت في نفسه حيث يصف الأوصاف التي دأبته في البحر الأبيض المتوسط، وفي طريق عودته إلى وطنه، فيقول: ونحن نحري بريح

(١) العبدري، الرحلة المغربية، ص ٢٢٩

(٢) رحلة ابن بطوطة ١/ ٦٠-٦١، ونظر في وصف القلاع والقصور، ابن الحاج الشيرازي، ميسر العباب، ص ٢٢١-٢٢٣، وانظر، محمود الصب، (١٩٨١) نظريات وقيم احتمال المعماري، الإسكندرية. دار المعارف، ص ٢٣٢-٢٣٣

(٣) العبدري، الرحلة المغربية، ص ٢٢٩

(٤) رحلة ابن بطوطة ١/ ٦٠، وانظر أيضاً، رحلة بياض التّطيلي، ص ١٠٠

(٥) الرحلة المغربية، ص ٢٣٠

(٦) رحلة ابن بطوطة ١/ ٦٠



شمالية موافقة، فدفرت وعصمت فطارها المركب بمحامي شرعه، والبحر بها قد جنّ
و مستشري لحاجه، وقدفت بالزهد أموجه فتخال غواربه المتعوجة جبلاً مثلجة،^(١)

ويصف ثورة أخرى لأمواج البحر الأبيض المتوسط، وعراصمه، وتعرض المركب
إلى العرق عند هبوبها، فالأمواج أمثال الخيال السائرة، حتى لم يشب شراع، فلجأ إلى
استعمال الشرع الصغار، ولما هدأت الأعاصير، سكن البحر، وسهلت الملاحة فيه، ومن
وصفه لذلك وأصبحا يوم الأحد المذكور والهول يريد، والبحر قد هاج هائج، وماع
مائج، فرمى بموج كالخيال، يصدم المركب صدمات تتقلب لها على عظمه تقلب
الغصن الرطيب، وكان كالسور علواً فبرقع له الموج ارتفاعاً برمي في وسطه بشايب
كالوايل المنسك فيما جنّ الليل اشتد تلاطمه، وصكت الأذان غمامه، واستشري
عصوف الريح. فحطت الشرع، واقتصر على الدلائل الصغار. فها له ليله بشيب لها
سود لتوانب، مذكورة في ليالي الشوائب، مقدمة في تعداد الحوادث والرائب
مأسقطاً لريح عن مجراى وخالفنا المجرى المجهود الميمون وفي أثناء ذلك اتبسط
الشمس، ولان البحر قليلاً،...^(٢)

ويصف وصفاً آخر لأهوال ذلك البحر المتلاطم ثم انصبت الريح عريه وأنشأت
سحابة فيها رعد قاصف، وزجتها ريح عاصف، وتقدمها برق حاطف، فأرسلت حاصباً
من البرد صيته عليها في المركب شايب متدركة، فارتفعت به التماس، ثم أسرع
انفشاعها، وانجلي عن الأنفس لونهاها...^(٣)

ووصف ابن جبير، أيضاً، بعض الأهوال البحرية التي داهمتهم في البحر الأحمر،
حيث يقول: وهت ريح شديدة صرفت المركب عن طريقة راحاً وراءه، ونمادى عصوف
الرياح واشتدّت حلكة الظلمة وعمت الآفاق إلى أن أتى الله بالفرج مقرب مع

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٨

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٩

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩١



الصباح بهذا قباد الرّيح، وأنشع الغيم وأصحت السماء، ولاح لنا برّ الحجاز على بعد لا يقصر عنه إلا بعض جباله^(١)

أما التجيبي، فيصف أهوال لبحر الأحمر ومخاطره، وأثر ذلك في نفوسهم، فيقول عصفت عليها الرّيح، وجاء منها ما أنفينا به على التّلف، وعظم الموح وأظلم البحر، واشتد سواده . . وعائنا لموت عياناً، وأبقنا بالتلف لا محالة. وصحّ الناس بالصباح ولبكاء والتصرّع إلى الله تبارك وتعالى بالدعاء وبهت الملاحون من شدة الهول^(٢) إن مثل هذه الأوصاف، تضمنت عرضاً للأحداث التي تنتهي إلى العقدة أحكاماً ثم سدرج في حلّها، كما يلحظ تداخل السرد ولوصف في بعض مشاهدات الرّحالة فيعذر عندها الفصل بينهم، فالسرد يبرز من خلال الأفعال أصبحنا، هاج، فرمى، وصكت، وكان ، أما لوصف فيتضح من خلال الأسماء شآبيب كالوابل اسكب الرطيب، ليله يشيب لها سود الذوائب، لياسي الشرائب..

أما الشحوص في الرحلة، فنقول بمنى العبد. إنّ الذات بانتمائها إلى مجتمع وتاريخ، ذات متباينة بل متناقضة، ومتصرفة ولز في صحتها وعيها والصراع في روايه السيرة، هو بين الذات ودانها، وداحل ال (مح) من جهة ومع آخر يتواطأ مع هذه ال (مح) وصدها من جهة ثانية^(٣) فالذات في بعض الرّحلات صورة محورية، حيث صوّرت الرّحلة، سيرة أصحابها، والواقع المعاش، والواقع استمد من معايشة الآخرين، وهذا قرب الرّحلات من الشكل الفني أكثر منها تسجيلاً جغرافياً^(٤)

وفد جاءت الشخصيات - في الرّحلات - في معظمها شخصيات لا متناهية، متعددة الأحوال، والمستويات الاجتماعية والفكرية والثقافة المختلفة، والصعفات والطبقات الملوك والسلاطين، ولوزراء والقضاة والجووش، والرواة والعلماء والأدباء والشعراء،

(١) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(٢) التجيبي، معاد الرّحلة، ص ٢١٢ - ٢١٤

(٣) العبد، بمنى. السيرة الدّنية الروائية. (١٩٩٧) أصول مجلد ١٥، العدد (٤)، ص ٢٠

(٤) انظر، المرجع نفسه، والصيغة نفسها



ولتجاره والمعنون، والجواري، والسحرة، وبعض العتبات التي حُزِفَ بعضها انسارقة ولاعتداء على الحجاج، وسلب أموالهم، ويكثر تشاؤمهم في الطرق المؤدية إلى مكة والمدينة المنورة، ومن الشخصيات، أيضاً، الحيوانات، والنباتات، وبهذا لتتوسع الأحداث

ولعل الشخصية التي اعتمدتها الرحلات في القيام لأول شخصية الرحالة الوصاف، واللغوي، المهتم باللغات واللهجات، والمصوّف أو الفقيه، وهي شخصية كملت الترابط بين أجزاء العمل الواحد بحيث دارت الأحداث جميعها في فلكه، ولم يشذ عنه، فحضوره حضور دائم وفاعل، حيث يكفل الوحدة الموضوعية للعمل وبضحي عليه السمة الفنية^(١)

وقد تكون هناك شخصية خدع شخصية الرحالة، فصاحب الرحلة في بعض الأحيان لم يكن يكتب رحلته نفسه، إذ كان يملئها أو يرويها، فابن جري كاتب الرحلة ليس هو صاحبها، بل إن ابن بطوطة هو من قام بتلك الرحلة وأملأها على ابن جري الذي دونها^(٢) أما ابن الحجاج فقد سابع مراحل رحلته مخدومه، واستطاع أن يتقمص شخصيته وينفذ إلى أحوالها ليصفها أحسن تقييل، بلسه وأسلوبه وسوره، وأن يتبر من أعمال أبي عان شتى الوسائل والأساليب، فخرج أفكاره وعواطفه، في حين لم تظهر شخصية ابن الحجاج بشكل واضح في مراحل الرحلة، حيث احتضت شخصيته وراء شخصية سلطانها، ولعل انشغاله بأعمال أبي عان، وأغواء السلطة، هو ما جعله يسمى

(١) ومن أمثلة ذلك، رحلة ابن جبير، ص ١١٠-١١٣، ١١٦-١١٧، ومواضع أخرى معروفة، ولعلوري، الرحلة المغربية، ص ٧٩، ٨٠، ١٦١، ١٦٤، ومواضع أخرى معروفة، والحجي، مستعاد الرحلة، ص ٣٠٤-٣٠٧، ٣٩٢، وما بعدها، ومواضع أخرى معروفة، ابن رشيد، وملء العينة ٧٥/٥، ٧٥/٥، ٨٧، ٨٩، ومواضع أخرى معروفة، واللوي، تاج الفرق ١/٢٤٥، ٢٧٧، ٢٧٩، ومواضع أخرى معروفة، ورحلة ابن بطوطة ١/٢٨، ٣٠، ٢٠٩، ٢٤١، ٢/٣٥، ٣٨، ٨٧، ومواضع أخرى معروفة

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة ٢/٣١٢

نفسه، غير أن بعض المواقف يمكن الاستدلال من خلالها على بعض سمات شخصية ابن الحاج، فهو ليس شديد الانفعال أو سريع الغضب، بل تتسم شخصيته بالثبات والاعتدال، ولم يخرج عن ذلك إلا نادراً، وفي ظروف خاصة اضطرتته إلى التعبير عن غضبه، ورفضه للمكر الذي ارتكب بمحضره، وهي جريمة تسببت في قتل شخصيات كثيرة شديدة الوفاء لسلطانه الذي حفي عنه الأمر حتى تصوّر له الناطل في صورة الحق^(١) ويدي غصه على الخائن الخائن، الغادر الماكر...^(٢).

ويلحظ من هذا، أن مادة الرحلات قد تكررت وجمعت عن طريق التجربة الشخصية للرحالة، وعن طريق عاداتهم مع شخصيات واقعية، تعرّفوا عليها من خلال رحلاتهم، فمعظم شخوص رحلة أبي حامد الغرناطي واقعية عاشت في أمة وأمكنة لها أبعادها التاريخية والجغرافية، وهي في الحكايات التي يرويها الغرناطي تحمل أسماء وألقاباً عرفت بها أثناء حياتها في الدنيا. وأصحاب هذه الشخصيات، منهم من ينتمي إلى السلطة السياسية^(٣)، ومنهم من كان من رجال الدين^(٤)، ومنهم من التقى به أبو حامد الغرناطي وعاشره وتحدث معه^(٥) وقد أضفى أبو حامد الغرناطي على بعض تلك الشخصيات صفات أسطورية، رغم انتماء أصحابها إلى الواقع، حيث أضفى على شخصية أبي جهل صفات تبعده عن دنيا الناس، فبعد موته بسير يظهر في صورة آدمي أسود يشعل ناراً من قرنه إلى قدمه، وفي عنقه سلسلة يجرها خلفه، وهو يصيح، ويطلب الماء^(٦).

إيجاباً أو سلباً، حيث يشعر المتلقي بحركة الشخوص وحيوية الأحداث فقد أشار ابن جبير إلى ما يقع لشخوص رحلته من تمتعش أو لقاء لشيوخ والأخذ عنهم، والإفادة من علومهم، أو التعرّض لأهوال البحر ووقع اليأس من الدنيا، وودعنا الحياة بسلام،

(١) ابن الحاج السبكي، فيض العباب، ص ٢٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٠.

(٣) انظر، أبو حامد الغرناطي، لوحة الألب، ص ٣٢، ٤٤، ٤٩، ٦٩، ومواضع أخرى متفرقة.

(٤) انظر، المصدر نفسه، ص ٧٦، ٩٠، ١١٥، ١١٦، ١٣٠، ومواضع أخرى متفرقة.

(٥) انظر، المصدر نفسه، ص ٩٠، ١١٠، ١٣٧، ١٤٦، ١٤٧، ومواضع أخرى متفرقة.

(٦) انظر، المصدر نفسه، ص ١٠٣، ١٠٤، ١١١، ١١٧.



وجاءنا المرح من كل مكان، وظننا أننا قد أحيط بنا، فبنا لها ليلة يشيب من سود الذوائب.^(١)

وقد كانت الرحلات تحوي الكثير من الشخصيات العلمية ذات القيمة الأدبية أو الفقهية أو غيرها، كما مرّج بعض الرّحالة بين وصفهم لما يصادفهم في البلاد التي يقصدونها وبين الترجمة لشيوخهم^(٢) بل اهتموا أيضاً بضرورة وجود العلماء في البلاد التي يقصدونها، فالعبدري، مثلاً، كانت تتأبه موجات من الغضب كلما دخل مدينة، فلم يعثر فيها على عالم يأخذ عنه^(٣) وعلّ ذلك يشير إلى العدد النسي والفكري لشخصية الرّحالة الباحثة عن التطور والتماء

أما ابن بطوطة، فقد ركّز في رحلته على شخصيات يعتبرها مهنة إذ ربما تسجّم مع ميوله واهتماماته، فالأشخاص الذين يحدون عناية كبيرة من الرّحالة ابن بطوطة هم الأولياء والمنصوّفة، حيث كان يهتم بلقاء هؤلاء الأولياء، ورحلته حافلة بأسماء شيوخ ذري كرامات وخوارق، ثم هو يهتم بعد ذلك بالسلطين والقضاة والخطباء والعقهاء، وكلّ شخصية في رحلته لها قصة، حتى الحيوانات والنباتات، لها قصة، فكثيراً ما كانت الحيوانات تقوم برؤيف في بعض الحكايات وتثّل شخصيات قصصية تنسب إليها الأفعال، فمن المشاهدات غير الواقعية مشهد السمكة التي رأها في مدينة هرمس على ساحل البحر الأحمر - مطروحة عند باب الجامع، فقد كان رأسها كأنه راوية وعيناها كأنهما يانان، فترى الناس يدخلون من إحداها ويخرجون من الأخرى^(٤) والسمك في رمس أبي حامد الغرناطي من سلالة السمك الذي أكل منه موسى ويوشع لذلك اكتسب

(١) رحلة ابن حبر، ص ٢٨٩

(٢) من هذه الرحلات، رحلة التجيبي، وابن رشيد، وانبديري

(٣) انظر، العبدري، الرّحالة المغربية، ص ٢٦-٢٧

(٤) رحلة ابن بطوطة ٢٤٥/١

قيمة كبرى عند اليهود والتصارى، حيث يحملونه إلى بلادهم ويتركون به^(١)، وقد أفرد الغرناطي باباً خاصاً في الحديث عن البحر وعجائب حيراناتها^(٢)

ومن الكائنات الخرافية التي يسرد حكايتها بعض الرحالة، طائر النرخ^(٣)، أو الكائنات التي تخرج من حجاب^(٤) النحاس في حكاية مدينة النحاس، فقد ذكر الغرناطي أن أحد الرجال فتح منها حجاباً فخرج منه فارس من نار، على فرس من نار، في يده رمح من نار، فطار في الهواء وهو يادي يا سي الله لا أعود. لني سليمان بن داود...^(٥)

وقد يكون الخيال لعب دوراً كبيراً في تصوير هذه المخلوقات إلا أنه بالتأكيد لم يتم احتلاق جُل تلك التصورات احتلاقاً، حيث يبدو أن بعض الرحالة قد صدق كل ما سمع من حكايات وأخبار مهما بلغت غرابتها، وقل ما كان يحاول محاكمتها بالنطق، وقد يعزى ذلك إلى كثرة ما شاهد الرحالة وسمعوا من حكايات أو لكثرة لأحداث التي مروا بها، وطول المسافات وصعوبة المراحل التي أثرت في نفسياتهم.

ومن جانب آخر، فقد اهتم الرحالة بسرد الوقائع أكثر من اهتمامهم بالشخصيات الثانوية، إذ إن التمحور الأساسي يكون حول بطل الرحلة، وفي بعض الرحلات يكون حول صوب البطل، وصوب الكاتب؛ فالتعريف رحلة تمحور حول شخصية ابن حلدون، الشخصية التي تحت الظهور والبروز في السلطة، وفي النفوق العلمي، وهي شخصية قدّمت نفسها من الداحل بحيث وضعت انفعالاتها، ثم أظهرت أثرها الخارجي أو بروزها في شكل أحداث، يعكس من الحاج الذي مثل صوت الكاتب الذي قدّم

(١) انظر: أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٨٩

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص ٨٣-٩٨

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص ٩٣، ورحلة ابن بطوطة ٢/٢٤٢

(٤) الحجاب بكسر الخاء جمع حَبْ بهضم الخاء، وعاء للماء كاخوة الصحفة، انظر: ابن منظور، لسان العرب: ١/٢٩٥

(٥) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٤٧.



شخصية أبي عنان من الخارج إلى الداخل، حيث صوّر أبا عنان من القريمان الشجعان، يفتحهم العقبات ويواجه جميع أنواع الصعوبات، ويصمد أمام الأخطار والأهوال^(١)، يقول ابن الحاج وأما ركب مولان -أيده الله- في موكبه الذي نصاءت له المراكب وظهرت في النهار بلبيل عجاجة الكواكب، والنفي عليه أهل دحلته الذين هم مداراة^(٢) للحروب ومفارج الكروب وأسود العباب التي أنشبت أظفار سيوفها بالخطوب ولم تكن مهمتها يوم الكريبه في السلب لكن في المسلوب...^(٣)

وبهذا، فإنّ الرحلات قد مرّجت من الوصف الذاتي والوصف الخارجي لشخصياتهم، الثابتة التي لم تؤثر فيها الأحداث والشخصيات المتطورة التي تتعامل مع الحوادث وتكشف لها صهي شيئاً فشيئاً وجاء خطاب تلك الرحلات متمحوراً حول بطل الرحلة/ البرّحله، والتجربة الذاتية، والمعروف الموضوعية، مؤكدة أن تلك الشخصيات عاشت في عصرها وفي حضرة ذلك العصر، وأثرت في الأحداث وهي بذلك تعكس جزءاً من الحقيقة، ولم تكن مجرد وسائط لنقل الأحداث، وإنما كانت تنص بالحياة إلى حدّ ما، ذلك أن حضور البرّحاله حضور دائم، وبه يتحقّق وجود المحاورة التي تكسب الرحلات الامسّاس، والحياة وشذّ القاري متابعة الأحداث، فكان البرّحاله بذلك كتاباً ورواة ومؤرّخين سجّلوا الكثير من الأحداث والوقائع، ومثل بعضهم شخصية لقاصّ المدع

ثالثاً: البناء الفني والسرد

إنّ القيمة الأدبية لكتب الرحلات تتجلى في ما تعرض فيه موادّها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني، ويرغم ما يتسم به أدب الرحلات من تنوّع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف، فإنّ أبرز ما يميّزه أسلوب الكتابة لقصصيّ المعتمد على السرد المشوّق، بما يقدّمه من متعة ذهنية

(١) انظر، ابن الحاج النبري، فيض العباب، مقدّمة المحقق، ص ٨١، وانظر، المصدر نفسه، ص ١٢٧

(٢) مداراة: لفتح، انظر، ابن منظور، لسان العرب: ١/ ٧١-٧٥

(٣) ابن الحاج النبري، فيض العباب، ص ١٢٨-١٢٩



كبرى^(١) فمادة أدب الرحلات وإن لم تصل إلى مستوى الفن القائم بذاته كالفنون الأخرى القصة أو الشعر أو المسرحية أو المقالة الأدبية، مثلاً، إلا أن أساليب هذه الفنون ومصائبها تجتمع بشكل عام - في أدب الرحلات^(٢)

ولأن معظم الدارسين لم يلتفتوا إلى الساء المعني والفصصي لأدب الرحلات، بشكل كبير، فقد جاءت الدراسة هنا لتحاول الوقوف على حقيقة هذا الجانب، فلكل رحلة بداية ونهاية، فهل كانت تلك لبديّة أو النهاية فنيّة أم تقليديّة؟ وهل حكم عصر الزمان واماكان تلك البدايات أو النهايات؟ وهل تضمنت الرحلات فضاءات فنيّة أخرى؟ كشخص، أو الحوار أو السرد أو الخيال؟

وبالنظر إلى ما بين أيدينا من كتب الرحلات يلحظ التزام معظم الرّحالة بمحور الساء الفنيّ الأساسي

المقدمة:

حيث تبدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ومن ذلك قول ابن الخطيب بحمد الله حمد معروف بحقه، وشكره على عوائده فضله ورفعه، اسدي جعل لنا الأرض دلوياً عشي في مناكبها، وناكل من ررقه، ونصلي على سيدنا ومرلانا محمد خيرته من خلقه^(٣) في حين افتتح أبو عبيدة البجائي رحلته بقصيده شعرية أشاد فيها بصديقه المشدالي ومكانته العلمية، ثم بالتحميد، حيث يقول الحمد لله الذي فتح بمعانيه العقول أقفال الأهم، ورفع حجب السرائر حتى ظهر ما كان محجوباً في صدور أهل المحبة ولعرا^(٤)

(١) حسين، حسني محمود، أدب الرحلة عند العرب، ص ١٠

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ١١

(٣) ابن الخطيب، خطرة الطيب، ص ٣١-٣٢

(٤) البجائي، رسالة الغريب، بلى الخبيب، ص ٤٣



أما ابن جبير، فرحلته تحلو من مثل هذه المقدمة، فهي موجزة سريعة حذت فيها أسباب الرحلة ودوافعها وزمن الخروج ومكانه، حيث ابتدئ بتقييدها يوم الجمعة المرفي ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمس مئة على متن البحر بمقابلة جبل شلير^(١) لدية الحجارة المباركة، قربها الله بالتيسير والتسهيل^(٢)

فالمقدمة على اختلافها تنأى متسجمة مع انضمامين التي احتوتها كتب الرحلات، حيث يشعر البدء بالفكرة، ويهد للموضوع الذي يقصده الرحالة

العرض :

يأتي بعد التمهيد، حيث توظف الرحلات كل الأساليب والتعابير لإبرار الموضوع أو الهدف الذي من أجله كانت الرحلات، فالموضوعات وكل ما صادفه الرحالة من المشاهدات، تصور لصلة القوية بين عناصر البناء انفي، فتأتي لرحلة أكثر قوة وترابطاً

الخاتمة :

ويختم معظم الرحالة رحلاتهم بالحمد والصلاة على محمد وآله وصحبه، ويحدد بعضهم الزمن الذي استغرقته رحلته من لحظة الخروج إلى لحظة الإياب، حيث يهي ابن جبير رحلته بقوله فكانت مدة مقامنا من لدن خروجنا من غرناطة إلى وقت إيابنا هذا عشرين كاملين وثلاثة أشهر ونصفاً، وأحمد الله رب العالمين^(٣)

أما العبدري، فيختم رحلته بقصيدة شعرية وعظيمة، يصور فيها مراحل رحلته الشريفة، ثم يحمد الله ويصلي على محمد وآله وصحبه^(٤) في حين ختم العبدري رحلته

(١) جبل شلير جبل بالأندلس من أعمال إلبيرة لا يبارقه الثلج شتاء ولا صيفاً، انظر، ياقوت الحموي،

معجم البلدان ٣/ ٣٦١

(٢) رحلة ابن جبير، ص ٧

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٠

(٤) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص ٢٨٠- ٢٨٤.



بانتظار جواب غير عادي من صديقه المشدائي يوضح فيه ما جاء في رسالته من أبيات شعرية وجهها إلى البجائي ثم يصلّي لرحالة على النبي محمد وآله وصحبه^(١) ومما سبق، يلاحظ أن أبناء أبي في جميع الرحلات يظهر بصورة نمطية، تتبع خط سير الرحلة من انطلاقها إلى لحظة العودة، بحيث يكسب النص عمالاً واسعاً لتوظيف العناصر الأدبية، عناصر الساء يعني ترتبط بزميّة الخطاب، وتسمى إلى مواكبة الرحلة من البداية إلى النهاية

الفضاء الزماني والمكاني

إن فعل الرحلة لا يفصل عن الزمان والمكان، فالزمن عنصر هام في جسد نص الرحلة، وعامل من عوامل ضغطه^(٢) حيث تمثل الرحلة في زمنها كل مظاهر الحياة المختلفة، فقد رصدت الرحلات جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع ما خلال فترة زمنية محدّدة وزمن المقامرة في الرحلة لا يقتصر على ترتيب الأحداث، بقصة السفر في الرحلة تنقل وقائع تاريخية حقيقية، وتتركز على الزمن الذاخلي للنص، والفترة التاريخية التي تجري فيها أحداث القصة، وترتيب الأحداث وتراسمها وتتابعها^(٣)

تقول يمي العيد للشيء الذي نقص عنه زمنه، لكن لفعل القص نفسه زمنه؟ أي زمن القص، وزمن الشيء الذي يقص عنه القص^(٤) فرحلة ابن جبير مثلاً، عمل يمنع اعتماد وحدته من شخصية ابن جبير، والتتابع الزمني، الذي أولاه اهتماماً منذ لحظة

(١) انظر البجائي، رسالة المريب إلى الحبيب، ص ٩٨

(٢) انظر، طعان، صبحي، (١٩٩٤) زمن النص، مجلة المعرفة، السنة ٣٣، عدد (٣٧٠)، ص ١٣٧-١٤٧.

(٣) انظر، ناسم، مير، (١٩٨٥) بناء الرواية، ط ١، بيروت: دار النوير، ص ٣٣، وانظر، لوافي، ناصر عبد الرزاق، (١٩٩٥) الرحلة في الأدب العربي، ط ١، القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٤) العيد، يمي، (١٩٩٠) قصص السرد الروائي، ط ١، بيروت: دار الفارابي، ص ٧٢



الخروج حتى العودة، باتباع طريقة العد التصاعدي للوحدات الزمنية، متجداً شكل المذكرات اليومية^(١) ليؤرخ تفرقاته ومشاهداته، وفي إطار هذا الترتيب الزمني كان الرحالة يصف المكان وصفاً دقيقاً مركزاً على مكة المكرمة المهدف الأساسي لرحلات الحج ولعمرة، وهذا لا يفصل عن زمن الرحلة، فهو زمن ينتمي إلى الماضي لقرين لكنه تمتد على مستوى الانتقال بين مختلف الأماكن، لا سيما الأماكن المقدسة، إلا أن العمل ابن حير بالتقويم الزمني أدى إلى تباطؤ حركه الحكاية، ورتابه النص القصصي، وفقد عنصر الحيوية، باستثناء الأجزاء الأخيرة من الرحلة

أما العبدري، فيظهر اهتمامه بالزمن من خلال وصفه للمرحل التي يقطعها ركب الحجيج بدءاً من معادرتهم أرض الوطن ووقوعهم في بعض البلدان، حيث يستكملون من أسواقها حجارهم وما ينزهم، وعندما تحين ساعة السفر تتحرك القافلة وتقطع المسافات التي بين تلك البلدان في يومين أو ثلاثة أيام أو أكثر، وهكذا حتى تصل القافلة إلى مكة المكرمة^(٢) في حين أن بن بطوطة لم يهتم كثيراً بالتواريخ، وتسلسل الأحداث، إذ وحنه من اهتمامه بالأحداث ذاتها وسرد مشاهداته في البلاد التي قصدتها، وإن وحدث تواريخ في رحلته فهي مبعثرة وغير منظمة في النص، ومن ذلك قوله "وقصدت بلاد الشام، وذلك في منتصف شعبان سنة ست وعشرين"^(٣)

ومن جانب آخر، فقد جمع الرحالة ابن الحاج بين الأمانة في سباق واحد، وكأنه يصف حدثاً واحداً، فلم يقدم لأحداث جميعها وفق تسلسل زمني حسب وقوعها، بحيث يتحدث عن حدث ما ثم يتوقف ليصف حدثاً آخر ناقلاً تفاصيله وتفاصيله، ثم يعود إلى موضوع حديثه الأول بقصد سنكماله، مما يربك المتلقي في عملية ربط الأحداث ببعضها^(٤) فرحلة ابن الحاج لا يتوافر فيها زمن مضبوط إلا ببعض الإشارات، مثل،

(١) انظر، العبدري، الرحلة المغربية، ص ١٥٣، ١٧٩

(٢) رحلة ابن بطوطة ٥٢/١، وانظر، المصدر نفسه. ٨٢/١، ١٠٤، ١٥٤، ومواضع أخرى متفرقة

(٣) انظر، ابن الحاج النميري، قبض العباب، مقدمة المحقق، ص ٤٨، ٤٩

مرض أبي عاص سنة ٧٥٧هـ^(١)، وبذبح الحركة يوم الخميس سنة ٧٥٨هـ^(٢)، ووصول السلطان أبي عاص تونس سنة ٧٥٨هـ^(٣).

أما الزمن في تحفة أبي حامد الغرناطي، فيغلب عليه ميله إلى القديم، فهو زمن مطلق، وقديم، فقد يعود الزمن في بعض الحكايات إلى عهد أقوام بادوا مثل قوم عاد وثمود وغيرهما^(٤)، وهو زمن غامض ليس له علامات تميزه، وتحدد بدايته أو نهايته، وقد ينطبق الرّخالة في سرده لبعض الأحداث والوقائع من زمن محدّد تاريخياً، بحيث يوهم بواقعة بعض الحكايات والزمن الذي تحدث فيه، ثم سرعان ما يتحوّل هذا الزمن التاريخي إلى زمن لا تاريخي أو أسطوري، ليعود بعد ذلك إلى الزمن الواقعي^(٥) فالزمن عند الغرناطي لا يسير وفق سلسلة متصلة تفصي كلّ حلقة منه إلى الأخرى، بل ينطلق من الماضي السحيق ثم تُفقد بعض الحلقات الزمنيّة، ليصل الرّخالة إلى الحاضر الذي يعايشه، وهو زمن السرد.

والغرناطي في تحفته ينطلق من زمن تاريخي واقعي إلى زمن لا تاريخي، وأسطوري، أو العكس، وهكذا يرتبط حضور الزمن بعمية السرد، كما أنّ الزمن في الحكاية الأسطورية لا يترك أثراً في الأشخاص أو الأشياء، فعلي بن أبي طالب يهي على حاله بعد موته بقرون لم يذهب منه شيء أبته، وكنهه صحيح^(٦). والنبي هود يحافظ على صفاته الحسدية بعد مرور قرون عدة على موته وحسده على هيئة الأحياء لم يتغيّر، جميل

(١) انظر، المصدر نفسه، ص ١٩، ٢.

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ٦٠.

(٣) انظر، المصدر نفسه، ص ١٦١.

(٤) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٣٢، ٤١، ٤٢، ٤٤، ١٢٩، وموضع أخرى متفرقة.

(٥) انظر، المصدر نفسه، ص ٧٥، ٨٩، ١٠٤، ١٠٥، ومواقع أخرى متفرقة، وقد أشار إلى مثل ذلك،

صالح الله علي بحس، (١٩٧٨) أدب الرحلات عند العرب في المشرق، شأنه وتطوره حتى نهاية

القرن الثامن الهجري، بمعداة مطبعة الإرشاد، ص ٣٢٧-٣٦٠.

(٦) انظر، أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ١١٩.



الوجه مع عظم جسده وعليه ثياب يمانية^(١). وتطنى الأسطورية على الزمن في نعمة الغرناطي، بناء مدينة قوم عاد يستغرق خمسمائة عام، ونائبته يحتاج عشر سنوات، والملك لدي أمر بسانها يدخلها بعد لانتهاه من بنائها ونائبته^(٢)، فالرمن لم يفعل فعله في الأشخاص والأشياء حيث ظهرت المعجائية في السنية الرمنية لإشارة دهشة الملقي، ولقت انتباهه لمرابة تلك الأحداث

ويتضح مما سبق أن الرمن يحيط يربط بين الأحداث في الماضي، والحاضر، والمستقبل، فقد اعتمد بعض الرحالة على الرمن التصاعدي في وصف الأحداث، وقد يشرح هذا الرمن من سير الرحلة الطبيعي في بعض مشاهدتها، وذلك يذكر بعض السياقات التاريخية، أو وصف الرمن المتعلق ببناء بعض الأمكنة وخاصة الأماكن المقدسة، أو بالثرخه الذاتية لصاحب الرحلة، بحيث يأتي تسلسل الرمن عند بعض الرحالة متفاوتاً بين رمن التلغظ وزمن الحدث، فالبداية لقصة صدى اس حلدون كاتب بالانتقال إلى رمن ماض يسبق رمن انقصر في الرحلة، وهو زمن يشير إلى مراحل تكوين الرحلة الولادة والنشأة، وزمن الصبا الأول، ومرحلة الزحولة، حتى يصل إلى رمن الرحلة، ليظهر ذلك كله مع الرمن الذي يعاينه، وكأنه بذلك اتبع أسلوباً علمياً في إقناع الآخرين بما يسرد من أحداث.

وكما شكّل الزمان قضاء لعمدة في الرحلة، كان المكان، إذ لا يمكن الفصل بين الزمان والمكان حيث إنهما مرتبطان مع بعضهما، وبأحداً أهميتهما من ارتباطهما بالإنسان بحيث يتحول المكان من أوصاف الجغرافية والتاريخية، ليصبح جزءاً من التجربة الدائرية^(٣) فالمكان يرتبط بالزمان، وقد شكّل المكان دوراً هاماً منذ خروج لرحالة من بلادهم إلى بلاد أخرى، ثم العودة إلى بلادهم، وفي ذلك حديث عن العرب المكارية

(١) أبو حامد الغرناطي، نعمة الألباب، ص ١٠٤

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ٤٢-٤٦

(٣) انظر، إبراهيم، بيعة، (١٩٨٦) قصص الحداثة، فصول، مجلد ٦، العدد (٤)، ص ٩٦



ولعبة الطويلة من انوطس والحين إليه، فالمكان والزمان لا يمكن أن يظهر أحدهم إلا في إطار الآخر

وقد عرضت لدراسة هامة^(١) إلى دور الرخالة في إبراز جمالية المكان، من خلال أسلوبهم في وصف الأمكنة، في ظل حركية الزمن وامتداده، حيث احتل هذا التوصيف الجغري مساحة واسعة، وقف فيها الرخالة على معالم الأماكن وخاصة الأماكن المقدسة، حيث وصفوا القباب، والمحارب، والمساحد، ولأبواب، ولأسموار وصفاً شامداً على ذاكرة المكان ويبدو بمنى الرخالة وقد انطلقوا من وصف الأماكن المتصلة بالوانع، وتحديد أبعادها التاريخية والحضارية، وذكر حدودها وحصانصها، لكنهم سرعان ما يدخلون عالم الأسطورة، وكأن وقعة تلك الأماكن لا تشد القارئ، فليجأ الرخالة إلى الخيال والأسطورة، ففي بعض الرحلات خرجت بعض الأمكنة من إطار الواقعي، إلى مكان أسطوري عجائبي، مثل اختفاء المدينة في حكاية قوم عاد مدة طويلة من الزمن، ثم ظهورها من جديد، وهذا يجعل منها مكاناً أسطورياً عجائباً، ويؤكد ذلك ما ذكره الرخالة أبو حامد العرناطي عن مساحتها والمدة الزمنية التي استغرقها البناء، والرجال الذين بنوها، حيث كانوا يتمتعون بقوة جسدية كبيرة، فساء هذه المدينة العجيبة يحتاج إلى أشخاص يتصفون بالقوة في الأجسام^(٢)

ويتضح من ذلك أن أبو حامد العرناطي يحاول أن يصف في صفة الراقبة على حكاياته الأسطورية، وذلك بذكر المواقع الجغرافية للأماكن التي يصفها، فمدينة الحاس تطل مدينة أسطورية، رغم ما ذكره الرخالة عن موقعها في مياقي لأمدس بالمغرب الأقصى قريباً من بحر الظلمات^(٣)، ويحاول تحرير هذه الواقعة بأحداث تاريخية وأشخاص تاريخيين، فقد بنى المدينة لجن للي سليمان بن دورد، ثم عثر عليها عكر

(١) انظر، الدراسة، ص ٢٠٩ - ٢١٥

(٢) انظر، أبو حامد العرناطي، ثمة الألباب، ص ٤٢-٤٦

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤.



مرسى بن نصير^(١)، وسار قائده حول سورها مدة ستة أيام، ليعرف مدخلها دون جدوى ثم حذر العسكر أساسها حتى بلغوا لواء ولكنهم وجدوا أساسها راسخاً، وصعد بعض العسكر سورها ليطلعوا على ما فيها دون أن يسجحوا في التوصل إلى شيء، فتبقى المدينة أسطورية، رغم محاولة ليرناطي إصفاء صفة الواقعية عليها حيث كان يلجأ إلى وصف طبيعة المكان لعناء من عبون وأشجار ووحوش وأطيار، لبوهم الآخرين أحياناً، بواقعية تلك الأماكن، فقد وصف طبيعة مدينة لنحاس بقوله أرض وسعة كثيرة المياه و لعبون والأشجار و لوحوش والأطيار والحشائش والأهار^(٢). ويصف وأدب فيها، فيقول فأنزلت في وادٍ كثير العيون والأشجار والأراضي الخصرة النضرة التي تحملها الأنهار، قد أيعت بالأرهار، وقد حملت من اختلاف الثمار عليها من سائر الأطيار^(٣) ووصف ليرناطي خروج بعض الأمكة عن إطار هيتها الحامدة إلى إطار الحركة ولانتقال، فغير علي بن أبي طالب انتقل من مكان إلى آخر بطريقة عجيبة أسطورية لا يقبلها العقل^(٤)

وبعد، فإن الزمان والمكان فضاء دائري مغلق، يشكل الإطار الخارجي للرحلة، حيث ظهرت الرحلة نصاً سردياً يتحقق في زمن، ويطلق معه من مكان الخروج لتغلق الدائرة في ذب المكان، عند الرجوع وبين زمن بداية الرحلة، وزمن نهايتها، يتقل الرحالة من مكان إلى آخر، حيث تمتد فعل القصة وسرد المشاهدات والوقائع الاجتماعية، ولأحداث السياسية إلى جانب مراحل التكوين التي مر بها الرحالة، الولادة والشاة، الخ، تتلأ بعد ذلك الأحداث المؤثرات المكاتية والرومانية مراحل الرحلة التي قطعها الرحالة بين مكان الخروج ومكان الرجوع.

(١) هو من التابعين، ولد سنة ١٩ هـ، ينسب إلى بكر بن وائل، وهو من أعظم الرعماء الذين وجهتهم الخلافة إلى الغرب، ترجمه في ابن حلكان، وفيات الأعيان ٣١٨/٥، الناصري، الاستنصار

٩٥/١، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٥٨/٢

(٢) أبو حامد القرناطي، نعمة الألباب، ص ٤٤

(٣) أبو حامد القرناطي، نعمة الألباب ص ٤٨-٤٩

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٨-١٢١.



السرد والحوار

إن البناء الفني لرحلات، يتضح أيضاً، في مستويات^(١) القول، وتوالي فعل السرد بين القصص الرماني والمكاني، حيث تتمحور عناصر التخيل، والأساطير، والمكونات الواقعية، لمثل ذلك كله خطاب الرحلة القائم على الوصف الذي يتفاعل مع الكثير من الخطابات الدينية والاجتماعية لمحفف العوالم التي يستقل فيها الخطابات من الواقعية إلى الغرائبية فقد وظف الرحالة المأثورات لشعبية، مثل السحر والتنجيم، والطلب الشعبي، وقصص الخيوان، والباب، وذلك بهدف توصيل المعلومات وسرد المعارف ونقل التجارب إلى المتلقي حيث أدت وظيفة معرفية شعبية، واستطاعت الرحلات أن تقدم ذلك، وفق مستويات عدة استوى العلمي، والثقافي، والقولوكلوري، والعرائي فقد جاء نص رحلة ابن جبير نصاً قصصياً سردياً، يروي الأحداث، ويصور الشخصيات، حيث يوع ابن جبير في أسلوبه بين السرد القصصي المشوق، والوصف الدقيق والطريف للواقع والمشاعر الإنسانية التي تحرك عواطف المتلقي، بما تحويه من سرد للتجربة الذاتية العبة بالصور والمفاجآت والمعامرات، يقول: "وفي أثناء ذلك أبسطت الشمس ولاز البحر قليلاً، وصمنا بروم أخذ مرسى في البر المذكور إلى أن يقضى الله قصاه، وبعد حكمه، قال: هذا الخطر، وإن كان المحذور لا يغني عن المقدور شيئاً، وحسبنا الله ونعم الوكيل" وتجاوزت^(٢) لريح ولأمواج صفع المركب حتى تكسرت وجله الواحدة، فألقى الرانس مرسى من مراسيه طمعاً في تمسكه به، فلم يصل شيئاً، فقطع حبله وتركه في البحر، فلمّا تحقّقنا أنّها هي فعنا بشدنا للموت حياربنا^(٣)، وأمسينا على الصير الحميل عرائسا، وأقمنا برتقب الصباح أو لحين المناسح، وقد علا الصباح، وارتفع الصراح^(٤)

(١) انظر، لمروقي، سمير، خاكر، حيل، (١٩٨٦) مدخل إلى نظرية القصة، بغداد، العراق. دار

الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، ص ٧٢ وما بعدها

(٢) تجاوزت، تدارلت، انظر، ابن منظور، لسان العرب ٦١٩/٤

(٣) الحيروم لصدر، وشذء يدل على التأهب، انظر، المصدر نفسه ١٢/١٢٢

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٤



ومن الرُحالة المدين أنشأوا خطأً سردياً لإظهار تجربتهم الذاتية، ابن خلدون، حيث ركَر على سرد الأحداث الخاصة التي تحدث وصوله إلى القنّة وتحقيق لذات، وأجاد في سرده للكثير من المشاهدات، ومن ذلك حديثه الطويل في فساد القصاة وخراب ذمم الكتاب والمفتين في مصر، ووصفه لمحاولاته في إصلاح لأمر، فيقول: «نقد كان البر منهم مختلطاً بالعاجز، والطيب متنسباً بالخبيث، والحكام محكون عن انصافهم متحاورون عما يظهرون عليه من هياتهم، كما يؤمّهون به من الاعتصام بأهل الشوكه، فإن غالبهم يختلطون بالأمراء، فعاملت الله في حسم ذلك بما أسفهم عليّ وأحقهم...»^(١).

ولعل طبيعة بعض الرُحالة، التي تميل للسرد وللحكايات الطريفة والعرشية، هي ما دفعهم بروايه تلك القصص التي عاشوها أو سمعوا بها، وكان سردهم لهذه القصص بعمورية وحيوية: قرنت لرحلة من عالم القصة، فأبو حامد الغرناطي، وابن بطوطة لم يهتما بالمحسنات البديعية والزخرفة اللفظية، فكان أسلوبهما أقرب إلى الاهتمام بالحدث أكثر من الزخرفة، ويبدو أن ابن بطوطة بحب القص، ويسرد لأحداث بالمناظر ببطء، مبرراً موانع تأزم الأحداث ثم حلها من لحظة خروج الرُحالة من بلده حيث تصاعد الأزمات حتى يعود الرُحالة إلى بلده وقد اكتفى ابن بطوطة بالحكي، في حين قام ابن جزي بجمع تلك لحكايات المنفرقة في سيج قصصي متماسك، ومن ذلك قول ابن بطوطة واصفاً ريارته لبلاد آسيا الصغرى «ولما كان لصباح ركبا، وأتانا الفارس لدي بعته معا الفتى أحي من كسوك، فبعث معنا فارساً غيره ليوصلنا إلى مدينة مطربي وقد وقع في تلك ليلة ثلح كثير عما»^(٢) عن الطريق، فتقدمنا ذلك الفارس، فأتبعنا أثره إلى أن وصلنا في نصف النهار إلى قرية للتركمان، فأتوا بطعام فأكلنا منه، وكلمهم ذلك الفارس، فركب معنا أحدهم، وملك منا أوعاراً وجالاً، وعجى ماء تكرر لنا جواره أريد من الثلاثين مرة، فما

(١) ابن خلدون، التبريق، ص ٢٩٢، ٢٩٦

(٢) ص ١٥٠، فتح عالم الطريق، انظر، ابن منظور، لسان العرب ١٥/٢٦



خلصنا من ذلك، قال لنا العارس أعطوني شيئاً من الذرأهم، فقلنا له إذا وصلنا إلى المدينة نعطيك ونرضيك^(١)

ومن أمثلة المشاهد السردية التي تكشف عن روح المكة في رحلة ابن بطوطة، ما درّنه لرحالة من مواقف طريفة أثناء ريارته لبلاد الهند، فقد جلس قاضي مدينة قلهاة، وهو أعور العين اليمى مقبل شريف بغداد، وهو شديد الشبه به في صورته وعوره، إلا أنه أعور اليسرى فجعل لشريف ينظر إلى القاضي ويضحك، فرجعه لقاضي، فقال له لا تزجري، فإني أحسن منك، قال. كيف ذلك؟ قال. لأنك أعور اليمى، وأنا أعور اليسرى، فضحك الحاضرون، وخجل القاضي^(٢)

وقد برزت جماليات الصور السردية لدى بعض الرحالة، من خلال أسلوب الوصف، وتبع سمات النص القصصي، فأبو حامد الغرناطي أجاد في وصف الألواح التي استخدمها بعض سكان آسيا الصغرى وأوروبا في سيرهم فوق الثلج، ورسدها بدقة تدل على المشاهدة والمعاينة الحية، وتكشف عن قدرة على الفص والحكي، إذ يقول: . ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً ينحتونها، طول كل لوح باع وعرضه شبر، مفادهم ذلك اللوح ومؤجره مرتفعان عن الأرض، وفي وسط اللوح موضع يصنع الماشي فيه رجلاه، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيوراً^(٣) من جلود قوية يشدونها على أرجلهم،^(٤)

أما ابن بطوطة، فيسرد الأحداث ويجرياتها، ثم تتحول تلك الحكايات إلى قصص تم تدويرها في الرحلة، حيث سرد ابن بطوطة أخبار بعض أسحرة في دهلي، وعن ما لفت انتباه ابن بطوطة إليهم هو اعتمادهم على المعامرة والحيلة، فيقول بعث إلي السلطان يوماً، وأنا عنده بالحصرة، فدخلت عليه وهو في حلوة، وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الخوكية، وهم يلتحمون بالملاحف ويتنظون رؤوسهم، لأنهم يتفرون بالرماد كما

(١) رحلة ابن بطوطة. ٢٨١/١

(٢) المصدر نفسه ١٥٥/٢

(٣) سيور ما يقدر من الخلد، انظر، لسان العرب ٣٩٠/٤

(٤) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ١٣٧-١٣٨.



نصب الناس أياضهم فأمرني باجلوس فجلست، فقال هما إن هذا الحرير من بلاد بعيدة فأرياه ما لم يره فقالا نعم، فترجع أحدهما، ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في أهواء فوقها مريعاً، فعجبت منه وأدركني الوهم، فوقعت على الأرض، فأمر السلطان أن أسقى دراءً عنده، فأفقت وقعدت وهو على حاله مترجع. وهو يزل قليلاً قليلاً حتى جلس معي، فقال لسلطان لولا أنني أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت فانصرفت عنه، وأصابني الخفقان ومرضت، حتى أمر لي بشويه أدهبت ذلك عني^(١)

ونلاحظ أن ابن بطوطة قد استخدم الحوار استخداماً نارعاً، فجاءت أحداث حكاياته متحركة، نابضة بالحياة، ولعل هذا ما جعل أسلوبه أقرب إلى أسلوب الأديب القاص، إضافة إلى أنه لم يقصد أن يورج الأحداث لتاريخية أو الجغرافية بحداثتها بل هدف إلى إمتاع القارئ بما رصده من أحوال اجتماعية للمدن التي زارها وبصورة عامة، فإن الحوار في معظم الرحلات كان امتداداً للسرد والوصف كما قام بدور كبير في البناء القصصي في الرحلة، وساهم في الكشف عن نفسية الأشخاص، لحافلة بالمعلومات ولذلات

وإضافة إلى القصص المعتمد على السرد الذي يقطعه الحوار والوصف فقد مرج بعض الرحالة بين الحكاية والشعر، حيث عرصوا فذرتهم الشعرية من خلال المعارضات الشعرية لشعراء آخرين أو هم^(٢)، وجاء الشعر متضمناً في نص الرحلة ليتحلل التحولات السردية للرحلة استثرية، فقد استخدم انغزال الشعر حياً والشعر حياً آخر، ووظف الحوار توظيفاً أكسب الرحلة كثيراً من الحيوية والحركة^(٣)، بحيث يتيح لشخصيات الرحلة أن تظهر بحرية لتعبر عن نفسها بنفسها كما استحضرت بعض الرحالة في رحلاتهم الرسائل التي انطوت على جانب كبير من الوصف والسرد^(٤)، الأمر الذي أكد الصعقة الأدبية للرحلات وأكسبها وظيفة قصصية

(١) رحلة ابن بطوطة ١/٢، ١٥١، انظر أيضاً: المصدر هـ ١/٢٥٦، ٢/١٤٤، ٢٣٣

(٢) انظر في ذلك رحلة التجاني مثلاً

(٣) انظر، الدراسة هـ، ص ١٩٣

(٤) انظر في ذلك رحلة ابن الحاج، ورحلة ابن خلدون، مثلاً.

أما صيغ الأداء^(١) المتصلة بالكلام، مثل، أشدنه، وحدثنا، ورأيت، وسمعت من، وكنت مع، إلخ، فتشير إلى تركيز الرحالة على الأفعال التي تعبر عن عرص قصصية، وبصور الحركة، حيث تعبر عن وظيفة سردية تهدف إلى الإقناع^(٢)

ومن جانب آخر فإن بنية الضمير التي تتراوح بين تاء المتكلم وبنه، والضمير المستتر، وضمير العائب تدل في بعض الأحيان على مركزية المتكلم، ومن ذلك قول ابن عربي خرجت من بلاد الأندلس، أريد بيت المقدس - وصرت على سواء الطريق، أبحث عن أهل الوجود...^(٣)

ورحلة ابن عربي، مثلاً، تتضمن سرداً يحوي سمات الشكل الأدبي القصصية؛ بالشخصيات والحوارات موجودة، إضافة إلى احتوائها بصوراً شمرية، ومن ذلك الحوار الذي جرى بين ابن عربي -السالك- والعنق الروحاني عصام، وهي شخصية سردية، قال السالك: فلقيت - فتى روحاني الدات، رناني الصفات، يؤمن إلى الالتفات. فقلت ما وراءك يا عصام؟ قال وجود ليس له انصرم - قنت له. فأبى تريد؟ قال حيث لا أريد،...^(٤)

إن ذلك كله يسهم في الحفاظ على القيمة القصصية في الرحلات، فالسرد يطلق من الواقع مكاناً ورماتاً وأشخاصاً، ويسهم في بناء عالم قوامه الدوال الخاصة بكل رحلة، ويتنوع بين سرد المغامرات وسرد الانطاعات، كما أن المرويات السردية والوصفية والحكاية التي احتوتها الرحلات، قد شكلت سيجاً داخلية قررت تلك الرحلات من الأدب

(١) انظر، في صيغ السرد والأداء، يقطين، سعيد، (١٩٨٨) صيغ الاختصاص الروائي وأبعادها النصية، الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، العدد ٤٨-٤٩، ص ٣٩

(٢) انظر، موير، إدوين، ساء لرواية، ترجمة، إبراهيم الصبري، ومراجعة، عبد العادر الفظ - دار الحبل، الدار المصرية لتأليف، ص ١١٨

(٣) كتاب الإسراء إلى مقام لأسرى، ضمن رسائل ابن عربي ٣/١

(٤) المصدر نفسه ٣/١



الحكايات والأساطير

يرى شوقي ضيف، أن بعض الرّحالة كانوا يكتبون بمحيلة القصص، الذي يستند الواقع بالخيال، والحقيقة بالأسطورة^(١)، فاحتوت رحلاتهم مادة غريبة من الأساطير والحكايات التي استمدّها الرّحالة من خلال رياراتهم لمختلف البلدان، واختلاطهم بالشعوب، وسماعها من النّاس، أو رسمها خيالهم لأنفسهم وسبواها إلى مشاهداتهم الخاصة، فهي كن أسطورة جانب من الحقيقة، يتسع بالتّسع الخيال الشعبي

ولعلّ استخدام بعض الرّحالة لخيالهم ومزجهم الخفيف بالأسطورة جاء استجابة لروح المعصرة، الأمر الذي ساعد في إدراك الأشياء، وتطوّر الفن القصصي للرحلة، فالخيال يصي الحياة في الرّحلات ويبعث فيها الرّوح

ومن الأمثلة على تمازج الواقع والخيال، ما أورده ابن بطوطة من إسلام أهالي جزائر ديبه لمهل المالديف، حيث سج الخيال الشعبي أسطورة حول حدث وقع فعلاً، ذلك أن شيخاً مغريباً جاء إلى تلك الجزائر، وكان حافظاً للقرآن الكريم، وأسلم حاكم تلك الجزائر وأهلها على يديه، وأنعمهم أن تلاوة القرآن تدرأ الأخطار عنهم وتخلصهم من شر العقارب، فتلاوته بقرآن علب هذا الشيخ العمريت الذي كان يأتي إلى الجزيرة من البحر مرة كلّ شهر، فيقدم الأهالي له فتاة، قرباناً لإرضاءه، وتجباً لإيدائه، وتحكي هذه الأسطورة أن هذا الرجل، قد توجه عوضاً عن إحداهن ذات ليلة، فحلّ محلّها، وإنّ تلاوته القرآن أدهت العمريت إلى غير رجعة، وأنقذت فياب هذه الجزائر من الهلاك^(٢)

وتتضمّن أسطورة هنا، تصوراً لحدث وقع فعلاً، ولشخص له وجود تاريخي، ولكن الخيال الشعبي، أو التراث في حرصه على تأكيد قيمة معينة أو رمزية خاصة، يلجأ

(١) انظر، ضيف، شوقي، الرّحلات، ص ٦، ٤١، ٦٠، وانظر أيضاً، كرانسكوفسكي، تاريخ الأدب المعراي العربي، ص ٣٣٠، ص ٤٦٦-٤٦٧

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة ١٧٨/٢ ١٧٩



إلى تصوير ذلك الحدث أو تلك الشخصية في إطار من المبالغة ولتضخم، وبالإضافة إلى ذلك، فإن الأسطورة تُفهم في سياقات أخرى متعددة^(١)

ويرى كراتشكوفسكي أن شيوخ القصص البحرية الشعبية، في تلك العصور، وقصص لأولياء والكرامات في العصور المتأخرة، قد أثرت في الرحالة تأثيراً واضحاً، بحيث قل بعضهم ما يروى له منها، وأخري بعضهم الآخر مجتهداً، فأوردوا بعضها في رحلاتهم^(٢)، فالقصص الشعبي مرتبطة بالحياة ومعتقدات الإنسان، وتصورات النفس لتلك المصنوع.

ويذهب بعض الدارسين في تفسير، مثل هذه الحكايات والأساطير، إلى الخوف، حيث ذهب شوقي صيف إلى أن الخوف لعب بمجال الرحالة، وبخاصة الرحالة في البحار، فصور كثيراً من الأوهام حقائق، وجسم لهم بعض الحقائق الصغيرة، أشياء مفرقة خطيرة^(٣)

في حين يرى حمادي المسعودي، أن لحانب الأسطوري في مثل هذه الحكايات، يعبر عن ميول ورغبات دينة لدى الباحث، فلا يجد مجالاً لإعرازها، إلا مدحول تخوم الأسطورة عن طريق فن انقص، وكأن الواقع لدى الراوي يبدو عقيماً، لذلك التجأ إلى قضاء ثانٍ بدا أوسع، وأكثر ثراءً^(٤) فعيل النفس الإنسانية إلى العدل ورفضها للظلم، قد يدفعها إلى الاعتقاد بعالم الأسطورة، إذ إن الأسطورة قريبة من عقلية العوام، الذين يسمعون ويرددون العديد من الحكايات عن مصير الإنسان بعد موته، مثلاً، فمن طريق تلك الأساطير يتم الحزاء والانتصص من اعالم، ولو كان ذلك في عالم الخيال فقط، ومن

(١) فهم، حبيب، (١٩٨٧) التراث الشعبي في أدب الرحلات، مجلة المأثورات الشعبية، العدد (٥)، ص ٢٩.

(٢) انظر، كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الخمراني العربي، ص ١٥٢، ١٦٦، ٢٨٧، ٢٨٩، ٤٥٨، ٤٦٦.

(٣) صيف، شوقي، الرحلات، ص ٢٨.

(٤) المسعودي، حمادي، (١٩٨٩) الواقعي والأسطوري والخمراني في نعمة أبي حامد المرصافي، الحياة الثقافية، العدد (٥٤)، ص ٢٠.



أمثلة ذلك، حكاية قبر الأمير الظالم في تحفة الغرناطي، فقد كان هذا الأمير ظالماً أثمته حكمه، فلما مات بُني على قبره قبة عظيمة، وعُمل على قبره ألواح من الرخام الأبيض كالعاج حسناً، فتقطع ذلك الرخام وسودّ واحرق، واسودّت القبة من الدخان الذي يخرج من قبره .. ولم يدفن أحد بقبره ميثاً.^(١)

وأفرزت بعض لرحلات أشكالاً قصصية، تقوم على الأسطورة التي تنأى عن الواقع اليومي، ومنها قصص الحيون والبت^(٢)، فقد جعلت تحفة الغرناطي ورحلة ابن بطوطة، مثلاً بالكثير من الحكايات التي تصل حدّ العرابة، ومنها ما نقله الغرناطي عن حكاية السمكة الحارية؛ ذلك أن بعض التجار خرجت إسيهم سمكة عظيمة حداد، وجذبوها بالحبال، وجروها فافتحت أذنها، وخرج من أذنها جارية حساء جميلة، بيضاء، سوداء الشعر، حمراء الخدين .. وعن سورتها إلى نصف مائها حلد أبيض كالثوب حلقه يتصل بجسدها، كالإزار دائر عليها، فأحدها الرجال إلى اسر وهي تلطم وجهها، وتنتف شعرها، وتمص ذراعها وتديه، وتصبح وتقعن كما تفعل النساء في الدنيا، حتى ماتت في أيديهم^(٣)

ويتحدث الغرناطي أيضاً عن عجائب مصر وبلها، فيذكر أن بيل مصر نوعاً من السمك يسمى الرعاد، يُعمل من جلده عناقية، وتلس للصدع فيسكن^(٤)

أما ابن بطوطة، فقد أنطق الجراة لتعبر عن الظلم والواقع في البلاد، وهذا يخالف المنطق والعقل، حيث يقول في وصفه لمدينة مالي وحضرت مجلس السلطان في بعض الأيام، فأنى أحد فنهاتهم وكان قدم من بلاد بعيدة، وقام بين يدي السلطان، وتكلم

(١) رحلة أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ١٠٢، وانظر مثل ذلك، المصدر نفسه، ص ١٠٣-١١٠.

(٢) انظر، رحلة ابن بطوطة ١٦٤/٢-١٦٥.

(٣) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٩٧-٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٨، وانظر أيضاً، رحلة أبي حامد الغرناطي، المغرب عن بعض عجائب المغرب، ص ٧٨.



كلاماً كثيراً فقام القاضي فصدقه ثم صدقهما السلطان . وكان إلى جانبي رجل . فقال أنعرف ما قالوه؟ فقال لا أعرف، فقال إن الفقيه أخبر أن الحراد وقع ببلادهم فحرح أحد صلحائهم إلى موضع الحراد بهاله أمرها، فقال هذا حراد كثير، فأجابته جراحة منها، وقالت إن البلاد التي يكثر فيها الظلم يعننا الله لفساد ررورها^(١)

وقد يبحث بعض الرّحالة في بعض الأشياء والحياة والروح، فإذا هي تتحرك وتقوم في يقوم به الإنسان، وأحياناً تقوم بأفعال تُسند إلى لقوى العيية في العقلية الشعبية، فالحجر مثلاً، قادر على إنزال المطر^(٢).

ومن الرّحلات التي برزت فيها بعض الحواش الأسطورية، رحلة ابن الصّباح الأندلسي، حيث يرى جمعة شبيحة أن ثقافة الرّحالة، ثقافة دينية متوسطة، وثقافة تاريخية أسطورية. تبعد عن صفة لعالم، فقد تحدث ابن الصّباح الأندلسي عن قصة صلب المسيح عند دخوله إلى الإسكندرية، فذكر أن إقليش اليوناني من ولد أرسطاطلس الحكيم، هو الذي بنى الإسكندرية، وكانت مع أنه الخشعة التي صلب عليه المسيح عليه السلام. ودلت ليلة رأى إقليش في منامه أنه وأمه يعبدان هذا (الصليب) فكان أول من عبد الصليب، وتبعه من كتب عليه الشفاء والعذاب . ويبدو أن هذه الأسطورة أثرت في ابن الصّباح، فرجع إلى أسفار اليهود، فدخله الوهم والشك في مسألة رفع عيسى عليه السلام. ورين له الشيطان عكس ما جاء في العقيدة الإسلامية، فكاد يتحرف عنها لولا أن هداه الله بوز القرآن^(٣).

إن حصر الأبعاد الأسطورية في بعض الرّحلات، لا يعني عدم مصداقية ما تقدّمه تلك الرّحلات؛ ويؤكد ذلك ما ذكره بعض الرّحالة في رحلاتهم، فأبو حامد العرماطي، مثلاً، يحزم أن ما يذكره في نحمته هو من الواقع، ولا مجال للشك فيه، حيث يقول في نهاية

(١) رحلة ابن بطوطة. ٢/ ٢٨١

(٢) انظر، أبو حامد العرماطي، نعمة الألباب، ص ٧٧، وانظر، المصدر نفسه، ص ٧٩

(٣) شبيحة، جمعة، بعض المظاهر الدينية في رحلة عبد الله بن الصّباح الأندلسي، دراسات أندلسية، العدد



مقدمة الرحلة فلا تكن مكذباً بما لا تعلم وجه حكمته^(١) ويعزو عدم تصديق حكاياته إلى نقصان العقل من جهة وإلى الجهل من جهة أخرى^(٢) ثم يسوق مجموعة من البراهين المتنوعة لإقناع المتلقي بحكاياته؛ منها ما هو نصي مستمد من القرآن الكريم، ومنها ما ضمه رحلته من الأمثال، ومنها ما يعود إلى التجربة والملاحظة الحية

أما ابن بطوطة، يبدو أنه لم يعط بالأداء أو يبذل جهداً ليحقق، ويفقد بعض تلك الحكايات، فتركها تقترب إلى الأساطير الشعبية، ولعل ميله إلى الجانب الصوفي دفعه لتصديق بعض تلك الحكايات والأساطير دون تردد فما ذكره الرحالة من لأعاجيب وعراف كان سائداً بين الناس، فدونها الرحالة في رحلاتهم، وصدقها بعضهم حتى صارت في أذهانهم حقيقة^(٣)

وإن كان هذا اختصار شديد للأسطورة في بعض الرحلات، فد أخذ يسيطر على عبريات أحداث الرحلة، إلا أن تلك الرحلات، تنفي ذات قيمة كبرى، بما تحفل من مادة غنية، ومعلومات متنوعة من أجزاء واسعة من البلدان التي قصدها الرحالة فغالبية هؤلاء الرحالة لمزجين كانوا كتاباً قبل كل شيء، فجاءت كتاباتهم يغلب عليها الطابع القصصي. يستندون به إلى الواقع أحياناً ويبحرون إلى الخيال أحياناً أخرى، ويستعينون فيه بالقصص للمتعة التي تسمو به إلى مرتبة الأدب الفني الصرف في أغلب الأحيان^(٤).

ويصف حسين نصار لرحلة الأدبية بقوله إن تكن الرحلة الأدبية قصة ولا رواية بالمعنى الدقيق، فهي أخت شقيقة لها^(٥)

(١) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب، ص ٢٥

(٢) انظر، المصدر نفسه، ص ٢٤، وانظر، أيضاً، المصدر نفسه، ص ٩١

(٣) انظر، مال الله، على محسن، أدب الرحلات عند العرب في المشرق، ص ٢٤٣

(٤) حين، حني محمود، أدب الرحلة، ص ١٠، ١٦

(٥) نصار، حسين، أدب الرحلة، ص ١٣٢.



وبهذا، يمكن القول إن نص الرحلة، هو نص فيه من العن القصصيّ ما يمكن معه أن يمثل جذور القصة الأدبيّة، حيث اعتمد على عناصر أساميّة واضحة، هي السرد، والحوار، والوصف، والبدايات والنهايات، والنشويق والاشتغال على هدف وغاية وهو أيضاً، يمثل شكلاً أكثر اتساعاً، بما سمح من مساحة لعدد من المستويات اللغويّة؛ أن تظهر شعراً كانت أم نثراً، كتفنل لهم والحديد والمتع والنافع^(١) إلا أنّ هذه الحكايات الخياليّة ولعرائتيّة، وطقوس السحر والأمطير، التي كانت ضرباً من صروب الباء لفتني في أدب الرحلات، نظلّ بحاجة إلى دراسة مستفيضة مستقلة لمعرفة الدواعي التي دعت الرحالة لذكرها

(١) زيتوني، طيب، (١٩٩٦) السيميولوجيا وأدب الرحلات عالم لمكر العدد ٢٤، عدد (٣)،



الختاتمة

وبعد فقد حاولت هذه الدراسة أن تقدم صورة واضحة قدر الإمكان لأدب الرحلات الأندلسية والمغربية، ومساقتها المعرفية والثقافية والاجتماعية ولدينية، وأن ترصد مدى التجربة الإنسانية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، كما حاولت الدراسة أيضاً من خلال نصوص الرحلات والمصادر والكتب التي درست هذا الأدب إبراز دور الرحالة في التفاعل الثقافي، ونقل إبداعات الشعوب وثقافتها إلى سائر أقطار العالم وتبيين معاني الارتباط الروحي والمادي بين لأندلس والمغرب وبلاد المشرق، وغيرها من البلدان التي زارها الرحالة، حيث اقترن ذلك الاتصال بهوض ثقافي، ونظور حصاربي في مختلف تلك المجموعات، التي وإن اختلفت في بعض أنماط حياتها بحكم البيئة، إلا أن تلك الحصاربت صاغت ثقافة واحدة، هي الثقافة الإسلامية رغم تباعد الأصناف

وقد تم تسليط الضوء على المراحل التي مرت بها لرحلات الأندلسية والمغربية، حيث اتخذت في بدايتها طبعاً دينياً علمياً، برز فيه الدور العلمي بالأماكن لمقدمة من خلال استقطابها وفرد طلاب العلم المسلمين من جميع أنحاء العالم الإسلامي ثم كانت الرحلة لزيارة معظم لأقطار، حيث أفررت هذه الرحلات مذكرات ومشاهدات هؤلاء الرحالة، فنشأ ما يسمى بالرحلة الوصفية، التي اتسعت لتشمل وصف مراحل الرحلة الأماكن، والمشاهدات، وأحوال الشعوب

وعبر لرحالة في وصفهم لمراحل رحلاتهم عن اطعائهم، فاستخدموا التسميات الدينية والأدبية، إضافة إلى تأثيرهم بعاصر البيئة المحيطة بهم حيث برزت بعض الصور النسبية لدى بعض الرحالة، مثل ابن جبير مما أكسب الرحلات عنصر لامتاع، وقرَّبها من الأدب، فكانت رحلات قيمة، سُردت أحوالها في شكل قصصي.

بهذا تكون الرحلات قد رصدت تنوع المعالم الحصاربية في مختلف لموانب الحياتية في البلدان التي قصدتها الرحالة، وعكست صورة واضحة عن أحوال لشعوب وعاداتها وتقاليدها وكشفت عن الانتماء إلى ثقافة الذات والمهم لثقافة الأخر ولامتاع عليه مررة التراط بين كل العاصر لبشرية والثقافية في البلدان التي زارها الرحالة.

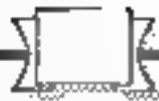


المراجع

أ. باللغة العربية.

- القرآن الكريم
- آل مريخ، أحمد علي (٢٠٠٣) محمد ونفهوم أبي، مادي أنها الأدبي
- ابن الأثير، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر الغضائري، (ب ٦٥٨هـ) الكلمة لكتاب الصلوة، ٤ ج، (تحقيق عبد السلام المراس)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥
- إبراهيم، زكريا (١٩٧١) مشكلة الحياة القاهرة مكتبة مصر
- إبراهيم، ديلة (١٩٨٦) قصص الحلائف، مجلة فصول، العدد ٦، العدد (٤)، ص ٩٥-٩٩
- ابن الأثير أبو الحسن، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ، ط ١، ١٠ ج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧
- أحمد، رمضان أحمد (١٩٨٠) الرحلة والرحالة المسلمون جدة دار البيان العربية
- ابن الأثير، أبو الوليد الأمير إسماعيل بن يوسف بن محمد، (ت ٨٠٧هـ) حثير فرائد البيان في نظم فنون الرمان، (تحقيق محمد رضوان انداية)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧
- الإبريسي أبو عبد الله محمد بن إدريس، (ت ٥٦٠هـ) مرآة المشتاق في احتراق الأفق صفة الغريب ونوش السوفن وعصر والفندلس، مطبعة بريل، لندن، ١٩٦٨
- --- مرآة السقاوي للغريب العربي، الجزائر، ١٩٨٣
- أدهم، علي (١٩٠) لنادي يشفى الإنسان القاهرة مكتبة نهضة مصر
- أرسلان، شكيب (١٩٣٦) الحال الساسية في الأخبار والآثار الأندلسية ط ١، ٣ ج، فاس الكتبة التجارية الكبرى، مصر انطبعة الرحمانية.
- إسماعيل، عز الدين. (١٩٧٦). الأدب وقصوده. ط ١، القاهرة. دار الفكر
- الأصمهاني، أبو العرج علي بن الحسن، (٣٥٦هـ) الاعاني، ٢٤ ج، دار الفكر
- أمين، أحمد (١٩٥٥) ظهر الإسلام ٣ ج، القاهرة. مكتبة نهضة لمصرية
- أمين، حسين. (٩٨٥) العلاقات الثقافية بين الأسلمن ويعتاد في العصر العباسي، الماهل، السنة ١٢، العدد (٣٣)
- الأصباري، عبد القدوس (١٩٧٧) مع من جبر في رحلته، القاهرة المطبعة العربية الحديثة
- --- (١٩٨٠). موسوعة تاريخ مدينة جدة، ط ٢، جدة

- الأوسى، حكمة علي (١٩٧١) يحيى بن الحكم العرقل سفير اندلس وشاعره الواقعي، مجلة الجمع العلمي العربي، مج ٢١، ص ١٩٦-٢١١
- الأوسى، ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري، (ت ٧٠٣هـ) النديم والنكتة لكتابي للوصول والصلف، ج ٦، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥
- أوليري، ديلاس (١٩٦١) الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ترجمه تمام حسان، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة
- باحتي، ميخائيل (١٩٨٧) الخطاب الروثني، ترجمه محمد برادة، القاهرة: دار الفكر
- الباش، حسن، رئيسي، محمد توفيق (١٩٨٠) للعقائد الشعبية في التراث العربي، دمشق: دار الحين
- بالأشهب، محمد (١٩٩٨) ألقلي المكاشف: شروطه وحدوده، ابن عربي نموذجاً، مجلة علامات، العدد (١٠)، مكاس، المغرب
- بالثيا، أنخ جنتال (١٩٥٥) تاريخ الفكر الاندلسي، نقله عن الأسبانية، حسن مؤسس، ط ١، القاهرة: مكتبة الهمزة المصرية
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، (ت ٢٥٦هـ) صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٤ مج، بدون ذكر سنة الطبع
- بدوي، أمة (بدون ذكر السنة) تتبع رحلات الاندلسيين والمغاربة المطبوعة والمخطوطة من القرن الثالث هجري وحتى القرن التاسع هجري، بجامعة الأردنية الأردن، بحث لم يشر بعد
- بدوي، عبد الرحمن (١٩٦٢) الموت والعبقريّة ط ٢، القاهرة: مكة النهضة المصرية
- — (١٩٦٢)، مؤلفات ابن خلدون، القاهرة: دار المعارف
- ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنفرى، (ت ٥٤٢هـ). الذخيرة في معاني أهل الجبرق، ج ٤، ١١ مج، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩
- ابن بشكول، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ) قصّة، ج ٣، (تحقيق إبراهيم الأبياري)، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد اللواتي الطنجي، ب ٧٧٩هـ) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار ج ٢، اعلى به وراجعته، درويش الخويدي، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠٤
- البغدادي، إسماعيل بن محمد أمين بن سليم البنياني، (ت ١٣٣٩هـ) البصاح المكنون في الدمل على كشف العنود عن اسامي الكتب والعنود، ج ٢، عي بتصحيحه وطبعه محمد شرف الدين، وكالة المعارف الخليفة، استانبول، ١٩٤١



- البغدادي، عبد القادر بن عمر، (ب ١٠٩٣هـ) حروحة الادب ولب لباب لسان العرب، ٤ ج عني
شركة المطبعة السلعية ومكتبتها، إدارة الطاعة الميرية، القاهرة، ١٩٢٨
- البكر، خالد عبد انكريم حمود، (٢٠٠٢) الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية من القرن الثاني
حتى نهاية القرن السادس الهجري، ط ١، الرياض مكتبة الملك فهد الوطنية
- البكري، أبو عبيد بن عبد العزيز، (ت ٤٨٧هـ) جغرافية المسلمين وأوروبا من كتاب المسالك
وللممالك (تخفيف عبد الرحمن عبي الحجي)، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٨
- — (١٩٧٧) صفة جزيرة العرب من كتاب المسالك وللممالك، ط ١، (تخفيف عبد الله صميم)، ذات
السلال
- بلاثيوس، أسين (١٩٧٩) ابن عربي: حياته ومذهبه، ترجمه عن الإسباني، عبد الرحمن بدوي،
الكويت، بيروت، وكالة المطبوعات، دار القلم
- البهوي، خالد بن عيسى، (ت ٧٦٥هـ) تاج المشرق في تغطية علماء المشرق، ٢ ج (تخفيف الحسن
السائح)، مطبعة فصالة، المحمدية، المغرب، د ت، بدون ذكر السنة
- بنيامين التطيلي، ابن يونس البازي الأندلسي، (ب ٥٦٩هـ) رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عذرا
حداد بعد د، ١٩٤٥
- — (٢٠٠٢) رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عذرا حداد، دراسة عبد الرحمن عبد الله الشيب،
ط ١، النجم التتالي، أبو ظبي
- البهسي، عميف (١٩٩٩) العمارة المربية، الرباط المجلس القومي للثقافة العربية
- بوتشيش، إبراهيم القادري (٢٠٠٤) 'محفلات في ترويض التسامح بين الأديان بالأندلس' مجلة دراسات
فلسفية، العدد (٣١)، ص ٧٣ - ٩٢
- بوروية، رشيد، (١٩٨٢) ابن تومرت، ترجمة عبد الحميد حاجيات، الخواثر ديوان المطبوعات
الجامعية
- البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي، (ت ١٠٤٨هـ) الآثار الباقية عن القرون الخالية،
ط ليدرج، مكتبة المتنبي، بغداد، ١٩٣٠.
- التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، (ت ٧١٨هـ) رحلة التجاني، قدمها حسن حسني
عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٨١
- التحجبي القاسم بن يوسف السبي، (ت ٧٣٠هـ) مستفاد الرحلة والاعترا ب (تخفيف عبد الحفيظ
منصور)، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧٥

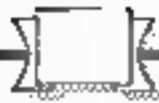
- الشبكتي، أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أميت عرف بابا، (ت ١٠٣٦هـ) فيل الأبنواج بقطرير النيداج، فاس د.ن، ١٨٩٩
- ابن جبر، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناشي الأندلسي، (ت ٦١٤هـ) رحلة ابن جبر السمتة شجرة بالأخضر عن تعاقت السفر، دار صادر، بيروت، ١٩٥٩
- حرار، صلاح (٢٠١٤) عمان الوصل، دراسات في الصاعن الحصارى والثقافى فى الأسنلى، ط١، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان دار الفارمن للنشر والتوزيع
- — (١٩٧٩) "العلاقات بين فلسطين والأندلس" مجلة الفيصل، السنة الثالثة، العدد (٢٩)، ص ١١٥-١١٦
- — (١٩٩٧) الفحص فى رحلات الأندلسيين، نفوذ القنص، ٥٠٠ عام من الحقوق العربية، الدوا، الثانية، جامعة آل البيت، عمان، بحث لم يشر بعد
- الجبردي، عباس (١٩٧٧) الرحلات كمصدر للتاريخ مجلة الفيصل، السنة الأولى، العدد (٦) ص ٥٨-٦٢
- الجبرماني، علي (١٩٦٧) حبى دهرة الأس فى بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط
- ابن الحاج العرماطى، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الميرى، (ت ٧٧٤هـ) فيمن النبى وفناسة فنداح الأدب فى الحركة المحيدة إلى قسطنطينة والرب، دراسة محمد بن شقرون، الرباط، ١٩٨٤
- ابن حجر العسقلانى، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، (ت ٨٥٢هـ) فدر الكامة فى لعيان المانة الثامنة، ط١، ج١، ضبطه وصححه الشيخ عبد النور محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧
- الحجى، عبد الرحمن عني (١٩٩٤) التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حنى سقوط شرباطة (٩٢هـ-٨٩٧هـ)، ط١، دمشق دار الفلم-
- ابن حرم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، (ت ٤٥٦هـ) طوق الحمامة فى الألفة والألاف، (تحقيق حسن كامل الصيرى، مكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٩، وتحقيق فاروق سعد، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٠
- حسن، ركنى محمد (١٩٤٥) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، القاهرة دار المعارف
- حسن، محمد عبد العني (١٩٥٥) التراجم والسور، القاهرة دار المعارف
- — (١٩٦٩) ابن سعيد العربى، مؤرخ، الرحالة، الأديب، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية
- حسين، حسنى عمود (١٩٧٦) أدب الرحلة عند العرب، القاهرة هيئة لمصرية العامة للكتاب



- حداد، جمال (١٩٦٩) 'تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس' تأليف حين مؤسس، مجلة النجدة، العدد (١٤٥)، ص ١٢-٢٧.
- هودق، ألفث (١٩٨١). نظريات وقيم الجمال المعماري، الإسكندرية دار المعارف.
- حبة، عبد الرحمن (١٩٦٩) اعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم دمشق
- الحمدي، أبو عبد الله محمد بن فزوح، (ت ٤٨٨هـ) حيدوه الضيفين في تاريخ علماء الأندلس، ط ٢، ج ٢، (تحقيق إبراهيم الأبياري)، دار الكتاب لمصري القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المعظم، (ت ٩٠٠هـ) الروص المعطار في حير الأقطار، (تحقيق إحسان عباس)، دار القلم للطباعة، بيروت، لبنان، ١٩٧٥
- — (١٩٣٧) صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من الروص المعطار، ط ٢، (تحقيق إ. يحيى بروقسال)، مطبعة نخبة التأليف والترجمة، القاهرة
- الحرفي، أحمد (١٩٧٢) كتب ابن خلدون مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ٣٠ ص ٣١ ٥٥
- ابن خاقان، لفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشيلي، (ت ٥٢٩هـ) مطلع النصارى ومصرح التناس في ملجأ أهل الأندلس، ط ١، (تحقيق محمد علي شوابكة)، ط ١، دار عمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣
- حصاك، شاهر (١٩٧١) ابن بطوطه ورحلاته الجغرافية الأندلسية، مطبعة الآداب.
- ابن الخطيب، إسحاق الدين الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، (ت ٧٧٦هـ) الإحاطة في أخبار غرناطة ٤ ج، (تحقيق محمد عبد الله عثمان)، دار المعارف، مصر، ١٩٥٥، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٤.
- — (١٩٥٦) تاريخ إسبانيا الإسلامية، أعمال الأعلام في من يبيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ط ٢، (تحقيق إ. يحيى بروقسال)، دار المكشوف، بيروت
- — (٢٠٠٣) حطيرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف ط ١، (تحقيق أحمد عتار العادي)، دار السويد للشر والتوزيع، أبو ظبي. دار المعارف للنشر والتوزيع، عمان.
- — (١٩٢٣) ديوان الصيف والجهام والفاصي والكم، (دراسة وتحقيق محمد الشريف فاهر)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر
- — (٢٠٠٤) الملحمة البدرية في القولة للمصرية، ط ١، (تحقيق محمد ريتهم محمد عزب)، الدار الشامية للنشر، القاهرة



- — (١٩٥٨) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد العرب والأندلس، مجموعته من رسائله، (نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي)، الإسكندرية
- — (١٩٥٠) مفاهيم الجواب في علالة الاعترايب، آح، نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار الكتاب العربي، القاهرة
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحصري، (ت ٨١٨هـ) تاريخ ابن خلدون، التمهيد، الجزء الأول، المطبوع في دار الغرب والنجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط ١، حديدة سفحة، ٧ ج، تملين تركي مرغان المصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٩
- — (٢٠١٣) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ط ١، علق عليه محمد بن تلويت الطنجي، وحررها وقدمها، بوري الجراح، دار السويدي للنشر، أبو ظبي، دار العارص، عمان، الأردن.
- — (١٩٧٨). مقدمة ابن خلدون، ط ٤، ٤ ج، دار الياز للنشر والتوزيع، المروة، مكة المكرمة
- ابن خلدون، أبو لحاس شمس الدين أحمد بن محمد، (ت ٦٨١هـ) وهيئ التعميان وفيه، ابنه الثمان، ٨ ج، (تحقيق حسان عباس)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢
- أبو الخير، محمود (١٩٨٠) الترجمة النقدية في الأدب العربي، مجلة الفكر الأدبي، العدد (٤٩) - ص ٦-١٣، عمان، الأردن.
- دار صادر (دون ذكر سنة الطبع) ديوان الاعشى، بيروت، لبنان
- دار المشرق (١٩٨٠) النجد في لغة والأعلام، ط ٤٤، بيروت
- ابن دحية، أبو الخطاب محمد الدين عمر بن الحسن بن علي، (ت ٦٣٣هـ) المطرب في شعره من الغرب، (تحقيق إبراهيم الأبياري، وحامد عبد المجيد، وأحمد بدوي)، راجعه طه حسين، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٤.
- اللماطي، محمود مصطفى (١٩٤١) رحلة ابن بطوطة، وما تسطوي عليه من نبات وشجر، مجلة الاقتصاد، ج ١، ص ٩٨، ص ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧، ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١، ١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨، ١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٣، ١٣٢٤، ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣٠، ١٣٣١، ١٣٣٢، ١٣٣٣، ١٣٣٤، ١٣٣٥، ١٣٣٦، ١٣٣٧، ١٣٣٨، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ١٣٤١، ١٣٤٢، ١٣٤٣، ١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٤٩، ١٣٥٠، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٦٠، ١٣٦١، ١٣٦٢، ١٣٦٣، ١٣٦٤، ١٣٦٥، ١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧٠، ١٣٧١، ١٣٧٢، ١٣٧٣، ١٣٧٤، ١٣٧٥، ١٣٧٦، ١٣٧٧، ١٣٧٨، ١٣٧٩، ١٣٨٠، ١٣٨١، ١٣٨٢، ١٣٨٣، ١٣٨٤، ١٣٨٥، ١٣٨٦، ١٣٨٧، ١٣٨٨، ١٣٨٩، ١٣٩٠، ١٣٩١، ١٣٩٢، ١٣٩٣، ١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦، ١٣٩٧، ١٣٩٨، ١٣٩٩، ١٤٠٠، ١٤٠١، ١٤٠٢، ١٤٠٣، ١٤٠٤، ١٤٠٥، ١٤٠٦، ١٤٠٧، ١



- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨هـ) سير أعلام النبلاء، ط ٧، ٢٣ ج، تحقيق شعيب الأرنؤوط، صالح السمر، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦
- واعي بيل (١٩٧٨) معالم الذهب العالي المعاصر، القاهرة دار المعارف
- ابن رشيد السبي، أبو عبد الله محمد بن عمر الفهري، (ت ٧٢١هـ) صل، الصبيه بما جمع يصول الغيبة في الوجهة الوجيبة إل الحرمين مكة وطيبة. (تحقيق الحبيب بن الخوجا)، ج ١، ٣، ٥، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٢، وط ١، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان ١٩٨٨
- الرعي، أبو الحسن علي بن محمد بن عبي الرعي، لإشيلي، يُعرف بابن الفخار، (ت ٦٦٦هـ) برنامج شيوخ ابن الفخار الرعي، (تحقيق إبراهيم شيوخ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٢
- رومية، وهب (١٩٧٩) شرح في القصيدة العاطفية، ط ٢، بيروت مؤسسة الرسالة
- ابن أبي ريع العباسي، علي (١٩٧٢) القيس الصرب بروص القوط في أخبار ملوك العرب وتاريخ مفيدة فني دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط
- ____ (١٩٧٢) الأخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والورقة، الرباط
- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (١٩٦٦) تاريخ الدولتين الموحدة والعنصرية، ط ٢، (تحقيق محمد ماضور)، المكتبة العتيقة، تونس
- الرخسي، حيدر الدين (١٩٨٤) اعلامه قاموس مراجع لقنهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ٨ ج، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان
- الزوردي، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين شرح المملكات السبع سوريا، حلب دار الكتاب العربي
- ريانة، مولا (١٩٦٢) الجغرافيه والرحلات عند العرب، بيروت مكتبة المدرسة، ودار الكتاب الثاني
- ____ (١٩٦٦) دمشق في عصر المماليك، مكتبة لبنان، بيروت
- زورني، لطيف (١٩٩٦) السيميولوجيا وأدب الرحلات "عالم الفكر، المجلد ٢٤، العدد (٣) ص ٢٥١-٢٧٣
- سالم، السيد عبد العزيز (١٩٨١) التاريخ والمؤرخون العرب، بيروت دار النهضة العربية
- ____ (١٩٨٦) المساجد والقصور بالاندلس، الإسكندرية مؤسسة شباب الجامعة

- السامرائي إبراهيم، (١١٠٩) *فن السيرة الذاتية عرفه العرب قبل غيرهم*، مجلة الميصل، العدد (١٤٢) ص ٢٣-٣٥
- البكي، تاج الدين، أبو نصر عبد الوهاب بن علي، (ت ٧٧١هـ) طبقات الشافعية الكبرى، ط ١، ج ٩، إدارة محمد عبد اللطيف الخطيب، مطبعة الحسينية المصرية، د ١٩٠٦، ص ١٩٠
- السخاوي، تميم الدين محمد بن عبد الرحمن، (ت ٩٠٢هـ) *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع*، ١٢ ج، مكتبة القدس القاهرة، ١٣٥٥. ومكتبة الحياة، بيروت، لبنان، بدون ذكر سنة الطبع
- سعد الله، أبو الماسم (١٩٩٠) *رحلة أبي عصيدة البجاني من بجاية إلى التجار* مجلة العرب، الأعداد (٩، ١٠)، ص ٦٢٢-٦٢٧
- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى، (ت ٦٨٥هـ) *الغريب في حلل العرب*، القسم الخاص بالانفلس، ط ٣، ج ٢، (تحقيق شوقي ضيف)، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٥٣ ١٩٥٥
- — *العرب في حلل العرب*، القسم الخاص بمصر، ج ١، تحقيق زكي محمد حسن وشوقي ضيف، وسيدة إسماعيل، القاهرة، ١٩٥٣
- السلاوي، شهاب الدين أحمد بن خالد الناصري، (ت ٣١٥هـ) *الاستقصا لأخبار دول المغرب*، القصص، ٨ ج، أشرف على النشر محمد حجي، وإبراهيم بو طالب، وأحمد اتوفيق، مشورات وراثة الغناه والاتصال، الدار البيضاء، ٢٠٠١
- سليم، ساكر مصطفى (١٩٨١) *العوس النبويون*، ط ١، جامعة الكويت.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الشافعي، (ت ٩١١هـ) *بقية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة*، ط ٢ ج ٢، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٩
- الشاوي، عبد القادر (٢٠٠) *الكتابة والوجود: السيرة الذاتية في الغرب، بيروت: إفريقيا للشرق*
- ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع، (ت ٦٣٦هـ) *النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيه*، تحقيق محمد درويش، شركة طبع الكتب العرب، مصر، ١٩٧٩
- شرف عبد العزيز (١٩٩٢) *لبن السيرة الذاتية*، بيروت: مكتبة لادن
- شعبان، أنعام عبد الله، (١٩٩٠) *السيرة الذاتية في الأدب العراقي الحديث منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى بداية الحرب العالمية الثانية* رسائل ماجستير غير منشورة، جامعة المستنصرية، العراق.
- الشكعة، مصطفى (١٩٧١) *الأدب الإسلامي موضوعاته ومناهجه*، بيروت: دار النهضة العربية
- شائق، علي (١٩٧٤) *النثر العربي في مادجه وتطوره المصري النهضة والحديث*، ط ٢، بيروت: دار القسم.



- شهر، عبد الحريز (١٩٩٥) التمايش بين الأدبيات في الاندلس من خلال مصومن شعرية اندلسية مجلة دراسات اندلسية، العدد (١٤) ص ٢٨-٤٦
- شبيحة، حمدة (١٩٩٤) بعض مظاهر النيسية في رحلة عبد الله بن الصباح الاندلسي، مجله دراسات قبطية، العدد (١٢): ص ٣٦-٤٤
- الصادقي، حسن (١٩٨٩) الوجود القرمي في المشرق من خلال كتب التراجم للشرقية مجلة للعلم، السنة ١٥، العدد (٣٨) ص ٢٩٢-٣١٦
- الصالح، عباس مصطفى (١٩٧٤) الصيد والطرد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، بيروت. المؤسسة لجامعة للدراسات والنشر.
- صحراوي، عبد السلام (١٩٨٧) امين الرحاني، الأديب الرحالة، رسالة ماجستير غير مشورة، جامعة دمشق، دمشق.
- الصعدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت ٧٦٤هـ) الوافي بالوفياء، ط ١، ٢٩ ج، (تحقيق أحمد الأرمالوط)، تركي مصطفى دار إحياء لثراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠
- الصكر، حاتم (١٩٩٤). كتبة الهند، عمان دار الشروق
- الصهاحي، عبد الله بن بلقيس بن باديس، (ت ٤٨٢هـ) مذكرات الامير عبد الله احمد ملوك روري بقرمط، (تحقيق ومشر إ ليعي بروسال)، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٥
- الصباد، محمد محمود (١٩٨٥) رحلة ابن بطوطه، سومة، بوس دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع
- الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، (ت ٥٩٩هـ) بعية اللتمن في تدريخ رجال لفل الاندلس ط ١، ٢ ج، (تحقيق لبراهيم الأبياري)، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩
- صف، شوقي (١٩٥٦) الترجمة الشخصية، القاهرة دار المعارف
- — (١٩٦٥) زمن ومنهجه في فنن العربي، ط ٣، القاهرة دار المعارف
- صف، شوقي، ولجنة من ادباء الأقطار لعرية (١٩٥٦) الرحلات القاهرة دار المعارف
- طعان، صهي (١٩٩٤) زمن الحق، مجلة المعرفة، سنة ٣٣، العدد (٣٧) ص ١٢٧-١٤٧
- العيادي، أحمد مختار (١٩٧٩) الإسلام في زمن الاندلس، مجلة عالم الفكر، مج ١، العدد (٢)- ص ٥٩-١١٠
- — (١٩٧١) التاريخ العباسي والاندلسي، بيروت دار النهضة العربية



- — (١٩٨٠) من مظاهر الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية مجلة عالم الفكر، مج ١، العدد (١) ص ١٤٢-١٥٦
- عباس، إحسان. (١٩٨٥) تاريخ الأدب الأنثولوجي، عصر سيادة هرطقة ط ٧، بيروت دار الثقافة
- — (١٩٦٢) تاريخ الأدب الأنثولوجي، عصر الطوائف والبريطانيين، ط ١، بيروت دار الثقافة
- — (١٩٦٨) رحلة أبي بكر بن العربي، كما صورها قانون التأويل، مجلة البحوث، الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة ٢١، العدد (١) ص ٥٩-٩٥
- — (١٩٥٦). من سفر، بيروت، دار بيروت
- عبد الدائم، يحيى إبراهيم (١٩٧٥) الترجمة اللغوية في الأدب العربي الحديث، القاهرة مكتبة النهضة المصرية
- العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد لعبدري يحيى، (ت ٧٠١هـ) الرحلة للعربي، (تحقيق محمد لعنسي)، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، الرباط، ١٩٦٨
- عبد المهدي، عبد خليل (١٩٨٠). الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في القرنين اليعقوبي والمملوكي، ط ١، عمان مكتبة الأنثولوجي.
- عبد التور، جبر (١٩٧٩) المعجم الأنثولوجي، لبنان، بيروت دار الملايين
- عبد الوهاب، حسن حسني (١٩٦٦) شعيرات التوفيق، ط ٢، مطبعة، تونس مكتبة المنار
- العبدري، أحمد بن عمر بن أنس (ت ٤٧٨هـ) (١٩٦٥) قرصيع الأخبار، وتنويع الآثار والنسب، في عرش البلدان والسمالك إلى جميع الممالك، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد
- ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري، (ت ٥٤٣هـ) أحكام القرآن، ج ٤، (تحقيق علي محمد الجاوي)، دار الجليل، بيروت، ١٩٨٧
- — قانون التأويل، ط ٢، (تحقيق محمد السليماني)، دار الحرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٠
- ابن عربي محيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن عبد الله (ت ٥٦١هـ) كتب الإسراء إلى مقام الأسرى، وكتاب الإسفار عن نتائج الإسفار، ضمن رسائل ابن عربي، ج ٢، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٤٨.
- — الفتوحات لكيفية، ج ٤، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، دون ذكر سنة الطبع
- ابن عساكر، أبو القاسم عيسى بن الحسن بن هبة الله، (ت ٥٧١هـ) ولاية دمشق في العهد السلجوقي، ط ٣، (تحقيق صلاح الدين المنجد)، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨١
- العسلي، كاسم جميل (١٩٩٢) بيت القصر في كتب رحلات عبد العرب والمسلمين، عمان المكتبة الوطنية



- أبو عبيدة البجائي، أحد بن أحد (ت ٨٦٥هـ) رسالة الغريب إلى الحبيب ط ١، عرقها وعسى عليها، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣
- العيني، محي الدين الحنبلي، رت ٩٢٧هـ) النص الطويل بتأليف القلم والخليل ط ١، ٢، ج، (تمتين محمد عودة لكاتبته) إشراف محمود علي عملا الله، مكتبة دنديس، ١٩٩٨
- العماد الأصمهاشي، محمد بن صفي الدين، (ت ٥٩٧هـ) الصبح المضي في الصبح القلبي، (محقق محمد محمود صبح)، الدار القومية للطباعة والنشر
- ابن العماد الحنبلي، أبو لئلاح عبد الحفي، (ت ١٠٨٩) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ ج، القاهرة، ١٩٣٦.
- عمان، محمد عبد الله (١٩٨٨) دولة الإسلام في الاندلس، ط ٣، القاهرة مكتبة الخانجي
- العيد، عيسى (١٩٩٠) تصنيف العمود الرومي، ط ١، بيروت دار الفارابي
- — (١٩٩٧) السيرة الذاتية الرونية، مجلة فصول، مج ١٥، العدد ٤١ ص ٢٠ ٢٤
- الغرناطي، أبو حامد محمد، (٥٦٥هـ) (٣- ٢٠) رحلة تحفة الأديب ونجدة الإعجاب، ط ١، حررها، قاسم وهب، دار السويدني للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ودار الفارابي للنشر، عمان
- (١٩٩١) المغرب عن بعض عجائب المغرب، (تحقيق إيمان بيجارنو)، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد.
- غريب، جورج. (بدون ذكر سنة الطبع). ليل الرحلة قاريخه وعلامه، بيروت، دار الثقافة
- العراقي، أبو حامد محمد بن محمد (ب ٥٠٥هـ) تهذيب أحياء علوم الدين، (تحقيق عبد السلام الحراس)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨
- ابن القزويني، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف، (ت ٤٠٣هـ) تزيين علماء الاندلس، ط ١، (تحقيق روحه عبد الرحمن السويدي)، دار الكتب العلمية
- الفشتالي، أحمد بن إبراهيم بن يحيى الأردني الفشتالي (١٩٧٤) نعمة العرب ببلاد العرب من له من الإحسان في كرامات الشيطان مرون، (تحقيق مرشد ودي لاجرانغا)، منشورات المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد
- فهم، حسن (١٩٨٧) آثار الشعبي في أدب الرحلات مجلة المانوراث الشعبية، السنة الثانية، العدد (٥) ص ٧١-٨٣
- — (١٩٩٧). رحلة والرحالة، ط ١، دبي: ندوة الثقافة والعلوم
- هوري، حسين (١٩٤٣) حديث السندباد القديم، القاهرة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة



- قاسم سيرا (١٩٨٥) بناء لرواية ط١، بيروت- دار التنوير
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، (ت ٢٧٦هـ) الفهرست والمصنف، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٢
- ابن القطان، أبو الحسن علي، (ت ٦٢٨هـ) نظم الحجام، (تحقيق محمود علي مكّي)، المركز الجامعي لبحث علمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، بدون ذكر سنة الطبع
- المصايد، أبو الحسن علي، (ت ٨٩١هـ) رحلة القضاة، (تحقق محمد أبو الأخصاء)، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٨
- الشيباوي، سهير (١٩٦١) فن كتابة السيرة تاريخاً أدبياً مجلة العربي، العدد (٧) ص ٥٤-٥٨
- صديق، فؤاد (٢٠١٢) أدب الرحلة في التراث العربي، ط٢، القاهرة مكتبة الدار العربية للكتاب
- كاتيا بير (١٩٩٩) الفقه الفلسفي ترجمة عبد الواحد لؤي، في الجيوسي، سلمى الخضر، الخصار، العربية الإسلامية في الأندلس، ط٢، ج٢، ج١ ص ١٦٦-١٧١ بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية
- ابن الكتاني، أبو عبد الله محمد، (ت ٤٢هـ) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، (تحقيق إسماعيل عيسى)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦.
- الكتاني عبد الحفيظ بن عبد الكبير فهرس الفهارس والاشبات ومعجم المصاحف والنشيدات، ط٢، ج٢، باحتفاء إسماعيل عباس، دار العرب الإسلامي، ١٩٨٢
- الكتيبي، محمد بن شاذلي بن أحمد بن عبد الرحمن، (ت ٧٦١هـ) فوات الوفيات، ج٢، (حققة)، صبعة وعلق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة، مصر، ١٩٥١، (و تحقيق الشيخ علي محمد معروض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
- كراتشكوفسكي، أغناطيوس يولييانوس (١٩٨٧) تاريخ الأدب العبراني العربي، نقله عن الروسية، صلاح الدين عثمان هاتم، ط٢، بيروت دار العرب الإسلامي
- الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد العمود الأسيلي الأندلسي من أعلام القرن السادس احكام مسعة الكلام، (تحقيق محمد رضوان لداية)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦
- لوجون، فليب (١٩٩٤) السيرة النقية، المبتلى والتاريخ الندي، ترجمة عمر حلي، بيروت. المركز الثقافي العربي
- (ليون الإفريقي) الحسن بن محمد الوران القاسي (١٩٨٣) وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي، ومحمد الأخضر، ط٢، ج٢ دار العرب الإسلامي بيروت، والشركة المغربية للنشر بين شملين- الرباط



- ابن عاجة، أبو عبد الله بن يزيد القروي، (ت ٢٧٣هـ) سدر بن عاجة، حققه بشار عواد معروف، دار الخيل، بيروت، ١٩٩٨
- مائل الله، علي محسن عيسى (١٩٧٨) أدب الرحلات عند العرب في المشرق، نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري، بغداد: مطبعة الإرشاد
- المبحوث شكري (١٩٩٢) سيرة العائب، سيرة الآتي، السيرة الذاتية في كتاب الأيام بطله حسين تونس دار الجنوب.
- محمد محمود سالم (١٩٨٢) للنسخ النبوية في نهاية العصر المملوكي، رسالة دكتوراه غير مشورة، جامعة دمشق، دمشق.
- المراكشي، عبد الوحد محيي الدين بن علي التميمي، أبو محمد، (ت ٦٤٧هـ). العجب في تلخيص أخبار المغرب، ط ٣، (محقق محمد بن سعيد العريان)، القاهرة، ١٩٤٩
- مرناس، عبد المثلث (١٩٨٢) الجدل الثقافي بين العرب والمشرق، ط ١ دار الحدائق
- المروقي، سمير، شاكرجيل (١٩٨٦) مدخل إلى نظرية النقص، بغداد، العراق دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية
- المدي، عبد السلام (١٩٨٢) النقد والحكمة، بيروت دار الطليعة
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، (ت ٢٤٦هـ) مروج الذهب ومعادن الجواهر، ط ٢، ٩، ح، مع الترجمة لمربية بإعتناء الأستاذين ناريه دمينار وباريه دكورتل، مؤسسه مطبوعاتي إسماعيليان، قرآن ناصر خسرو - ياسر مجيدي، طهران، إيران، ١٩٧٠.
- المسعودي، هادي (١٩٨٩) ألوانه والاسطوري والخرافي في نخبة أبي حامد القرماضي، مجلة الحياة الثقافية، العدد (٥٤) إدارة الآداب، وزارة الثقافة والإعلام بالجمهورية التونسية
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، (ت ٢٦١هـ). صحيح مسلم بشرح النووي، ط ١٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- — الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، ٤ مج، دار المعارف، بيروت. دون ذكر سنة الطبع
- مصطفى، أحمد أمين (١٩٩٢) الحياة في القرن الثامن الهجري كما تصورها رحلة ابن بطوطة، القاهرة مطبعة السعادة
- مطبوع، أحمد (١٩٩٩) الملامح الاقتصادية في رحلة ابن بطوطة بغداد دار الشؤون الثقافية
- معروف، ناجي (١٩٧٣) علماء النظميات ومسلم المشرق الإسلامي، ط ١، بغداد مطبعة الإرشاد
- مقابلة، جمال (١٩٩٦) الأسراء والمعراج ونجياتها في النثر العربي، رسالة دكتوراه غير مشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن

- المقدسي أنيس (١٩٦٣) القرون الذهبية وعلامها في النهضة العربية الحديثة، بيروت دار لكتاب العربي
- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، (٢٨٠هـ) احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (تحقيق غاري طليمات)، ورواة الثقافة والإرشاد لقومي، دمشق، ١٩٨٠
- المقرئ، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، (ت ٤١٠هـ) زهار الرياض في اخبار عياص، هج، صدفق إحياء التراث للإسلامي، الرباط، ١٩٧٨
- مصحح الطوب من عصر الأندلس الرحلي، ط ١، ٨ج، (تحقيق إحسان عباس) دار صادر، بيروت، ١٩٦٨
- المقريري، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد المادر، (ت ٨٤٥هـ) لواعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والدين وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبأهلها، ٣ج، مطبعة النيل، دار التحرير، القاهرة، مصر، ١٣٢٤هـ
- مكتبة الملك عبد العزيز العامة (١٩٩٦) السطر العلمي لسدوة الأندلس قرون من التقلبات والتطورات ط ١، القسم الثاني الموريسكيون الكتابات الإستراتيجية للمعمارية والرحلات، الرياض
- الكماشي، محمد بن عثمان «الكسير في فتاك الصغير» حققه وعلم عليه، محمد الكماشي، مسووبات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٥.
- مكّي، الطاهر أحمد (١٩٩٣) دراسات من بين حرم وكتابه طوق العمامة ط ١، القاهرة: دار المعارف
- مكّي، محمود علي (بدون ذكر سنة الطبع) مفرد العربية، القاهرة دار الجانب العربي
- المنجد، صلاح الدين (١٩٦٣) الشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، ط ١، بيروت دار الكتاب الجديد
- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (ت ٧١١هـ) لسان العرب، ١٥ج، دار صادر، بيروت
- المنوي، محمد (١٩٧٧) القبيات الصكرية في العرب العربي، فاس، المغرب مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية
- مهران، رشيد، (١٩٧٩) منه حسين بين السيرة والترجمة النقدية ط ١، الإسكندرية لحة المصرية العامة
- (مؤلف مراكشي مجهول من لفرق السادس الهجري) الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تعليق سعد رعلول عبد الحملك دار الشؤون الثقافية العامة، آباء عربية، بغداد، العراق، ١٩٨٥
- (مؤلف من القرن الثامن الهجري) «الطلح النورية» (تحقيق سهيل ركاز، وعبد القادر زمامة)، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩



- مؤنس، حسين. (١٩٦٧). تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط ١، مدريد: معهد الدراسات الإسلامية.
- —. (١٩٥٩). فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى الدولة الأموية، ط ١، القاهرة: الشركة العربية.
- —. (بدون ذكر سنة الطبع). معالم تاريخ الغرب والأندلس، القاهرة: دار ومطابع المستقبل.
- موافي، عثمان. (١٩٧٣). لون من لعب الرحلات، الإسكندرية.
- موافي، ناصر عبد الرازق. (١٩٩٥). الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ط ١، جامعة القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية.
- مورينو، مانويل جوميث. (١٩١٠). الفن الإسلامي ترجمة لطفي عبد البديع، القاهرة: الدار المصرية.
- موير، إدوين. (دون ذكر سنة الطبع). بناء الرواية، ترجمة إبراهيم الصيرفي، ومراجعة عبد القادر القط: دار الجبل والدار المصرية للتأليف.
- الميداني، أبو الفضل، أحمد بن محمد النياپوري، (ت ٥١٨ هـ). مجمع الأمثال، ٢ ج، ضبط وتعليق سيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٢.
- النابغة النيباني، زياد بن معاوية بن ضباب. ديوان النابغة، جمعه وشرحه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ١٩٧٦.
- نصار، حسين. (١٩٩١). لعب الرحلات، ط ١، الشركة المصرية العالمية للنشر وتوزيع: مكتبة لبنان.
- نواب، عواطف محمد يوسف. (١٩٩٦). الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.
- نور الدين، صدوق. (٢٠٠٠). سير المفكرين الذاتية: زكي نجيب، لويس عوض، إحسان عباس، محمد عابد الجابري، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- النوي، محيي الدين أبو زكريا، يحيى بن شرف، (ت ٦٧٦ هـ). تهذيب الأسماء واللغات، ٢ ج، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ١٩٠٠.
- الخوري، شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب، (٧٣٣ هـ). نهاية العرب في فنون اللعب، (تحقيق حسين نصار)، يصدرها المجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣.
- هوتكة، زيفريد. (٢٠٠٢). ضمن العرب تسطع على الغرب، ط ١٠، نقله عن الألمانية فاروق بيشرون، وكمال دسوقي، راجعه، مارون عيسى الخوري، بيروت: دار صادر، ودار الأفاق الجديدة.
- وهبة، مجدي، المهندس، كامل. (١٩٨٤). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط ٢، بيروت: مكتبة لبنان، لبنان.



- باقرت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ). معجم البلدان، ٥ ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٧٩.
- يقطين، سعيد. (١٩٨٨). أصيغ الخطاب الروائي وأبعانها النصية. مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، العدد (٤٨-٤٩): ص ٣٧-٤٤.

١. باللغة الإنجليزية:

- Ianrich, Aronetton, (1991), Basic Structuralism and signs of Alienation in the Rihta of Ibn Jubayr, Journal of Arabic Literature, NO. xxll. 21-34.
- International Copyright Union (1974), The New Encyclopedia Britannica. USA. Vol. II.
- Nicholson, R.A, (1997), A Literary History of the Arabs. India: S. Sajed.
- Watt, W.m. (1967). A History of Islamic Spain. Islamic Surveys, Edinbrugh: Ediaburgh University.



ANDALUSIAN AND MORROCAN LITERATURE OF TRAVELS UNTIL THE END OF THE NINTH CENTURY OF HIJRA

This study follows up the Andalusian and Morrocan Travels until the end of the Ninth century of Hijra. It follows the cultural and epistemic contexts of these travels. It also shows the travels role in the cultural interaction, their relations with the other literary forms and decide their artistic features which strengthen them.

This study includes an introduction and four chapters:

The Introduction included the definition of the travel, its establishment, motives and importance. Then it presented the most famous travelers and their travels and the role these travels play in the Arabic culture.

The first chapter presented the cultural, epistemic, religious and social contexts included in the travels. It showed the picture of women and men in different societies that travelers visited.

The second chapter discussed the travels and their cultural interaction. It showed the factors of that interaction and forms of coordination and exchange among different races and denominations.

The third chapter presented the relationship between the travels and the forms of writing a C.V, diaries, memoris and confessions.

The fourth chapter was concerned with studing the artistic structure, the methodes that travelers used to describe their views and express their feelings and studying the narrative structure of these travels.

Some of the most important results of this study were:

- The main purpose of Andalusian and Morrocan travelers' travel was for, pilgrimage, visiting holistic places and asking for knowledge. Then they became famous because of their knowledge and travels, so they became qualified for holding religious and scientific positions when they came back. They were given the chance to work in teaching, in the judiciary or in writing for some Morrocan and Andalusian princes.
- The travels observed the variety of civilized land marks in different aspects of life in the countries that the travelers went to. The travels reflected clear picture of nations' cases i.e. Their food, colthes, physiological and psychological features, customs and traditions, imports, exports and architecture arts.

In that way the travels formed a comprehensive maps: Geographic, plant, animal and human.

What travelers reported of certain news, views or descriptions may pave the way for establishing sciences which search in the social studies.

- Some travels formed a literary art like embassy, travels, diaries, memoris, of C.V. These forms had the same essence of the travels which was describing travelling from one place to another.

The views that travelers saw, and what they reported such as news and stories.

- To Investigate belonging to oneself's culture, understand the other culture and to become opened to them.

The role of travels in the cultural interaction exchanging and coordinating among all cultures and human elements in the countries the travelers visited. These travels showed the extent of travelers' interaction with others in scientific meeting, debated and literary oppositions.

